نوع گزارش : نمایش متن
روز:١٣٨٧/١٢/٢٨ ساعت:١٣ : ١٢

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۵

الجزء السادس

سورة النّمل

مكية و آياتها ٩٣.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

[سورة النمل (٢٧): الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

طس تِلْكَ آيٰاتُ الْقُرْآنِ وَ كِتٰابٍ مُبِينٍ (١) هُدىً وَ بُشْرىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاٰةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكٰاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنّٰا لَهُمْ أَعْمٰالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤)

أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذٰابِ وَ هُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٥)

اللغة:

العمى للبصر، و العمه للبصيرة.

الإعراب:

تلك آيات مبتدأ و خبر. و هدى و بشرى مصدر في موضع الحال من القرآن أي هاديا و مبشرا، و العامل بالحال معنى الاشارة. و هم بالآخرة هم يوقنون الجملة حال، و هم الثانية تأكيد لهم الأولى.

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۶

المعنى:

(طس) تقدم الكلام عن مثله في أول سورة البقرة (تِلْكَ آيٰاتُ الْقُرْآنِ وَ كِتٰابٍ مُبِينٍ). تلك إشارة إلى هذه السورة، و القرآن و الكتاب بمعنى واحد، و الاختلاف بينهما بالوصف لا بالذات، و بالعرض لا بالجوهر، فهو قرآن لأنه مقروء، و هو كتاب لأنه مكتوب، و هو مبين لأنه واضح، و هو أيضا (هُدىً وَ بُشْرىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ) يرشد من طلب الهداية إلى الحق، و يبشره بالجنة ان آمن به و عمل (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاٰةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكٰاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ).

ليس الإيمان بشيء عند اللّه إلا إذا ظهرت آثاره و مقتضياته للعيان، و من أهمها الصلاة و الزكاة.

و بالاختصار ليس الإيمان الحق فكرة في الرأس، و لا كلاما يدور على اللسان، و إنما هو سلوك و عمل.

و تسأل: ان مقيمي الصلاة و مؤدي الزكاة هم الموقنون بالآخرة، فما هو الوجه لقوله تعالى: وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ؟.

الجواب: المراد أنهم يؤمنون بالآخرة إيمانا لا ريب فيه، تماما كمن قد رآها.

(إِنَّ الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنّٰا لَهُمْ أَعْمٰالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ). عميت قلوبهم عن أعمالهم و ما فيها من فساد و

ضلال، فاقترفوها دون خوف من حساب و عقاب.

و تسأل: أسند سبحانه هنا التزيين الى نفسه حيث قال: (زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ) و في الآية ٦٣ من سورة النحل أسند التزيين إلى الشيطان حيث قال: (فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ). فما هو وجه الجمع بين الآيتين؟.

الجواب: أسند التزيين في آية سورة النحل إلى الشيطان بالنظر إلى أنه هو الذي يغري و يوسوس، و أسنده اليه تعالى هنا بالنظر إلى أن سنّة اللّه و مشيئته قضت بأن يعمى عن سوء أعماله من لا يؤمن باليوم الآخر، تماما كما قضت مشيئته تعالى بالموت و الهلاك على من يسلك الطريق المؤدية اليه، و بتعبير ثان ان من لا يؤمن بالآخرة يفعل الحرام، و هو يرى انه حلال، لأن اللّه جعل عدم الايمان سببا للجهل بالحرام .. و إذا قال قائل: إن هذا شيء طبيعي قلنا في جوابه:

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٧

إن جميع الأشياء الطبيعية و الأسباب الكونية تنتهي اليه تعالى لأنه هو الذي أوجد الطبيعة و الكون.

(أُولئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذابِ وَ هُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ). خسروا الدنيا لأنهم فارقوها، و خسروا في الآخرة الثواب، و حلّ بهم العقاب، و ذلك هو الخسران المبين.

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٦ الى ١٤]

وَ إِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦) إِذْ قالَ مُوسى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ ناراً سَآتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جاءَها نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَ مَنْ حَوْلَها وَ سُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (٨) يا مُوسى إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠)

إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١) وَ أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آياتٍ إِلى فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤)

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٨

اللغة:

تلقى القرآن تعطاه. و آنست أبصرت. و شهاب شعلة. و قبس قطعة من نار. و تصطلون تستدفئون. و لم يعقّب لم يرجع. و مبصرة واضحة.

الإعراب:

إذ في محل نصب باذكر المحذوف. و أن بورك (ان) بمعنى أي مفسرة للنداء.

و سبحان منصوب على المصدر. و رب العالمين بدل من اللّه. و ضمير انه للشأن.

و انا اللّه مبتدأ و خبر، و الجملة خبر ان. و جملة تهتز حال من عصاك. و مدبرا حال من الضمير المستتر في ولّى. و بيضاء حال من يدك. و إلى فرعون متعلق بحال محذوف أي مرسلا إلى فرعون. و مبصرة حال من آياتنا. و ظلما مفعول من أجله لجحدوا. و كيف خبر كان، و عاقبة اسمها.

المعنى:

(وَ إِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ). الخطاب لرسول اللّه (ص)، و المعنى ان اللّه هو الذي أعطاك القرآن يا محمد، و ما هو من عندك كما يزعم الجاحدون (إِذْ قالَ مُوسى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ ناراً سَآتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ). تقدم مثله مع التفسير في الآية ١٠ من سورة طه.

(فَلَمَّا جاءَها نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَ مَنْ حَوْلَها وَ سُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعالَمِينَ).

المراد بالنار هنا النور، و من فيها قدرة اللّه، و من حولها موسى، و المعنى ان الذي رأيته يا موسى و ظننته نارا هو نور مبارك أوجده اللّه بقدرته، و أنت الذي تقف من حول هذا النور مبارك أيضا، لأني قد اخترتك لرسالتي تبشر و تنذر و تنشر البركة في الأرض .. هذا ما فهمناه من الآية بعد التتبع و التأمل، فإن كان هو المراد فذاك، و إلا فإنه صحيح في ذاته.

(يا مُوسى إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ). كشف سبحانه ان الذي يناديه و يخاطبه

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٩

هو رب العزة ليسمع و يطيع (وَ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ). المراد بالجان هنا الحية بدليل قوله تعالى: فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى- ٢٠ طه. و قوله: فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ- ١٠٦ الأعراف .. ان موسى إنسان، و من طبيعة الإنسان الخوف .. و من الذي لا يخاف إذا تحول القميص الذي على بدنه إلى حيوان مفترس، و الخاتم الذي في إصبعه الى عقرب، و العصا التي في يده الى ثعبان؟. خاف موسى لأنه إنسان يأكل الطعام و يمشي في الأسواق، فأمنه اللّه سبحانه، و قال له: أنت رسولي، و جميع رسلي في أمان و سلام.

(إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ). إن الأنبياء لا خوف عليهم لأنهم لا يظلمون أنفسهم و لا غيرهم، و انما الذي يجب أن يخاف هو من ظلم اللّه بالكفر و الشرك، أو ظلم نفسه بالمعصية، أو غيره بالاعتداء إلا من تاب بعد ظلمه و أصلح فإن اللّه يتوب عليه، و يشمله بعفوه و رحمته. (و أدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء) تقدم مثله في الآية ١٠٨ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٧٥ و الآية ٢٢ من سورة طه و الآية ٣٣ من سورة الشعراء.

(فِي تِسْعِ آياتٍ إِلى فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ). تقدم في الآية ١٠١ من سورة الإسراء.

(فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ). مبصرة أي يبصر الإنسان الحق إذا رأى تلك الآيات التسع التي جاء بها موسى، و قد أبصر فرعون و قومه الحق حين رأوا هذه الآيات، و لكنهم كابروا و عاندوا، و كذبوا على اللّه و على أنفسهم في قولهم: انها سحر مبين، و لذا قال تعالى: (وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوّاً). أيقنت قلوبهم و عقولهم بصدق موسى و آياته، و لكنهم أنكروها بألسنتهم خوفا على منافعهم و حرصا على مناصبهم، و هذا هو المراد بقوله تعالى: ظُلْماً وَ عُلُوّاً. (فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) في الأرض بالكفر و الظلم و الفساد.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٠

[سورة النمل (٢٧): الآيات ١٥ الى ١٩]

وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَ سُلَيْمانَ عِلْماً وَ قالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَ وَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ وَ قالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَ أُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَ حُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ وَ الطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا

يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَ جُنُودُهُ وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها وَ قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلى والِدَيَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَ أَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)

اللغة:

الوازع المانع، و يوزعون يمنعون من الفوضى و يسيرون سيرا منظما. و أوزعني ألهمني.

الإعراب:

لا يحطمنكم في موضع الجزم جوابا للأمر و هو ادخلوا. و ضاحكا حال مؤكدة.

المعنى:

(وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَ سُلَيْمانَ عِلْماً) يهتديان به إلى طاعة اللّه و منفعة الناس، و لم

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١١

يتطاولا به على عباد اللّه و عياله، أو يخترعا به أسلحة الفناء و الدمار ليستعبدا الضعفاء، و يسيطرا على أقواتهم و مقدّراتهم، بل أطاعا اللّه في أمره و نهيه، و شكراه على نعمة العلم التي لا يعادلها شيء **(وَ قالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ)**. المراد بالفضيلة هنا فضيلة العلم النافع، و بالكثير من المؤمنين من لم يكن في مكانتهما من العلم .. و فيه إيماء إلى أن في المؤمنين من هو أفضل من داود و سليمان .. و هذا هو الواقع، بل ان الأفضل أكثر بكثير من المفضول بالنسبة اليهما .. و مهما يكن فإن الفضل عند اللّه لا يقاس بالعلم، و لا بتسخير الرياح، و لا بإلانة الحديد، و لا بشيء إلا بمنفعة الناس و صلاحهم بجهة من الجهات.

(وَ وَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ). داود من نسل يعقوب بن إسحاق بن ابراهيم، و قد كرمه اللّه بالنبوة، و أنزل عليه الزبور، و جعله خليفة في الأرض، و خصه بأجمل الأصوات، و ألان له الحديد، و هو ثاني ملك لدولة اليهود، و يطلق عليه لقب الملك داود، أما الملك الأول فهو طالوت كما في الآية ٢٤٧ من سورة البقرة: إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طالُوتَ مَلِكاً. و كان ابنه سليمان نبيا أيضا، و خصه اللّه بكثير من النعم، منها وراثة الملك عن أبيه، و يقول التاريخ: ان ملكهما امتد سبعين سنة. و كان ذلك من حوالى ثلاثة آلاف سنة، و بعد موت سليمان انقسم اليهود الى دولتين متحاربتين: دولة إسرائيل، و دولة يهوذا، و لما جاء بختنصر قضى عليهما، و لم تقم لليهود بعدئذ قائمة حتى تعاون الاستعمار الانكلوا أمريكي على إنشاء قاعدة عسكرية تحفظ مصالحه في الشرق الأوسط، فأنشأوها باسم دولة إسرائيل على أرض فلسطين سنة ١٩٤٨.

و يقول اليهود عن ملكهم داود: انه كان يخطف النساء، و يقتل أزواجهن، و ان ابنه سليمان كان من الجبابرة الطغاة، و المسرفين المبذرين.

و قال بعض المفسرين: المراد بقوله تعالى: **وَ وَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ** ان سليمان ورث العلم فقط عن أبيه .. و الصحيح ان الآية تعني وراثة الملك، كما حدث ذلك بالفعل، أما العلم فلا يكون بالوراثة بل بالجد و الاجتهاد، أو بالوحي من اللّه .. و حديث: نحن معاشر الأنبياء لا نورث، محل خلاف بين المسلمين، فأثبتته طائفة، و نفته أخرى.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٢

وَ قالَ - سليمان - **يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ**. أقر الإسلام فكرة المعجزة الخارقة على أيدي الأنبياء، و من أنكرها فليس بمسلم، لأن هذا الإنكار تكذيب للّه و رسوله، و بالمعجزة وحدها نفسر معرفة سليمان بلغة بعض الطيور ..

إن اللّه سبحانه خصّ كل نبي بنوع خاص من المعجزات، فكان نصيب سليمان تسخير الريح له و بعض الجن، و معرفته بلغة بعض الطيور و الحشرات كالنمل **وَ أُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ**. المراد بكل هنا الكثرة دون الشمول و الاستغراق، تماما كما تقول: فلان يملك كل شيء كناية عن كثرة أملاكه و تنوعها. و تدل الآية على ان للطيور إدراكا و لغة تتفاهم بها، و يؤكد ذلك قوله تعالى: وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ- ٣٨ الأنعام.

وَ حُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ وَ الطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ. و (من) هنا للتبعيض، أي بعض الجن و الانس و الطير .. و قلنا مرارا: اننا نؤمن بوجود الجن لأن القرآن يثبته و العقل لا ينفيه، و قد كان لسليمان جيش من الجن و الانس و الطير، و كان لكل صنف من هذه الأصناف الثلاثة قادة و مراقبون يحافظون على النظام في السير و غيره، و هذا هو معنى يوزعون.

العظات و العبر في نملة سليمان:

حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَ جُنُودُهُ وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ. اختلف المفسرون في مكان هذا الوادي، فمن قائل: انه في الطائف، و قائل هو بالشام، و مهما يكن فإن الآية تدل على ان للنمل إدراكا و لغة و نظاما، و هذا ما أثبته العلم، أما معرفة سليمان بلغة النمل فلا تفسير لها إلا بالمعجزة الخارقة.

و تسأل: كيف سمع سليمان كلام النملة، و بينه و بينها من البعد ما اللّه أعلم به، مع ان أحدنا لو أدخل النملة إلى أذنه لا يسمع لها صوتا؟.

و جاء في بعض الروايات ان الريح حملت لسليمان كلام النملة. و يؤيد هذه الرواية قوله تعالى: فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ- ٣٦ ص.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ١٣

فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها وَ قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلى والِدَيَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَ أَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ.

حين طلب سليمان من ربه أن يهبه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده أراد بالملك تسخير الرياح و الجن و الطير و نحوه، لأن التمكين في الأرض قد منحه اللّه إلى كثيرين، و لما أتى سليمان على وادي النمل، و حملت له الريح قول النملة و فهم معناه أدرك بأن هذا مما لا يكون لأحد من بعده، فاغتبط بهذه النعمة، و أدى حقها بالشكر للّه، و مجرد الشعور بأن هذه النعمة من اللّه هو نوع من الشكر، و أعظم أنواعه هو عمل الخير لوجه الخير.

و كما دلت الآية على ان لسليمان دولته و جنوده، و ان اللّه سبحانه قد ألهمه العلم بلغة النملة و منطقها فقد دلت أيضا على ان للنملة دولتها و رعيتها، و ان اللّه قد ألهمها العلم ببعض الآدميين و أسمائهم، و إلا فمن أين لها العلم بأن هذا القادم العظيم بموكبه و جنوده هو سليمان بن داود؟ .. انها عظيمة في عالمها تماما كسليمان في عالمه، و انها تعدل في الرعية، و ترفق بها، و تسهر على مصالحها، و تؤدي حق الولاية كاملة، كما يفعل سليمان و غيره من ولاة الحق و العدل.

و من تأمل و تدبر حادث النملة مع سليمان ينتهي إلى العبر و العظات التالية:

١- ان النظام و التقدير يعم و يشمل جميع الكائنات من أصغر صغير كالنملة إلى أكبر كبير كالمجرّات: و لا تفسير لهذا

النظام الدقيق، و التدبير العجيب إلا بوجود قادر عليم: وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً- ٢ الفرقان.

٢- ان المشاركة الوجدانية و الشعور بالمسؤولية نحو الآخرين لا يختص بالإنسان، بل يعم و يشمل الحيوانات و الطيور و الحشرات .. فهذه الذرة التي لا تكاد ترى بالعين حين أحست بالخطر على جماعتها، و أبناء جنسها وقفت تحذرهم و تقول: **ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَ جُنُودُهُ**. و قد أورد أهل الاختصاص العديد من الشواهد على هذه الحقيقة من حياة الحيوان.

٣- ان اللّه سبحانه إذا أنعم على عبد من عباده بنعمة كالعلم أو السلطان و غيره فعليه أن يشكر اللّه و يتواضع له و للناس، و لا يأخذه الخيلاء و العجب، و يتطاول بنعمة اللّه على الآخرين، و أن يكون على يقين بأن هذه النعمة قد أنعم

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٤

اللّه بمثلها و بخير منها على أضعف الكائنات، و ان الإنسان ليس هو الكائن المدلل الذي خصه اللّه بفضله و رحمته دون الخلق أجمعين .. و قد أثبتت الكشوف العلمية ان هناك أكوانا أعظم من هذا الكون الذي نراه، و انه لا أحد يستطيع معرفة حقيقتها إلا خالق الكائنات، و ان الإنسان بالنسبة اليها ليس شيئا مذكورا ..

و يومئ إلى ذلك قوله تعالى: لَخَلْقُ السَّماواتِ وَ الأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ- ٥٧ غافر.

و على هذا فإن الآيات التي تقول: تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ .. يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ .. وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيها نَذِيرٌ- ٢٤ فاطر. إن هذه الآيات و أمثالها تعم و تشمل الإنسان و غير الإنسان .. و تجدر الاشارة إلى أن اللّه سبحانه قد أطلق كلمة الأمة على غير البشر كما في الآية ٣٨ من سورة الأنعام:

إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ.

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٢٠ الى ٣٦]

وَ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقالَ ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقالَ أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ وَ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَ أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَ لَها عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُها وَ قَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤)

أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَ الأَرْضِ وَ يَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَ ما تُعْلِنُونَ (٢٥) اللهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٥

اللغة:

تفقد تعهد، هذا هو المتبادر إلى الأذهان، و تقتضيه العناية بأمور الملك، و قيل: معنى تفقد فقده عند غيبته. و سبأ اسم رجل تنسب اليه قبائل باليمن.

و الفرق بين النبأ و الخبر ان النبأ للخبر الذي له شأن، و الخبر لكل خبر حتى التافه.

و الخبء المخبوء.

الإعراب:

ما لي مبتدأ و خبر. و ام هنا منقطعة بمعنى بل و الهمزة. و الاّ بالتشديد كلمتان ان و لا، و المصدر مفعول من أجله لزيّن أو لصدهم أي زيّن لهم الشيطان أعمالهم لعدم السجود، أو صدهم عن السبيل لذلك.

المعنى:

وَ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقالَ ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ. كان لسليمان أصناف من الطيور تأتمر بأمره، و هي مطلقة غير مسجونة في قفص و شبهه، و في ذات يوم تعهد الطيور، كما يتعهد القائد جنوده، فلم يجد الهدهد من بينها، و لم يكن قد أذن له بالغياب، فتهدده- على مسمع من الطيور- بالعذاب كالسجن و نحوه، أو بالإعدام إذا لم يدل بحجة واضحة تبرر غيابه.

فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقالَ أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ. لم يمض أمد قصير على تهديد سليمان حتى جاء الهدهد، و قال له: اكتشفت شيئا هاما لا تعرفه أنت على سعة علمك **وَ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَ أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَ لَها عَرْشٌ عَظِيمٌ.** المراد بسبإ القوم الذين ينتسبون إلى سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، و المرأة هي بلقيس بنت شراحيل، و كان من الملوك، و ورثت ابنته بلقيس السلطان منه، و كانت تملك جميع مظاهر الثراء

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٦

و الترف في زمانها، و كانت تجلس على سرير ضخم و ثمين مرصع بقلوب المساكين، و مطلي بعرقهم و دمائهم .. و طريف قول بعض المفسرين: انه كان مسقوفا، و ان مساحته ثمانون ذراعا مربعا، و أيضا علوه ثمانون.

وَجَدْتُها وَ قَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ. و تسأل: ان الطيور و الحيوانات و الحشرات تعرف بغريزتها مأكلها و مشربها و ما يضرها و ينفعها، و يعرف الذكر منها الأنثى من نوعه، و الأنثى تعرف الذكر من نوعها، تعرف ذلك و ما إليه لأنه من مقومات وجودها، و حافظ لحياتها و استمرار بقائها، اما ان تميز بين الذكر و الأنثى من الآدميين، و تعرف ان اسم هذه القبيلة سبأ و تلك ثمود- مثلا- و ان هؤلاء القوم يؤمنون باللّه، و أولئك يكفرون به، أما هذا و ما إليه فلا يتصل بحياتها من قريب أو بعيد كي تعرفه بالفطرة و الغريزة .. اذن فمن أين جاء العلم للهدهد باسم القبيلة، و بالمرأة التي تملكهم، و بأنهم يعبدون الشمس، مع أننا نحن الآدميين لا نميز بمجرد النظر الذكر من الأنثى في أكثر أنواع الطيور، و في جميع الحشرات و الأسماك؟

الجواب: ان الآية أثبتت هذه الأوصاف لهدهد سليمان فقط، و ثبوتها له لا يستدعي ثبوتها لكل طير أو لكل هدهد تماما كما لا تستدعي معرفة فلان باللغة الانكليزية أن يعرفها كل الناس .. أما معرفة هدهد سليمان بما أخبره به فلا تفسير له عندنا إلا بمشيئة اللّه.

أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَ ما تُعْلِنُونَ. المراد بالخبء هنا خيرات الكون، و اللّه سبحانه يخرجها لعباده بالأسباب الطبيعية كالنبات يخرجه من الأرض بسبب المطر، و التوالد بسبب التلقيح، أو بالوسائل العلمية كالمعادن و ما اليها يخرجها اللّه بأيدي العلماء و أدواتهم الفنية، و قد عبّر سبحانه عن هذه الوسائل و الأسباب بأيدي اللّه حيث قال: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُونَ- ٧١ يس.

اللهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ الذي لا يقاس بملكه ملك، و لا بعظمته عظمة.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٧

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٢٧ الى ٣٥]

قالَ سَنَنْظُرُ أَ صَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ (٢٧) اذْهَبْ بِكِتابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ ما ذا يَرْجِعُونَ (٢٨) قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَ أْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١)

قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ (٣٢) قالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَ أُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَ الْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي ما ذا تَأْمُرِينَ (٣٣) قالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَ جَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً وَ كَذلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَ إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥)

اللغة:

تولّ تنحّ. ما ذا يرجعون ما ذا يدور بينهم. و الملأ أشراف القوم. و مسلمين منقادين. أفتوني أشيروا عليّ. و تشهدون تحضرون.

الإعراب:

ما ذا يجوز أن تكون كلمة واحدة للاستفهام، و محلها النصب بيرجعون، و ان تكون كلمتين ما للاستفهام مبتدأ و ذا بمعنى الذي خبر، و جملة يرجعون صلة الموصول.

ألاّ بالتشديد كلمتان ان المفسرة لكتاب و لا الناهية. و مسلمين حال من واو ائتوني. أمرا مفعول قاطعة. و تشهدون منصوب بأن بعد حتى، و النون للوقاية لأن الأصل تشهدونني.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ١٨

المعنى:

قالَ سَنَنْظُرُ أَ صَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ. أخبر الهدهد سليمان عن قوم سبأ، فقال له: سنختبر مقالتك لنعرف مكانها من الصدق **اذْهَبْ بِكِتابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ ما ذا يَرْجِعُونَ.** كتب سليمان إلى القوم يدعوهم إلى طاعته، و أعطى الكتاب للهدهد، و قال له: أوصله إليهم بطريق من الطرق، و تنح عنهم إلى مكان تراقبهم منه، و تسمع ما يقولون و ما يتفقون عليه، و ترجع إليّ بخبرهم.

قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَ أْتُونِي مُسْلِمِينَ. حمل الهدهد الكتاب الى القوم، و ألقاه في مكان من قصر الملكة، بحيث ترى الكتاب، و لا تعلم من جاء به، كما تشعر كلمة ألقي بصيغة المجهول، ثم تنحى الهدهد إلى مكان قريب يسجل حركات القوم و أقوالهم، تماما كالموظف في الاستخبارات، و لما رأت الملكة الكتاب و علمت ما فيه جمعت الوزراء و المستشارين، و عرضته عليهم، و وصفته بالكريم لأن صاحبه عظيم الجاه و السلطان .. و البسملة جزء من كتاب سليمان الذي اقتصر فيه على الدعوة إلى الطاعة من غير مقدمات و زيادة كلام .. و هذا هو شأن الأنبياء في رسائلهم، يقتصرون فيها على الهدف المطلوب، و كان الرسول الأعظم (ص) يقتصر في رسائله إلى الملوك على قوله: «اسلم تسلم» بعد البسملة و الحمد.

قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ.

أشيروا عليّ، فلا أبتّ بشيء حتى استظهر برأيكم، و فيه إيماء إلى أن ديمقراطية الحكم لها جذور في التاريخ البعيد، ثم

تطورت بمرور الزمن إلى ما هي عليه الآن. **قالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَ أُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَ الأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي ما ذا تَأْمُرِينَ.**

قالوا هذا على طريقة الساسة في الإعلان عن قوتهم و حزمهم و صلابتهم، و في الاحتفاظ أيضا نحط الرجعة حيث ألقوا بالمسؤولية كلها على عاتق الملكة حتى إذا ساءت العاقبة كانوا منها في حل.

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۱۹

هل الفساد طبيعة في الملوك؟

(قالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَ جَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً وَ كَذلِكَ يَفْعَلُونَ). تطلق القرية على المدينة و على بلدة ريفية، و شرح بعض المفسرين الجدد هذه الآية بقوله: فهي تعرف ان من طبيعة الملوك إذا دخلوا قرية أشاعوا فيها الفساد، و حطموا الرؤساء و جعلوهم أذلة، و هذا هو دأبهم الذي يفعلونه.

و الحق ان الفساد ينتشر في الأرض بمقدار ما للمجرمين من قوة، و يتضاعف كلما تضاعفت مقدرتهم عليه ملوكا كانوا أو غير ملوك، و إنما خصت الآية الملوك بالذكر لأنهم أقوى و أقدر من غيرهم .. إن شخصية المجرم تختفي وراء ضعفه، و تظهر مع قوته .. فمن الخطأ أن نحدد شخصية الضعيف من خلال تصرفاته .. فقد اشتهر البعض في زماننا بالتقى و الصلاح قبل أن يتولى الرئاسة، و لما أخذ نصيبه منها التصقت به تهم لا تمحوها الأيام .. نسأل اللّه الهداية لنا و له.

و بهذا يتبين معنا ان صفة الفساد لا تختص بالملوك، و لا هي من طبيعتهم، و إلا استحال وجود العدل و الصلاح فيهم، و انما هي من طبيعة القوي المجرم، سواء أجاءت قوته من المال أو الجسم أو العقل أو من منصب زمني أو ديني:

و لا رادع للمجرم القوي إلا الدين. قال الإمام علي (ع): قد يرى الحوّل القلّب وجه الحيلة، و دونه مانع من أمر اللّه و نهيه، فيدعها رأي العين بعد القدرة عليها، و ينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين. الحوّل القلّب هو البصير بتحويل الأمور و تقلّبها، و الحريجة التحرز من الإثم.

وَ إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ. أرجع الوزراء و المستشارون الى الملكة أمر السلم و الحرب، و قبل أن تبت بشيء رأت أن ترسل الى سليمان هدية، فيها كل غال و ثمين، ثم تنظر هل يقبلها أو يرفضها؟ فإن قبلها فهو طالب دنيا، لا طالب دين، يمكن مصانعته بالمال، و ان رفض الهدية و أصر على أن نأتيه مسلمين فهو من أصحاب المبادئ و الرسالات الذين لا يساومون

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۲۰

على عقيدتهم، و يضحّون من أجلها بكل عزيز، و مثلهم لا تجوز محاربتهم، و تصعب مقاومتهم.

[سورة النمل (۲۷): الآيات ۳٦ الى ٤٠]

فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ قالَ أَ تُمِدُّونَنِ بِمالٍ فَما آتانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها وَ لَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها أَذِلَّةً وَ هُمْ صاغِرُونَ (٣٧) قالَ يا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ وَ إِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠)

اللغة:

لا قبل لهم لا طاقة لهم. و العرش سرير الملك. العفريت الداهية الماكر.

الإعراب:

فلما جاء فاعل (جاء) محذوف يدل عليه قول الملكة: و إني مرسلة إليهم،

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢١

و التقدير فلما جاء الرسول سليمان. فما آتاني (ما) مبتدأ و خير خبر. و أذلة حال من ضمير الغائب في لنخرجنهم، و جملة هم صاغرون حال.

المعنى:

فَلَمَّا جاءَ- الرسول- **سُلَيْمانَ قالَ أَ تُمِدُّونَنِ بِمالٍ فَما آتانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ**. حمل وفد الملكة الهدية إلى سليمان، و فيها كل نفيس و ثمين، و لما رآها قال للذين جاءوا بها: دعوتكم إلى اللّه، فأتيتموني بالمال، و عندي منه الشيء الكثير كما رأيتم، بل أنعم اللّه عليّ بما هو أعظم من المال، أنعم علي بالنبوة و العلم، و تسخير الرياح و الجن و الطير .. أ تقيسونني بأنفسكم في عبادة المال و تعظيمه؟

و يذكرنا هذا بقريش حين فاوضوا رسول اللّه (ص)، و قالوا له: ان كنت تريد بهذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، و ان كنت تريد ملكا ملكناك علينا. و لما استيأسوا منه لجأوا إلى عمه أبي طالب ليقنع ابن أخيه بالملك و المال، و إلا فالبطش و الحرب. فقال رسول اللّه (ص) مقالته الشائعة الذائعة: و اللّه يا عماه لو وضعوا الشمس في يميني و القمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره اللّه أو أهلك فيه ما تركته.

ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها وَ لَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها أَذِلَّةً وَ هُمْ صاغِرُونَ. الخطاب في ارجع لرئيس الوفد الذين جاءوا بالهدية، و المعنى ارجع أنت و من معك بما جئتم به، و بلّغ قومك اني سأغزوهم بجيش من الانس و الجن و الطير لا طاقة لهم و لا لغيرهم بمقاومته و الصمود له. و كان الهدهد قد نقل لسليمان قول الملكة لقومها: إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَ جَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً. فأكد سليمان ذلك بقوله للرسول: **وَ لَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها**- من بلادهم- **أَذِلَّةً وَ هُمْ صاغِرُونَ**.

قالَ يا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ. لما رجع الوفد من عند سليمان إلى الملكة، و أخبرها بما سمع و رأى لم تر بدا من السمع و الطاعة،

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٢

فتوجهت اليه مع حاشيتها، و تركت عرشها العظيم يحفظه الجنود و الحراس، و حين علم سليمان بقدوم بلقيس أحب أن يريها آية تدل على نبوته و عظمته، و ان تكون هذه الآية و المعجزة أخذ عرشها الذي هو مظهر عزها و ملكها، فسأل من كان بين يديه: أيكم يأتيني به؟

قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ وَ إِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ. سخر اللّه سبحانه لسليمان الريح تجري بأمره، و هذه معجزة خارقة ما في ذلك ريب، و سخر له الطير يأتمر بأمره، و هذه أيضا معجزة، و أيضا خصه اللّه ببعض الجنود من الإنس و الجن يأتون بعجائب الأعمال بالنسبة إلى عصرهم، و كانوا يرافقون جند سليمان يستعين بهم للتغلب على العدو تماما كالفنيين و أهل الاختصاص الذين يحتاج اليهم الجيش المحارب في هذا العصر، و يومئ

إلى ذلك طلب سليمان منهم أن ينقلوا اليه عرش بلقيس في لحظات، و هو يعلم ما بينه و بين مكان العرش من البعد، فقال له بعض الجن: أنا آتيك به سالما كما هو، و أنت في مجلسك هذا و **قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ** فكان النصر لهذا حيث استطاع بسلطان ما عنده من العلم أن يأتي بالعرش المطلوب في لحظة لا في لحظات.

هذا ما دل عليه ظاهر الآية، أما التساؤل: من هو هذا الذي عنده علم من الكتاب؟. هل هو من الملائكة أو الخضر أو عبد صالح من الإنس اسمه آصف ابن برخيا، و انه كان يعلم اسم اللّه الأعظم؟. و أي نوع من العلم استخدمه في نقل العرش هل هو اسم اللّه الأعظم أو غيره، أما هذا التساؤل و ما اليه من التساؤلات الكثيرة فجوابها عند ربي، لأن الآية لم تصرح، و الحديث الصحيح لم يثبت، فمن أين يأتي العلم باسم من نقل هذا السرير، و بنوع العلم الذي كان عنده؟

و أقرب الاحتمالات انه لم يكن من الجن لأن النصر كان له على عفريت من الجن كما صرحت الآية السابقة، و انه نقل العرش بمعجزة خارقة حيث أتى به قبل أن يرتد الطرف .. و المعجزة كما تظهر على أيدي الأنبياء فإنها تظهر أيضا على أيدي الذين يصطفيهم الأنبياء بأمر اللّه تعالى.

و محل العبرة و العظة في هذا الحادث ان بلقيس صاحبة الملك و النعيم قد خضعت

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٣

صاغرة لسليمان، و استلبها عرشها العظيم في طرفة عين، و هو مظهر مجدها و عظمتها.

فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ.

المراد بالكفر هنا كفران النعم، لا الكفر باللّه، و سليمان لا يجحد نعمة ربه، و محال أن يجحدها لأنه نبي معصوم، و لكن قال ذلك تمهيدا لقوله: **وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ.** و في معناه إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها- ٧ الإسراء.

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٤١ الى ٤٤]

قالَ نَكِّرُوا لَها عَرْشَها نَنْظُرْ أَ تَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جاءَتْ قِيلَ أَ هكَذا عَرْشُكِ قالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَ أُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَ كُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَ صَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَ كَشَفَتْ عَنْ ساقَيْها قالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ قالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (٤٤)

اللغة:

تنكير الشيء تغييره من حال إلى حال. و الصرح كل بناء عال. و اللجة معظم الماء. و الممرّد الممملس. و القوارير الزجاج.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٤

الإعراب:

ننظر مجزوم بجواب نكروا. و ما كانت (ما) فاعل صدّها. و رب العالمين بدل من كلمة الجلالة.

المعنى:

قالَ نَكِّرُوا لَها عَرْشَها نَنْظُرْ أَ تَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ. قال سليمان لبعض رجاله: غيروا شيئا من عرش

بلقيس لنرى هل تدرك انه هو أو يخفى عليها؟. **فَلَمَّا جاءَتْ قِيلَ أَ هكَذا عَرْشُكِ** نكروا لها عرشها و سألوها عنه **قالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ** لم تنف و لم تثبت .. لم تنف لأن وجه الشبه قوي، و لم تثبت لأنها تركت عرشها في القصر، و دونه الجنود و الحراس. هذا، إلى أن الساسة و الحكام يحتفظون بخط الرجعة في أكثر كلامهم و أجوبتهم.

وَ أُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَ كُنَّا مُسْلِمِينَ. هذا من كلام سليمان و قومه، و معناه انهم عرفوا الحق، و آمنوا به قبل بلقيس **وَ صَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ**. أي ان الذي منع بلقيس عن معرفة الحق و الايمان به هو شركها و عبادتها الشمس من دون اللّه.

قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَ كَشَفَتْ عَنْ ساقَيْها قالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ. المراد بالصرح هنا القصر، و اللجة كثرة الماء، و الممرد الممللس، و القوارير الزجاج، و يدل ظاهر الآية أنه كان لسليمان قصر من زجاج شفاف، و ان الماء كان يجري من تحته، و ان بلقيس لما دخلت القصر لم تتبين الزجاج من شدة صفائه، و لذا كشفت عن ساقيها لتخوض الماء، فقال لها سليمان:

هذا زجاج صاف، و الماء يجري من تحته **قالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ**. ظلمت نفسها بالكفر، ثم تابت و أسلمت، و حسن إسلامها.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٥

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٤٥ الى ٥٣]

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قالَ يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْ لا تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ وَ بِمَنْ مَعَكَ قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧) وَ كانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لا يُصْلِحُونَ (٤٨) قالُوا تَقاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَ أَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَ إِنَّا لَصادِقُونَ (٤٩)

وَ مَكَرُوا مَكْراً وَ مَكَرْنا مَكْراً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَ قَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ (٥٣)

اللغة:

المراد بالسيئة هنا العذاب، و بالحسنة الرحمة. اطيرنا تشاءمنا. و الرهط من ثلاثة رجال الى تسعة. و خاوية خالية.

الإعراب:

صالحا بدل من (أخاهم). و إذا للمفاجأة و ما بعدها مبتدأ و خبر. و تقاسموا فعل أمر أي قال بعضهم لبعض: احلفوا. و كيف خبر كان و عاقبة اسمها.

و المصدر من انّا دمرناهم بدل من عاقبة.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٦

المعنى:

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ. تقدم في الآية ٧٣ من سورة الأعراف و الآية ٦١ من سورة هود

فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ فريق آمن بالحق، و فريق كذّب به، لأنه يصطدم مع منافعهم و أغراضهم، و من هنا وقع الخصام بين الفريقين، و لولاها لقال الفريق الثاني للأول: لكم دينكم ولي دين.

قالَ يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْ لا تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ.

أنذر صالح المكذبين بالعذاب ان أصروا على الضلال و العناد، فقالوا ساخرين:

ائتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين كما في الآية ٧٧ من سورة الأعراف، فقال لهم بعطف و لين: علام تستعجلون نقمة اللّه، و هو سبحانه لم يعاجلكم بها، و أمهلكم طويلا لترجعوا عن غيكم .. فخير لكم أن تتوبوا اليه، و تطلبوا منه الرحمة، و هو كريم و غفور رحيم يقبل منكم التوبة، و يشملكم بعفوه و رحمته.

قالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ وَ بِمَنْ مَعَكَ. التطير التشاؤم .. بعد أن دعاهم صالح إلى اللّه، و أعرضوا عن دعوته أصابهم المرض و الجدب، فتشاءموا به، و بدعوته و بمن أمن به و بها. **قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ.** ان الذي نزل بكم من البلاء هو بارادة اللّه التي تنتهي اليها جميع الأسباب، و تقدم نظيره في الآية ١٣١ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٨٤. و كان النبي (ص) يحب الفأل لأن فيه الأمل و الثقة باللّه، و يكره الطيرة لأن فيها التوقع للبلاء، و في الحديث: إذا تطيرت فامض، و إذا حسدت فلا تبغ، و إذا ظننت فلا تحقق **بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ** تختبرون بالسراء و الضراء لتظهر أفعالكم التي تستحقون بها الثواب و العقاب.

وَ كانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لا يُصْلِحُونَ. كانوا من المترفين يتطاولون على الناس بثرائهم، و يتخذون منه أداة للاستبداد و الإفساد في الأرض، و يقاومون كل مصلح و محب للخير، و لم يكن فيهم جهة تذم وجهة تمدح، بل كل ما فيهم قبيح و مذموم، و هذا هو المراد بقوله تعالى:

و لا يصلحون. **قالُوا تَقاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَ أَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَ إِنَّا لَصادِقُونَ.** ضمير تقاسموا يعود للتسعة المفسدين، و ضمير لنبيتنه و أهله

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٢٧

و وليه يعود لصالح، و المعنى ان هؤلاء التسعة قال بعضهم لبعض: احلفوا باللّه ان نباغت صالحا و أهله ليلا و نقتلهم جميعا، ثم نقول لأرحامه و أولياء دمه:

ما قتلناهم، و لا نعرف من قتلهم، و نحن صادقون فيما نقول.

وَ مَكَرُوا مَكْراً وَ مَكَرْنا مَكْراً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ. أما مكر التسعة فهو تدبيرهم ان يباغتوا صالحا بياتا، و يقتلوه و أهله دون أن يشعر أحد بذلك، و أما مكره تعالى فهو انه تعالى عجل بأخذهم و هلاكهم قبل أن يصلوا إلى صالح من حيث لا يشعرون. انظر تفسير الآية ٥٤ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٨٦ فقرة: اللهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ **فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَ قَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ.** أرادوا أن يهلكوا صالحا فأهلكهم اللّه، و في ذلك عبرة و عظة لمن يبيت الاساءة للآخرين **فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا** أنفسهم.

لأن اللّه حذرهم و أمهلهم، فأصروا على الفساد و الضلال **إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** المراد بالعلم هنا المقرون بالعمل و الاعتبار، أما العلم المجرد عن العمل فإن الجهل خير منه لأنه وبال على صاحبه **وَ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ.**

هذا على عادة القرآن الكريم إذا ذكر الظالمين و عقابهم ذكر المتقين و ثوابهم، و القصد الترهيب و الترغيب.

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٥٤ الى ٥٨]

وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنْجَيْناهُ وَ أَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْناها مِنَ الْغابِرِينَ (٥٧) وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (٥٨)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٨

حكاية الخبر بالمعنى:

تقدم نظير هذه الآيات في سورة الأعراف الآية ٨٠- ٨٤ ج ٣ ص ٣٥٢- ٣٥٤. و لا فرق إلا في بعض التعابير، ففي سورة الأعراف حكى اللّه سبحانه عن لوط انه قال لقومه: أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ.

و حكى عنه هنا انه قال لهم: **أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ** و كلاهما ذم و توبيخ. و قال هناك: بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ و قال هنا: **بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ** و كل من الإسراف و الجهالة تجاوز للحد. و قال تعالى هنا: **وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ** و قال هناك: وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ أي انظر سوء عاقبتهم.

و مثله كثير في كتاب اللّه، فهو يحكي كلام الأنبياء و غيرهم بلفظ آخر في آية ثانية، و بثالث في آية ثالثة، و فيه دلالة على ان للإنسان ان ينقل كلام الآخرين بنصه الحرفي و بمعناه أيضا دون لفظه على شريطة أن لا يقلّم أو لا يطعّم.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٩

الجزء العشرون

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣١

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٥٩ الى ٦٤]

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَ سَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها أَ إِلهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً وَ جَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً وَ جَعَلَ لَها رَواسِيَ وَ جَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً أَ إِلهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ أَ إِلهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ مَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَ إِلهٌ مَعَ اللهِ تَعالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أَ إِلهٌ مَعَ اللهِ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٦٤)

اللغة:

ذات بهجة أي ذات منظر حسن يبتهج به من يراه. و المراد بيعدلون هنا يحيدون عن الحق لأنهم جعلوا للّه عديلا و مثيلا، و خلالها بين أماكنها. و الرواسي الجبال.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٢

الإعراب:

آللّه الأصل أاللّه و الهمزة للاستفهام و اللّه خير مبتدأ و خبر. و أمّا كلمتان أم العاطفة المتصلة و ما بمعنى الذي أي أم الذي يشركون. و أمّن كلمتان أم المنقطعة بمعنى بل و الهمزة و من اسم موصول، و هي في محل رفع بالابتداء و الخبر محذوف أي بل الذي خلق السموات و الأرض خير. و كذا ما بعدها من نظائرها. و المصدر من أن تنبتوا اسم كان. و إله مبتدأ و الخبر محذوف أي أ إله تثبتون مع اللّه.

و قليلا صفة لمفعول مطلق محذوف و ما زائدة إعرابا أي تذكرون تذكرا قليلا.

الصلاة و السلام على المتقين:

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَ سَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى. بعد أن ذكر سبحانه بعض الأنبياء و ما خصهم به من الآيات و المعجزات أمر نبيه الكريم أن يحمد اللّه على ما خصه به من النعم، و ان يسلم على جميع الأنبياء الذين اصطفاهم لرسالته، و قرن السلام عليهم بالحمد له تنبيها الى منزلتهم و تعظيما لشأنهم، و كل من اتقى اللّه و عمل بسنّة رسول اللّه (ص) يجوز السلام و الصلاة عليه حيا و ميتا، نبيا أو غير نبي، و بالخصوص إذا كان من أهل بيت محمد (ص) و جاهد من أجل الإسلام و انتشار دعوته و علوّ كلمته، قال تعالى: هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَ مَلائِكَتُهُ- ٤٣ الأحزاب. و في صحيح البخاري و غيره، قالوا: كيف نصلي عليك يا رسول اللّه؟ فقال:

قولوا اللهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صليت على إبراهيم و على آل إبراهيم، و بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على ابراهيم و آل ابراهيم إنك حميد مجيد.

و قد جرت عادة المسلمين من عهد الرسول الأعظم (ص) أن يفتتحوا كتبهم و خطبهم بالبسملة و الحمد و الصلاة على محمد و على من استن بسنته من أهل بيته و صحابته، و مصدر ذلك هذه الآية الكريمة: قل الحمد للّه و سلام على عباده الذين اصطفى.

آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ. المراد بهذه الآية و ما بعدها توبيخ المشركين و الرد

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٣

عليهم بصيغة الاستفهام و بأسئلة لا جواب لها إلا الإذعان و التسليم، و هي:

١- **آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ**؟ أيهما خير و أعظم، اللّه جلت كلمته أم الأوثان و ما اليها مما تعبدون؟

الجواب: اللّه، ما في ذلك ريب حتى عند المشركين، لأنهم لا ينكرون وجود الخالق، و انما يدعون معه إلها آخر.

٢- **أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ** بنظامهما و ترتيبهما الدقيق العجيب الذي يدل على ارادة عليم حكيم **وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ** ينزل المطر من السماء بأسبابه الطبيعية، و أيضا تنبت الأرض من كل زوج بهيج بالأسباب الطبيعية، و بما ان اللّه سبحانه هو الذي خلق الطبيعة بكل ما فيها صح إسناد المطر و الانبات و غيرهما اليه تعالى **ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها** بل و لا أن تعرفوا مصدر الحياة في النبات و غيره إلا إذا فسرتموه بوجود إله قادر يقول للشيء كُنْ فَيَكُونُ و مثله قوله تعالى: أَ فَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ أَ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ- ٦٤ الواقعة. **أَ إِلهٌ مَعَ اللهِ** تزعمون انه أعانه على خلق السموات و الأرض، و إنزال الغيث، و إنبات الحدائق؟ **بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ** عن الحق لأنهم يساوون بين اللّه و غيره.

٣- **أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً** أي مستقرة على ما هي عليه في شكلها و حجمها و عناصرها و مركزها، و ما الى ذلك مما لا يكون الا بتصميم من خبير عليم **وَ جَعَلَ خِلالَهَا أَنْهاراً** ينتفع بها الخلائق **وَ جَعَلَ لَهَا رَواسِيَ** كيلا تميد بكم **وَ جَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً** المراد بالبحرين الماء المالح و الماء العذب، و بالحاجز انخفاض مكان الأول عن مكان الثاني، و لو انعكس الأمر لفسد الماء العذب. أنظر ما قلناه في تفسير قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هٰذا عَذْبٌ فُراتٌ وَ هٰذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَ جَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً وَ حِجْراً مَحْجُوراً- ٥٥ الفرقان.

أَ إِلٰهٌ مَعَ اللهِ شاركه في ذلك **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** أما غير الأكثر فإنهم يعلمون، و لكنهم يكابرون و يعاندون خوفا على مكاسبهم.

٤- **أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ**. إن اللّه سبحانه يمد بالعون و التوفيق من يلجأ اليه، و يتوكل عليه، فيهيئ له الأسباب التي يبلغ بها

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٣٤

حاجته، و تكشف عنه البأساء و الضراء إذا سعى لها سعيها المألوف .. و من قبع في مكانه، و هو قادر على السعي، فقد ظلم نفسه **وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ** يخلف الجيل اللاحق الجيل السابق في ملك الأرض و عمارتها **أَ إِلٰهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ** المراد بالتذكر هنا العمل بالدلائل، و الانتفاع بالنذر، و الاتعاظ بالعبر.

٥- **أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ** بواسطة الجبال و الكواكب و الآلات، و ما الى ذلك مما يدخل في قوله تعالى: وَ عَلاماتٍ وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ- ١٦ النحل. **وَ مَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ**. تقدم في الآية ٥٥ من سورة الأعراف و الآية ٥٠ من سورة الفرقان **أَ إِلٰهٌ مَعَ اللهِ، تَعالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** و يفترون بنسبة الشريك و الولد اليه تعالى.

٦- **أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ**. يدل التدبير و الإحكام في الخلق على أنه فيض من مدبر حكيم، و متى ثبت ابتداء الخلق منه تعالى ثبتت إعادته إذا أخبر هو بذلك لأن الاعادة أهون من الابتداء على حد تعبير الآية ٢٧ من سورة الروم. **وَ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ** بإنزال الغيث من الأولى، و إخراج النبات من الثانية **أَ إِلٰهٌ مَعَ اللهِ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ** في ان للّه شريكا أو ولدا.

و الخلاصة ان اللّه سبحانه أورد العديد من الأدلة و البراهين على وجوده و وحدانيته، و أوضحها بكل أسلوب، فليأت الجاحد أو المشرك بدليل واحد على جحوده أو شركه .. و هذا الأسلوب في جدال الخصوم و دعوتهم إلى حكم العقل دليل قاطع على ان الإسلام يرتكز على فطرة اللّه التي فطر الناس، و من أجل ذلك وصفه تعالى بالدين القيم.

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٦٥ الى ٧٥]

قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ وَ ما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ (٦٦) وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَ إِذا كُنَّا تُراباً وَ آباؤُنا أَ إِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنا هٰذا نَحْنُ وَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ إِنْ هٰذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩)
وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَ يَقُولُونَ مَتىٰ هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ ما يُعْلِنُونَ (٧٤)

وَ ما مِنْ غائِبَةٍ فِي السَّماءِ وَ الأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (٧٥)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٥

اللغة:

ادّارك تتابع و تلاحق. و عمون جمع عم، و هو أعمى القلب و البصيرة.

و أساطير خرافات. و ردف فعل ماض بمعنى لحق و تبع. و تكنّ تستر و تخفي.

الإعراب:

أيان ظرف زمان يتضمن معنى الاستفهام، و هو مبني على الفتح في محل نصب بيبعثون. و ادارك فعل ماض و أصله تدارك. و أئذا كلمتان همزة الاستفهام و إذا و هي متعلقة بفعل محذوف أي أ نخرج من القبور إذا كنا ترابا. و هذا إشارة إلى الإخراج و هي مفعول ثان لوعدنا. و المصدر من أن يكون اسم عسى. و اسم يكون ضمير الشأن، و ردف فعل ماض، و لكم اللام زائدة إعرابا و الأصل ردفكم أي لحقكم.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٦

المعنى:

قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ وَ ما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ.

طلب الجاحدون من الرسول الأعظم (ص) ان يحدد لهم أمد البعث، فقال له العلي الأعلى: قل لهم: لا أحد من الانس و الجن و الملائكة يعلم الغيب و أمد البعث الا اللّه، و انهم يحشرون من حيث لا يشعرون **بَلِ ادّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ.**

ادارك تتابع، و المعنى ان الأنبياء أخبروا المشركين بالآخرة، فلم يصدقوا، و لما بعثوا و رأوا الآخرة رأي العين علموا ان إخبار الأنبياء كان حقا و صدقا، فالتتابع المقصود هنا ان علم المشركين بالآخرة حصل بعد إخبار الأنبياء بها و بعد رؤيتها **بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها** أي كيف يسألون عن وقت الآخرة، و هم غير مؤمنين بها؟ **بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ** بل عميت قلوبهم عن الآخرة لضلالهم و عنادهم حتى استحال أن يروها.

وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَ إِذا كُنَّا تُراباً وَ آباؤُنا أَ إِنَّا لَمُخْرَجُونَ لَقَدْ وُعِدْنا هذا نَحْنُ وَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ. تقدم مثله في الآية ٥ من سورة الرعد و الآية ٣٦ و ٨٤ من سورة المؤمنون.

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ. هذا تهديد لمن كذب بنبوة محمد (ص) أن يصيبهم من الهلاك ما أصاب غيرهم من الأمم السابقة الذين كذبوا أنبياءهم. و تقدم نظيره في الآية ١٣٧ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١٥٩.

وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ. تقدم بنصه في الآية ١٢٧ من سورة النحل ج ٤ ص ٥٦٥.

وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. حذّر الرسول الأعظم (ص) قريشا من عاقبة تكذيبهم و تمردهم، فقالوا له ساخرين: و متى يكون ذلك؟ و كل نبي كان يسمع هذا الجواب الساخر من قومه إذا أنذرهم و حذرهم **قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ** ربما كان العذاب وراءكم، و أنتم لا تشعرون، و في هذا المعنى الآية ٥١ من سورة الإسراء: وَ يَقُولُونَ مَتى هُوَ قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً.

تفسير الكاشف، ج ۶، ص ۳۷

وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ. انه تعالى يتفضل عليهم بالإمهال و تأخير العذاب ليتوبوا و يرجعوا عن غيهم، و كان عليهم ان يشكروا اللّه على ذلك، و لكنهم استعجلوا العذاب ساخرين مستهزئين **وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ ما يُعْلِنُونَ**. أعلنوا الشرك باللّه، و أضمروا الكيد و الشر لرسول اللّه، و اللّه يعلم ما يسرون و ما يعلنون، و انه مجازيهم لا محالة على هذا و ذاك بما يستحقون **وَ ما مِنْ غائِبَةٍ فِي السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ**. لا يغيب شيء عن علمه تعالى، ما في ذلك ريب، و القصد من هذا الإخبار تهديد الخونة و العملاء الذين يتسترون بثوب النفاق و الرياء.

[سورة النمل (۲۷): الآيات ۷۶ الى ۸۵]

إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلىٰ بَنِي إِسْرائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۷۶) وَ إِنَّهُ لَهُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (۷۷) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (۷۸) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (۷۹) إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتىٰ وَ لا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (۸۰)

وَ ما أَنْتَ بِهادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (۸۱) وَ إِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ (۸۲) وَ يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا فَهُمْ يُوزَعُونَ (۸۳) حَتَّى إِذا جاؤُ قالَ أَ كَذَّبْتُمْ بِآياتِي وَ لَمْ تُحِيطُوا بِها عِلْماً أَمَّا ذا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۸۴) وَ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ (۸۵)

تفسير الكاشف، ج ۶، ص ۳۸

اللغة:

الفوج الجماعة. و يوزعون يمنعون.

الإعراب:

بهادي الباء زائدة و هادي خبر أنت على لغة تميم، و خبر (ما) على لغة أهل الحجاز. و المصدر من ان الناس مجرور بالباء المحذوفة أي تكلمهم بكون الناس غير موقنين بآياتنا.

شعار إسرائيل سمعنا و عصينا:

إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلىٰ بَنِي إِسْرائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.

تحدث القرآن عن غرائب بني إسرائيل، و كرر الحديث عنها و عنهم، تحدث عن خصائصهم و شعارهم، و عما اختلفوا فيه على عهد موسى و بعده، و يتلخص شعارهم الذي يدينون به و لا يحيدون عنه، يتلخص بقولهم: سَمِعْنا وَ عَصَيْنا، كما جاء في الآية ۹۴ من سورة البقرة و الآية ٤٥ من سورة النساء. أي سمعنا من اللّه و أنبيائه و عصينا اللّه و الأنبياء، و قد التزموا هذا الشعار في عهد موسى نفسه حتى شكاهم إلى ربه، و وصفهم بالفاسقين، و هو يقول بحسرة و لوعة: رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَ أَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ- ۲۵ المائدة، و في آية ثانية وصفهم بالسفهاء: قالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِيَّايَ أَ تُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا- ۱۵۵ الأعراف. و ما زالوا على هذا الشعار و المبدأ إلى يومنا هذا، ففي سنة ۱۹٦۷ قررت هيئة الأمم المتحدة التي تمثل شعوب الأرض شرقها و غربها، قررت انسحاب إسرائيل من

القدس، فما كان جواب مندوبها إلا أن قال: الأمم المتحدة تنكة زبالة كما نشرت الصحف.

أما الذي اختلفوا فيه فهو العمل بالتوراة على عهد موسى حتى رفع اللّه الجبل فوقهم و هددهم بالهلاك: وَ رَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اسْمَعُوا قالُوا سَمِعْنا وَ عَصَيْنا- ٩٣ البقرة.

تفسير الكاشف، ج۶، ص ٣٩

و «١» اختلفوا في الأنبياء الذين جاءوا بعد موسى، و منهم السيد المسيح (ع)، ففريقا كذبوا، و فريقا يقتلون كما في الآية ٨٧ من سورة البقرة. و أيضا اختلفوا في نبوة محمد (ص)، و ما آمن به إلا قليل .. و لو كانوا طلاب حق لاتفقوا على الأخذ بالقرآن الذي قامت الدلائل و البراهين على صدقه **وَ إِنَّهُ لَهُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**. هدى لمن طلب الهداية، و رحمة لمن عمل بأحكامه و تعاليمه.

إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ. يقضي يوم القيامة حيث تزاح الأباطيل و تضمحل العلل، يحكم و يفصل اللّه بين بني إسرائيل و غيرهم فيما اختلفوا و يختلفون فيه من شئون الدين و الدنيا **(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ** فمن التجأ اليه فهو في كهف حريز، و مانع عزيز **إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ** و المحقّ لا يبالي بما قيل و يقال عنه.

إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَ لا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ وَ ما أَنْتَ بِهادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ. هذه الجمل تهدف الى شيء واحد، و هو ان هناك صفات تميت القلب، و تدفع بالإنسان أن يصر على الكفر و النفاق و الضلال، و تجعله و الموتى سواء لا تجدي معه عظة و لا إنذار، و من أهم هذه الصفات الطمع و الحرص على المكاسب و المناصب .. و قد تكرر هذا المعنى بأساليب شتى، منها قوله تعالى:

لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ- ١٧٩ الأعراف. ج ٣ ص ٤٢٥، و قوله: أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَ لَوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ. أَ فَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَ لَوْ كانُوا لا يُبْصِرُونَ- ٤٣ يونس ج ٤ ص ١٦٢ **إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ**. ان الذي يسمع منك و يطيعك يا محمد هو الذي يطلب الحق لوجه الحق بحيث إذا قام عليه الدليل آمن به و انقاد له، أما أرباب المطامع و المصالح فيولون عنك مدبرين.

---

(١). من أغرب ما قرأت ما نقل عن كتاب التلمود، و هو كتاب منزل كالتوراة عند اليهود أو الكثير منهم:

«ان اللّه إذا نزل به مسألة معضلة استشار الخاخامات في حلها، و انه في ذات يوم رأى رأيا خاطئا، فنبهه الى خطئه أحد الخاخامات، فاعترف و أذعن».

تفسير الكاشف، ج۶، ص ٤٠

وَ إِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ. وقع أي ثبت و لزم، و المراد بالقول هنا ما وعد اللّه به من قيام الساعة، و بالناس الكافرون، أما الدابة فقد كثر الكلام فيها، و اللّه سبحانه لم يبيّن لنا ما هي. و الحديث عن المعصوم في بيانها لم يثبت، حتى و لو صح سنده لم نعمل به لأنه خبر واحد، و هو حجة في الأحكام الفرعية، لا في الموضوعات و أصول العقيدة، و القول بغير علم حرام، فلم يبق إلا الأخذ بظاهر الآية

الذي يدل على ان اللّه سبحانه عند ما يحشر الناس للحساب يخرج من الأرض مخلوقا يعلن ان الكافرين جحدوا الدلائل الواضحة و البراهين القاطعة على وجود اللّه و وحدانيته، و نبوة رسله.

و تسأل: لما ذا لم يبين سبحانه حقيقة هذه الدابة، و ترك الناس في حيرة من أمرها، حتى قال من قال فيها بالجهل و الوهم؟

الجواب: ان الغرض من ذكرها هو مجرد التشهير بالكافرين، و انهم يحشرون غدا أذلاء مفضوحين على رؤوس الاشهاد، و هذا الغرض يحصل بمجرد الاشارة إلى الدابة، و ان لم تعرف باسمها و حقيقتها. فهذه الآية أشبه بقوله تعالى: يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ- ١٠٦ آل عمران.

وَ يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا. ممن يكذب (من) هنا بيانية، و ليست للتبعيض، مثلها في قوله تعالى: فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ أي كل الأوثان لا بعضها، و المعنى ان في الأمم مصدقين بآيات اللّه و مكذبين بها، و اللّه سبحانه يحشر غدا للحساب و الجزاء جميع المكذبين دون استثناء، و معلوم ان اللّه سبحانه يحشر المصدقين و المكذبين، و لكن الغرض من ذكر المكذبين التهديد و الوعيد **فَهُمْ يُوزَعُونَ** تمنعهم الملائكة من الذهاب يمنة و يسرة، و تسوقهم إلى الموقف سوق النعاج إلى الذبح.

حَتَّى إِذا جاؤُ قالَ أَ كَذَّبْتُمْ بِآياتِي وَ لَمْ تُحِيطُوا بِها عِلْماً أَمَّا ذا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

إذا وقف الجاحدون بين يدي اللّه غدا للحساب يقول لهم موبخا و مقرعا: لما ذا كذبتم رسلي، و لم تستجيبوا لدعوتهم؟ و إذا كنتم جاهلين بصدقهم فلما ذا أعرضتم عن أدلتهم التي توجب العلم، و لم تنظروا اليها نظرة من يطلب الحق و يبحث عنه

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤١

لوجه الحق؟. و أي شيء أولى و أهم من ذلك؟ و قد اتفق العلماء قولا واحدا على ان العقل يحكم بوجوب النظر إلى معجزة مدعي النبوة دفعا للضرر المحتمل، و قالوا: ان العقل لا يعذر الجاهل بما يجب عليه إذا كان قادرا على البحث و تحصيل المعرفة، و في الحديث: يقال للعبد يوم القيامة: هلا علمت؟ فان قال: نعم.

قيل له: هلا عملت؟ و ان قال: ما علمت. قيل له: هلا تعلمت حتى تعمل **وَ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُوا** حلّ بهم غضب اللّه و عذابه بسبب كفرهم و تقصيرهم في البحث و السؤال **فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ** لانقطاع حجتهم، و أيضا لدهشتهم من شدة الهول.

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٨٦ الى ٩٣]

أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شاءَ اللهُ وَ كُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ (٨٧) وَ تَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ (٨٨) مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠)

إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَها وَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَ أَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (٩٢) وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَتَعْرِفُونَها وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٢

اللغة:

داخرين أذلاء صاغرين. و المراد بالبلدة هنا مكة.

الإعراب:

داخرين حال من فاعل أتوه. و صنع منصوب على المصدرية أي صنع اللّه ذلك صنعا. و يومئذ متعلق بآمنون و التنوين عوض عن جملة محذوفة أي يوم إذ جاء بالحسنة. و جملة هل تجزون مفعول لقول محذوف أي يقال لهم: هل تجزون. و الذي حرمها بدل من رب. و المصدر من ان اعبد مجرور بالباء المحذوفة و مثله ما بعده. و بغافل الباء زائدة اعرابا و غافل خبر لربك.

المعنى:

أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. تقدم مع التفسير في الآية ٦٧ من سورة يونس ج ٤ ص ١٧٧ **وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ.** ينفخ في الصور إيذانا بقيام الساعة، فتنخلع قلوب الخلائق من هذا النفخ خوفا و هلعا الا قلوب النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين الذين استثناهم سبحانه بقوله: **إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ** و أشارت اليهم الآية ٦٩ من سورة النساء: وَ مَنْ يُطِعِ اللهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٣

و في بعض التفاسير ان النفخات في الصور ثلاث: نفخة الفزع، و نفخة موت الجميع، و نفخة البعث، و يدل على النفخة الأولى الآية التي نفسرها، أما الثانية و الثالثة فيدل عليهما قوله تعالى: وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ- ٦٨ الزمر. **وَ كُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ** أي ان الخائفين يحشرون الى ربهم صاغرين.

الجبال و حركة الأرض:

وَ تَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ. موضوع هذه الآية و التي قبلها واحد، و هو الحديث عن يوم القيامة و أهواله، و عليه يكون المعنى ان اللّه سبحانه يقتلع الجبال من أماكنها و يسيّرها في الفضاء تماما كما تسير السحاب، و لكن يخيل للرائي انها ثابتة، ذلك ان الجرم الكبير إذا سار في سمت واحد و خط مستقيم فلا تدرك الأبصار حركاته لضخامته و بعد أطرافه، و بالخصوص إذا كان الرائي بعيدا عنه.

و بهذا يتبين معنا خطأ من استدل بهذه الآية على ان القرآن قد أشار إلى حركة الأرض، و هناك آيات كثيرة تؤكد ان المراد بمرور الجبال في هذه الآية هو تسييرها في الفضاء يوم القيامة، من تلك الآيات قوله تعالى: وَ يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ وَ تَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً وَ حَشَرْناهُمْ- ٤٧ الكهف. و قوله: وَ سُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً- ٢٠ النبأ. و قوله: يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ- أي تضطرب- مَوْراً وَ تَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً- ٩ الطور. و كلام القرآن واحد يشهد بعضه على بعض، و ينطق بعضه ببعض.

أجل، ان أهل بيت النبي (ص) الذين عندهم علم الكتاب و السنة قد صرحوا بحركة الأرض قبل «كوبرنيكوس» بحوالى

الف عام، قال الإمام علي (ع) في نهج البلاغة: و بسط الأرض على الهواء ... و أرساها على قرار ... و رفعها بغير دعائم ... و عدّل حركتها بالراسيات. و قال حفيده الإمام جعفر الصادق (ع):

«ان تدل الأشياء على حدوثها من دوران الفلك بما فيه هي سبعة أفلاك: تحرك الأرض الخ».

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٤٤

صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ من أكبر كبير إلى أصغر صغير، و هذا الإتقان و الترتيب و النظام من أقوى الشواهد على وجود اللّه و وحدانيته و عظيم قدرته **إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمٰا تَفْعَلُونَ**. و الذي خلق الإنسان، و أتقن صنعه يعلم ما يفعل من خير أو شر، و ما توسوس به نفسه: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسٰانَ وَ نَعْلَمُ مٰا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ- ١٦ ق.

مَنْ جٰاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهٰا وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ وَ مَنْ جٰاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النّٰارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. و أوضح تفسير لقول اللّه هذا هو قوله: مَنْ جٰاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثٰالِهٰا وَ مَنْ جٰاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاٰ يُجْزىٰ إِلاّٰ مِثْلَهٰا وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ- ١٦٠ الأنعام ج ٣ ص ٢٩٠.

إِنَّمٰا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهٰا وَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. المراد بالبلدة مكة المكرمة، و خصها بالذكر مع انه رب العالمين لينبه قريشا الى نعمته عليهم بسببها، فلقد كانوا يستمدون سيادتهم على العرب من تعظيمها و جعلها حرما آمنا يحرم فيه القتل و القتال، و الصيد و قطع الأشجار، و ما إلى ذلك مما يدل على شرفها و مكانتها، و مع هذا عبدت قريش الأصنام، و دنست بها الكعبة، فأشركت برب هذه البلدة المكرمة المعظمة الذي أطعمهم من جوع و آمنهم من خوف .. و قول الرسول الأعظم (ص): **إِنَّمٰا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هٰذِهِ الْبَلْدَةِ .. وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** هو تعريض بقريش و عبادتها الأصنام، و ان الواجب عليها أن تترك عبادة الأصنام التي لا تملك شيئا، و تعبد رب هذه البلدة الذي له الخلق و الملك و الأمر، و هو على كل شيء قدير، و قد تفضل على قريش بالكثير من عطائه و آلائه.

وَ أَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ. المراد بتلاوة القرآن هنا الدعوة إلى الايمان به، و السير على منهجه **فَمَنِ اهْتَدىٰ فَإِنَّمٰا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمٰا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ**.

دعا الرسول الأعظم (ص) الى الهدى، فمن سمع و أطاع فقد أحسن لنفسه، و سلك بها سبيل الخير و النجاة، و من أعرض و تولى فقد أساء اليها و أوردها موارد الشر و الهلاك .. و النبي (ص) غير مسؤول عما يحل بأهل الغي و الضلال بعد أن نصح لهم و أبلغهم رسالات ربه **وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ** على ما وفقني اليه من تبليغ رسالاته

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٤٥

إلى عباده كما أحب و أراد **سَيُرِيكُمْ آيٰاتِهِ فَتَعْرِفُونَهٰا**. لقد أراهم سبحانه آياته و دلائله في أنفسهم و في الآفاق فأنكروها .. فقال لهم: تنكرونها الآن، و تعترفون بها غدا حيث لا ينفعكم الاعتراف و الإذعان **وَ مٰا رَبُّكَ بِغٰافِلٍ عَمّٰا تَعْمَلُونَ**.

هذا تهديد و وعيد على إعراضهم و انكارهم آيات اللّه و بيناته.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٤٦

سورة القصص

قال الطبرسي: هي مكية، و آياتها ٨٨ آية.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

[سورة القصص (٢٨): الآيات ١ الى ٦]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

طسم (١) تِلْكَ آيٰاتُ الْكِتٰابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسىٰ وَ فِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاٰ فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَهٰا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طٰائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنٰاءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِي نِسٰاءَهُمْ إِنَّهُ كٰانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤)

وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوٰارِثِينَ (٥) وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَ هٰامٰانَ وَ جُنُودَهُمٰا مِنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَحْذَرُونَ (٦)

اللغة:

شيعا فرقا مختلفة متناحرة.

الإعراب:

بالحق متعلق بمحذوف حالا من فاعل نتلو أي متكلمين بالحق. و ضمير منهم يعود الى الذين استضعفوا.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٧

المعنى:

(طسم) تقدم الكلام على مثله في أول سورة البقرة **تِلْكَ آيٰاتُ الْكِتٰابِ الْمُبِينِ**. تلك إشارة الى هذه السورة، و الكتاب القرآن، و المبين الواضح في تمييز الغي من الرشد **نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسىٰ وَ فِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**.

لقد تلا سبحانه هذا النبأ على نبيه الكريم مرات و مرات، و أوضحنا الغاية من تكراره عند تفسير الآية ٩ من سورة طه، فقرة: «تكرار قصة موسى».

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاٰ فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَهٰا شِيَعاً. طغى و بغى، و تكبر و تجبر، و قسم أهل مملكته إلى فئات متطاحنة ليدوم له الملك، يعطي فئة، و يمنع أخرى **يَسْتَضْعِفُ طٰائِفَةً** - أي بني إسرائيل - **مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنٰاءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِي نِسٰاءَهُمْ إِنَّهُ كٰانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**. تقدم مثله في الآية ٤٩ من سورة البقرة ج ١ ص ٩٩ و الآية ١٢٧ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٨٢.

لما ذا اضطهد فرعون بني إسرائيل؟

قال بعض المفسرين الجدد في ظلاله: «اضطهد فرعون بني إسرائيل لأن لهم عقيدة غير عقيدته، فهم يدينون بدين جدهم ابراهيم و يعقوب، و مهما وقع في عقيدتهم من الانحراف فقد بقي لها أصل الاعتقاد بإله واحد». و نحن نسأل هذا المفسر الجديد: من أين جاءك العلم ان اليهود كانوا في عهد فرعون على دين ابراهيم (ع)، و أنه قد بقي لهم الاعتقاد بإله واحد؟ هل جاءك هذا العلم من قولهم: يٰا مُوسَى اجْعَلْ لَنٰا إِلٰهاً كَمٰا لَهُمْ آلِهَةٌ، أو من قولهم له: أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً، أو من عبادتهم العجل، أو من قتلهم الأنبياء؟ و إذا كان فرعون قد اضطهدهم لأنهم على دين ابراهيم فلما ذا وصفهم نبيهم و مخلّصهم موسى بالفاسقين كما في الآية ٢٥ من سورة المائدة و بالسفهاء في الآية ١٥٥، و بالمبطلين في الآية

١٧٣، و بالجهل في الآية ١٣٨ من سورة الأعراف، كما وصفهم اللّه سبحانه في العديد من آياته بالفساد و بكل جريمة و رذيلة؟.

لقد ذكر القرآن ان فرعون اضطهد بني إسرائيل، و انه تعدى الحدود في

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٤٨

ظلمه، و لكنه لم يشر الى السبب، و لذا اختلف الفقهاء في تحديده، فمن قائل:

ان كاهنا قال لفرعون: يولد مولود في بني إسرائيل ينتزع منه الملك. و قائل:

ان الأنبياء الذين كانوا قبل موسى بشّروا بمجيئه، و لما علم فرعون بذلك خاف و ذبح أبناء إسرائيل .. و ما رأيت أحدا من المفسرين أو غيرهم قال: ان فرعون اضطهد اليهود لأنهم على دين ابراهيم.

و إذا نظرنا الى سيرة بني إسرائيل مع نبيهم و مخلّصهم موسى، و مع غيره من أنبيائهم الذين جاءوا بعد موسى حيث كانوا يكذبون فريقا و فريقا يقتلون، و نظرنا الى سيرتهم و أعمالهم في كل بلد يحلّون فيه من اثارة الفتن، و تدبير المؤامرات، و محاولة السيطرة على وسائل الانتاج و الدعاية و غيرها من المرافق العامة، إذا نظرنا الى ذلك كله تبين لنا صحة ما قاله الشيخ المراغي في تفسيره: ان فرعون انما اضطهد بني إسرائيل لأنه كان يتوجس خيفة من الذكران الذين يتمرسون الصناعات و بأيديهم زمام المال، فإذا طال بهم الأمد استولوا على المرافق العامة، و غلبوا عليها المصريين، و الغلب الاقتصادي أشد وقعا من الغلب الاستعماري.

أجل، ان فرعون طغى و بغى، و تجاوز الحد في ذبح الأبناء و استرقاق النساء، و لكن هذا التعدي و الطغيان كان سببه اليهود، فالتبعة تقع على الاثنين معا: على اليهود لحقدهم و سوء تصرفهم و أهدافهم، و على فرعون لأنه أخذ البريء بجرم المذنب.

متى يمن اللّه على المستضعفين؟

وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ. المستضعفون في الأرض هم الذين يضطهدهم الأقوياء، و يتسلطون على أقواتهم و مقدراتهم ظلما و عدوانا، و اللّه سبحانه يمن عليهم بالحرية و الخلاص من الاضطهاد إذا جاهدوا و ثابروا و استماتوا من أجل حياتهم و كرامتهم تماما كما يمن سبحانه على المريض بالشفاء إذا استعمل العلاج الصحيح، و على الفلاح بالثمر إذا عمل و اتقن .. ان للّه سنة في خلقه، و هي ان تجري الأمور على أسبابها، و الغايات على وسائلها، و لن تجد لسنة اللّه تبديلا ..

أبدا. كل من سار على الدرب وصل مؤمنا كان أو كافرا .. أما جزاء الكفر

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٤٩

و الايمان ففي يوم القيامة، و ليس في هذه الحياة، فمن ركع للظالم خذله اللّه، و أوكله الى من ظلمه حتى و لو صلى و صام و حج الى بيت اللّه الحرام، لأنه خذل الحق، و نصر الباطل، و ما له في الآخرة من خلاق.

و من ثار على الظلم و أهله، و استمات من أجل كرامته نصره اللّه سبحانه على الظالمين الطغاة، و ان كان كافرا، لأنه التقى مع ارادة اللّه و أمره بهذا الجهاد و النضال ..

و لا نرجع إلى التاريخ القديم لنستمد منه الشواهد على هذه الحقيقة، فإن صمود الشعب الفيتنامي الأعزل أمام أعتى قوى الشر و الفساد لدليل قاطع على ان اللّه مع المظلوم المجاهد الصابر كائنا من كان.

و الخلاصة ان اللّه لا يقاتل من أجل المستضعفين، و لكنه يقف معهم و يمدهم بعونه إذا قاتلوا و ناضلوا مستهدفين الحق و العدل، و التحرر من البغي و الاستغلال، ان اللّه مع هؤلاء لأنه مع كل مجاهد و عامل من أجل الحياة. و تكلمنا عن ذلك مفصلا عند تفسير قوله تعالى: إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ- ١١ الرعد ج ٤ ص ٣٨٦.

و تسأل: ان اللّه سبحانه أغرق فرعون و قومه، و نجّى بني إسرائيل من عذابهم و اضطهادهم، و معنى هذا ان اللّه يقاتل عن المستضعفين، بل جاء في الآية ٣٨ من سورة الحج: إِنَّ اللهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا؟

الجواب: انه تعالى أغرق فرعون و قومه لشركهم و تكذيبهم الرسول، و ليس انتصارا لبني إسرائيل تماما كما أهلك قوم نوح و غيرهم من المشركين، فترتب على ذلك خلاص المظلومين و المضطهدين من بني إسرائيل و غير بني إسرائيل، أما آية سورة الحج فالمراد بالذين آمنوا المجاهدون، أما الكسالى فهم على دين من قال لموسى: فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ.

وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً أي نجعل منهم أنبياء **وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ** يجعلهم اللّه أحرارا بعد أن استعبدهم فرعون أمدا طويلا **وَ نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ** ضمير منهم يعود على بني إسرائيل، و المعنى ان فرعون و ملأه خافوا أن يذهب سلطانهم على يد رجل من بني إسرائيل، فاحتاطوا لذلك و لكن اللّه سبحانه أوقعهم فيما كانوا يحذرون.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٥٠

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٧ الى ١٣]

وَ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَ لا تَخافِي وَ لا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ (٨) وَ قالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَ لَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩) وَ أَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْ لا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَ قالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (١١)

وَ حَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ ناصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَ لا تَحْزَنَ وَ لِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣)

اللغة:

أوحينا ألهمنا. و اليمّ البحر و المراد هنا تهر النيل. و قرة عين فرح و سرور.

و فارغا أي لا شيء فيه إلا الاهتمام بموسى. و ربطنا ثبتنا. و قصّيه تتبعي خبره.

و عن جنب أي جانب كأنه غير مقصود بالذات كما تقول: هذا شيء جانبي، و قيل: المراد بالجنب هنا البعد.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٥١

الإعراب:

ان أرضعيه (ان) بمعنى أي مفسرة لأوحينا. و ليكون اللام للعاقبة مثل: لدوا للموت و ابنوا للخراب، و المصدر المنسبك

من ان المضمرة و ما دخلت عليه متعلق بالتقطه. و قرة خبر لمبتدأ محذوف أي هو قرة عين. و عسى تامة و المصدر من أن ينفعنا فاعل. و ان كادت (ان) مخففة و اسمها محذوف أي انها كادت. و المصدر من ان ربطنا مبتدأ و خبره محذوف، و أيضا جواب لولا محذوف أي لولا ربطنا على قلبها حاصل لأبدت به. و عن جنب متعلق بمحذوف حالا من فاعل بصرت أي بصرت به بعيدة.

المعنى:

وَ أَوْحَيْنٰا إِلىٰ أُمِّ مُوسىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ. المراد بالوحي هنا الإلهام مثل قوله تعالى: وَ أَوْحىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ- ٦٨ النحل. و نقلنا في ج ٣ ص ٣٧٣ عن كتاب «قصص القرآن» ان اسم أم موسى يوكابد، ثم قرأنا في التوراة ان هذا هو اسمها، و انه قد تزوجها ابن أخيها عمرام أبو موسى، و في قاموس الكتاب المقدس ان معنى يوكابد في العبرانية «يهوه مجد» و ان موسى كان أصغر أولاد أبيه، و ثالث ثلاثة: مريم البكر، و هرون الثاني. **فَإِذٰا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ.** إذا خافت عليه من الذبح تلقيه بيدها في لجة البحر! .. كيف؟

و أي عاقل يستجير من الرمضاء بالنار؟ **وَ لاٰ تَخٰافِي وَ لاٰ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جٰاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ.** و لا تخافي عليه: ان اللّه هو الحافظ له و الوكيل، فالذي جعل النار بردا و سلاما على ابراهيم يجعل البحر أمانا لموسى، أخبرها سبحانه بسلامة وليدها، و انها ستربيه و تحضنه، و بشرها بأنه قد اختاره لرسالته، و خصه برحمته. و تقدم نظيره في الآية ٣٩ من سورة طه.

فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً. التقطوه و ربوه لينفعهم أو يتخذوه ولدا، فكان عاقبة أمره ان صار عدوا لعقيدتهم و عاداتهم، يدخل الهم و الحزن على قلوبهم، و في النهاية كان مصرعهم و ذهاب ملكهم على يده **إِنَّ**

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٥٢

فِرْعَوْنَ وَ هٰامٰانَ وَ جُنُودَهُمٰا كٰانُوا خٰاطِئِينَ ضالين في جميع أعمالهم و تصرفاتهم، و بخاصة قتلهم ألوف الصبيان ليتخلصوا من موسى، فكانت النتيجة ان خلصوه هو من الموت ليقضي عليهم. و في قاموس الكتاب المقدس «١» ان حياة موسى في بيت فرعون مجهولة التفاصيل، و ان العلماء المؤرخين اختلفوا في زمانه، فقال بعضهم: انه كان في أيام أمون (١٤٣٦- ١٤١١ ق. م.). و قال آخرون: انه كان في أيام رعمسيس الثاني (١٢٩٠- ١٢٢٣ ق. م.) و قال ثالث: كان في أيام منفتاح (١٢٢٣- ١٢١١ ق. م.).

وَ قٰالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَ لَكَ لاٰ تَقْتُلُوهُ عَسىٰ أَنْ يَنْفَعَنٰا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَ هُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ. امرأة فرعون هي آسية بنت مزاحم، و قد أثنى اللّه عليها في الآية ١١ من سورة التحريم: وَ ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قٰالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَ نَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ وَ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظّٰالِمِينَ. و في الحديث: «خير نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران، و آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، و خديجة بنت خويلد، و فاطمة بنت محمد» ..

و لما نظر فرعون الى موسى ثار و قال: كيف سلم هذا الصبي العبري من الذبح؟

هل خفي أمره على العيون و الجواسيس، أو أخفوه عني؟ .. فتلطفت به امرأته، و حبّبته بالصبي ليكون قرة عين لهم، فكان قذى في عيونهم، و شجى لقلوبهم.

وَ أَصْبَحَ فُؤٰادُ أُمِّ مُوسىٰ فٰارِغاً إِنْ كٰادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْ لاٰ أَنْ رَبَطْنٰا عَلىٰ قَلْبِهٰا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. ألقت وليدها

في البحر، و هي تأمل أن يلتقطه من يحفظه من فرعون، و إذا بالقدر يخرجه من البحر الى بيت فرعون .. و لما أتاها الخبر انه وقع في يد الجلاد توقعت هلاكه، فجزعت جزعا شديدا، و نسيت نفسها، و ما كان قد وعدها اللّه به من رده اليها، و كادت تظهر جزعها، و تهتف باسم عزيزها، و لكن اللّه شملها بلطفه و عنايته، فثبتها لتكون من المؤمنين بوعده،

---

(١). يطلق المسيحيون اسم الكتاب المقدس على التوراة و الأناجيل الأربعة، و القاموس المذكور يبين معاني الكلمات التي جاءت في الكتاب المقدس، و يشير الى تاريخ الوقائع و الأشخاص، و غير ذلك مما يتصل بالتوراة و الأناجيل.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٥٣

و هو قوله سبحانه: **إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ** فصبرت و تمالكت **وَ قَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ** اذهبي و تلمسي خبره، فذهبت فرأت أخاها عند آل فرعون **فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ**. نظرته نظرة جانبية كأنها لا تريده بالذات، و آل فرعون لا يعلمون قصدها و انها أخت هذا الصبي الذي التقطوه من اليمّ.

وَ حَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ. استمع فرعون لامرأته و أبقى الصبي بعد أن ألقى اللّه محبته في قلبه، و أمر بالبحث عن مرضعة تكفله و ترعاه، و سيقت اليه المراضع من هنا و هناك، و كل واحدة تود لو يقبل ثديها لتنال المنزلة عند فرعون، و لكنه عاف الجميع و نفر منهن قبل مجيء أمه **فَقالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ ناصِحُونَ**. لما رأت أخت موسى حيرة آل فرعون في أمر الصبي عرضت عليهم أن ترشدهم الى من يقبل ثديها من دون النساء، و تهتم بشأنه، و لا تقصر في رعايته. و تقدم مثله في الآية ٤٠ من سورة طه **فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَ لا تَحْزَنَ** أيضا تقدم في الآية ٤٠ من سورة طه **وَ لِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ**. ضمير تعلم يعود إلى أم موسى، و المراد بوعده تعالى قوله لها: **إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ** و ليس لما وعد اللّه مترك وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ لطائف تدبيره تعالى، و غوامض حكمه.

[سورة القصص (٢٨): الآيات ١٤ الى ١٩]

وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوى آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هذا مِنْ شِيعَتِهِ وَ هذا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥) قالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قالَ رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قالَ لَهُ مُوسى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (١٨)

فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما قالَ يا مُوسى أَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَ ما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٥٤

اللغة:

بلغ أشده استكمل قوته جسما و عقلا. و على حين غفلة أي دخل موسى المدينة و الناس ذاهلون عنه. و ظهيرا معينا. و يترقب ينتظر. و استنصره طلب نصره. و يستصرخه يطلب غوثه و معونته. و الغوي الضال.

الإعراب:

على حين غفلة متعلق بمحذوف حالا من فاعل دخل. و هذا من شيعته و هذا من عدوه بدل مفصل من مجمل. و بما أنعمت الباء للقسم و ما مصدرية أي بانعامك عليّ. و جملة يترقب حال من فاعل أصبح. فلما ان أراد (ان) زائدة إعرابا. و المصدر من ان يبطش مفعول أراد. و ان تريد (ان) نافية.

المعنى:

وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوىٰ آتَيْنٰاهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. تقدم

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٥٥

بنصه الحرفي في الآية ٢٢ من سورة يوسف. و جاء هناك وصفا ليوسف، و هنا وصفا لموسى.

وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهٰا فَوَجَدَ فِيهٰا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاٰنِ هٰذٰا مِنْ شِيعَتِهِ وَ هٰذٰا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغٰاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسىٰ فَقَضىٰ عَلَيْهِ. المراد بالمدينة هنا مصر .. و في ذات يوم دخل موسى بعض شوارعها دون أن يشعر أحد به، فرأى رجلين يتشاجران و يقتتلان: أحدهما قبطي من أتباع فرعون، و الآخر اسرائيلي من جماعة موسى، و كان الأقباط بوجه العموم يضطهدون الاسرائيليين، و يحسبونهم خدما لهم و عبيدا، فاستنجد الاسرائيلي بموسى، فوكز موسى القبطي بيده أو بعصاه بقصد التأديب و الردع عن البغي، لا بقصد القتل، فوقع جثة هامدة، و يسمى هذا بقتل الخطأ **قٰالَ هٰذٰا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطٰانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ.** هذا اشارة إلى الشجار و القتال الذي وقع بين القبطي و الاسرائيلي، لا إلى الوكز أو القتل غير المقصود، و المعنى ان القتال بين الاثنين مصدره وسوسة الشيطان و اغراؤه بالمعاصي و الذنوب.

قٰالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. كل تقصير في حق اللّه تعالى ينسبه الأنبياء و الأولياء إلى أنفسهم فهو دعاء و خشوع للّه سبحانه، و لا دلالة فيه على الذنب و التقصير، لأن العارف باللّه حقا يتهم نفسه بالتقصير في طاعة اللّه و عبادته، و من أجل هذا يسأله العفو و الصفح عن الذنب، و قديما قيل: سيئات الأبرار حسنات الأشرار. انظر ما قلناه بعنوان التوبة و الفطرة ج ٢ ص ٢٧٥ **قٰالَ رَبِّ بِمٰا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ.** سأل موسى ربه العفو، و أعطاه عهدا على نفسه أن يكون حربا على الطغاة المجرمين كفرعون و جنوده، و عونا لكل مؤمن صالح.

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خٰائِفاً يَتَرَقَّبُ. خاف موسى ان يطالب بدم القبطي، و توقع الشر من فرعون و قومه .. و بينما هو كذلك **فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ** يطلب النصر من موسى بصياح و صراخ **قٰالَ لَهُ مُوسىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ.** ما شأنك تشتبك كل يوم مع قبطي؟ و تسبب لنا المتاعب و المشاكل؟ ألا ترعوي عن غيك و ضلالك؟.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٥٦

فَلَمّٰا أَنْ أَرٰادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمٰا. أراد موسى أن يبطش بالقبطي لأن الأقباط هم الذين كانوا يعتدون على الاسرائيليين و يعاملونهم معاملة العبيد كما أشرنا، و قد ظن القبطي أن موسى يريد قتله، و لذا **قٰالَ يٰا مُوسىٰ أَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمٰا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلاّٰ أَنْ تَكُونَ جَبّٰاراً فِي الْأَرْضِ وَ مٰا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ.**

بالأمس قتلت رجلا، و اليوم تريد قتلي، هل أنت من الجبارين، أم المصلحين؟ و يومئ هذا إلى أن موسى كان معروفا بالصلاح و حسن السلوك، و ان القتل لا يتفق مع سيرته و مسلكه.

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٢٠ الى ٢٨]

وَ جاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى قالَ يا مُوسى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ قالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَ لَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ قالَ عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَ لَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودانِ قالَ ما خَطْبُكُما قالَتا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ وَ أَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقى لَهُما ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقالَ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)

فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ قالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا فَلَمَّا جاءَهُ وَ قَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قالَتْ إِحْداهُما يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَ ما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قالَ ذلِكَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ وَ اللهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٥٧

اللغة:

أقصى المدينة آخرها. و يسعى يسرع في المشي. و تلقاء مدين حذاءها وجهتها. و سواء السبيل وسط الطريق. تذودان تمنعان غنمهما عن ورود الماء.

ما خطبكما؟ ما شأنكما؟ حتى يصدر الرعاء حتى ينصرف الرعاء، و الرعاء و الرعاة و الرعيان بمعنى واحد. و الاستحياء شدة الحياء. و القصص الحديث المقصوص.

و الحجج جمع حجة، و هي السنة.

الإعراب:

ليقتلوك منصوب بأن مضمرة و المصدر متعلق بيأتمرون. و خائفا حال من فاعل خرج. و جملة يترقب حال ثانية. و تلقاء ظرف مكان. و جملة تذودان صفة لامرأتين. و فقير خبر ان، و لما أنزلت متعلق بفقير. و على استحياء في موضع الحال أي مستحية. و القوي الأمين خبر ان. و هاتين عطف بيان من ابنتيّ. و على ان تأجرني في موضع الحال أي مشروطا عليك. و ثماني ظرف لأنها مضافة اليه و عشر أيضا ظرف لأن المعنى فإن أتممت العمل في عشر سنين. فمن عندك متعلق بمحذوف خبرا لمبتدأ محذوف أي فالتمام كائن من عندك. و ذلك مبتدأ و بيني و بينك خبر

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٥٨

أي بيننا. أيما كلمتان (اي) الشرطية و (ما) الزائدة، و محل أي نصب بقضيت. فلا عدوان جواب الشرط.

المعنى:

وَ جاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى قالَ يا مُوسى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ

النَّاصِحِينَ. علم فرعون و حاشيته بما كان من موسى مع القبطي الأول الذي قتله خطأ، و الثاني الذي قال له: أَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي فتشاوروا في أمر موسى، و صمموا على قتله، و لما علم أحد المؤمنين بذلك أسرع إلى موسى، و أخبره بما دبروا له، و أشار عليه بالفرار من القوم الظالمين، و قال كثير من المفسرين: ان هذا المؤمن هو الذي أشارت اليه الآية ٢٨ من سورة غافر:

وَ قالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَ تَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَ قَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ؟.

فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ قالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. قبل موسى النصح من المؤمن، و خرج من مصر بلا زاد و ماء و ظهر و رفيق، و هو خائف يترقب أن تلحق به جلاوزة فرعون، و فوق هذا لا يدري أين يتجه؟ فالتجأ الى ربه، و سلم اليه أمره، و سأله الهداية و النجاة من فرعون و قومه **وَ لَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ قالَ عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ**. سار موسى دون أن يقصد بلدا معينا، و هو على يقين من ربه، و انه سيرشده إلى الطريق القويم الذي يؤدي به إلى النجاح و الفلاح، و أخذ سبحانه بيده، و اتجه به إلى مدين بلد شعيب، و بين مصر و بينها صحراء واسعة الأطراف، ممتدة الأبعاد، يقطعها المسافر مشيا في ثمانية ايام، فاجتازها موسى برعاية اللّه و توفيقه، و كان يأكل من نبات الأرض .. و بالأمس القريب كان في قصر فرعون يتمتع بما لذ و طاب، و لكن حشائش الأرض و الخوف خير الف مرة عند المخلصين الأحرار من النعمى مع الظلمة الطغاة كما قال الإمام الحسين (ع): و اللّه لا أرى الموت إلا سعادة و الحياة مع الظالمين إلا برما.

وَ لَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۵۹

تَذُودانِ قالَ ما خَطْبُكُما قالَتا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ وَ أَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقى لَهُما موسى .. فقد انتهى به السير إلى بئر، فوجد عنده جماعة من الرعاء يستقون منها لماشيتهم، و رأى امرأتين في ناحية عن جماعة الرعاء، و معهما غنيمات تحاول أن ترد الماء، و المرأتان تصرفانها عنه .. أثار هذا المنظر انتباه موسى، و قال لهما: لما ذا تمنعان غنمكما عن الماء، و هي عطاشى؟ فقالتا: نحن نسوة ضعاف، لا نقدر على مزاحمة الرجال، و أبونا شيخ كبير يعجز عن الرعي و السقي، فننتظر حتى يفرغ الرعاء فنستقي، فتحركت في نفس موسى نخوة الدين و الانسانية و سقى لهما.

و لا عجب إذا أنجد موسى نسوة ضعافا، فقد ينجد المرأة الضعيفة الكافر و الشقي، و أيضا لا عجب أن يعيش شعيب و بناته من كد اليمين و عرق الجبين، فهذه هي سيرة الأنبياء و خلفائهم الأتقياء من قبل و من بعد، و إنما العجب أن لا يكون لهذه الروح القرآنية أي أثر في نفوسنا نحن الذين ندعي العلم باللّه و كتابه و سيرة أنبيائه .. و أعجب العجب أن نتسابق و نتنافس في طلب الدنيا و مظاهرها.

ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقالَ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ. سقى موسى غنم الفتاتين، و ذهب الى شجرة يتفيأ ظلالها، و كان قد أنهكه و أعياه التعب و الجوع، فسأل اللّه من فضله و كرمه، و لم يبالغ و يلح في المسألة لأن المطلوب سد الخلة و كفى، و لو طلب الآخرة لبالغ و ألح، و في نهج البلاغة:

و اللّه ما سأله إلا خبزا يأكله لأنه كان يأكل بقلة الأرض، و قد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاق بطنه لهزاله و تشذب لحمه. الصفاق الجلد الأسفل، و التشذب انهضام اللحم.

فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ قالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا. رجعت الفتاتان إلى

أبيهما، و أخبرتاه بما كان، فقال لواحدة منهما: اذهبي و ادعيه لنجزيه على إحسانه، فجاءته الفتاة يكسوها الحياء و الخجل، و الطهر و العفاف، و قالت له ما قال أبوها **فَلَمَّا جٰاءَهُ وَ قَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قٰالَ لاٰ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظّٰالِمِينَ**. استجاب موسى للدعوة، و رحب به الشيخ و شكره على صنيعه، و لما طابت نفس موسى و اطمأنت الى الشيخ حدثه بما جرى

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٦٠

له مع فرعون و قومه فقال له الشيخ: لا تخف .. انك عندنا في مكان حصين أمين، لا سلطان عليك فيه لفرعون و لا لغيره من الظالمين.

و اختلف المفسرون في هذا الشيخ من هو؟ فأكثرهم على أنه شعيب، و قال فريق منهم: انه غيره .. و لا مستند لهؤلاء و أولئك إلا مرجحات لا تغني عن الحق شيئا .. و لسنا نهتم بمثل هذه الاختلافات، ما دامت لا تمت الى العقيدة و الحياة بسبب .. و قد اخترنا اسم شعيب لهذه الشخصية لمجرد التعبير عنها، و لأن هذا الاسم هو الشائع بين الأكثرية كما شاع بين طلاب النجف و علمائها: ليس النزاع في التسمية من دأب المحصلين.

(قالت إحداهما) و هي التي استدعته الى أبيها كما يشعر وصفها له بالقوي الأمين **يٰا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ**. و ما شهدت إلا بما رأت من قوته و هو يسقي لها و لأختها، و من عفته حين توجهت اليه بالدعوة إلى أبيها **قٰالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هٰاتَيْنِ عَلىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمٰانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَ مٰا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شٰاءَ اللّٰهُ مِنَ الصّٰالِحِينَ**. موسى الشريد الطريد و الفقير الذي لا يملك شيئا، و الذي عاش أياما على نبات الأرض حتى سأل اللّه لقمة يقيم بها الأود، هذا الجائع اللاجئ يعرض عليه شيخ جليل احدى ابنتيه، و يدع له الخيار في أيتهما يريد .. اذن، لا بد أن يكون هناك سر .. أجل، هناك سر، و هو يكمن في شخصية موسى و عظمته التي لمسها الشيخ في صنعه مع ابنتيه، و في حديثه و سيرته مع فرعون و قومه التي قصها عليه، فأدرك الشيخ بفطرته النقية الصافية ان هذه الشخصية سيكون لها ابعد الآثار لأن الأعمال التي تصدر عن الإنسان تكون في الغالب من نوع واحد ..

فالشيخ- اذن- هو الفائز الرابح بهذه المصاهرة، و أي ربح أعظم من مصاهرة الأنبياء و الأتقياء؟.

الشريعة الاسلامية نسخت جميع الشرائع:

و تكلم الفقهاء كثيرا حول هذه الآية، و استدلوا بها على ان لولي المرأة أن يعرض

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٦١

زواجها على الرجل .. و الحق ان العرض من الرجل و المرأة نفسها فضلا عن وليها جائز بحسب الأصل، و لا يحتاج إلى النص عليه، و قال الإمامية و الشافعية: ان الزواج لا ينعقد إلا بلفظ التزويج و الانكاح، هذا بعد أن عطفوا على هذه الآية قوله تعالى: فَلَمّٰا قَضىٰ زَيْدٌ مِنْهٰا وَطَراً زَوَّجْنٰاكَهٰا- ٣٧ الأحزاب. و قال المالكية و الحنابلة: ينعقد الزواج أيضا بلفظ الهبة لقوله تعالى: وَ امْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهٰا لِلنَّبِيِّ- ٥٠ الأحزاب. و قال الحنفية: ينعقد بكل لفظ يدل على إرادة الزواج.

و قال كثير من الفقهاء: ان الرعي مدة الثماني الحجج أو العشر ليس مهرا للزواج، و لا هو جزء منه، بل المهر مستقل تماما عن الرعي، و ان قول الشيخ:

«على ان تأجرني الخ» معناه ان رعيت عندي بأجر زوّجتك احدى ابنتي بمهر، تماما كما تقول: ان فعلت كذا فعلت أنا

كذا، و هذا هو المعنى الصحيح للآية.

و على أية حال فانه لا حجة في هذه الآية على شيء مما قاله الفقهاء، لأنها حكاية عن شريعة سابقة، و نحن على يقين ان الشريعة الاسلامية نسخت جميع الشرائع السابقة، و لا يجوز العمل بحكم من أحكامها إلا بدليل خاص أو عام من الكتاب أو السنة، و عليه يكون العمل بهما لا بها، أما الذين قالوا باستصحاب أحكام الشرائع المتقدمة فنرد عليهم بقوله تعالى: ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ- ٣٨ الأنعام و قوله: وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ- ٨٩ النحل أي لكل شيء من أصول الإسلام و شريعته، و قال الرسول الأعظم (ص):

ما من شيء يقربكم إلى الجنة إلا أمرتكم به و ما من شيء يبعدكم عن النار إلا نهيتكم عنه.

قالَ ذلِكَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ وَ اللهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ. هذا من كلام موسى، و الأجل الأول الثماني الحجج، و الثاني العشر، و المعنى ان موسى قال للشيخ: قبلت و رضيت بالزواج و الرعي، و الخيار لي في قضاء الثماني أو العشر، فأيهما اخترت فلا حجة لك عليّ، و اللّه شهيد على ما أوجبته أنت على نفسك، و ما أوجبته أنا على نفسي. و في الحديث: ان موسى

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٦٢

قضى أبرّ الأجلين أي العشر، و في كثير من التفاسير انه اختار الصغرى، و هي التي قالت له: ان أبي يدعوك، و قالت لأبيها: انه القوي الأمين.

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٢٩ الى ٣٣]

فَلَمَّا قَضى مُوسَى الْأَجَلَ وَ سارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ ناراً قالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يا مُوسى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (٣٠) وَ أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى أَقْبِلْ وَ لا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَ اضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (٣٢)

المعنى:

فَلَمَّا قَضى مُوسَى الْأَجَلَ وَ سارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ ناراً قالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ.

بعد أن أتم موسى المدة التي اتفق عليها مع أبي زوجته جمع أشتات متاعه، و سافر قاصدا مصر مع أهله، و في قاموس الكتاب المقدس: ذهب موسى إلى مصر مع زوجته و ابنيه. و لما وصل إلى الصحراء ضل الطريق في ليلة مظلمة

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٦٣

باردة كما يشعر قوله: لعلكم تصطلون. و بينا هو حائر في أمره رأى نارا تضيء، فقال لأهله: انتظروا مكانكم، فأنا ذاهب إلى النار لآتيكم بخبر عن الطريق، أو بقطعة من النار تستدفئون بها. و تقدم في الآية ١٠ من سورة طه و الآية ٧ من سورة النمل.

فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ أي الجانب المحاذي ليمين موسى **فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يا مُوسى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ.** البقعة القطعة من الأرض، و هي مباركة لكثرة أنبيائها و كثرة خيراتها، و قوله:

(من الشجرة) يشعر بأن اللّه سبحانه خلق الكلام في الشجرة، و قد استدل بهذه الآية من قال ان كلام اللّه حادث و ليس بقديم. و تقدم في الآية ٥٢ من سورة مريم و الآية ١٢ من سورة طه.

وَ أَنْ أَلْقِ - إلى قوله - **الْآمِنِينَ** تقدم في الآية ١٠ من سورة النمل **اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَ اضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ**. اسلك يدك في جيبك أدخلها فيه، و الجيب فتحة القميص. و من الرهب أي إذا وضعت يدك على صدرك يذهب ما بك من الخوف. و تقدم في الآية ١٠٧ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٧٥ و الآية ٢٢ من سورة طه و الآية ٣٣ من سورة الشعراء و الآية ١٢ من سورة النمل.

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٣٣ الى ٣٧]

قالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٣٣) وَ أَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (٣٤) قالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَ نَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما بِآياتِنا أَنْتُما وَ مَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ (٣٥) فَلَمَّا جاءَهُمْ مُوسى بِآياتِنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُفْتَرىً وَ ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) وَ قالَ مُوسى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدى مِنْ عِنْدِهِ وَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٦٤

اللغة:

الردء بكسر الراء المعين. و المراد بالسلطان هنا القوة.

الإعراب:

ردءا حال من الهاء في أرسله.

المعنى:

قالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ تقدم في الآية ١٤ من سورة الشعراء **وَ أَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ**. ردءا معينا لي على بث الدعوة، و فيه إيماء إلى انه لا بد لكل دعوة من أنصار، و ان العلم وحده لا يكفي لاثبات الدفاع عن الحق ما لم تقترن الحجة بطلاقة اللسان و فصاحة البيان، و أيضا تدل الآية على ان القرآن يبارك وسائل الدعاية كالصحف و الاذاعات و غيرها على شريطة أن تتجه إلى احقاق الحق و الانتصار لأهله، و إبطال الباطل و التشهير بأعوانه، تماما كما استعمل هرون علمه و فصاحته ضد الطاغية فرعون.

و قيل: ان هرون أكبر من موسى بثلاث سنين .. و لا ندري كيف نجا من الذبح، و غير بعيد ان هرون ولد قبل أن يأمر فرعون بذبح كل مولود يولد لبني إسرائيل. و في التوراة الاصحاح ٣٢ من سفر الخروج ان هرون هو الذي

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٦٥

صنع العجل لبني إسرائيل، و بنى له مذبحا، و ليس السامري كما جاء في الآية ٩٦ من سورة طه.

(قالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ). سأل موسى ربه أن يشد أزره بأخيه هرون، فاستجاب له، و آتاه سؤله، أما قول موسى: «**فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ**» فقد أجابه عنه تعالى بقوله: **(وَ نَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما بِآياتِنا أَنْتُما وَ مَنِ**

اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُون). في الآية ٤٦ من سورة طه: «قالَ لا تَخافا إِنَّني مَعَكُما أَسْمَعُ وَ أَرى». و قال هنا: اني سلحتكما بسلاح يرهب فرعون و جنوده، و يمتنعون بسببه عنكما و عن الذين يؤمنون بكما، و هذا السلاح أو السلطان هو الآيات و المعجزات من انقلاب العصاحية و تحوّل اليد البيضاء إلى الجراد، و القمل، و الضفادع، و غير ذلك.

(فَلَمَّا جاءَهُمْ مُوسى بِآياتِنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُفْتَرىً وَ ما سَمِعْنا بِهذا في آبائِنَا الْأَوَّلِين). تقدم في الآية ١١٠ من سورة الأعراف و الآية ٦٣ من سورة طه **(وَ قالَ مُوسى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدى مِنْ عِنْدِهِ وَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُون)**. كذبوا موسى و قالوا له: أنت ساحر، فأجابهم جواب من لا يكترث بتكذيبهم و عنادهم ثقة منه باللّه و وعده، و يتلخص الجواب بأن اللّه يعلم اني على الحق و الهدى، و انكم على الباطل و الضلال، و أيضا يعلم ان العاقبة الحميدة لي و لمن اتبعني، و لكم عقبى الهلاك في الدنيا، و عذاب النار في الآخرة.

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٣٨ الى ٤٣]

وَ قالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلى إِلهِ مُوسى وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكاذِبِينَ (٣٨) وَ اسْتَكْبَرَ هُوَ وَ جُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْناهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ (٤١) وَ أَتْبَعْناهُمْ فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢)

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى بَصائِرَ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣)

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٦٦

اللغة:

هامان وزير فرعون. و صرحا بناء عاليا. و أطّلع اصعد. فنبذناهم طرحناهم.

و اللعنة البعد عن رحمة اللّه. و المقبوحين المخزيين المهلكين.

الإعراب:

من إله (من) زائدة إعرابا و إله مفعول علمت، و غيري صفة له. و بصائر حال من الكتاب و هدى و رحمة عطف على بصائر.

المعنى:

(وَ قالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي). قال هذا لأنه وجد من يصدقه .. و حفظت مثالا أيام الطفولة، و ما زلت على ذكر منه، و هو «قيل لفرعون: من الذي فرعنك؟ قال: ما وجدت أحدا يردعني» و أكثر الناس «يتفرعنون» لولا القوة الرادعة. انظر تفسير الآية ٢٤ من سورة النازعات:

«فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى». و في قاموس الكتاب المقدس ان فرعون كلمة مصرية، و معناها البيت الكبير، و هي لقب لملوك مصر.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٦٧

(فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلى إِلهِ مُوسى وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكاذِبِين).

عجز فرعون عن مقابلة الحجة بالحجة، و خاف من موسى و عصاه، فحاول أن يخفي خوفه و عجزه بالتمويه على شعبه

العريق في السذاجة، فأظهر الشك في وجود إله سواه، و انه سينظر و يبحث عن هذا الإله .. فإن وجده طلبه للبراز .. و إلا- و هذا هو المظنون عند فرعون- كان موسى من الكاذبين .. و ليؤكد هذا التمويه على أعين الرعاع الذين عبدوه قال لوزيره هامان:

أوقد النار، و اصنع الآجر لبناء صرح رفيع أصعد منه إلى السماء، لأبحث عن إله موسى .. و لم يبن هامان الصرح- كما نظن- لأنه على يقين من مكر فرعون و تدليسه، و أي عاقل يحاول البناء إلى ما لا نهاية، و يتوهم انه بالخشب و الآجر يبلغ السموات العلى، و يعلم من فيها و عليها؟.

(وَ اسْتَكْبَرَ هُوَ وَ جُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ).

تعاظموا و تعالوا على الناس، و أخذتهم العزة بالإثم، و عاثوا في الأرض شرا و فسادا، و السبب الأول و الأخير انهم لا يؤمنون باللّه و اليوم الآخر، و لا بمبدإ و ضمير، و لا بشيء إلا بأنفسهم و منافعهم، و لذا أخذهم جل و عز أخذ عزيز مقتدر **(فَأَخَذْناهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ).**

ألقت أم موسى وليدها في اليم خوفا من فرعون، فالتقطه هذا العدو للّه و لموسى لينتفع به أو يتخذه ولدا. و لما شبّ موسى و كبر حاول جهده أن ينفع فرعون و ينقذه من الهلاك و العذاب، و لكنه نفر و تكبر، فكان عاقبة أمره ان أهلكه سبحانه في نفس اليم الذي ألقي فيه موسى، و التقطه منه آل فرعون .. و ان في ذلك لعبرة لأولي الأبصار .. و لكن أين هم؟.

وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ. ضمير جعلناهم يعود إلى فرعون و جنوده، و المعنى انهم في الدنيا ضالون و مضلون، و انهم في الآخرة هم الأخسرون، و معنى جعلناهم ان اللّه سبحانه قضى و قدر أن من يسلك طريق الضلال فهو ضال، تماما كما قضى و قدر أن من يسلك طريق الهلاك فهو هالك، و بيّنا ذلك فيما تقدم أكثر من مرة. و عن الإمام جعفر الصادق (ع) ان الأئمة في كتاب اللّه نوعان: أئمة الهدى، و هم الذين أشار سبحانه اليهم بقوله: «وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا- ٧٣ الأنبياء» فيقدمون أمر اللّه قبل أمرهم،

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٦٨

و حكمه قبل حكمهم، و أئمة يدعون إلى النار، يقدمون أمرهم قبل أمر اللّه، و حكمهم قبل حكمه، و يأخذون بأهوائهم خلاف ما في كتاب اللّه.

وَ أَتْبَعْناهُمْ فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ. عليهم في الدنيا لعنة اللّه و لعنة اللاعنين، و لهم في الآخرة عذاب الجحيم **وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى بَصائِرَ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ.**

أنزل سبحانه التوراة على موسى بعد أن أهلك قوم نوح و عاد و ثمود، و الغرض من انزالها أن يتعظ الناس بها، و يعملوا بأحكامها لأنها كانت قبل التحريف نورا و هدى و رحمة، أما توراة اليوم فإنها تقول لبني إسرائيل: اقتلوا الرجال و الأطفال و النساء إلا الأبكار منهن، أبقوهن للذاتكم و شهواتكم .. و انهبوا البهائم و المواشي و الأملاك .. و احرقوا المدن و المساكن و الحصون كما في الإصحاح ٣٢ من سفر العدد. فهل بعد هذا يقال: لما ذا أحرقت إسرائيل المسجد الأقصى؟.

ان عقيدة اليهود عقيدة شريرة تعادي جميع الأديان و الشرائع و القيم الانسانية.

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٤٤ الى ٥١]

وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ وَ ما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَ لكِنَّا أَنْشَأْنا قُرُوناً فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَ ما كُنْتَ ثاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَ لكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا وَ لكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَ لَوْ لا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا لَوْ لا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى أَ وَ لَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسى مِنْ قَبْلُ قالُوا سِحْرانِ تَظاهَرا وَ قالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ (٤٨)

قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدى مِنْهُما أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٤٩) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) وَ لَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٦٩

اللغة:

قرون جمع قرن، و المراد به أهل عصر من العصور فإذا انقضى أكثرهم قيل: انقضى القرن. فتطاول عليهم العمر أي طال عليهم الأمد الذي بينهم و بين القرون الماضية. و ثاويا مقيما. وصّلناه بيّناه آية بعد آية.

الإعراب:

إذ ظرف متعلق بما تعلق به بجانب الغربي أي و ما كنت موجودا إذ قضينا. و جملة تتلو حال من اسم كنت. و رحمة مفعول من أجله لفعل محذوف أي أوحينا اليك رحمة. و لولا ان تصيبهم (لولا) تدل على امتناع شيء لوجود غيره. و المصدر من أن تصيبهم مبتدأ و خبره محذوف أي لولا إصابتهم المصيبة كائنة، و جواب لولا محذوف أيضا تقديره لم نحتج إلى إرسال الرسل. فيقولوا بالنصب عطفا على أن تصيبهم. و لولا أرسلت (لولا) بمعنى هلا. فنتبع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء لتقدّم الطلب و هو لولا. و نكون عطف على فنتبع. و سحران خبر مبتدأ محذوف أي هما سحران. و بغير هدى في موضع الحال أي غير مهتد.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٧٠

المعنى:

وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ وَ ما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ.

الخطاب لمحمد (ص)، و المراد بجانب الغربي المكان الواقع غربي الجبل، كما في تفسير الطبري، و هو المكان الذي كلم اللّه فيه موسى، أما الجانب الأيمن الذي ورد في الآية ٥٢ من سورة مريم فالمراد به الجانب الذي يلي يمين موسى، و المراد بالأمر الذي قضاه الى موسى اختياره للرسالة و النبوة، و المعنى ان إخبار محمد (ص) عما حدث لموسى في غربي جبل الطور هو دليل قاطع على أنه وحي من اللّه، و الا فمن أين لمحمد العلم بتلك الحقائق و الدقائق، و لم يقرأها في كتاب، و لا سمعها من أحد، و لا شاهدها بنفسه.

وَ لكِنَّا أَنْشَأْنا قُرُوناً فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ. المراد بالقرون الأمم التي مرت و انقرضت بين عهد موسى و عهد

محمد، و بين هذين العهدين حوالى ألفي عام.

انظر ما نقلناه عن قاموس الكتاب المقدس عند تفسير الآية ٧ من هذه السورة، و المعنى ان الأمم التي أنشأها اللّه بين العهدين المذكورين لم يبق منها أحد يخبّر عنها، و هذا دليل واضح على ان علم محمد (ص) بها انما هو بوحي من اللّه، هذا الى ان الناس قد طال الأمد بينهم و بين الأنبياء، و أصبحوا في جاهلية جهلاء، و احتاجوا الى نبي يرشدهم و يهديهم الى سواء السبيل، فأرسل اللّه محمدا بشيرا و نذيرا، و أخبر الناس عن أحوال الأمم الماضية و أنبيائهم بوحي منه تعالى للدلالة على نبوته من جهة، و ليتعظوا بمن كان قبلهم من جهة ثانية.

وَ ما كُنْتَ ثاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَ لكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ. مدين بلد شعيب، و قد أخبر محمد (ص) عنه و عن قومه أهل مدين، تماما كما لو أخبر شعيب نفسه الذي كان يتلو على قومه آيات اللّه مع ان محمدا لم يكن نبيا لأهل مدين يتلو عليهم الآيات و يأتيهم بالمعجزات، و لكن اللّه هو الذي أخبره بذلك لأنه رسول اللّه الى عباده و أمينه على وحيه **وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا** أي لم تكن حاضرا يا محمد حين نادى اللّه موسى بجانب الطور. و تسأل:

لا فرق بين قوله تعالى: و ما كنت بجانب الطور، و بين قوله في الآية السابقة:

و ما كنت بجانب الغربي، فما هو القصد من هذا التكرار في كلام واحد؟.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٧١

الجواب: ان اللّه سبحانه كلم موسى و ناداه بجانب الطور أكثر من مرة، فمن الجائز أن تكون الآية الأولى اشارة إلى النداء الأول، و الآية الثانية الى النداء الثاني، هذا الى ان التكرار طريقة متبعة في القرآن. انظر ما كتبناه بعنوان: «التكرار في القرآن ج ١ ص ٩٦ و ج ٢ ص ٤٤٠.

وَ لكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ.

أرسل اللّه محمدا رحمة للعالمين ينذر و يبشر الناس ليسلكوا الطريق الذي يؤدي بهم الى سعادة الدارين.

و تسأل: كيف تجمع بين قوله تعالى: **لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ**، و بين الآية ٢٤ من سورة فاطر: وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيها نَذِيرٌ؟.

الجواب: ذكرنا أكثر من مرة ان آيات القرآن يفسر بعضها بعضا لأن مصدره واحد، و قد جاء في الآية ١٩ من سورة المائدة: قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أي بعد انقطاع الوحي فترة من الزمن، و عليه فليس المراد بقوله: **ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ** ان اللّه لم يرسل اليهم رسولا قبل محمد على الإطلاق، بل المراد انه لم يرسل رسولا في فترة معينة من الزمن.

وَ لَوْ لا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. المراد بالمصيبة عذاب اللّه في الدنيا، و المعنى ان اللّه سبحانه أرسل الرسل لكيلا يكون للناس على اللّه الحجة إذا حل بهم العذاب بسبب كفرهم و طغيانهم. و تقدم مثله في الآية ١٦٥ من سورة النساء ج ٢ ص ٤٩٥ و الآية ١٩ من سورة المائدة ج ٣ ص ٤٠.

فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا لَوْ لا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى. إذا لم يأتهم الرسول قالوا: لو جاء لاتبعناه، و إذا جاء الرسول تعللوا بالأباطيل ..

و لا يختص هذا التمحك و الروغان بالذين كذبوا محمدا (ص) و قالوا له: لو جئت بعصا كعصا موسى، و يد كيده البيضاء لآمنا بك. كلا، انه دأب المترفين الطغاة في كل زمان و مكان، دأب الذين لا يؤمنون إلا بمنافعهم و مصالحهم، و من أجلها يتلونون بكل لون، و يتحالفون مع الشيطان ضد كل صلاح و مصلحة.

أَ وَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمٰا أُوتِيَ مُوسىٰ مِنْ قَبْلُ. طلبوا من رسول اللّه (ص) أن

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٧٢

يأتيهم بمثل ما جاء به موسى من المعجزات، فأجابهم سبحانه بأن من طلب الحق لوجه الحق يستجيب له، و يؤمن به متى استبانت حجته و ظهرت دلائله أيا كان نوعها و شكلها، أما الذين لا يؤمنون إلا بأهوائهم، و يتخذونها قائدا و دليلا في جميع تصرفاتهم- أما هؤلاء فلا تغني معهم الدلائل و المعجزات، سواء أتى بها موسى، أم أتى بها محمد، أم الأنبياء مجتمعين .. و دليل هذه الحقيقة ان الطغاة كفروا بما جاء به موسى تماما كفر الطغاة من قريش بما جاء به محمد، و لو كان محمد بمعجزاته مكان موسى، و كان موسى بمعجزاته مكان محمد لقالت قريش:

لولا أوتي موسى مثل ما أوتي محمد .. و هذا هو شأن المبطلين في كل زمان و مكان.

قٰالُوا سِحْرٰانِ تَظٰاهَرٰا وَ قٰالُوا إِنّٰا بِكُلٍّ كٰافِرُونَ. المراد بالسحرين هنا التوراة و القرآن، و تظاهرا أي ان كلا منهما يصدق الآخر، و المعنى الجملي ان قريشا قالت:

التوراة سحر، و موسى الذي جاء بها ساحر، و أيضا القرآن سحر، و محمد الذي جاء به ساحر، و نحن نكفر بهما و بسحرهما.

قُلْ فَأْتُوا بِكِتٰابٍ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ هُوَ أَهْدىٰ مِنْهُمٰا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ.

قالوا: التوراة سحر، و مثلها القرآن .. فقال سبحانه لنبيه الكريم: قل لهم:

ان كان لديكم كتاب هو خير للانسانية من التوراة و القرآن فأتوا به، و أنا على أتم الاستعداد لاتباعه و العمل به، و هذا مثل قوله تعالى: قُلْ إِنْ كٰانَ لِلرَّحْمٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعٰابِدِينَ- ٨١ الزخرف.

فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمٰا يَتَّبِعُونَ أَهْوٰاءَهُمْ وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوٰاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللّٰهِ. لقد تحدى القرآن أهل الفصاحة و البلاغة بفصاحته و بلاغته، و تحدى البشرية كلها بمبادئه و تعاليمه، و قال: انها تهدي الإنسان للتي هي أقوم في عقيدته و شريعته، و هذا هو بين أيدي الناقدين و الدارسين فليأتوا بما هو أهدى منه للناس، أو بمثله و يدعوا من شاءوا و ما شاءوا، فإن عجزوا و لم يؤمنوا فلا دليل لهم الا العمى و الضلال يقودهم الى كل سوء، و هذا هو المعنى المراد بقوله تعالى: **وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوٰاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللّٰهِ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الظّٰالِمِينَ** بعد أن جنوا على أنفسهم، و سلكوا بها سبيل الهلاك و الضلال.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٧٣

وَ لَقَدْ وَصَّلْنٰا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ. المراد بالقول هنا القرآن الذي أعذر بما أنذر، و المعنى ان اللّه سبحانه أرشد العباد الى ما لهم و ما عليهم ليطيعوا و يعملوا، فمن عمل و أصلح فهو في أمن و أمان، و العذاب على من كذب و تولى.

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٥٢ الى ٥٥]

الَّذِينَ آتَيْنٰاهُمُ الْكِتٰابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَ إِذٰا يُتْلىٰ عَلَيْهِمْ قٰالُوا آمَنّٰا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنٰا إِنّٰا كُنّٰا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمٰا صَبَرُوا وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَ مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ يُنْفِقُونَ (٥٤) وَ إِذٰا سَمِعُوا اللَّغْوَ

أَعْرَضُوا عَنْهُ وَ قالُوا لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ (٥٥)

اللغة:

مسلمين منقادين. يدرءون يدفعون. اللغو ما لا فائدة فيه. لا نبتغي الجاهلين لا نخالطهم.

الإعراب:

الذين مبتدأ أول و هم مبتدأ ثان و جملة يؤمنون خبر الثاني، و جملة الثاني و خبره خبر المبتدأ الأول. مرتين قائمة مقام المفعول المطلق.

المعنى:

الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ. ضمير قبله و به يعودان

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٧٤

إلى القرآن بدليل قوله تعالى بلا فاصل: **وَ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ** .. و قد ثبت بالتواتر ان كثيرا من النصارى و بعض اليهود آمنوا بمحمد (ص) لأن التوراة و الإنجيل قد نصّتا على أوصافه قبل تحريفهما: الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ- ١٥٧ الأعراف، و تقدم نظير هذه الآية في سورة البقرة الآية ١٢١ ج ١ ص ١٩٣ و الآية ١٩٩ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٢٣٦.

وَ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ.

قرأ العلماء من أهل الكتاب أوصاف الرسول الأعظم (ص) و القرآن الكريم في التوراة و الإنجيل، قرأوا ذلك قبل أن يبعث محمد (ص)، و لما بعث تلي عليهم القرآن فعرفوه و عرفوا محمدا بأوصافهما كما هي في الكتابين تماما كما عرفوا أبناءهم:

الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ- ١٤٦ البقرة. فآمن فريق منهم، و فريق كتموا الحق و هم يعلمون، حرصا على المناصب و المكاسب.

أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: مرة على إخلاصهم في دينهم الذي أمرهم باتباع محمد و القرآن، و مرة **بِما صَبَرُوا** على أذى السفهاء من الكافرين لأن إسلامهم كان حجة دامغة على من أصر على الكفر و العناد.

الصبر حكمة و بطولة:

وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ. لاقى المسلمون الأولون الكثير من الأذى و التنكيل حتى محمد (ص) كان إذا مر في الطريق يصيح به السفهاء: «مجنون .. كذاب .. ساحر» فصبروا و تحملوا في غير شكاة، و قد عبّر سبحانه عن صبرهم بالحسنة، و عن اساءة المشركين و اذايتهم بالسيئة، و في هذا التعبير إيماء الى أن السلاح الوحيد للضعيف هو الصبر، و ان الجزع و انهيار الأعصاب ضرب من الجنون، و ان المقاومة بغير سلاح موت و انتحار .. فصبر الضعيف عقل و حكمة، و شجاعة و بطولة، على شريطة أن يسعى و يعمل جاهدا لازالة الضعف و أسبابه، و من تقاعس و تكاسل فقد هانت عليه نفسه، و رضي لها الذل و الهوان .. و بكلمة: ان الضعيف كالمريض، عليه أن يسعى للشفاء، و لا يصبر على الدواء الا بعد العجز و اليأس.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٧٥

وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ يدرءون شر المسيء بالصبر عليه، و أيضا يحسنون اليه و إلى غيره بالإنفاق و العطاء إذا رزقهم

اللّه من فضله، قال الإمام علي (ع):

عاتب أخاك بالإحسان إليه، و اردد شره بالإنعام عليه **وَ إِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ**. تعرض الكافرون بالسب و الشتم للذين أسلموا و آمنوا باللّه و رسوله، فتحملوا و تجاهلوا **وَ قالُوا لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ** أنتم راضون بما عندكم من الباطل، و نحن راضون بما عندنا من الحق (سلام عليكم) قال المفسرون: هذا سلام الاحتمال من الجاهلين، و ليس بسلام تحية، تماما كما تقول لمن تريد البعد عنه:

اذهب عني بسلام (لا نبتغي الجاهلين) لا نخالطهم و لا نتخلق بأخلاقهم.

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٥٦ الى ٦١]

إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦) وَ قالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا أَ وَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَ كُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ (٥٨) وَ ما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَ ما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلاَّ وَ أَهْلُها ظالِمُونَ (٥٩) وَ ما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ زِينَتُها وَ ما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَ أَبْقى أَ فَلا تَعْقِلُونَ (٦٠)

أَ فَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٧٦

اللغة:

نتخطف من التخطف، و هو أخذ الشيء على وجه الاستيلاء. و البطر الطغيان عند النعمة. و المراد بأمها هنا أكبرها أو عاصمتها. و من المحضرين أي ان اللّه سبحانه يحشرهم غدا للحساب و الجزاء.

الإعراب:

رزقا مفعول من أجله ليجبى، أو مفعول مطلق لأنّ يجبى يتضمن معنى الرزق، فيكون مثل قمت وقوفا. و من لدنا متعلق بمحذوف صفة للرزق. و كم خبرية في محل نصب بأهلكنا. و من قرية تمييز. و معيشتها منصوب بنزع الخافض أي بطرت في معيشتها، و يجوز أن يكون بطرت بمعنى كفرت و معيشتها مفعول. فتلك مساكنهم مبتدأ و خبر، و جملة لم تسكن حال من مساكنهم. و قليلا صفة لمحذوف أي زمنا قليلا. و ما أوتيتم (ما) اسم شرط مبتدأ. فمتاع خبر لمبتدأ محذوف أي فهو متاع. و ما عند اللّه (ما) اسم موصول مبتدأ، و خير خبر.

أبو طالب و الإسلام:

إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ.

اختلفوا في سبب نزول هذه الآية، فقال أكثر المفسرين من أهل السنة: انها نزلت في عم النبي أبي طالب. و قال الشيعة: لم تنص الآية على أبي طالب و لا غيره، و النبي (ص) يحب الهداية لكل الناس الأقربين و الأبعدين، و كلمة (من) من صيغ العموم، و تفسيرها بأبي طالب وحده تصرف في كلام اللّه بغير دليل، أما الروايات القائلة: ان الآية نزلت في أبي طالب فلم تثبت صحتها عندنا، و عليه تكون الآية مرادفة لقوله تعالى: أَ فَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ- ٤٣ يونس.

و قد أطال صاحب الظلال أو في الظلال، أطال الحديث حول هذه الآية،

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٧٧

ثم انتهى إلى الأخذ بمذهب الآباء و الأجداد، و اعتمد أدلة الأقدمين دون محاكمة و تمحيص، مع انها تناقض الفطرة تناقضا بينا، و قد كرر صاحب الظلال مرات و مرات ان القرآن يخاطب الفطرة في أعماقها، و نحن نحاكم أقواله محاكمة فطرية و موضوعية، لا مذهبية تعصبية، و نرجو القارئ أن ينظر إلى أقوالنا نظرة العالم المنصف.

قال صاحب الظلال ما نصه بالحرف: «هذا عم رسول اللّه (ص) و كافله و حاميه و الذائد عنه لا يكتب اللّه له الأيمان على شدة حبه لرسول اللّه و شدة حب رسول اللّه له، لا يكتب اللّه له أن يؤمن». و معنى هذا ان اللّه كره أن يقول أبو طالب: لا إله إلا اللّه، محمد رسول اللّه، و لكن رسول اللّه أحب هذا القول من عمه، و أصر عليه.

و نسأل: هل يصح في حكم العقل و الفطرة أن يحب رسول اللّه شيئا يكرهه اللّه و يمقته؟ اذن، كيف قرن اللّه طاعة رسوله بطاعته في العديد من الآيات؟

و إذا كره اللّه الإسلام من أبي طالب و لم يكتبه له على حد تعبير صاحب الظلال فعلى أي شيء يعاقبه و يضعه في «ضحضاح» من نار كما روى المفترون؟ و هل يجوز للقوي أن يأخذ الضعيف بما لم يفعل؟ كيف و هو القائل: وَ مٰا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ؟ و لما ذا أحب اللّه الإسلام من أبي سفيان و كرهه من أبي طالب؟

أ لأن أبا سفيان كان أشد الناس بغضا لرسول اللّه، و لذا حشد له الجيوش، و شن عليه الحروب، و لأن أبا طالب أحب رسول اللّه حبا شديدا و حضنه و حماه و ذاد عنه على حد تعبير صاحب الظلال، أو لأن أبا سفيان هو والد معاوية، و أبا طالب والد علي؟

و تجدر الاشارة إلى ان كل ما جاء في هذه التساؤلات فهو جائز على اللّه عند القائلين بكفر أبي طالب لأنهم يؤمنون بأن اللّه لا يجب عليه شيء، و لا يقبح منه شيء، و ان له ان يعاقب الأبرياء، و يحسن إلى سفاكي الدماء .. و لا أدري:

هل أراد صاحب الظلال هذا المعنى من الفطرة التي يخاطبها القرآن في أعماقها؟.

و بعد، فان كتابة التفسير و غير التفسير تتأثر بعقيدة الكاتب و ميوله، و ثقافته و بيئته، و ظروفه و وراثته، و هذا ناموس طبيعي لا يشذ عنه كبير و لا صغير ..

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٧٨

و لكن ليس معناه ان جميع العقائد و الميول لا تتفق مع الحق و الواقع، و الا استحال قول العدل و الصدق .. و ما على الإنسان إلا ان يجدّ و يجتهد في طلب الحق من مصدره، لا من الميول و التقاليد .. و هذا ما نحاوله و نهدف اليه، و اللّه من وراء القصد. و نعطف هذه الأسطر على الصفحات التي كتبناها في هذا الموضوع عند تفسير الآية ١١٣ من سورة التوبة ج ٤ ص ١٠٧.

وَ قٰالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنٰا. في رواية ان رسول اللّه (ص) قال: «و الذي نفسي بيده لأدعون إلى هذا الأمر الأسود و الأبيض، و من على رؤوس الجبال، و في لجج البحار، و لأدعون أهل فارس و الروم»، و لما سمع ذلك عتاة قريش استعظموه، و قالوا لرسول اللّه (ص): «كيف نتبعك و أنت على نيتك هذه، و لو استجبنا لك لاجتمع الناس بما فيهم فارس و الروم، و تظاهروا على اخراجنا من ديارنا، و هدموا الكعبة حجرا حجرا». و سواء أصحت هذه الرواية أم لم تصح سندا فان مضمونها يصلح تفسيرا لهذه الآية، فلقد دعا رسول اللّه الأسود و الأبيض، و أصر على دعوته، و حاربه عتاة قريش من أجلها، بالاضافة إلى ان هذه الرواية تنفق تماما مع قوله تعالى: **أَ وَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً**

آمِناً يُجْبىٰ إِلَيْهِ ثَمَرٰاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنّٰا. كيف تخافون يا أهل مكة من الناس، و اللّه سبحانه قد منع بلدكم هذا و صانه من القتل و السبي و النهب منذ يومه الأول، و جعل أفئدة من الناس تحمل اليه من كل الثمرات و الطيبات؟ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ أن اللّه سبحانه خص بلدهم بهذه المنقبة دون سائر البلدان.

وَ كَمْ أَهْلَكْنٰا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهٰا فَتِلْكَ مَسٰاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاّٰ قَلِيلاً وَ كُنّٰا نَحْنُ الْوٰارِثِينَ. قالوا للرسول (ص): نخشى الناس ان اتبعناك.

فأجابهم سبحانه في الآية السابقة: أ تخافون من الناس و قد جعل اللّه بلدكم حرما آمنا؟ .. ثم قال لهم في هذه الآية: أ تخافون من الناس و لا تخافون من اللّه؟

ألا تعتبرون بالأمم الماضية التي طغت و كفرت بأنعم اللّه، فأهلكها لكفرها به و بأنعمه، و ترك مساكنها خاوية على عروشها إلا من البقية الباقية، أما أكثرها فلا وارث لها إلا وارث الأرض و من عليها و اليه المصير. و تقدم مثله في الآية ١٢٨ من سورة طه.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٧٩

(وَ مٰا كٰانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرىٰ حَتّٰى يَبْعَثَ فِي أُمِّهٰا رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيٰاتِنٰا وَ مٰا كُنّٰا مُهْلِكِي الْقُرىٰ إِلاّٰ وَ أَهْلُهٰا ظٰالِمُونَ). اللّه عادل و حكيم لا يعذب أحدا إلا بعد التذكير و التحذير.

و تسأل: الظاهر من الآية ان اللّه لا يبعث رسولا في البلد الصغير، أو إذا بعث فيه رسولا، و لم يستجب أهله لدعوته فلا يعذبهم، لأن المراد بالأم في الآية البلد الكبير أو العاصمة .. و لا يتفق هذا مع مبدأ المساواة في التكليف و وجوب الطاعة بين عموم الناس؟.

الجواب: ان الآية واردة مورد الغالب، فان أكثر الأنبياء بعثوا في البلد الكبير، و كل نبي كان يبعث مرشدا من قبله إلى البلد الصغير. و تقدم نظير هذه الآية في سورة الأنعام الآية ٦ ج ٣ ص ١٦٢ و في سورة هود الآية ١١٨ ج ٤ ص ٢٧٨.

(وَ مٰا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتٰاعُ الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا وَ زِينَتُهٰا وَ مٰا عِنْدَ اللّٰهِ خَيْرٌ وَ أَبْقىٰ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ. المذموم من متاع الحياة ما يطغى معه الإنسان، و يعثو في الأرض فسادا بسببه، و إلا فلا يحرم زينة اللّه و الطيبات من الرزق إلا جاهل بدين اللّه.

و تقدم مثله في الآية ١٠٣ من سورة البقرة ج ١ ص ١٦٢ و الآية ٧٧ من سورة النساء ج ٢ ص ٣٨٣.

أَ فَمَنْ وَعَدْنٰاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاٰقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنٰاهُ مَتٰاعَ الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ. وعد اللّه الذين آمنوا و عملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار، و اللّه منجز وعده لا محالة، و ليس من شك ان الذي يتنعم في جنة الخلد لا يقاس به من يتنعم أياما في هذه الحياة، ثم يساق قهرا إلى عذاب الجحيم.

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٦٢ الى ٧٠]

وَ يَوْمَ يُنٰادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكٰائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قٰالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنٰا هٰؤُلاٰءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنٰا أَغْوَيْنٰاهُمْ كَمٰا غَوَيْنٰا تَبَرَّأْنٰا إِلَيْكَ مٰا كٰانُوا إِيّٰانٰا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَ قِيلَ ادْعُوا شُرَكٰاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَ رَأَوُا الْعَذٰابَ لَوْ أَنَّهُمْ كٰانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَ يَوْمَ يُنٰادِيهِمْ فَيَقُولُ مٰا ذٰا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبٰاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لاٰ يَتَسٰاءَلُونَ (٦٦)

فَأَمّٰا مَنْ تٰابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحاً فَعَسىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧) وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ وَ يَخْتٰارُ مٰا كٰانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ

سُبْحانَ اللهِ وَ تَعالىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَ رَبُّكَ يَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ ما يُعْلِنُونَ (٦٩) وَ هُوَ اللهُ لا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولىٰ وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٨٠

اللغة:

حق عليهم وجب عليهم. و المراد بالقول هنا العذاب. و الغواية الضلال.

فعميت خفيت. و المراد بالأنباء الأجوبة و الاعذار. و الخيرة الاختيار.

الاعراب:

هؤلاء مبتدأ و الذين أغوينا صفة، و أغويناهم كما غوينا خبر. و إيانا مفعول مقدم ليعبدون.

المعنى:

وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ. يحشر سبحانه غدا

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٨١

عبدة الأوثان و الجاه و الحطام، و يسألهم للتوبيخ و التشهير: أين الذي كنتم تعملون من أجله، و تخلصون له من دون اللّه؟.

قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنا هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ

المراد بالذين حق عليهم القول قادة الشرك و الضلال، و المراد بالقول كلمة العذاب التي جاءت في الآية ٧٩ من سورة الزمر:

وَ لكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ و هؤلاء اشارة إلى الأتباع الضعفاء، و المعنى ان اللّه سبحانه حين يسأل المشركين: أين شركائي يجيبه الضعفاء: ربنا انّا اطعنا سادتنا و كبراءنا فأضلونا السبيل، فيقول السادة الأدعياء: كلا، لم نكره هؤلاء الأتباع على الشرك و الغواية، و لكن دعوناهم الى ذلك فاستجابوا مختارين، تماما كما استجبنا نحن لاهوائنا طائعين، و انّا نبرأ منهم و من أعمالهم، و ما كانوا يعبدوننا و انما كانوا يعبدون الأصنام و الشيطان .. و هكذا يفعل أرباب المصالح و الأغراض يخدعون البسطاء و يغررون بهم، و يتخذونهم أداة لأهوائهم حتى إذا جد الجد، و دارت دائرة السوء على رؤوس التابعين و المتبوعين- قال هؤلاء لأولئك ما يقوله الشيطان غدا لأتباعه: ما كان لي عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني و لوموا أنفسكم .. اني بريء منكم .. اني أخاف اللّه و اللّه شديد العقاب.

وَ قِيلَ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ يقال غدا لأعوان الظلمة و أذنابهم: أين الذين كنتم تعبدون من دون اللّه؟ ادعوهم لينقذوكم من العذاب **فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ** ضعف الطالب و المطلوب **وَ رَأَوُا الْعَذابَ لَوْ أَنَّهُمْ كانُوا يَهْتَدُونَ** علموا ان العذاب واقع لا محالة، فتمنوا لو كانوا مؤمنين **وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ ما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ**. مرة ثانية يسألهم سبحانه بقصد التوبيخ و التأنيب: لقد أرسلت إليكم رسلي، و تلوا عليكم آياتي و انذروكم لقاء يومكم هذا، فما ذا فعلتم؟ هل استجبتم و أطعتم، أو أعرضتم و تمردتم؟.

فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ خرسوا عن الجواب لعجزهم عنه، و لما بهم من الدهشة و الهوان **فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ** لا يسأل بعضهم بعضا فيما ينجيهم من العذاب، كيف و قد يئسوا من كل شيء **فَأَمَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَعَسىٰ أَنْ**

يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ. هذا على عادة القرآن، يقرن ذكر من أطاع و ثوابه بذكر

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۸۲

من عصى و عقابه، و بالعكس، و عسى في كلام المخلوق تدل على الترجي في المحبوب، و الإشفاق في المكروه، و تدل في كلام الخالق على الوجوب، و عليه فالتائب الصالح من المفلحين المرضيين عند اللّه بالقطع و اليقين.

وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ يَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحانَ اللهِ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ.

اللّه هو الخالق المالك، و لا أحد يملك معه شيئا، و كل أفعاله حكمة و خير و صواب، و ما لأحد أن يرد و يعترض، فكيف ينسبون اليه الشركاء وَ رَبُّكَ يَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ ما يُعْلِنُونَ و أيضا هو عالم الغيب و الشهادة، و الشركاء المزعومون لا يعلمون شيئا وَ هُوَ اللهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وحده المستحق للعبادة لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى وَ الْآخِرَةِ الحمد للّه في الدنيا على فضله و آلائه، و في الآخرة على ثوابه و جزائه وَ لَهُ الْحُكْمُ النافذ في كل شيء بكلمة «كن». وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ و لا مناص لأحد من هذا المرجع، و السعيد من ثبتت حجته، و قبلت معذرته.

[سورة القصص (۲۸): الآيات ۷۱ الى ۷۵]

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ أَ فَلا تَسْمَعُونَ (۷۱) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَ فَلا تُبْصِرُونَ (۷۲) وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۷۳) وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (۷٤) وَ نَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (۷۵)

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۸۳

اللغة:

أرأيتم أخبروني. و سرمدا دائما. و نزعنا أخرجنا.

الإعراب:

غير اللّه صفة لإله. و في مغني ابن هشام ان جماعة من النحاة، منهم الأخفش و الكسائي قالوا: ان لعل تأتي بمعنى كي مثل لعلكم تشكرون. و هاتوا اسم فعل بمعنى قدموا.

المعنى:

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ أَ فَلا تَسْمَعُونَ. قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَ فَلا تُبْصِرُونَ. لا بد للإنسان من العمل و الراحة بالنوم، و العمل يحتاج إلى ضياء، و النوم في الظلام أعمق و أصح للجسم، فخلق سبحانه النهار للعمل، و الليل للراحة، و قد ذكر، جلت حكمته، عباده بنعمة الليل و النهار، و انه لو استمر الليل بلا صباح، أو النهار بلا ليل لكانت الحياة إلى بوار.

و قال سبحانه عند ذكر الليل: أفلا تسمعون. و عند ذكر النهار: أفلا تبصرون لأن الليل يناسبه السمع، و النهار يناسبه الإبصار. و قلنا فيما تقدم: ان تعاقب الليل و النهار يستند مباشرة إلى أسبابه الكونية، و اليه تعالى بالواسطة لأنه خالق الكون و مدبره بعلمه و حكمته.

وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أي جعل الليل لتسكنوا فيه، و جعل النهار لتبتغوا فيه الخ. و تقدم مثله في الآية ٦٧ من سورة يونس ج ٤ ص ١٧٧ و الآية ١٢ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٢٦ و الآية ٤٧ من سورة الفرقان.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٨٤

وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ. تقدم بنصه الحرفي في الآية ٦٢ من هذه السورة، و لا نعرف وجها لهذا التكرار إلا التثبيت و التأكيد وَ نَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ يأتي اللّه غدا من كل أمة بنبيّهم، فيشهد عليهم بتبليغ الرسالة و بما قابلوها من التكذيب و الإعراض بعد اقامة الحجج عليهم و قطع جميع الأعذار. و عندئذ يقول سبحانه للجاحدين: لقد أدلى الرسول بما عنده، فهاتوا ما عندكم من تبرير موقفكم معه و تكذيبكم رسالته تماما كما هو شأن القاضي، يستمع أولا من المدعي، ثم يستوجب المدعى عليه، فيخرس المبطلون عن الجواب، و يحيق بهم العذاب. و تقدم مثله في الآية ١٤٣ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٢٥ و الآية ٨٩ من سورة النحل ج ٤ ص ٥٤٣ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ أي علموا ان الحجة للّه عليهم، و لا حجة لهم على اللّه وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ على اللّه بوجود الشريك، و على الطيبين بالاشاعات الكاذبة.

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٧٦ الى ٨٢]

إِنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى فَبَغى عَلَيْهِمْ وَ آتَيْناهُ مِنَ الْكُنُوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَ ابْتَغِ فِيما آتاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَ لا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا وَ أَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَ لا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي أَ وَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَكْثَرُ جَمْعاً وَ لا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً وَ لا يُلَقَّاها إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠)

فَخَسَفْنا بِهِ وَ بِدارِهِ الْأَرْضَ فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَ ما كانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (٨١) وَ أَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ يَقْدِرُ لَوْ لا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنا لَخَسَفَ بِنا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ (٨٢)

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٨٥

اللغة:

مفاتح جمع مفتح، و مفاتيح جمع مفتاح، و المعنى واحد، و هو ما يفتح به. و تنوء تثقل. و العصبة الجماعة يتعصب بعضهم لبعض. و يقدر بسكون القاف يضيق.

الإعراب:

ما انّ مفاتحه (ما) اسم موصول، و هي مفعول ثان لآتيناه، و مفاتحه اسم ان و لتنوء خبرها، و أولي القوة صفة للعصبة. و إذ قال (إذ) متعلقة بمحذوف أي اظهر التفاخر إذ قال له قومه- كما في البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي- و قوة و جمعا تمييز. و ويل يجوز إفرادها و اضافتها تقول ويل له و ويله، فإذا أضفت وجب النصب بفعل محذوف أي ألزمه

ويلا أي عذابا، و إذا أفردت جاز الرفع على الابتداء و له خبر، و جاز النصب بفعل محذوف أيضا. و وي كلمة تعجب و لا محل لها من الاعراب.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٨٦

قارون و الرأسمالية المستبدة:

إِنَّ قٰارُونَ كٰانَ مِنْ قَوْمِ مُوسىٰ فَبَغىٰ عَلَيْهِمْ وَ آتَيْنٰاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مٰا إِنَّ مَفٰاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ. كان قارون من بني إسرائيل، لأنه من قوم موسى، و قيل: ابن عمه، و هو واضع أسس الرأسمالية المستبدة أو ممثلها، لأنه احتكر المال، و تسلط على قومه مبررا ذلك بقوله: «انما أوتيته على علم عندي» و هذا هو المذهب الاقتصادي القائل: الفرد أولا و المجتمع ثانيا، و أيضا تومئ اليه الآية التي نفسرها حيث جمعت بين البغي و كنز المال .. و أي بغي أعظم من أن تكون مقدرات الخلائق رهنا بمشيئة الأفراد أو الفئات؟ و قد حاول قوم قارون أن يردعوه عن البغي بالحسنى، و يثيروا فيه روح الخير و الصلاح.

إِذْ قٰالَ لَهُ قَوْمُهُ لاٰ تَفْرَحْ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ. مالك تكثر فرحا بالمال و تغتر به، و تتخذه وسيلة للبغي و العدوان، و الترف و الإسراف، و حولك الألوف يموتون جوعا؟ أ تختال و تفاخر بقدرتك على المآثم و الرذائل؟ ان اللّه لا يحب كلّ مختال فخور.

وَ ابْتَغِ فِيمٰا آتٰاكَ اللّٰهُ الدّٰارَ الْآخِرَةَ. جد و اجتهد و اعمل لوجه اللّه في كل ما أعطاك من مال و صحة و عقل، فان المرء مسؤول أمام اللّه عن جسمه فيم أبلاه، و عن عمره فيم أفناه، و عن ماله ممّ اكتسبه و فيم أنفقه.

وَ لاٰ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيٰا لا تترك ما أنت في حاجه اليه لحياتك و متعتك، فكل ما شئت من الطيبات، و البس ما أردت من فاخر الثياب، و اسكن ما أحببت من الدور، و لكن على حساب جهدك و كدك، لا على حساب الآخرين، فإنك بهذا تجمع بين الحظين معا، و تملك الزادين جميعا: زاد الدنيا و زاد الآخرة.

وَ أَحْسِنْ كَمٰا أَحْسَنَ اللّٰهُ إِلَيْكَ. اتق اللّه فيما أنعم به عليك، و اشكره على ذلك بالإحسان الى عباده و عياله، و تعاون معهم على ما فيه خيرك و خيرهم.

وَ لاٰ تَبْغِ الْفَسٰادَ فِي الْأَرْضِ بالجور و الخيانة، و التكبر و التجبر، و العيش في الإسراف و البذخ، و حولك الجياع و العراة .. ان هذا هو الفساد بالذات **إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** و أعد لهم عذابا أليما.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٨٧

قٰالَ إِنَّمٰا أُوتِيتُهُ عَلىٰ عِلْمٍ عِنْدِي. هذا المال من علمه هو .. من موهبته و مهارته .. و للإنسان أن يستغل علمه و موهبته في السلب و النهب، و التقتيل و التشريد، و في كل ما يهوى و يريد .. و ليس قارون بدعا في هذا المنطق .. فقد وضعت الولايات المتحدة الأمريكية مخططا لشراء العقول و المواهب من مختلف أنحاء العالم، و أغرت العلماء و الخبراء بالهجرة اليها، و أسمت هذا المخطط «برين درين» أي استنزاف العقول، و القصد منه أن تستخدم المواهب الانسانية في نهب ثروات البلاد و أقوات العباد في شرق الأرض و غربها.

أَ وَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللّٰهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَكْثَرُ جَمْعاً؟ و كيف يعلم و قد أطغاه المال و الجاه، و أعماه عن عاقبة الظلم و البغي، و أنساه ما سمع عن القرون الأولى، و انها كانت أكثر منه مالا و أعز نفرا، و لما

طغت و بغت أذاقها اللّه عذاب الخزي في الحياة الدنيا، و لعذاب الآخرة أشد و أخزى .. و ضرب المفسرون مثلا بقوم نوح و عاد و ثمود، و لو كنت في عصرهم لم أعد أمثلتهم، و لو كانوا في عصري لاكتفوا بما حدث في «ليبيا» في هذا الشهر الذي أكتب فيه كلماتي هذه، و هو شهر أيلول من سنة ١٩٦٩ حيث قامت مجموعة من الشباب الليبي، و عزلت الملك السابق، و هو أقوى و أغنى من قارون، و من ورائه الصهيونية و الاستعمار .. و استولى على الحكم الذين يمثلون الشعب الليبي، و يعبّرون عن أمانيه، و هم الذين نكّل بهم الملك المخلوع و اضطهدهم بالحبس و التشريد و مصادرة الأملاك.

وَ لا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ أي ان اللّه يعذبهم بغير حساب. و تسأل:

كيف تجمع بين هذه الآية، و بين الآية ٩٣ من سورة الحجر: فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ و في معناها كثير من الآيات؟

الجواب: المراد بالمجرمين هنا الذين يعتدون على حقوق الناس و حرياتهم، و يثيرون الفتن و الحروب من أجل مصالحهم و منافعهم، فهؤلاء هم الذين يدخلون النار بغير حساب حتى و لو هللوا و كبروا، و عليه يكون قوله تعالى: **وَ لا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ**، مخصّصا لقوله لنسألنهم أجمعين أي لو جمعنا بين القولين لكان المعنى لنسألنهم أجمعين إلا من اعتدى على حقوق الناس فإنه يدخل النار من غير سؤال.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٨٨

فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ. حذره قومه من عاقبة البغي و الفساد، فنفخ الشيطان في أنفه، و أخذته العزة بالإثم، و جمع خدمه و حشمه، و ركب في موكب فخم يعرض على الناس ثراءه و كبرياءه تحديا للذين وعظوه و حذروه من سكرات الترف و البغي.

قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ. نظر ضعفاء العقول الى المال و الزينة، و ذهلوا عن عاقبة البغي و الكبرياء فتمنوا أن يكون لهم مثل ترف قارون و أبهته ليغرقوا في الملذات و الشهوات، و لو نظروا بعين البصيرة لقالوا كما قال أولو العلم.

وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً وَ لا يُلَقَّاها إِلاَّ الصَّابِرُونَ. ضمير يلقاها يعود إلى المثوبة و المنزلة عند اللّه التي دل عليها سياق الكلام، و المعنى ان أهل العلم باللّه قالوا لضعفاء العقول: لقد نطق الشيطان على ألسنتكم .. ان ما عند اللّه خير و أبقى، و ما اعتز أحد بغيره تعالى إلا أذله و أخزاه، قال الإمام علي: رب مغبوط في أول الليل قامت بواكيه في آخره.

و قال: ما قال الناس لشيء طوبى له إلا و قد خبأ له الدهر يوم سوء.

فَخَسَفْنا بِهِ وَ بِدارِهِ الْأَرْضَ فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَ ما كانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ. و لا ينجو ظالم من الخسف في الدنيا قبل الآخرة، و ليس من الضروري أن يكون الخسف بالأرض فقط، فيكون أيضا بالخزي و اللعن على ألسنة الخلائق، و بأيدي المظلومين و المحقين .. و قد دلتنا التجارب ان الظالم إذا نزل به القصاص و العقاب تخلى عنه و تبرأ منه كل الناس حتى أعوانه و أرحامه، و حسبه هذا خسفا و نكالا.

وَ أَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ يَقْدِرُ لَوْ لا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنا لَخَسَفَ بِنا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ.

بالأمس قال الضعفاء: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون لأنهم نظروا الى الدنيا و زينتها، و ذهلوا عن عاقبة البغي و الكبرياء، أما اليوم، و قد شاهدوا دائرة السوء تدور على رأس الطاغية قارون، فقد أدركوا الحقيقة و حمدوا اللّه الذي لم يؤتهم مثل ما أوتي الطغاة. و في نهج البلاغة: فكم من منقوص رابح، و مزيد خاسر ..

و من هنا قيل: الأمور بخواتيمها.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٨٩

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٨٣ الى ٨٨]

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لا فَساداً وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤) إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى وَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٨٥) وَ ما كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقى إِلَيْكَ الْكِتابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ (٨٦) وَ لا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَ ادْعُ إِلى رَبِّكَ وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧)

وَ لا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)

اللغة:

فرض أوجب. و المراد بمعاد هنا بلدة الرسول الأعظم (ص) و هي مكة.

و ظهيرا معينا.

المعنى:

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لا فَساداً وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ. العلو في الأرض التعالي و التعاظم، و ارادة التسلط على الناس بغير حق، و الفساد الظلم و العدوان، و الفسق و الفجور، و المعنى ان من تعالى و تعاظم على الناس، أو اعتدى على شيء من حقوقهم فقد حرم اللّه عليه الجنة و مأواه

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٩٠

جهنم و ساءت مصيرا **مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ**. تقدم مثله في الآية ١٦٠ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٩٠.

(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ. يقول سبحانه لنبيه الكريم: ان الذي أوجب عليك العمل بالقرآن هو الذي سيعود بك إلى مكة التي أخرجك منها قومك. و قيل: ان النبي (ص) حين هاجر من مكة إلى المدينة اشتاق الى وطنه، و هو في أثناء الطريق، فنزلت هذه الآية تبشره بالعودة اليه **قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى وَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ**. أعلم هنا بمعنى يعلم، أي قل يا محمد لمن لا ترجو الهداية منه، و يصر على انه هو المهتدي و أنت الضال، قل لهذا العنود: اللّه و لا أحد سواه يميز بين المهتدي و الضال، و الطيب و الخبيث، و يجزي كلا بما يستحق.

وَ ما كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقى إِلَيْكَ الْكِتابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ. الاستثناء هنا منقطع أي لكن اللّه رحمك و تفضل عليك، و هذا رد على من قال لرسول اللّه:

لست مرسلا من عند اللّه، بل تفتري عليه، و بيان الرد: كيف يقولون عنك يا محمد: انك تفتري على اللّه بادعاء الرسالة

مع انها لم تمر بخاطرك من قبل، و لا تطلعت اليها و حلمت بها في يوم من الأيام، و لكن اللّه سبحانه هو الذي أنعم عليك بها، و اصطفاك لها دون خلقه.

إخبار الغيب عن العملاء و الخونة:

فَلاٰ تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكٰافِرِينَ وَ لاٰ يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيٰاتِ اللّٰهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَ ادْعُ إِلىٰ رَبِّكَ وَ لاٰ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ لاٰ تَدْعُ مَعَ اللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ.

لقد اختارك اللّه يا محمد لتكون حربا على الكافرين، لا عونا لهم، و لتبلغ رسالته الى عباده، و لا يأخذك في تبليغها لومة لائم، و لتخلص للّه وحده في جميع أقوالك و أعمالك.

و فيما تقدم قلنا، و نحن نفسر هذا النوع من الآيات التي تخاطب المعصوم بالنهي عن المعصية، قلنا: ان للأعلى ان ينهى من هو دونه بأي شكل أراد، و عن

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٩١

أي شيء يختار، بالاضافة الى ان النهي عن الشيء لا يتوقف على إمكان وقوعه من المخاطب به، أما الآن، و نحن نفسر هذه الآية، فقد استوحينا منها معنى آخر، و هو ان كل ما جاء في هذا الباب من الآيات فهو إخبار بالغيب و تعريض بما عليه اليوم و قبل اليوم بعض أرباب العمائم و القلانس الذين يتظاهرون بالدين و الصلاح، و هم جنود و أعوان للكفرة الفجرة .. و خصصنا البعض منهم بالذات مع ان العملاء و الخونة يكونون منهم و من كل نوع و صنف لأن الآيات تخاطب من يدعو الى اللّه و شريعته.

كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلاّٰ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. هذا تهديد و وعيد لكل خائن و عميل يتآمر على دينه و وطنه مع أعداء اللّه و الانسانية، و انه بحكم المشرك الذي قامت عليه الحجة، و مع ذلك يجحد و يعاند إذ لا فرق أبدا عند اللّه بين من يدعو مع اللّه إلها آخر، و من يوالي الظلمة الطغاة، و يدافع عنهم و يبرر أعمالهم، و يدعو الى موالاتهم و مؤازرتهم.

و تسأل: هل معنى هذا ان العملاء و الخونة يجب ان نعاملهم معاملة المشرك من النجاسة و عدم التوريث و التزويج و الدفن في مقابر المسلمين؟

الجواب: علينا أن نعامل كل من قال: أشهد ان لا إله إلا اللّه و ان محمدا رسول اللّه- معاملة المسلم مهما كان عمله، بل و مهما انطوى عليه قلبه .. ذلك ان لهذه الشهادة آثارها الموضوعية التي لا تنفك عنها بحال، و هي الطهارة و التوريث و التزويج و الدفن في مقابر المسلمين، أما الآخرة فهي للّه وحده، و لا شأن فيها لأحد سواه، و قد دل ظاهر العديد من الآيات ان الظالم يوم القيامة هو و المشرك سواء. أنظر ما قلناه عند تفسير الآية ٥٥ من سورة الفرقان، فقرة «الظالم كافر».

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٩٢

سورة العنكبوت

قيل: هي مكية، و آياتها ٦٩.

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ١ الى ٩]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الم (١) أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ساءَ ما يَحْكُمُونَ (٤)

مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَ مَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ (٦) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (٧) وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً وَ إِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٩٣

اللغة:

لا يفتنون لا يمتحنون. يرجو لقاء اللّه يؤمن بحسابه و جزائه بعد الموت. و أجل اللّه الوقت المعين عند اللّه لهذا اللقاء. جاهداك حرضاك مجتهدين.

الإعراب:

حسب تحتاج إلى مفعولين، و المصدر من ان يتركوا سادّ مسدهما. و المصدر من ان يقولوا بدل من مصدر أن يتركوا. فليعلمن تحتاج إلى مفعول واحد لأنها بمعنى ليميزن و اللام للقسم. ساء ما يحكمون (ساء) بمعنى قبح و (ما) مصدرية، و المصدر المنسبك فاعل ساء أي قبح حكمهم. و حسنا صفة لمفعول مطلق محذوف أي و وصيناه إيصاء حسنا. و ما ليس (ما) اسم موصول مفعول لتشرك.

المعنى:

(الم) تقدم تفسيره في أول سورة البقرة **أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ**. ليس الايمان كلمة تقال، بل لا بد من الابتلاء و الامتحان بأنواع من السراء و الضراء، فمن صبر عند هذه و لم يخرج عن دينه، و شكر و تواضع عند تلك و لم يطغه الجاه و المال فهو المؤمن حقا، و الا فما هو من الايمان في شيء .. هذا ما دل عليه ظاهر الآية، و إذا عطفنا عليها بقية الآيات الواردة في هذا الباب نستخلص منها ان للايمان ظاهرة لا تنفك عنه بحال، و هي أن يستجيب المؤمن لدعوة اللّه تعالى استجابة عملية، لا لفظية مهما كانت النتائج، أي ان يحرص أشد الحرص على طاعة اللّه في أمره و نهيه، و يطبقها في عمله و سلوكه، و إذا ابتلي بالخطوب و المحن لأنه أخلص للّه فما يزيده ذلك إلا ايمانا و تسليما.

أنظر ج ١ ص ٢٤٢ فقرة «ثمن الجنة»، و ص ٣١٤ فقرة «لا ايمان بلا تقوى»، و ج ٢ ص ٤٥٧ فقرة «بين الدين و أهل الدين».

وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ. اختبرنا بالشدائد أتباع الأنبياء من الأمم

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٩٤

السابقة، فصبروا صبر الأحرار، و ازدادوا تمسكا بدينهم و إخلاصا لربهم و أنبيائهم، و أوضح تفسير لهذه الآية قوله تعالى: وَ كَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَما وَهَنُوا لِما أَصابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَ ما ضَعُفُوا وَ مَا اسْتَكانُوا وَ اللهُ يُحِبُّ

الصَّابِرِينَ- ١٤٦ آل عمران ج ٢ ص ١٧٤. **فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**. يمتحن سبحانه عبده بإقبال الدنيا عليه و ادبارها عنه لتظهر أفعاله التي يستحق عليها الثواب و العقاب، لأنه، جلت حكمته، لا يحاسب الإنسان على ما فيه من قابلية و استعداد للخير و الشر، و انما يحاسبه على أعماله التي تظهر للعيان.

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا. أ يحسب المسيئون ان اللّه عاجز عن طلبهم؟ كيف و هو على كل شيء قدير؟ و بمن يمتنعون عنه و لا ضد يعانده و لا شريك يساويه؟ **سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** بأنهم يفلتون من سلطان اللّه و حكمه.

مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ بعد أن ذكر سبحانه من كفر باليوم الآخر ذكر من آمن به و قال لهذا المؤمن: اثبت على إيمانك، فان الساعة آتية لا ريب فيها، فاعمل لها **وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**. يسمع ما تقول، و يعلم ما تضمر و تفعل، و يجزيك بما أسلفت **وَ مَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ** و تفسيره:

فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا- ١٠٤ الأنعام ج ٣ ص ٢٣٨. **إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ** لا تنفعه طاعة من أطاع، و لا تضره معصية من عصى.

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ. من آمن بعد ما كفر، و أصلح بعد ما أفسد فإن اللّه يغفر له و يعفو عما مضى، و فوق ذلك يثيبه تفضلا منه على إيمانه و إصلاحه تماما كمن لا ذنب له .. و في هذا المبدأ الخير كل الخير للانسانية لأنه يفتح باب الأمل للمذنبين و المجرمين، و يدفع بهم إلى التوبة و الاقلاع، و لا سبيل أجدى من هذا السبيل لتطهير المجتمع من المظالم و المفاسد.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٩٥

أيضا البر بالوالدين:

وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَ إِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. أمر سبحانه بالإحسان إلى الوالدين و إطاعتهما في كل شيء إلا فيما لا يرضيه تعالى، حيث لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. و تكلمنا عن ذلك مفصلا عند تفسير الآية ٢٣ من سورة الإسراء، فقرة «البر بالوالدين» ج ٥ ص ٣٥. و في كتب الحديث قصة تدل على ان البر بالوالدين ينفع عند الشدائد، و أيضا تدل على أن أفضل دعاء يتجه به الإنسان الى اللّه عند المحنة هو العمل الصالح.

روي عن النبي (ص) ان ثلاثة رجال لجأوا الى غار في الطريق يبيتون فيه ليلتهم، فسقطت صخرة ضخمة من الجبل وسدت عليهم باب الغار، و بعد التفكير طويلا لم يجدوا إلا التوجه بالدعاء إلى اللّه وحده أن ينجيهم من هذا الهلاك، ثم ذكر كل واحد منهم عملا صالحا كان قد صنعه .. فذكر الأول بره بوالديه و توفير الراحة لهما، فانفرجت الصخرة قليلا. و ذكر الثاني انه صرف نفسه عن عمل فاحش مع امرأة كانت في حاجة تضطرها الى ذلك، فكفاها هذه الحاجة و وفرها لها، فانفرجت الصخرة قليلا أيضا. و قال الثالث: ان أجيرا كان يعمل عنده، فترك أجره و رحل عنه، فاحتفظ له بأجره و نمّاه له، فلما عاد اليه، و قد كثر الأجر و أصبح قطيعا كبيرا من الأنعام، أعطاه إياه، فانفرجت الصخرة تماما، و خرجوا من الغار.

و سواء أصحت هذه الرواية، أم لم تصح فان القصة تعبّر عن الإسلام في حقيقته و جوهره لأنه يحصر طريق النجاح في

الدنيا و الآخرة بالأعمال الصالحة، لا بالأقوال و المظاهر.

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ. و تسأل: ما الفرق بين قوله تعالى هنا: لندخلنهم في الصالحين و قوله في الآية السابقة: **لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ**؟

الجواب: ان الإدخال في زمرة الصالحين كالشهداء و الأولياء أرفع بكثير من

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۹۶

العفو و الجزاء، فهو أشبه بقولك لمن أساء ثم أصلح و أخلص: لقد عفوت عنك، و أحسن اليك بكذا، و فوق ذلك أجعلك في عداد المصطفين الأخيار.

[سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۱۰ الى ۱۵]

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللهِ وَ لَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَ وَ لَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ (۱۰) وَ لَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ (۱۱) وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَ لْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ وَ ما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (۱۲) وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ وَ لَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ (۱۳) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَ هُمْ ظالِمُونَ (۱٤)

فَأَنْجَيْناهُ وَ أَصْحابَ السَّفِينَةِ وَ جَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ (۱۵)

اللغة:

المراد بفتنة الناس أذاهم. و الأثقال جمع ثقل و المراد بالأثقال هنا الأوزار لقوله تعالى في الآية ۲۵ من سورة النحل: لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ مِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ.

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۹۷

الإعراب:

لنحمل اللام للأمر و لذا جزم الفعل. و بحاملين الباء زائدة. و من خطاياهم (من) للتبعيض. و من شيء (من) زائدة و شيء مفعول حاملين، و من خطاياهم متعلق بمحذوف حال مقدما من شيء، و الأصل و ما هم حاملين شيئا من خطاياهم.

و ألف سنة ظرف زمان منصوب بلبث. و خمسين منصوب على الاستثناء. و عاما تمييز.

ايمان او سراب؟

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللهِ.

هذه الآية صورة حقيقية لبعض الناس الذين نعرفهم و نعايشهم .. لقد زين الشيطان لهذا البعض انه من أهل التقى و الايمان، فانطلت عليه الحيلة و صدّق الشيطان في وساوسه و أحابيله، و انه من المتقين، و هو في حقيقته و واقعه لا يعتقد بشيء و لا يرى إلا منافعه و مصالحه الخاصة، و لا شيء أدل على ان إيمانه و هم و سراب من تنكره للحق أو تجاهله إياه حين يخاف الناس على أدنى شيء من أشيائه .. يخافهم إذا ناصر الحق و العدل بفعل أو قول تماما كما يخاف الأولياء و الأتقياء من اللّه إذا لم يعملوا بأمره و نهيه، و تقدمت الاشارة الى هذا الفريق في الآية ۷۷ من سورة

النساء: فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً. و قلنا فيما تقدم: ما من أحد اتبع الحق الا و دفع ثمنه من نفسه و أشيائه، و إلا لم يكن لأهل الحق و أنصاره أية فضيلة. أنظر تفسير الآية ١٥٥ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٤٢، فقرة «ثمن الجنة». و في الحديث: من خاف اللّه خوّف اللّه منه كل شيء، و من لم يخف اللّه خوّفه من كل شيء.

وَ لَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ. هم مع الدين إذا كان متجرا رابحا، و هم أعداء الدين إذا سألهم البذل و التضحية و لو باليسير، و أبلغ كلمة في هذا المعنى قول سيد الشهداء الحسين بن علي (ع): «الناس عبيد الدنيا، و الدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معايشهم، فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون».

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٩٨

و تقدم مثله في الآية ١٤١ من سورة النساء ج ٢ ص ٤٦٦ **أَ وَ لَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ**. هل تريدون ان تخدعوا اللّه و تحتالوا عليه، و هو العليم بما تخفون و ما تعلنون؟

وَ لَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ. تقدم مثله في الآية ٣ من هذه السورة، و الآية ١٥٤ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١٨٢. **وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَ لْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ**. قال مشركو قريش للذين استجابوا لدعوة رسول اللّه (ص): كيف تتبعون محمدا و تتحملون الكثير من أجله؟

دعوه و عودوا إلى ديننا، و إذا كنتم تخافون عذاب اللّه بعد الموت كما خوّفكم محمد فنحن نتحمله عنكم .. قالوا هذا، و هم يريدون به ان البعث حديث خرافة **وَ ما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ** لأن كل انسان مجزي بأعماله، لا يحمل وزر غيره، أو يسأل عنه: قُلْ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا وَ لا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ- ٢٥ سبأ.

وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ. كل من أضل غيره يحمل وزر نفسه، و وزر من غرر به، حيث تسبب في وجود الضلال و انتشاره، أما من يتبع المضل فإنه يحمل وزر نفسه كاملا، و لا ينقص منه شيء لأنه استجاب الى دعوة الضلال بسوء اختياره، و بكلمة للمضل عقوبتان: إحداهما على ضلاله، و الثانية على إضلاله، و للتابع عقوبة واحدة على عمله بالضلال مختارا **وَ لَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ** بادعائهم الشريك للّه، و قولهم عن الرسول الأعظم (ص): انه ساحر و قولهم للمؤمنين: اتبعوا سبيلنا و لنحمل خطاياكم، و غير ذلك.

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَ هُمْ ظالِمُونَ فَأَنْجَيْناهُ وَ أَصْحابَ السَّفِينَةِ وَ جَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ. يدل ظاهر الآية بوضوح ان نوحا عاش ٩٥٠ عاما، و العقل لا يأبى ذلك، فوجب التصديق أما التعليل بأن عدد البشرية كان قليلا يومذاك، و النسل كان محددا، و انه كلما قل العدد و النسل طالت الأعمار، كما قال بعض المفسرين الجدد، أما هذا التعليل و نحوه فلا يصح الركون اليه في تفسير الوحي أو توجيهه .. و في قاموس الكتاب

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٩٩

المقدس ان نوحا اسم ساميّ، و معناه «راحة» و أبوه هو الذي سماه بذلك.

و يلاحظ ان السامية هي نسبة إلى سام بن نوح فكيف نسب الوالد الى الولد؟

و في ص ٤٤٨ من هذا القاموس ان ساما ولد لنوح و عمره ٥٠٠ سنة. و لم يشر القاموس المذكور الى تاريخ العهد الذي كان فيه نوح، و ربما لعدم المصادر.

و تقدم الكلام عن نوح في العديد من الآيات، منها سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٤٤ و ما بعدها، و منها في سورة هود ج ٤ ص ٢٢٢ و ما بعدها.

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ١٦ الى ١٨]

وَ إِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَ اتَّقُوهُ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثاناً وَ تَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَ اعْبُدُوهُ وَ اشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَ إِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ ما عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٨)

المعنى:

ان دعوة ابراهيم (ع) هي دعوة كل نبي: الإخلاص للّه في كل شيء، و نبذ الشرك بشتى صوره و أشكاله، و الايمان بأن اللّه هو المبدئ و المعيد، بيده الضر و النفع، و من كذب و تولى عن هذه الدعوة فقد ظلم نفسه.

و في قاموس الكتاب المقدس ان ابراهيم هو ابن تارح من نسل سام بن نوح، و انه من بلاد ما بين النهرين أي دجلة و الفرات، و أنه أقام فيها ٧٥ عاما، ثم رحل مع زوجته و لوط الى أرض كنعان، و قال مؤلفو القاموس المذكور: «لا

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٠٠

يمكن أن نعيّن على وجه التحديد التاريخ الذي عاش فيه ابراهيم، و لكنه ولد وفقا للتاريخ الذي حدده «اشر» حوالى سنة ١٩٩٦ ق. م.». و تقدم الكلام عن ابراهيم في سورة الأنعام الآية ٧٤- ٨٤ ج ٣ ص ٢١١- ٢١٩ و سورة مريم الآية ٤١- ٥٠، و سورة الأنبياء الآية ٥٢- ٧٢.

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ١٩ الى ٣٧]

أَ وَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ يَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ وَ إِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (٢٢) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللهِ وَ لِقائِهِ أُولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٢٣)

فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَ قالَ إِنَّما اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَ مَأْواكُمُ النَّارُ وَ ما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٢٥) فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَ قالَ إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ جَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَ الْكِتابَ وَ آتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٠١

اللغة:

الإنشاء الإيجاد. و تقلبون ترجعون.

الإعراب:

بمعجزين الباء زائدة و معجزين خبر أنتم أي ما أنتم معجزين. و من ولي (من) زائدة و ولي مبتدأ و لكم خبر. و المصدر من ان قالوا خبر كان. و أوثانا مفعول أول لاتخذتم و المفعول الثاني محذوف أي اتخذتم من دون اللّه أوثانا آلهة. و

مودة مفعول من أجله لاتخذتم.

المعنى:

(أَ وَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ) أو لم يروا أو لم يعلموا، و يتلخص معنى الآية بقول الإمام علي (ع): «عجبت لمن أنكر النشأة الأخرى، و هو يرى النشأة الأولى». و وجه الملازمة بين النشأتين اتحادهما في العلة، و هي قدرة الموجد، فإن من قدر على إيجاد الشيء من لا شيء يقدر على جميع أجزائه بعد تفرقها، بل الجمع أهون و أيسر من الإيجاد .. نقول هذا مع العلم بأنه لا شيء على اللّه أهون من شيء، و أنه يوجد الخطير و الحقير بكلمة «كن». و كررنا ذلك بتكرار الآيات. انظر ج ١ ص ٧٧ و ج ٢ ص ٣٩٦ و ج ٤ ص ٣٧٩.

القرآن و الفكر:

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ). نهى القرآن عن التقليد، و نعى على المقلدين، و أمر بالبحث و النظر، و أثنى على العلماء و المجتهدين في العديد من آياته .. و لا شك ان البحث و النظر علامة من علامات الحياة، و طريق الى نموها و تقدمها و حلّ

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٠٢

مشاكلها إذا كان مع البحث و النظر صبر و تصميم على بلوغ الهدف مهما كانت العقبات .. فبالصبر و الايمان تقهر كل القوى، فلقد صمم انسان هذا العصر أن يصل الى القمر، فاجتهد و ثابر حتى وطئ أرضه بأقدامه، و غدا أو بعد غد يطأ المريخ و غيره من الكواكب .. اذن، فليس هناك قوة لا يتغلب عليها الإنسان إلا قوة خالق الإنسان، و من هنا قيل: ما فوق الإنسان غير خالقه، و لو سألني سائل: ما هو حد الإنسان؟ لقلت له: حده ان لا حد لطاقاته و استعداده، و الجهل و التقليد هو الذي يحول بين الإنسان و قابليته، و يفصله عن نفسه و واقعه، و من أجل هذا حرم القرآن التقليد، و أمر بالنظر و اتباع العقل في جميع أحكامه، و أطلق عليه كلمة النور و الهدى و البرهان.

و تسأل: صحيح ان القرآن نهى عن التقليد، و أمر بالبحث و النظر، و أثنى على العلماء، و لكن السياق أو السبب الموجب لنزول الآيات الواردة في هذا الباب يدل على ان العلماء الذين أثنى عليهم هم أهل العلم باللّه و حلاله و حرامه، و انه أمر بالنظر و التفكر في خلق الكائنات لينتهي الإنسان من ذلك الى الايمان باللّه و اليوم الآخر، و يفوز بالجنة و نعيمها، و ينجو من النار و جحيمها: و أوضح مثال على ذلك قوله تعالى: أَ فَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ أَ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْناهُ حُطاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ- ٦٥ الواقعة أي تعجبون. و أي عاقل يقول:

ان هذه الآية تحث على علم الزراعة؟ و مثلها بقية الآيات التي أمرت بالنظر و التفكر.

الجواب أولا: ان هناك آيات باركت و أثنت على كل ما ينفع الناس كقوله تعالى: فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَ أَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ- ١٧ الرعد. و لا شيء ينفع الناس كالعلم، بل لا حياة بدونه في هذا العصر، هذا بالاضافة الى عشرات الآيات التي حثت على الأعمال الصالحة، و اعتبرت أهلها خير البرية، قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ- ٧ البينة، و العلم في طليعة الأعمال الصالحة.

ثانيا: صحيح ان السبب الموجب لنزول الآيات التي أمرت بالبحث و النظر أو أكثرها هو الرد على من كفر باللّه و اليوم الآخر، و لكن سبب النزول لا يخصص عموم اللفظ.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٠٣

ثالثا: ان العلم النافع حسن بذاته في نظر العقل، و حكم العقل لا يقبل التخصص و الاستثناء، أجل للعلم منازل و مراتب تقاس بما يترتب عليه من فوائد و منافع، و العلم باللّه و شريعته أنفع العلوم دنيا و آخرة، أما دنيا فلأنه يتجه بكل شيء إلى خير الناس و مصالحهم، و أما في الآخرة فلأنه سبيل النجاة من غضب اللّه و عذابه، و من هنا أطلق المسلمون كلمة عالم بلا قيد على رجل العلم بالدين، و مع القيد على غيره من أهل العلوم الدنيوية.

رابعا: اتفق فقهاء المسلمين قولا واحدا على ان كل علم لا يستغنى عنه في الحياة فهو فرض كفاية، و في الحديث: ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان إلا كان له به صدقة. و فيه أيضا: اطلبوا العلم من مظانه أي من مصادره الدينية و الدنيوية، اطلبوا العلم و لو في الصين.

و بداهة ان علم الدين يطلب من كتاب اللّه و سنة نبيه، و ليس من الصين، إلى غير ذلك من الأحاديث.

يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ ممن يستحق العذاب **وَ يَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ** ممن يستحق الرحمة، لأن اللّه عادل و حكيم يجزي كل نفس بما كسبت **وَ إِلَيْهِ تُقْلَبُونَ** ترجعون يوم القيامة للحساب و الجزاء **وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ**، أي و لا من في السماء بمعجزين، و في نهج البلاغة: لا يعجزه من طلب، و لا يفوته من هرب **وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ** لا مرد لحكمه، و لا ملجأ منه إلا اليه **وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللّهِ وَ لِقائِهِ أُولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ**. اليأس من رحمة اللّه نتيجة حتمية للكفر به و باليوم الآخر، و جزاء من يئس من رحمة اللّه و ثوابه كفرا و جحودا هو أن يذوق عذاب الحريق.

فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجاهُ اللّهُ مِنَ النَّارِ.

عاد الحديث الى ابراهيم (ع) و سيرته مع قومه الذين حاولوا التخلص منه و من دعوته بالقتل أو الإحراق .. و هذا هو منطق الجبابرة الطغاة في كل زمان و مكان ..

تدمغهم الحجة الواضحة، فترتعد منها فرائصهم، و يخافون على مناصبهم، و لا يملكون إلا الظلم و الطغيان، فيصدرون الأوامر: اسجنوا .. عذبوا .. صادروا

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٠٤

الأملاك .. اهدموا البيوت .. اشنقوا .. احرقوا .. و هنا تتدخل العناية الإلهية، إما بنجاة المظلوم من أيدي الظالمين، و إما بأخذهم أخذ عزيز مقتدر بيده أو بيد الأحرار من عبيده، و تقدم مثله في الآية ٦٨ من سورة الأنبياء **إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** أي ينتفعون بالنذر، و يتعظون بالعبر، و يبحثون عن الحق لوجه الحق ليؤمنوا به و يعملوا مخلصين.

وَ قالَ إِنَّما اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا. قال ابراهيم لقومه: عبدتم هذه الأوثان، و أنتم على يقين بأنها لا تنفع و لا تضر، و لكن عظمتموها تقليدا لمن تودونهم و تحبونهم في هذه الحياة، و ستنقلب هذه المودة الى عداوة و بغضاء **ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً**.

قال الإمام علي (ع): يتبرأ التابع من المتبوع، و القائد من المقود، فيتزايلون بالبغضاء- أي يتفارقون- و يتلاعنون عند اللقاء **وَ مَأْواكُمُ النَّارُ وَ ما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ**. هذه نهاية من كفر بالحق تابعا كان أو متبوعا.

فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَ قالَ إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. لوط هو ابن أخي ابراهيم، و قال جماعة من المفسرين: لم يهتد أحد من قوم ابراهيم و يؤمن إلا لوط، و ليس هذا ببعيد، لأن هذه الآية تومئ إلى ذلك بالإضافة الى ما جاء في كثير من الكتب ان ابراهيم هاجر هو و زوجته و ابن أخيه لوط فقط.

و في الاصحاح التاسع عشر ان ابنتي لوط سقتا أباهما خمرا، فاضطجع معهما، و حملتا منه، فولدت الكبرى ذكرا أسمته موآب، و أيضا حملت الصغرى ذكرا أسمته بن عمي.

وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ جَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَ الْكِتابَ وَ آتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. ضمير له يعود الى ابراهيم (ع)، و في هذه الآية دلالة واضحة على ان اللّه سبحانه لم يبعث نبيا بعده إلا من صلبه، و إذا عطفنا على هذه الآية حديث «هذا الأمر في قريش .. الناس تبع لقريش .. الأئمة من قريش ..» إذا فعلنا ذلك كانت النتيجة ان جميع الأنبياء و الأئمة من سلالة ابراهيم (ع) لأن نسب قريش ينتهي اليه. و تقدم مثله في الآية ٤٩ من سورة مريم و ٧٢ من سورة الأنبياء.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٠٥

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ٢٨ الى ٣٥]

وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (٢٨) أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَ تَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا ائْتِنا بِعَذابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠) وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ (٣١) قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (٣٢)
وَ لَمَّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قالُوا لا تَخَفْ وَ لا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَ أَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَ لَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥)

المعنى:

أرسل اللّه لوطا الى مجتمع ما عرف التاريخ القديم له مثيلا في انحلاله و بشاعته .. يأتون الرجال شهوة من دون النساء، و يقطعون الطريق على المارة بالأذى ضربا و سلبا و اغتصابا، أما أنديتهم و مجالسهم فلا تعرف إلا الفحش و المنكر و الآثام .. فحذرهم لوط، و أنذرهم بعذاب اللّه .. و هذا كل ما يملكه و يقدر

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٠٦

عليه، فسخروا منه، و قالوا: أرنا هذا العذاب لنؤمن بك .. فالتجأ الى اللّه يستنصره على القوم المفسدين.

فاستجاب سبحانه الى تضرعه، و أمده بملائكة غلاظ شداد، مروا في طريقهم بإبراهيم، و بشّروه بغلام عليم من امرأته العجوز العقيم، و أطلعوه على حكم اللّه في قوم لوط. قال: كيف و فيهم العبد الصالح لوط؟ قالوا: هو و من اتبعه في أمان إلا امرأته التي تظاهرت و تآمرت مع القوم الكافرين.

و دخل الملائكة على لوط بوجوه وضاءة ناضرة، فأوجس في نفسه خيفة عليهم من قومه الأشرار، فكشفوا له عما قصدوا اليه .. و تمت كلمة العذاب على المفسدين، و أصبحوا أثرا بعد عين، و عبرة لأولي الأبصار.

و بعد ألوف السنين يعيد تاريخ اللواط و الفساد نفسه في مجلس العموم البريطاني حيث أقرّ و استحلت هذه الفاحشة التي تنفر منها طباع الوحوش و الحشرات ..

و نحن على يقين بأن نوعا من العذاب سيحل على هذا المجتمع و أمثاله عاجلا أم آجلا تماما كما حل على الذين من

قبلهم.

و في قاموس الكتاب المقدس: «و نعلم من الكشوف الجيولوجية ان المنطقة الواقعة جنوب البحر الميت قد اكتست بالملح، و ربما كان سبب هذا انفجار تحت سطح الأرض حدث بفعل إلهي». و تقدمت هذه الآيات في سورة الأعراف الآية ٨٠- ٨٤ ج ٣ ص ٣٥٢، و في سورة هود الآية ٧٧- ٨٣ ج ٤ ص ٢٤٧- ٢٥٦.

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ٣٦ الى ٤٠]

وَ إِلىٰ مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَ ارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (٣٧) وَ عاداً وَ ثَمُودَ وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ كانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) وَ قارُونَ وَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مُوسىٰ بِالْبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَ ما كانُوا سابِقِينَ (٣٩) فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا وَ ما كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لٰكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٠٧

اللغة:

الرجفة الحركة و الاضطراب. و الجثوم البروك على الركبة و المراد به هنا الهلاك.

و الحاصب من الرمي بالحصباء أي الحجارة الصغيرة.

الإعراب:

أخاهم مفعول لفعل محذوف أي و أرسلنا إلى مدين أخاهم. و شعيبا بدل من أخاهم. و عادا و ثمود مفعول لفعل محذوف أي و أهلكنا. و فاعل تبين ضمير مستتر يعود الى هلاكهم المفهوم من سياق الكلام. و المصدر من ليظلمهم متعلق بمحذوف خبرا لكان، أي ما كان اللّه مريدا لظلمهم.

المعنى:

وَ إِلىٰ مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَ ارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ. شعيب عربي كهود و صالح، و أهل مدين عرب، و هي من أطراف الشام، و لا وجود لهذا الاسم في قاموس التوراة و الأناجيل الأربعة

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٠٨

و الذي فيه ان يثرون اسم مدياني، و هو كاهن مديان حمو موسى أي أبو زوجته و يدعى أيضا رعوئيل. و تقدم نظير هذه الآية في سورة الأعراف الآية ٨٥ ج ٣ ص ٣٥٦.

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ. تقدم في الآية ٧٨ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٥١.

وَ عاداً وَ ثَمُودَ وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ كانُوا مُسْتَبْصِرِينَ أي يملكون التبصر و العقل الذي يهتدون به الى سبيل الحق، و لكنهم اتبعوا الشيطان فكانوا من المهلكين، و أنتم أيها المشركون عقلاء كعاد و ثمود، و قد رأيتم من الدلائل على هلاكهم ما فيه عظة و عبرة، أفلا تتعظون و تنتهون عن متابعة الشيطان في خطواته و همزاته؟

وَ قارُونَ وَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَ ما كانُوا سابِقِينَ. أي ناجين من عذاب اللّه كما ينجو السابق، و قارون هو الذي كان له «من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة».

و فرعون هو القائل: أنا ربكم الأعلى، و هامان وزيره .. هؤلاء جاءهم موسى بالدلائل و البصائر، فأخذتهم العزة بالإثم، فأهلكهم من له العزة جميعا فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً كقوم لوط وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ كثمود وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ كقارون وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا كقوم نوح و فرعون و هامان وَ ما كانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ.

و لما ذا يظلم اللّه الناس؟ أ لأنه في حاجة الى الظلم و هو غني عن العالمين؟ و كيف يظلم عباده و هو القائل: أَنْ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ- ٤٤ الأعراف.

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ٤١ الى ٤٥]

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَ ما يَعْقِلُها إِلاَّ الْعالِمُونَ (٤٣) خَلَقَ اللّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٤٤) اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ وَ أَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ لَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ وَ اللّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ (٤٥)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٠٩

الإعراب:

جواب لو محذوف أي لو كانوا يعلمون ان هذا مثلهم. يعلم ما تدعون (ما) اسم موصول مفعولا ليعلم أي يعلم الذين يدعون، و قيل (ما) استفهام و محلها النصب بيدعون، و يعلم معلقة عن العمل.

المعنى:

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ. علينا أولا أن نحدد من هم الذين اتخذوا من دون اللّه أولياء؟ هل هم عبدة الأحجار و الأوثان فقط أو انهم أعم و أشمل؟

و قبل أن نجيب عن هذا السؤال نذكر قوله تعالى: مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً- ١٠ فاطر. و قوله: أَ يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً- ١٣٩ النساء. و معنى هذا انه لا عزة و لا قوة لمال أو علم أو سلطان أو لأي شيء إلا إذا قام على أساس من تقوى اللّه و مرضاته، و كان مظهرا لطاعته و ارادته .. فالعلم قوة و خير و ايمان باللّه و الانسانية إذا كان دعامة للحق و العدل، و وسيلة لنمو الحياة و ازدهارها، و العلم ضعف و شر و كفر باللّه و بالانسانية إذا كان وسيلة للبغي و العدوان، و للخراب و الدمار، و كذا المال و السلطان و غيرهما.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١١٠

إذا تمهد هذا عرفنا ان الذين اتخذوا من دون اللّه أولياءهم عبدة الأوثان، و من أعرض عن اللّه مغترا بمال أو علم و فهم أو سلطان، و من بغى و سعى في الأرض فسادا .. و قد شبه سبحانه قوة هؤلاء ببيت العنكبوت الذي يبقى إذا سكنت الرياح، و لم يعترضه أي عارض، و إذا هبت الريح أو اعترضه أدنى شيء يصبح هباء لا عين له و لا أثر .. و بكلام آخر ان

كل من أعرض عن اللّه سبحانه معتمدا على وثن أو علم أو مال أو سلطان فهو من الذين اتخذوا من دون اللّه أولياء، و من يتخذ من دون اللّه وليا فهو من الخاسرين.

و في كتاب الحيوان للجاحظ «ان ولد العنكبوت يقوم على النسج ساعة يولد، و مادة نسيجه من الخارج لا من جسده، و انه لما عرف عجزه عما يقوى عليه الليث احتال بخيوطة على صيد الذباب من أجل قوته». و على كل عاقل أن يسأل نفسه و عقله: من الذي ألهم العنكبوت فن النسج و دله ساعة يولد على المادة التي تصلح لنسجه؟ و أي مهندس وضع له تصميم هذا البيت على شكل مصيدة للذباب؟

و هل جاء هذا بالصدفة؟ و إذا تكررت الصدفة مرتين أو ثلاثا فهل تتكرر في كل عنكبوت ولد و يولد إلى ما لا يبلغه عد، و لا حصر؟ تعالى اللّه عما يقول المفترون ..

كلا، انه خلق فسوّى، و قدّر فهدى.

إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ أي من الأوثان و غيرها مما يعتمدون عليه من دون اللّه كالمال و السلطان، و المعنى انه تعالى يعلم حقيقة هذه الأشياء التي يعتزون بها و انها لا تغني عن اللّه شيئا **وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**. عزيز بقدرته، حكيم بتدبيره.

وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَ ما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ. تلك إشارة الى مثل العنكبوت و نظائره، و أنه تعالى ينبه الناس بها الى وحدانيته و عظمته، و لكن لا يفهم هذه الأمثال و غيرها من آيات اللّه إلا أهل العقول و البصائر.

خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ أي على وجه الحكمة و المصلحة، و لم يخلقها عبثا و لهوا، و الحكمة من خلقها أن تسكنها الخلائق، و ينتفعوا بها، و يستدلوا بصنعها و عجائبها على وحدانية اللّه و عظمته **إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ**.

ذلك إشارة الى الإتقان و النظام في خلق السموات و الأرض .. و هذا الإتقان دليل قاطع على وحدانية اللّه و عظمته عند المنصفين الذين يبتغون الحق، و يؤمنون به لوجه الحق.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١١١

الصلاة تنهى عن الفحشاء و المنكر:

اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ. اقرأ يا محمد هذه الأمثال التي ضربناها للناس في القرآن لعلهم يفقهون و يتقون **وَ أَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ**. و تسأل: ظاهر الآية يدل على ان المصلين ينتهون عن الفحشاء و المنكر، و لا يفعلون منهما شيئا مع ان أكثرهم فاسقون، بل ان البعض منهم أسوأ سيرة من بعض الملحدين و المشركين؟

الجواب: كلا، ان ظاهر الآية يدل بوضوح على ان الصلاة تنهى المصلي عن الفحشاء و المنكر، تنهاه بالقول و الإرشاد، و لا دلالة فيها على ان المصلي ينتهي بسببها عن الفحشاء و المنكر، و الفرق بين النهي و الانتهاء كبير و واضح ..

و ليس من شك ان كل كلمة من كلمات الصلاة و حركة من حركاتها تنهى عن معصية اللّه، و تأمر بطاعته، و بكلمة ان الصلاة كالقرآن تأمر و تنهى تشريعا لا تكوينا. انظر ج ١ ص ٧٢ فقرة: «التشريع و التكوين».

و لابن عربي في الفتوحات المكية كلمة غامضة و معقدة حول هذه الآية، و لكنها دقيقة المعنى، و توضيحها ان المصلي يحرم عليه حين الصلاة أن يتفوه بكلمة أو يتحرك بحركة تناقض طبيعة الصلاة و تبطلها، و لا يحرم عليه ان يقول و

يفعل شيئا يتلاءم مع الصلاة و صحتها، كما لو زاد في التسبيح و التحميد حين الركوع و السجود، أو تصدق لوجه اللّه في أثناء الصلاة دون أن يخل بشيء منها، كما فعل علي أمير المؤمنين (ع) حين تصدق بخاتمه، و هو راكع. و على هذا يكون المراد بالفحشاء و المنكر كل قول أو فعل يبطل الصلاة، أن اي الصلاة تقول للمصلي: حافظ عليّ و لا تأت بشيء يبطلني و يخرجني عن هويتي و حقيقتي.

وَ لَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ. ليس المراد ان ذكر اللّه أكبر من الصلاة، لأن الصلاة ذكر اللّه، و الشيء لا يكون أكبر من نفسه، و انما المراد ان اللّه أكبر ذاكر لعباده باللطف و الرحمة، و بكلام أوضح ان اللّه ذاكر و مذكور، هو ذاكر لأنه يذكر عباده بلطفه و رحمته، و هو مذكور لأن عباده يذكرونه بقلوبهم ايمانا و إخلاصا و بألسنتهم تهليلا و تسبيحا، و بأفعالهم ركوعا و سجودا، و هو أكبر الذاكرين و المذكورين لأنه رب العالمين **وَ اللهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ** من خير و شر، و يجزي كل نفس بما كسبت و هم لا يظلمون.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١١٤

الجزء الحادي و العشرون

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١١٥

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ٤٦ الى ٤٩]

وَ لا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَ قُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَ إِلهُنا وَ إِلهُكُمْ واحِدٌ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) وَ كَذلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ الْكافِرُونَ (٤٧) وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ الظَّالِمُونَ (٤٩)

اللغة:

الجدل الحجاج و المناظرة مأخوذ من جدل الحبل أي فتله، و المناظر يفتل خصمه عن رأيه، و مسلمون مستسلمون و مطيعون. و الارتياب الشك.

الإعراب:

الذين ظلموا في محل نصب على الاستثناء المتصل، إذا حرف جواب لكلام محذوف أي لو خططته بيمينك إذا لارتاب المبطلون، و اللام في ارتاب لام القسم.

المنهج الجدلي في القرآن:

وَ لا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ. المراد بأهل الكتاب اليهود

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١١٦

و النصارى. و الجدال بالحسنى أن يكون بالحجة و الدليل في أسلوب مبشّر غير منفر، و واضح لا تعقيد فيه و لا تكلف مع إنصاف المناظر في الاستماع الى ما يريد، و الاعتراف له بما هو محق فيه، سواء أ كان من أهل الكتاب، أم من غيرهم، و أوضح مثال على ذلك قوله تعالى للمشركين الذين قالوا: إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ قالَ أَ وَ لَوْ

جِئْتُكُمْ بِأَهْدىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبٰاءَكُمْ- ٢٤ الزخرف. فهذا الرفق و التلطف في قوله: أَ وَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدىٰ يدعم الحجة و يشفع لها عند من كان له قلب أو ألقى السمع و هو شهيد .. و انما خص سبحانه أهل الكتاب بالذكر لأن المفروض فيهم أن يتقبلوا الحق أكثر من المشركين لايمانهم باللّه و ملائكته، و كتبه و أنبيائه **إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ** و هم الذين عاندوا الحق، و أصروا على الضلال لا يرتدعون بحال، فعليكم أن تدعوا هذا النوع من أهل الكتاب، و لا تجادلوهم في الدين على الإطلاق.

و من تتبع آي الذكر الحكيم التي جادلت المنكرين و المبطلين يرى ان المنهج الجدلي في القرآن يقوم على حرية العقل و إطلاقه في جميع الآفاق و الميادين .. و تتجلى هذه الحرية حين يقدم القرآن الدليل القاطع على صحة دعوته و وجوب الايمان بها:

سَنُرِيهِمْ آيٰاتِنٰا فِي الْآفٰاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتّٰى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ- ٥٣ فصلت.

و أيضا تظهر هذه الحرية حين يطالب القرآن المنكرين ان يبرروا موقفهم بالدليل:

قُلْ هٰاتُوا بُرْهٰانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ- ١١١ البقرة. ائْتُونِي بِكِتٰابٍ مِنْ قَبْلِ هٰذٰا أَوْ أَثٰارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ- ٤ الأحقاف. وَ لاٰ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاّٰ جِئْنٰاكَ بِالْحَقِّ وَ أَحْسَنَ تَفْسِيراً- ٣٣ الفرقان.

هذا هو الجدل القرآني في حقيقته و واقعه: اقامة الحجة على الدعوى بما تستدعيه طبيعتها في نظر العقل، و طلب الحجة ممن جحد و عاند، و رده بحجة أبلغ و أقوى ان كان لديه اثارة من شبهه أو دليل، و قد ظهر هذا المنهج القرآني في أساليب شتى:

«منها»: الاكتفاء ببيان حقيقة الشيء و تحليل معناه، و قد استعمل القرآن هذا الأسلوب للرد على عبدة الأصنام و نفي الربوبية عنها، حيث أوضح انها عاجزة عن أتفه الأشياء: إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبٰاباً وَ لَوِ اجْتَمَعُوا

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١١٧

لَهُ وَ إِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبٰابُ شَيْئاً لاٰ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطّٰالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ- ٧٣ الحج». كيف يعبد الإنسان من قعد به الضعف و العجز حتى عن الذباب! و أيضا استعمل القرآن هذا الأسلوب في الرد على من ألّه السيد المسيح (ع): مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاّٰ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كٰانٰا يَأْكُلاٰنِ الطَّعٰامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيٰاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنّٰى يُؤْفَكُونَ- ٧٥ المائدة. و من يأكل الطعام فهو مفتقر اليه، و الإله يفتقر اليه كل شيء، و لا يفتقر هو إلى شيء. انظر ج ٣ ص ١٠٥.

و «منها»: الاستدلال بوجود حادث على وجود علته بحيث يستلزم العلم بوجوده العلم بوجودها، و قد استعمل القرآن هذا الأسلوب للدلالة على وجود اللّه في العديد من الآيات، منها- على سبيل المثال- أَ فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمٰاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنٰاهٰا وَ زَيَّنّٰاهٰا- ٥ ق». و محال أن يكون هذا البناء المحكم و تزيينه بالكواكب من باب الصدفة، فتعين وجود القدير الحكيم. و أيضا استعمل القرآن هذا الأسلوب للدلالة على الوحدانية: لَوْ كٰانَ فِيهِمٰا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتٰا- ٢٢ الأنبياء لأن تعدد الآلهة يستدعي فساد الكون، و حيث لا فساد فلا تعدد.

و بتعبير أهل المنطق أن نفي اللازم و هو فساد الكون يدل على نفي الملزوم و هو تعدد الآلهة.

و «منها» الاستدلال بالأولية، و قد استعمل سبحانه هذا الأسلوب للدلالة على إمكان المعاد لأن العلم بوقوعه تابع للعلم بامكانه: وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ- ٢٧ الروم أي ان من قدر على إيجاد الشيء من لا شيء

فبالأولى أن يقدر على جمع أجزائه بعد تفرقها.

و هذه الأمثلة برهان قاطع على ان الجدل القرآني يقوم على أساس العقل و حريته، و ان الهدف منه اظهار الحق للايمان و العمل به، أو لإفحام من جحد و عاند بأسلوب يقنع من طلب الحق لوجه الحق.

وَ قُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَ إِلهُنا وَ إِلهُكُمْ واحِدٌ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ. الخطاب للمسلمين، و المعنى: كما يجب عليكم أيها المسلمون ان تجادلوا من ترجون هدايته من أهل الكتاب فعليكم أن تدعوا جدال المعاندين منهم بالحسنى أيضا أي لا تظهروا لهم العداء، بل خالطوهم و قولوا لهم: ان معبودنا و معبودكم

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ١١٨

واحد، و نحن مؤمنون به، و بالتوراة التي أنزلت على موسى، و الإنجيل الذي أنزل على عيسى، تماما كما نؤمن بالقرآن الذي نزل على محمد. و بكلمة، كونوا للإسلام زينا، و لا تكونوا عليه شينا.

وَ كَذلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ. الخطاب لرسول اللّه (ص)، و المراد بالكتاب القرآن، و المعنى كما أنزلنا التوراة على موسى، و الإنجيل على عيسى من قبلك أنزلنا عليك القرآن **فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ** هذا إشارة الى الذين أسلموا من اليهود و النصارى **وَ مِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ** إشارة الى الذين أسلموا من مشركي العرب آنذاك.

وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ الْكافِرُونَ. و تسأل: الجحود هو الكفر، و عليه يكون المعنى لا يكفر إلا الكافرون، تماما مثل لا يقعد إلا القاعدون، و القرآن منزه عن هذا؟

الجواب: المراد ان دلائل الصدق على القرآن قد بلغت من الوضوح مبلغا لا ينكره إلا من اتخذ الباطل دينا، و الكفر عقيدة لا يحيد عنها حتى و لو ظهر بطلانها ظهور الشمس في رائعة النهار، كما هو شأن اليهود الذين قال بعضهم لبعض: وَ لا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ- ٧٣ آل عمران.

وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتابَ الْمُبْطِلُونَ.

اتفق المؤرخون على أن محمدا (ص) لم يختلف إلى معلم صغيرا و لا كبيرا، و مع هذا جاء بالقرآن معجزة المعجزات في عقيدته و شريعته و جميع مبادئه و تعاليمه و في إخباره عن الأنبياء السابقين و غير ذلك، و هذا دليل كاف واف على أنه وحي من اللّه، لا من صنع البشر، و لو كان النبي (ص) يحسن القراءة و الكتابة، أو اختلف إلى معلم لقال المفترون: القرآن من صنع محمد، لا من وحي اللّه ..

و قال من قال: أخذ محمد القرآن من راهب نصراني بالشام، و لا نعرف مصدرا لهذا الزعم .. اللهم إلا قول القرآن: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ- ٧٣ المائدة و قوله: اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ ما أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ- ٣١ التوبة. انظر ج ٢ ص ٥٠٠ فقرة: القرآن و المبشرون بالتثليث.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ١١٩

بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ الظَّالِمُونَ.

كلا، ليس القرآن من صنع محمد (ص) بل هو وحي من اللّه يؤمن به و يركن اليه الذين يطلبون العلم للإيمان بالحق و به يعملون، أما الذين يتخذون العلم متجرا و حانوتا فيكفرون به، لأنه حرب على النفاق و الاستغلال.

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ٥٠ الى ٥٥]

وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللهِ وَ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَ ذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفى بِاللهِ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَ كَفَرُوا بِاللهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (٥٢) وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَ لَوْ لا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ وَ لَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَ يَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥)

الإعراب:

لولا أنزل هلا انزل. و المصدر من أنا أنزلنا فاعل يكفهم. و جملة يتلى حال من الكتاب أي متلوا عليهم. و باللّه الباء زائدة و اللّه فاعل كفى. و شهيدا تمييز.

و ليأتينهم اللام جواب قسم محذوف أي و اللّه ليأتينهم. و بغتة مصدر في موضع الحال من العذاب. و يوم متعلق بمحيطة.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٢٠

المعنى:

وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللهِ وَ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ.

تقدم مثله في الآية ١١٩ من سورة البقرة ج ١ ص ١٨٩ و الآية ٣٧ من سورة الأنعام ج ٣ ص ١٨٤ و الآية ٢٠ من سورة يونس ج ٤ ص ١٤٢ و غيرها.

أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ و كل ما فيه يشهد بأنه من عند اللّه، و قد تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، و كشف لهم عن الكثير مما أضمروا و خبأوا، و قص عليهم قصص الماضين، و شهد بصدقه المنصفون من أهل الكتاب، و في ذلك حجة كافية شافية لمن يطلب الحق من معدنه، و المشركون الذين كابروا و عاندوا رسالة محمد (ص) على يقين من ذلك، و ما منعهم من اتباع الحق إلا المطامع و المنافع **إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَ ذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.** ذلك اشارة الى القرآن، و هو رحمة و نعمة لمن يعمل به، و تذكير و موعظة لمن يصدقه و يؤمن بشريعته و آياته.

قُلْ كَفى بِاللهِ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ شَهِيداً يشهد و يعلم اني قد بلّغت رسالته، و انكم كذبتم و أعرضتم، و أيضا **يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ** و لا تخفى عليه خافية، **وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَ كَفَرُوا بِاللهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ** كل ما نهى اللّه عنه فهو باطل، و كل من عصى اللّه فهو كافر أو فاسق، و كل منهما باء بغضب اللّه و مأواه جهنم و بئس المصير.

وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَ لَوْ لا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ. دعا رسول اللّه (ص) قريشا إلى التوحيد و العدل، و حذرهم عاقبة الشرك و الظلم، فقالوا تعصبا لباطلهم: ائتنا بعذاب أليم .. و كان في قريش من يفضل الهلاك على الخضوع لمحمد (ص) كرها له و حقدا عليه، و قد شاهدنا كثيرا من الناس ينكصون عن دعوة الحق كرها بالداعي لا بالحق .. فأجاب سبحانه المستعجلين بأن اللّه قضى و قدر أمدا معينا لعذابهم، و لولاه لأتاهم العذاب في الحال **وَ لَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ.** العذاب يأتيهم لا محالة، و لكن فجأة و من غير إشعار ليزدادوا ألما على ألم، ألم الدهشة، و ألم

الحريق.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٢١

(يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ). يتعجلون عذاب الدنيا، و ما دروا أنهم في حصار من عذاب أشد و أعظم، و انه سيطبق عليهم، و هم في غفلة معرضون **(يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَ يَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**. هذا اليوم حق لا ريب، و الحق كائن و متحقق بالفعل، أو يكون و يتحقق في العاجل أو الآجل و الا لم يكن حقا، أما نيران هذا اليوم فنعوذ باللّه من لجبها و كلبها .. تحيط بالمغضوب عليه من جميع جهاته، و تلتحم بلحمه و عظمه حتى إذا صار هباء عادت اليه الحياة من جديد، و عادت النيران الى سيرتها الأولى .. و هكذا الى ما شاء اللّه .. اللهم اني أعوذ برحمتك من غضبك و أستشفع اليك بما انطوى عليه قلبي من النصح و حب الخير لجميع عبادك، و أنت أعلم بالسرائر.

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ٥٦ الى ٦٣]

يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) وَ كَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُها وَ إِيَّاكُمْ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠)

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١) اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٦٣)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٢٢

اللغة:

يؤفكون يصرفون عن الحق. و يقدر يضيق.

الإعراب:

فإياي فاعبدون (اياي) مفعول لفعل محذوف يفسره الفعل الموجود، و فاعبدون الأصل فاعبدوني. غرفا مفعول ثان لنبوئنهم، و خالدين حال من المفعول الأول.

و نعم أجر العاملين فعل و فاعل، و المخصوص بالمدح محذوف أي أجرهم، و هو مبتدأ و خبره جملة نعم أجر العاملين أو أجرهم خبر لمبتدأ محذوف أي هو أجرهم.

الذين صبروا صفة للعاملين. و كأين بمعنى كم و محلها الرفع بالابتداء. و جملة لا تحمل رزقها صفة للدابة، و جملة اللّه يرزقها خبر كأين. و أنّى مفعول مطلق أي أيّ إفك يؤفكون.

المعنى:

يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ. اتفق الفقهاء على ان المسلم لا يجوز له أن يقيم في بلد إذا تعذر عليه أن يقيم فيه الواجبات الدينية كالصلاة و نحوها حتى و لو كان هذا البلد وطنه، و ان عليه ان يهاجر منه الى غيره حيث يستطيع ذلك. و تكلمنا عن هذا الموضوع مفصلا عند تفسير الآية ٩٧ من سورة النساء ج ٢ ص ٤١٩ فقرة

«الفقهاء و وجوب الهجرة».

كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ. بعد ان أوجب سبحانه الهجرة من البلد المذكور قال: و من خاف أن يموت في هجرته فان الموت لا ينجو منه

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۱۲۳

مقيم و لا ظاعن، و بعد الموت يبعث و يسأل عما ترك من الواجبات، و فعل من المحرمات، و منها الاقامة في بلد يضطر فيه الى ترك العبادات و شرب المسكرات.

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها. من يخرج من بيته مهاجرا الى اللّه عوّضه تعالى خيرا منه غرفا و أشجارا و أنهارا في دار السلام و المقام **نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**، و أي أجر أعظم من الجنة؟ و لأنها عظيمة كان ثمنها غاليا و عظيما، و هو ان يرفض مبتغيها الاستسلام لأعداء اللّه، و الخوف إلا من اللّه، و ان يخلص للّه وحده، و يصبر من أجل ذلك على الخطوب و الأحداث أيا كان نوعها.

الرزق و الثقة بالمخلوق دون الخالق:

وَ كَأَيِّنْ مِنْ دابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُها وَ إِيَّاكُمْ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.

ان كثيرا من الناس يؤمنون- نظريا- باللّه، و ان أرزاق الخلائق بيده وحده، و ان خزائنه لا نفاد لها و لا نهاية، و انه كريم لا يخيب من توكل عليه، و وثق به، يؤمن بهذا نظريا، و لكنه يكفر باللّه- عمليا- و يثق بالمخلوق دون الخالق، و يتقرب اليه بما فيه ذهاب دينه و ضميره طامعا بما في يده من جاه و مال، و يبتعد عن اللّه يائسا منه و من جوده و خزائنه .. و هذه الآية تقريع و تهديد لهذا المؤمن الكافر.

ان اللّه سبحانه هو خالق الكون بما فيه، و أسباب الرزق بشتى أنواعها تنتهي اليه، و هي مهيأة لكل طالب و راغب إذا سعى لها سعيها، و ان تعذر منها سبب تهيأ للراغب ما هو خير و أجدى من حيث لا يحتسب بشهادة الحس و العيان، بل ان كثيرا من الكائنات الحية لا تعمل للرزق و لا تحمله، و مع هذا يأتيها رغدا عند حاجتها اليه .. و في هذا عظة للخائنين العملاء، و لكل من باع دينه للشيطان، و اتخذ من معصية اللّه ذريعة للرزق و لقمة العيش، و حاشا للّه أن ينهى عن شيء و يحصر سبب الرزق فيه، كيف و دينه دين الحياة! قال الإمام علي (ع):

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۱۲۴

«ان الذي أمرتم به أوسع من الذي نهيتم عنه، و ما أحل لكم أكثر مما حرم عليكم، فذروا ما قلّ لما كثر، و ما ضاق لما اتسع- و قال- ان الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر لخلقان من خلق اللّه، و انهما لا يقربان من أجل، و لا ينقصان من رزق».

و أوضحنا فيما تقدم الفرق بين الايمان الحق و الايمان الموهوم، و ان الايمان الصادق هو الذي يثبت في القلب، و يتمثل في الخوف من اللّه و الاهتمام بطاعته و مرضاته قولا و عملا، أما الايمان الموهوم فلا قرار له في القلب، و انما هو لعق على اللسان، و يعرض على الوهم و الخيال تماما كما تعرض الأطياف و الأحلام، و أصدق شاهد على هذا الايمان المزيف ان يؤمن صاحبه باللّه- قولا- و هو يرجو المخلوق و يخافه- عملا- من دون الخالق.

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ.

ضمير سألتهم يعود إلى المترفين العتاة الذين عاندوا رسالة محمد (ص). و تسأل:

إذا اعترفوا صراحة بأن اللّه هو خالق الكون فأين سبب الخلاف و التضاد بينهم و بين الأنبياء؟

الجواب: انهم يعترفون باللّه على أساس انه تعالى قد خصهم بالمال و السلطان، و انه اختار لغيرهم الفقر و العبودية، و ان من أنكر هذا فهو في ضلال مبين، هذا هو اعترافهم باللّه، و ليس من شك ان من كفر باللّه و آمن بأن له ما للناس، و عليه ما عليهم أفضل عند اللّه من هذا الظالم الآثم، أما الدليل على انهم يعترفون باللّه على هذا الأساس فقوله تعالى: وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَ نُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ- ٤٧ يس.

فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ تصرفون عن الحق بافترائكم ان اللّه خصكم بالمال و السلطان دون الناس أجمعين.

اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

تقدم مثله في الآية ٢٦ من سورة الرعد ج ٤ ص ٤٠١ فقرة «الإنسان و الرزق» **وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَّ اللهُ.** إن سئلوا عن خالق الكون أجابوا معترفين باللّه، على شرطهم، و إن سئلوا عن الذي نزل الماء و أحيا به الأرض، و هو السبب المباشر لما في أيديهم من

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٢٥

رزق و ثراء، أجابوا أيضا معترفين بأنه اللّه وحده .. و قد ناقضوا بهذا الاعتراف أنفسهم بأنفسهم، لأن أسباب الرزق إذا كانت من صنع اللّه لا من صنعهم فكيف تكون لهم وحدهم من دون الناس أجمعين؟ ان اللّه للجميع، فكذلك خيراته و بركاته **قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ** الذي أظهر الحق حتى على ألسنة أعدائه المفترين **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ** انهم كاذبون مفترون يناقضون أنفسهم بأنفسهم.

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ٦٤ الى ٦٩]

وَ ما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ وَ لِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَ يُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَ فَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُ أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ (٦٨)

وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَ إِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)

اللغة:

الحيوان بفتح الياء مصدر كالحياة، و قيل: الحياة التي لا موت فيها. و المثوى المكان و المقر.

الإعراب:

مخلصين حال من فاعل دعوا. ليكفروا و ليتمتعوا: اللام للأمر

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٢٦

و يجوز أن تكون للعاقبة، مثل لدوا للموت ... و كذبا مفعول مطلق لا فترى.

المعنى:

وَ ما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ لَهْوٌ وَ لَعِبٌ. المراد بالدنيا هنا دنيا القصور و الفجور و الليالي الحمراء، و البذخ و الإسراف على حساب الضعفاء، و دنيا المستعمرين و الصهاينة صانعي الموت و المؤامرات العدوانية و الانقلابات الرجعية، و دنيا

شركات الاحتكار و الاستغلال و الخيانة و العمالة و الاتجار بالدين و الوطنية، و دنيا الصحافة المأجورة لتسميم الأفكار و تشويه الحقائق و الاشاعات الكاذبة .. هذه هي دنيا العبث و الفساد و الشر و الضلال التي يمقتها اللّه و أعد لأهلها عذاب الحريق، أما دنيا الطيبين و الأحرار المناضلين و الشرفاء الذين يصلحون في الأرض و لا يفسدون فهي دنيا الحق و الخير و الهدى و الفلاح التي يحرز بها رضا اللّه و الفوز بنعيمه و جناته **وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ** و نفسره بقول الإمام علي (ع): كل نعيم دون الجنة محقور، و كل بلاء دون النار عافية، و قوله في وصف الجنة: لا ينقطع نعيمها، و لا يظعن مقيمها، و لا يهرم خالدها، و لا يبأس ساكنها.

فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ. قيل: ان أهل الجاهلية كانوا إذا ركبوا البحر حملوا معهم الأصنام، فإذا اشتدت بهم الريح ألقوها فيه، و قالوا: يا رب يا رب. و ليس هذا ببعيد فقد كان بعضهم يصنع صنما من التمر، فإذا جاع أكله. و تقدم مثله مع التفسير في الآية ٢٢ من سورة يونس ج ٤ ص ١٤٧. و من المفيد هنا الرجوع الى ما كتبناه في ج ٣ ص ١٨٨ فقرة: «اللّه و الفطرة».

لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ وَ لِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ أي ليفكروا بما أنعم اللّه عليهم من النجاة و غيره و ليتمتعوا الآن بكرمه و حلمه، فسيرون ما يحل بهم غدا من الخزي و العذاب **أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَ يُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ**. ضمير

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٢٧

يروا يعود الى مشركي مكة المكرمة الذين حاربوا رسول اللّه (ص) بقرينة قوله تعالى: «حرما آمنا». و قد ذكرهم سبحانه بما خصهم به دون الناس من الإقامة في بلد الأمن و الأمان على الأنفس و الأموال، و الناس من حولهم في قلق و خوف على حياتهم و أشيائهم. و تقدم مثله في الآية ١٢٥ من سورة البقرة و الآية ٩٧ من سورة آل عمران، و الآية ٥٧ من سورة القصص **أَ فَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ**. كل من خضع للباطل، و رضي بغير الحق طمعا في الدنيا و حطامها فهو من الذين آمنوا بالباطل و كفروا بفضل اللّه و إحسانه.

وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَ إِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ. للجهاد في اللّه مظاهر، منها طلب العلم للّه، و طلب العيش بكد اليمين، و منها الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، و أفضلها جميعا الجهاد لتطهير الأرض من الظالمين و المفسدين ..

و اللّه سبحانه يهدي الى الحق و الرشد كل من أخلص في نيته، و أحسن في عمله، و لا يهدي من هو مسرف كذاب.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٢٨

سورة الرّوم

مكيّة و آياتها ٦٠ ما عدا ١٧ آية فإنها مدنية كما قيل.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الروم (٣٠): الآيات ١ الى ٧]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ وَ

يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤)
بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ (٧)

اللغة:

المراد بأدنى الأرض هنا أقربها الى العرب. و البضع العدد ما بين الثلاثة و العشرة.

و ظاهر الحياة الدنيا ما يدرك منها بالحواس كالغنى و الفقر و ما اليهما.

الإعراب:

من قبل و من بعد مبنيان على الضم. و يومئذ منصوب بيفرح. وعد اللّه منصوب على المصدرية أي وعد اللّه وعدا. و هم الثانية تأكيد للأولى.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٢٩

المعنى:

(الم) تقدم الكلام عنه في أول سورة البقرة **غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ**. فيما تقدم ذكرنا وجوها لاعجاز القرآن الكريم، منها تحدي المنكرين بأن يأتوا بسورة من مثله، و منها عقيدته الإلهية، و هدايته الى بواعث التقدم و أسبابه، و شريعته الانسانية التي تفي بحاجات الناس في كل زمان و مكان، و تقر من الشرائع الوضعية كل ما فيه صلاح للناس بجهة من الجهات، مع العلم بأن الذي بلّغ القرآن لم يختلف الى معلم، و منها ان كلام القرآن يحمل وجوها كثيرة دون كلام الناس، و قد اهتدينا، و نحن نفسر آياته، الى ان السر في ذلك يكمن في عظمة المتكلم و علمه الذي لا يحد بشيء.

انظر ما قلناه عند تفسير الآية ٥٥ من سورة النور، فقرة: وجه آخر لاعجاز القرآن.

و من مظاهر إعجاز القرآن إخباره عما لا يطلع عليه إلا علاّم الغيوب، كالإخبار عما كان يضمره المنافقون في قلوبهم، و عن انتصار النبي على أعدائه، و ظهور الإسلام على الدين كله، و عن رجوع النبي إلى مكة منتصرا بعد إخراجه منها، و عما يحدثه أصحابه من بعده، و عن اليهود و طبيعتهم، و عن انتصار الروم على الفرس بعد بضع سنين من انتصار الفرس على الروم، و الآيات التي نحن بصددها تشير إلى هذه الحادثة التي أجمع عليها الرواة و المفسرون.

و ملخصها ان فارس كانت على دين المجوسية، لا كتاب لها كالمشركين، و كانت الروم على دين النصارى، و النصارى أهل كتاب كالمسلمين، و في عهد رسول اللّه (ص) وقعت الحرب بين فارس و الروم بأذرعات و بصرى من أرض الشام، و كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم في الشرك سواء، و كان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأن الطائفتين من أهل الكتاب، و جاءت الأخبار بانتصار الفرس على الروم، فشق ذلك على المسلمين، و فرح المشركون، و قالوا للمسلمين: ان الفرس الذين لا كتاب لهم غلبوا الروم أصحاب الكتاب، و أنتم تزعمون انكم ستغلبون بالكتاب الذي انزل على نبيكم، فنحن لا كتاب لنا، و سنغلبكم كما غلب الفرس الروم، فنزلت هذه الآيات، و ما

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٣٠

مضت تسع سنين حتى أظهر اللّه الروم على الفرس، ففرح المسلمون، و حزن المشركون.

و هنا يكمن سر الاعجاز حيث أخبر القرآن الكريم بشكل قاطع جازم عن استئناف الحرب بين الروم و فارس، و حدد وقتها في بضع سنين، و انها تنتهي بانتصار الروم على فارس، فكان كما قال. و هذا الغيب المحجوب لا يعلمه إلا اللّه وحده.

لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ قبل النصر و بعده، و اليه وحده ترجع الأمور **وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ.** يفرح المسلمون يوم تظهر الروم على فارس **يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ.** إذا تقاتل اثنان ينتصر من يملك أسباب النصر على الذي لا يملكها محقا كان أو مبطلا، و أسند سبحانه النصر اليه لأن جميع الأسباب الكونية تنتهي اليه تعالى بالنظر إلى انه خالق الكون و ما فيه **وَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** ينتقم من الظالم، و يرحم المظلوم.

وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ بعد أن أخبر سبحانه عن الغيب المحجوب، و هو انتصار الروم على فارس أكد بأن ذلك واقع لا محالة، و لكن من لا يؤمن باللّه كيف يؤمن بوعده؟ و هذا التأكيد القاطع أصدق شاهد على ان القرآن وحي من الذي يتساوى لديه عالم الغيب و الشهادة، و لو حصل الخلف بالوعد لاتخذ منه أعداء الرسول الأعظم (ص) ذريعة للطعن بصدقه و رسالته **يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ.**

الدنيا و أحوالها من عالم الشهادة، و الآخرة و أهوالها من عالم الغيب، و بداهة ان عالم الشهادة يدرك بالحواس، أما عالم الغيب فلا يدرك إلا بطريق الوحي، و هم لا يؤمنون به، فمن أين يأتيهم العلم بالآخرة؟

[سورة الروم (٣٠): الآيات ٨ الى ١٦]

أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ (٨) أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ أَثارُوا الْأَرْضَ وَ عَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها وَ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ وَ كانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ (١٠) اللهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢)

وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكائِهِمْ شُفَعاءُ وَ كانُوا بِشُرَكائِهِمْ كافِرِينَ (١٣) وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ لِقاءِ الْآخِرَةِ فَأُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ (١٦)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٣١

اللغة:

أثاروا الأرض حرثوها و أصلحوها للزراعة. و عمروها من العمران. و السوأى الحالة السيئة و هي تأنيث الأسوأ كالحسنى تأنيث الأحسن. و الإبلاس اليأس من الخير. و الروضة الأرض ذات النبات و الماء. و يحبرون يسرون.

الإعراب:

ما خلق (ما) نافية. و أجل معطوف على الحق. و كيف خبر كان و عاقبة اسمها. و قوة تمييز و أكثر صفة لمفعول مطلق محذوف، و المصدر من ليظلمهم

تفسير الكاشف، ج ۶، ص ۱۳۲

متعلق بمحذوف خبرا لكان أي ما كان اللّه مريدا لظلمهم. و السوأى اسم كان أي كان السوأى عاقبة الذين أساءوا، و من رفع عاقبة فهي الاسم و السوأى الخبر.

و المصدر من ان كذبوا مفعول من أجله. و يومئذ بدل من يوم تقوم الساعة.

المعنى:

أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى. اللّه حكيم لا يخلق شيئا إلا بالحق، و العبث في حقه محال، و هو قادر على اعادة الإنسان إلى الحياة بعد انتهاء أجله المحدد له. و من تدبر عظمة الكون يدرك حكمة اللّه في خلقه، و يدرك قدرته على إحياء الموتى لأن خلق السموات و الأرض أعظم من إعادة الإنسان بعد الموت: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ لَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى بَلى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ- ٣٣ الأحقاف. **وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ** بأنه قادر على الاعادة جهلا منهم بأن القادر على الإبداء قادر أيضا على الاعادة لأن السبب فيهما واحد، إمكانا و امتناعا.

أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً. تقدم مثله في الآية ١٣٧ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١٥٩ **وَ أَثارُوا الْأَرْضَ وَ عَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها وَ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ.** كانت الأمم السابقة أكثر حضارة و تقدما من العرب في الزراعة و العمران، و لما ظلموا أنفسهم بكفرهم و تكذيبهم الرسل أخذهم اللّه بالعذاب و الهلاك .. ألا يخشى الذين كذبوا محمدا أن يصيبهم ما أصاب الذين كانوا أقوى و أرقى.

ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ وَ كانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ.

جاءتهم رسلهم بالبينات لينقذوهم من الضلالة و الغواية، فأمعنوا في الإساءة اليهم تكذيبا و استهزاء، فكان جزاؤهم سوء العذاب و بئس المصير **اللهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** تقدم في الآية ١٩ من سورة العنكبوت و غيرها.

تفسير الكاشف، ج ۶، ص ۱۳۳

وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ. في هذا اليوم يعلم المجرمون انه لا أمل و لا حيلة لمن أسلف المعصية، و سوّف التوبة، فتذهلهم مرارة اليأس لأنهم أمعنوا في الضلالة و أصروا عليها **وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكائِهِمْ شُفَعاءُ وَ كانُوا بِشُرَكائِهِمْ كافِرِينَ.** كان لهم شركاء في الدنيا يتبعونهم في الضلال و الفساد جهلا و تقليدا، و يرجون نفعهم و شفاعتهم يوم القيامة حتى إذا برزوا للّه جميعا و رأوا العذاب و أيقنوا ان لا شريك و لا شفيع تبرأ المتبوع من التابع، و القائد من المقود. و تقدم مثله في الآية ١٦٦ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٥٥.

وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ضمير يتفرقون يعود إلى أهل الجنة و أهل النار، أي انهم كانوا في الدنيا يلتقون و يجتمعون في الأندية و الأسواق و المعاهد و المعابد و غيرها، أما يوم القيامة فلا اجتماع بينهم و لا لقاء **فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ لِقاءِ الْآخِرَةِ فَأُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ.** يخرج اللّه الخلائق غدا من الأجداث و يجمعهم لما يريد من مسألتهم، ثم يجعلهم فريقين: أهل الشر و أهل الخير، فينعم على هؤلاء بمقام كريم و جنة نعيم، و ينتقم من أولئك بنزل من حميم و تصلية جحيم.

[سورة الروم (٣٠): الآيات ١٧ الى ٣٥]

فَسُبْحانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ عَشِيًّا وَ حِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ كَذلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)

وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوانِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ (٢٢) وَ مِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ ابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَ مِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٣٤

اللغة:

تظهرون تدخلون في وقت الظهيرة تماما مثل تمسون و تصبحون. و من أنفسكم من جنسكم. لتسكنوا اليها لتطمئنوا اليها، فسكن اليه من سكون الروح، و سكن عنده من سكون الجسم.

الإعراب:

فسبحان اللّه منصوب على المصدرية، و معناه الأمر أي سبحوا و حين منصوب به، و عشيا عطف على حين. و له الحمد مبتدأ و خبر و الجملة معترضة. و المصدر من ان خلقكم مبتدأ و من آياته خبر. و إذا أنتم (إذا) للمفاجأة. و المصدر من لتسكنوا متعلق بخلق لكم و هو بمعنى المفعول من أجله. و من آياته يريكم البرق (يريكم) فعل مضارع في موضع المصدر و هو مبتدأ و خبره من آياته أي من آياته إراءته إياكم البرق. و خوفا و طمعا مفعول لأجله.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٣٥

المعنى:

فَسُبْحانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ عَشِيًّا وَ حِينَ تُظْهِرُونَ.

بعد أن ذكر سبحانه أهل الجنة و أهل النار أمر بتنزيهه و تمجيده في الإصباح و الإمساء و الاظهار من أوقات النهار، و في الليل أيضا، فإنه تعالى هو المحمود في السماء و الأرض. و في بعض الروايات ان سليمان بن داود مر بحراث، فقال: لقد أوتي ابن داود ملكا عظيما. فقال له سليمان: ان تسبيحة واحدة يقبلها اللّه خير ما أوتي آل داود. و في نهج البلاغة جعل اللّه الحمد مفتاحا لذكره، و سببا للمزيد من فضله، و دليلا على آلائه و عظمته.

يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها.

يقول الماديون: ان المادة هي التي تنشئ الحياة و الاسماع و الأفئدة .. و لو صح هذا لكانت كل مادة تبصر و تسمع و تعقل، لأن خصائص الشيء ملازمة له حيث كان و يكون، و لما رأينا الحياة في بعض الكائنات دون بعض علمنا ان هناك قوة وراء المادة تهب الحياة لمن تشاء و تمنعها عمن تشاء **وَ كَذلِكَ تُخْرَجُونَ** كما أخرج اللّه النبات الحي من الأرض الميتة يخرج الإنسان حيا من قبره، و كما أحياه، و لم يكن شيئا مذكورا يحييه تارة أخرى بعد أن يصبح ترابا و

عظاما، فأين مكان الغرابة؟

انظر ج ٣ ص ٢٣١ فقرة: «من أين جاءت الحياة»، و ج ٤ ص ٣٧٩، فقرة «الماديون و الحياة بعد الموت».

وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ. خلق اللّه الإنسان الأول من تراب، و جميع البشر ينتهون اليه، و أيضا غذاؤهم الذي فيه قوام حياتهم ينتهي الى التراب- إذن- فالتراب هو سبب كيان الإنسان و وجوده، و سبب بقائه و استمراره .. كيف صار التراب إنسانا، له سمع و بصر و عقل و بيان و ارادة و طاقات تفعل العجائب، و تخلق الحضارات؟ هل هذا من فعل الصدفة أو من صنع المادة؟ و ليفرض الجاحدون ما شاءت لهم الفروض فإن العقل لا يؤمن إلا بمن ليس كمثله شيء، و هو العليم الحكيم.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٣٦

الزواج القرآني:

وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً. من أنفسكم أي من جنسكم و على شكلكم تبادلكم عطفا بعطف و اطمئنانا باطمئنان، و قديما قيل: كل شكل إلى شكله ألف، و لو كانت الزوجة من غير جنس الزوج لتعذر التفاهم و المشاركة و لنظر كل الى الآخر على أنه غريب و بعيد عن طبعه و أخلاقه .. انظر ج ٢ ص ٢٨٣، فقرة: «الزواج مبادلة روح بروح» و طريف قول بعض المفسرين: ان المراد بالمودة المجامعة، و بالرحمة الولد .. و ان دل هذا التفسير على شيء فإنما يدل على تغليب الجنس عند المفسر، و انه ينظر الى المرأة على انها مجرد آلة لإنجاب الأطفال.

ان القرآن الكريم يحدد الغاية من الزواج بالتآلف و التراحم، و العدل و المساواة، لا بين الزوجين فقط، بل بين أفراد الأسرة بكاملها، قال تعالى: يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَ خَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَ بَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثِيراً وَ نِساءً وَ اتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَساءَلُونَ بِهِ وَ الْأَرْحامَ إِنَّ اللهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً- ١ النساء. و الغرض من الأمر بالتقوى في هذه الآية أن يؤدي كل فرد من أبناء الأسرة حق الآخر، و يتعاونوا يدا واحدة على ما فيه خير الجميع لتحيا الأسرة حياة صالحة لا مشاكل فيها و لا تعقيد، و معلوم ان الأسرة الصالحة هي أساس المجتمع الصالح.

و بهذه المناسبة نشير إلى أن الخطبة تستحب عند طلب الزواج، و عند اجراء العقد أيضا تأسيا بالنبي و أهل بيته (ص)، و هي حمد اللّه تعالى و الشهادتان، و الصلاة على النبي و آله، و الوصية بالتقوى، و الدعاء للزوجين، و عن الإمام زين العابدين (ع):

من حمد اللّه فقد خطب .. و يستحب للتيمن و التبرك تلاوة آية من كتاب اللّه، و حديث من سنّة نبيه الكريم، و على هذا جرت عادة السلف و الكثير من الخلف، فإنهم يتلون قبل العقد من كتاب اللّه قوله تعالى: **وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً** الخ. و من السنّة النبوية: تناكحوا تناسلوا تكثروا، فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة و لو بالسقط.

و قلنا: يتلى هذا الحديث و ما إليه للتبرك لأنه من الخطأ أن يظن ان الخلق الكريم

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٣٧

و التهذيب القرآني يتم بتلاوة الأحاديث و الآيات .. كلا، ان هذا التهذيب لا يكون إلا بتربية الأبناء منذ الصغر تربية قرآنية تؤدي بهم الى تفهم الغاية التي أرادها اللّه من الزواج، و انها انسانية خالصة من كل شائبة تجارية أو سياسية، أما ان

نربي أولادنا على حب التكاثر و التفاخر و المظاهر الفارغة، فتقول الأم لبنتها: أسعدك اللّه بزوج ثري، و ينصح الوالد ولده أن يتزوج بنت الوزير و التاجر الكبير، أما هذه التربية فلا تغني عنها الآيات و الأحاديث.

أما حديث تناكحوا .. تناسلوا فلا شك في صحته، و لكن سيد الأنبياء (ص) يباهي بالمؤمنين الأتقياء، و المجاهدين الأحرار .. و أيضا بالسقط .. و يتبرأ من أهل الفسق و الفجور، من الشابات و الشباب الذين لا يردعهم من الدين رادع، و لا يزجرهم من الأخلاق زاجر، و يتبرأ أيضا من أهل الخيانة و العمالة لأعداء اللّه و الانسانية .. و في الحديث: «ليأتين على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه إلا ان يفر من شاهق الى شاهق. قالوا: و متى ذلك يا رسول اللّه؟ قال: إذا لم ينل المعيشة إلا بمعاصي اللّه، فعند ذلك تحل العزوبة».

إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ أن الغرض من الزواج هو السكن و المودة و الرحمة، و ان الزواج التجاري و السياسي كثيرا ما يؤدي الى شقاء الأسرة، و يعرّضها للزوال و تشريد الأطفال.

وَ مِنْ آيٰاتِهِ خَلْقُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ. يكرر سبحانه آية خلق الكون لأنه بما فيه من عجائب و أسرار أظهر الأدلة على وجود اللّه و عظمته، و أيضا للتذكير بفضله تعالى و آلائه **وَ اخْتِلاٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوٰانِكُمْ**. اختلاف القوميات باللغة، و أهل الأقطار بالألوان، و اختلاف الأفراد بالملامح و الأصوات و بصمة الإبهام و ما اليها، و الحكمة من ذلك ان يتميز الناس بعضهم عن بعض، فيعرف الوالد ولده، و الرجل زوجته، و الغريم غريمه، و محال أن تكون هذه الحكمة البالغة من صنع الطبيعة و الصدفة **إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِلْعٰالِمِينَ** أي دلائل واضحة على وجود المقدر و المدبر.

وَ مِنْ آيٰاتِهِ مَنٰامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهٰارِ وَ ابْتِغٰاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ. و تقدير الكلام منامكم ليلا و نهارا لأن الإنسان قد ينام في النهار- القيلولة- **وَ ابْتِغٰاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ** أيضا

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٣٨

ليلا و نهارا لأن الإنسان قد يسعى لرزقه في الليل، أما قوله تعالى: وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبٰاساً وَ جَعَلْنَا النَّهٰارَ مَعٰاشاً- ١١ النبأ فانه محمول على الغالب، و مهما يكن فان الغرض هو التذكير بحكمته تعالى من تقسيم حياة الإنسان الى الكدح و الراحة، حيث لا تنتظم الحياة إلا بهما **إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ** دعوة اللّه فيستجيبون لها، و مواعظه فيتعظون بها.

وَ مِنْ آيٰاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. تقدم مثله في الآية ١٢ من سورة الرعد ج ٤ ص ٣٨٨ **وَ مِنْ آيٰاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمٰاءُ وَ الْأَرْضُ بِأَمْرِهِ**. كل موجود يفتقر إلى عناية اللّه في بقائه و استمراره، تماما كما يفتقر اليه تعالى في أصل الخلق و الإيجاد، و ما تخلت عناية اللّه عن شيء إلا صار هباء هو و جاذبيته و دعائمه **ثُمَّ إِذٰا دَعٰاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذٰا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ**. ان دعوة اللّه في الدنيا هي دعوة نصح و إرشاد يستجيب لها المتقون، و يعرض عنها المجرمون، أما دعوته في الآخرة فإنها دعوة التكوين و التنفيذ لا مفر منها للمدعو إلا الى الداعي عظمت قدرته. و تقدم مثله في الآية ٥٢ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٥٣.

[سورة الروم (٣٠): الآيات ٢٦ الى ٢٩]

وَ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قٰانِتُونَ (٢٦) وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلىٰ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُكُمْ مِنْ شُرَكٰاءَ فِي مٰا رَزَقْنٰاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوٰاءٌ تَخٰافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيٰاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ

ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٢٩)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٣٩

اللغة:

قانتون طائعون منقادون. و المثل الأعلى الصفة العليا. و مما ملكت أيمانكم العبيد و المماليك.

الإعراب:

لكم مما ملكت متعلق بمحذوف خبرا مقدما لشركاء، و من زائدة إعرابا. و مثله و ما لهم من ناصرين.

المعنى:

وَ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ. الكون بمن فيه و ما فيه ملك للّه و طوع ارادته وحده حتى الذين يعصون أمره و نهيه يتصرف فيهم بلا معارض و معاند **وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ**. خلق سبحانه الكون فأحكم خلقه، ثم يفنيه و يعيده تارة أخرى، و المراد بأهون هيّن، مثل اللّه أكبر أي كبير لأن الذي ليس كمثله شيء، و تتساوى في قدرته جميع الأشياء، لا يصح القول بالنسبة اليه: انه أكبر من غيره، و لا هذا أيسر عليه من سواه **وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**. المراد بالمثل الأعلى الصفة العليا التي لا يشاركه فيها أحد، و هي انه لا إله إلا هو، و العزيز هو الذي لا يغلب، و الحكيم هو الذي لا يعبث.

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ. هذا المثل ضربه اللّه سبحانه للمترفين الطغاة

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٤٠

الذين يملكون العبيد و المال، و يزعمون ان للّه شركاء في خلقه. و توضيحه:

انظروا أيها المشركون المترفون: ان لكم عبيدا و مماليك لا تشاركونهم في أموالكم، و لا تقبلون أن يتصرفوا فيها إلا بإذنكم، و لا تهابونهم حين تتصرفون أنتم فيها كما تهابون شركاءكم الأحرار، مع العلم بأن الذين استعبدتموهم ليسوا مملوكين لكم حقيقة- إذن- كيف جعلتم المملوكين للّه حقيقة و واقعا، جعلتموهم شركاء للّه في ملكه و خلقه؟ كيف نسبتم إلى اللّه ما لا ترضونه لأنفسكم؟ أ تأنفون أنتم من شراكة ما تزعمون أنهم عبيد، و هم مخلوقون للّه مثلكم، و لا يأنف اللّه من شراكة مخلوقاته؟. ويلكم كيف تحكمون؟ و هذا تماما كقولهم: للّه البنات و لنا البنون:

وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ سُبْحانَهُ وَ لَهُمْ ما يَشْتَهُونَ- ٥٧ النحل. **كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**. ان هذا المثل واضح تمام الوضوح في أن اللّه لا شريك له، و لا يعمى عنه إلا أرباب المنافع و الأهواء.

بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ حيث خيل اليهم ان الحق فيما يهوون، و العدل فيما يشتهون .. و هذا هو الجهل القاتل و الضلال المبين **فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ**. أضلهم اللّه لأنهم سلكوا طريق الضلال، و كل من سار على الدرب وصل سواء أ كان دربا للخير أم للشر، للنجاة أم الهلاك **وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ** كيف و قد سلكوا سبيل الهلاك بسوء اختيارهم، و لم يرتدعوا عنه برادع و لا زاجر؟

[سورة الروم (٣٠): الآيات ٣٠ الى ٣٢]

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا

يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَ اتَّقُوهُ وَ أَقِيمُوا الصَّلاٰةَ وَ لاٰ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كاٰنُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمٰا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢)

تفسير الكاشف، ج۶، ص ١۴١

اللغة:

أقم وجهك للدين أخلص له. و حنيفا مائلا إلى الدين. و القيم المستقيم.

و الشيع الفرق.

الإعراب:

حنيفا حال من الضمير في أقم. و فطرة اللّه مفعول لفعل محذوف أي الزموا فطرة اللّه. و منيبين حال من الناس. و من الذين فرقوا بدل من المشركين مع إعادة حرف الجر.

دين اللّه و الفطرة:

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النّٰاسَ عَلَيْهٰا لاٰ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ النّٰاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ. هذه الآية تدور كثيرا على ألسنة الخطباء و أقلام الكاتبين، و منهم من يستشهد بها و كفى، و منهم من يطلق حولها كلمات رنانة عامة و يقول: هذا هو الدين الصحيح الضخم الهائل الخ.

و ليس من شك ان هذه الآية تقرر أصلا هاما يرتكز عليه الإسلام عقيدة و شريعة، و هو يدل دلالة واضحة ان تعاليم هذا الدين من ألفه إلى يائه تهدي الى الرشد و الوفاء بمطالب الحياة و نموها و تقدمها إذا فهم الإسلام على أساس فطرة اللّه التي فطر الناس عليها. و نبدأ أولا بتفسير المفردات الواردة في الآية، ثم نذكر المعنى المراد من مجموعها.

و تعني كلمة الفطرة عند تعميمها و إطلاقها غريزة في داخل الإنسان تقبل الخير حين تعلم أنه خير و تلتزمه لا لشيء إلا لأن الخير يجب أن يقبل و يلتزم، و ترفض الشر حين تعلم انه شر أيضا لا لشيء إلا لأن الشر يجب أن يرفض و يجتنب ..

هذا إذا خلي الإنسان و فطرته التي فطره اللّه عليها، و لم تدنسها العادات و التقاليد، و تلوثها الأهواء و الأغراض، و قد ضرب العلامة الحليّ مثالا لهذه الغريزة بقوله:

تفسير الكاشف، ج۶، ص ١۴٢

«لو خير العاقل بين ان يصدق و يعطى دينارا، و بين ان يكذب و يعطى دينارا لتخير الصدق على الكذب» و هذه الغريزة التي تختار الصدق على الكذب هي التي خاطبها اللّه أو خاطب أربابها بقوله: أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قٰالُوا بَلىٰ- ١٧٢ الأعراف» و عناها الحديث المشهور عن الرسول الأعظم (ص): كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه أو ينصّرانه. أما كلمة حنيف هنا فإنها تعني من استقام على فطرة اللّه التي فطر الناس عليها مبتعدا عما يدنسها من الأهواء و الأغراض. و المراد بقوله تعالى: لا تبديل لخلق اللّه، ان الدين عند اللّه قائم و ثابت على أساس هذه الفطرة لا يحول عنها و لا يزول. و ذلك اشارة الى ما أوجب اللّه على العباد أن يلتزموه قولا و عملا لأنه هو الدين المستقيم الذي لا ترى فيه عوجا و لا أمتا.

أما الآية بمجموعها فإنها تدل على ان الدين يرتبط بالفطرة، و لكن ليس معنى هذا ان الفطرة هي المشرع و الآمر الناهي،

و ان وظيفة الدين هي الكشف و التعبير عن أحكامها .. كلا، فان اللّه الذي خلق الدين و الفطرة هو المشرع الأول، و له وحده الأمر و النهي، و انما القصد من الآية هو تحديد المقياس الذي نقيس به دين اللّه، و انه بما فيه من عقيدة و شريعة و أخلاق ينسجم مع فطرة الناس و مصالحهم، و انه سبحانه لم يشرع حكما لعباده منافيا لمصلحة الفرد أو الجماعة .. هذا هو الضابط و الفاصل بين أحكام اللّه و أحكام غيره، بين شريعة الحق و شريعة الباطل، أما أقوال العلماء من الفقهاء و المفسرين و الفلاسفة فما هي بأصل من أصول الإسلام، و لا يصح الاعتماد عليها كدليل شرعي «١» لأنها تعكس اجتهادهم و فهمهم لدين اللّه و أحكامه، و لا تعكس الدين كما هو في حقيقته و واقعه.

و نخلص من هذا إلى ان الإسلام لا يرفض بقية الأديان و المذاهب بكل ما فيها، بل ينظر اليها نظرة المدقق المنصف، فيقر منها ما يتفق مع فطرة اللّه، و يرفض ما عدا ذلك.

مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَ اتَّقُوهُ ارجعوا إلى هذا الدين، و أطيعوا جميع أحكامه **وَ أَقِيمُوا الصَّلاٰةَ**

---

(١). لا يعتمد على الإجماع في العقائد، و لا في المسائل الفقهية مع الاحتمال أنه لم يكشف عن رأي المعصوم.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٤٣

فإنها تذكركم باللّه **وَ لاٰ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** أخلصوا له وحده في جميع أقوالكم و أفعالكم **مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كٰانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمٰا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ**. تقدم مثله في الآية ١٥٩ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٩٠ و الآية ٥٣ من سورة المؤمنون.

[سورة الروم (٣٠): الآيات ٣٣ الى ٤٠]

وَ إِذٰا مَسَّ النّٰاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذٰا أَذٰاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذٰا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمٰا آتَيْنٰاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنْزَلْنٰا عَلَيْهِمْ سُلْطٰاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمٰا كٰانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَ إِذٰا أَذَقْنَا النّٰاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهٰا وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذٰا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللّٰهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧)

فَآتِ ذَا الْقُرْبىٰ حَقَّهُ وَ الْمِسْكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ ذٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللّٰهِ وَ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَ مٰا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوٰالِ النّٰاسِ فَلاٰ يَرْبُوا عِنْدَ اللّٰهِ وَ مٰا آتَيْتُمْ مِنْ زَكٰاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللّٰهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) اللّٰهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكٰائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذٰلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالىٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ (٤٠)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٤٤

اللغة:

منيبين اليه أي راجعين اليه. و المراد بالسلطان هنا الحجة أو الكتاب. و يقدر يضيق. و ابن السبيل هو الذي سافر في غير معصية، و انقطع عن ماله و أهله.

و الربا الزيادة. و المضعفون الذين يضاعف لهم الأجر و الثواب.

الإعراب:

منيبين حال من واو دعوا. إذا فريق (إذا) للمفاجأة. و ما آتيتم (ما) في محل نصب بآتيتم.

المعنى:

وَ إِذٰا مَسَّ النّٰاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذٰا أَذٰاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذٰا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ. تقدم مثله في الآية ١٢ من سورة يونس ج ٤ ص ١٣٩ و الآية ٦٧ من سورة الإسراء **لِيَكْفُرُوا بِمٰا آتَيْنٰاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ.** تقدم مثله في الآية ٦٦ من سورة العنكبوت.

أَمْ أَنْزَلْنٰا عَلَيْهِمْ سُلْطٰاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمٰا كٰانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ. أم هنا بمعنى بل و همزة الاستفهام. و المراد بالسلطان البرهان، و المعنى هل يشهد لكم شيء من الوحي أو العقل بأن الذي أنتم عليه من الشرك حق و صواب، و القصد من ذلك الاستنكار و التهديد.

وَ إِذٰا أَذَقْنَا النّٰاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهٰا وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذٰا هُمْ يَقْنَطُونَ. هذا هو الإنسان، ان مسه الخير فهو فرح فخور، و ان مسه الشر فيئوس كفور. و تقدم مثله في الآية ٩ من سورة هود ج ٤ ص ٢١٢ **أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللّٰهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.** تقدم في الآية ٢٦ من سورة الرعد ج ٤ ص ٤٠١ و الآية ٣٠ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٤٢.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٤٥

فَآتِ ذَا الْقُرْبىٰ حَقَّهُ وَ الْمِسْكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ. للقريب الفقير حق على قريبه الغني، و هو الإنفاق عليه بما يسد الخلة. و قال الشافعية و الإمامية: تجب نفقة الأقارب إذا كانوا من الآباء و ان علوا، و الأبناء و ان نزلوا. و قال المالكية: لا تجب إلا نفقة الأبوين و الأبناء الأدنين دون آباء الآباء و أبناء الأبناء. و قال الحنابلة:

تجب نفقة القريب بشرط أن يكون المنفق وارثا للمنفق عليه. أما الحنفية فيرون الشرط الأساسي أن تكون القرابة موجبة لحرمة الزواج. و التوضيح في كتابنا:

«الأحوال الشخصية على المذاهب الخمسة».

أما المسكين و ابن السبيل فقد تقدم الكلام عنهما عند تفسير الآية ٦٠ من سورة التوبة ج ٤ ص ٥٩ **ذٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللّٰهِ وَ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ.**

ذلك إشارة إلى الإعطاء، و انه يجب أن يكون لوجه اللّه، كما هو شأن أهل الصلاح و الفلاح **وَ مٰا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوٰالِ النّٰاسِ فَلاٰ يَرْبُوا عِنْدَ اللّٰهِ.**

قال جماعة من المفسرين: المراد بالربا هنا الربا المحرم. و قال آخرون: بل المراد به الربا الحلال، و مثاله أن يهدي الرجل غنيا من الأغنياء ليرد الهدية أضعافا.

و الأولى حمل الآية على الاثنين، و ان كلا من آكل الربا المحرم و المهدي بقصد الربح لا ثواب له عند اللّه، سوى ان الأول عليه عقاب، و الثاني لا ثواب له، و لا عقاب عليه.

وَ مٰا آتَيْتُمْ مِنْ زَكٰاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللّٰهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ أي يضاعف لهم الثواب و الجزاء، و المعنى الجملي أن من ينفق لوجه اللّه تعالى يزيد اللّه في ماله بالدنيا، و في ثوابه بالآخرة. قال الإمام علي (ع): إذا أملقتم فتاجروا اللّه

بالصدقات. و هذا مأخوذ من قوله تعالى: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً- ٢٤٥ البقرة ج ١ ص ٣٧٥.

اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ أ تبخلون بما آتاكم اللّه، و تبتغون الرزق من غيره، و هو الذي أوجدكم بعد العدم، و أفاض عليكم من بركاته الواسعة، و هو الذي يميتكم ثم يحييكم، ثم يبعثكم للحساب و الجزاء؟ فهل من أحد ممن ترجون فضله و تأملون نفعه يحيي و يميت؟ و إذا قدر على إعطاء بعض الفتات في هذه الحياة فهل يقدر

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٤٦

غدا على النفع و الضر **سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ**. و في الحديث: الشرك أخفى من دبيب النمل، و فيه إيماء إلى ان الشرك على أنواع، و منها الثقة بالمخلوق دون الخالق.

[سورة الروم (٣٠): الآيات ٤١ الى ٤٥]

ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (٤٢) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ (٤٥)

اللغة:

يصدّعون أصلها يتصدعون من التصدع، و المراد هنا التفرقة، يقال تصدع القوم أي تفرقوا. و يمهدون من مهد بمعنى وطّأ و هيأ.

الإعراب:

ليذيقهم اللام بمعنى كي، و ان مضمرة بعدها، و المصدر المجرور متعلق بظهر. و المصدر من ليجزي متعلق بيصدعون.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٤٧

المعنى:

ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ. قال جماعة من المفسرين: المراد بالبحر هنا البلاد القريبة من البحر، و بالبر البلاد البعيدة عنه، و قال آخرون: المراد بالبحر المدينة لكثرة سكانها، و بالبر القرية لقلتهم .. و الذي نفهمه نحن ان البر و البحر كناية عن كثرة الفساد و انتشاره ..

و كل ما حرمه اللّه و نهى عنه فارتكابه جريمة و فساد في الأرض، كالحرب و البغي و الإسراف و الخلاعة و الفجور و الخمر و الميسر و الاستخفاف بفرائض اللّه و عبادته، و ما إلى ذلك.

و إذا وصف سبحانه عصر الجاهلية بظهور الفساد برا و بحرا حيث لا أسلحة كيماوية و لا قنابل نووية، و لا شركات للاستغلال و الاحتكار، و لا كازينوهات و خلاعات فبأي شيء نصف عالم اليوم الذي يهدده الفناء و الدمار الشامل في كل لحظة، يهدده الفناء و الهلاك لا بفعل اللّه، و لا بكوارث الطبيعة، بل بفعل الناس الذين يملكون أبشع أسلحة الافناء و الإهلاك .. و لا سبيل لأمن البشرية و صيانتها من هذا الخطر إلا أن تدمر هذه الأسلحة تدميرا كاملا، أما هيئة الأمم و

معاهدة التجارب الذرية الجزئية فإنها لم تحقّق للبشرية ما تثق به و تطمئن اليه.

لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ. الفساد في الأرض نتيجة طبيعية للإعراض عن اللّه، و عدم الالتزام بأمره و نهيه، و كلمة «بعض» في الآية تشير إلى عذاب الدنيا، و لعذاب الآخرة أشق و أخزى. و في الدعاء المأثور: اللهم اني أعوذ بك من الذنوب التي تغير النعم و تنزل النقم، و قال سيد المرسلين (ص):

«اتقوا الذنوب فإنها ممحقة للخيرات»، و كفى شاهدا على ذلك قوله تعالى:

وَ تِلْكَ الْقُرى أَهْلَكْناهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً- ٦٠ الكهف، و قوله: **قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ**. تقدم مثله في الآية ١٣٧ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١٥٩ و الآية ١١ من سورة الأنعام و ٦٩ من سورة النمل.

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ و هو يوم الحساب و الجزاء الذي لا مفر منه، و السعيد من أخلص للّه في أعماله

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ١٤٨

و مقاصده و حاسب نفسه قبل أن تحاسب **يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ** يتفرقون إلى فريقين:

فريق في الجنة، و فريق في السعير، و مر مثله في الآية ١٤ من هذه السورة.

مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ. مهّد الفراش بسطه و سهّله، و أصحاب الأعمال الصالحات يفرشون قبورهم و يجهزونها بما يحتاجونه لأمنهم و راحتهم قبل أن ينقلوا اليها تماما كما يجهز البيت في الحياة الدنيا قبل سكناه، و عن الإمام جعفر الصادق (ع): ان العمل الصالح يسبق صاحبه ليمهد له كما يمهد الخادم لسيده. و تقدم مثل هذه الآية في سورة البقرة الآية ٢٨٦ ج ١ ص ٢٥٥.

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ. ليجزي متعلق بيصدعون، و المعنى ان اللّه يجعل الناس يوم القيامة فريقين ليكافئ المؤمنين على أعمالهم بالجنة لأنه يحبهم و يحب ما عملوا من الصالحات، أما الكافرون فإن اللّه يكرههم و يجزيهم بما يستحقون. و في نهج البلاغة: «ان اللّه يحب العبد، و يبغض عمله، و يحب العمل، و يبغض بدنه» أي يحب المؤمن لإيمانه، و يبغض ما يأتيه من السيئات، و يبغض الكافر لكفره، و يحب ما يفعله من حسنات.

[سورة الروم (٣٠): الآيات ٤٦ الى ٥١]

وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ وَ يَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذا أَصابَ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتى وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠)

وَ لَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١)

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ١٤٩

اللغة:

كسفا جمع كسفة، و هي القطعة من الشيء. و الودق المطر. و مبلسين جمع مبلس، و هو المتحسر الآيس.

الإعراب:

مبشرات حال من الرياح. و ليذيقكم عطف على معنى مبشرات أي ليبشركم و ليذيقكم. و حقا خبر كان، و نصر اسمها. و كيف مفعول مطلق و تقديره أيّ مشيئة يشاء، و مثله كيف يحيي الأرض. و ان كانوا (ان) مخففة و اسمها محذوف أي انهم كانوا. و اللام في مبلسين اللام الفارقة و مبلسين خبر كانوا و جملة كانوا مع خبرها خبر ان. و اللام في لئن لام التوطئة للقسم. و اللام في لظلوا واقعة في جواب القسم، و ظلوا فعل سد مسد جواب القسم و الشرط معا.

المعنى:

وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ. كل شيء يترتب على وجوده حكمة لا غنى عنها فهو دليل قاطع على نفي الصدفة و وجود القصد و الارادة، و هذا الدليل هو المراد بآية

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٥٠

اللّه الدالة على وجوده. و للرياح فوائد كثيرة، فهي- اذن- آية دالة على وحدانية اللّه و قدرته، و من فوائدها اثارة السحاب الذي يبشر الناس بالخير، و جريان السفن على متن الماء تحمل الأقوات من بلد إلى بلد، و غير ذلك مما أشار اليه الامام جعفر الصادق بقوله: «لو كفت الريح ثلاثة أيام لفسد كل شيء على وجه الأرض و نتن، لأن الريح بمنزلة المروحة تذب و تدفع الفساد عن كل شيء و تطيبه فهي بمنزلة الروح إذا خرجت من البدن نتن و تغير .. فتبارك اللّه أحسن الخالقين».

وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أي تتقون معاصي اللّه في السر و العلانية. و أشرنا فيما تقدم أكثر من مرة ان اللّه يجري الأشياء على أسبابها، و يسندها اليه لأنه السبب الأول الذي تنتهي اليه جميع الأسباب.

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ. أرسل اللّه محمدا (ص) بالحجة الوافية، كما أرسل من قبله بالحجج الواضحة ابراهيم و موسى و عيسى و غيرهم من الأنبياء، فكذّب بهم كثير، و آمن بهم قليل، فأخذ اللّه المكذبين بعذاب يوم عظيم، و نصر اللّه الأنبياء و من معهم، و هذا النصر واجب على اللّه، و هو الذي أوجبه و كتبه على نفسه تماما كما كتب عليها الرحمة .. و محال ان تضيع عند اللّه ظلامة مظلوم و إلا كان الظالم أحسن حالا من المظلوم عند اللّه. انظر ج ٤ ص ١٣٢ فقرة: «الحساب و الجزاء حتم». و الغرض من هذه الآية تهديد الذين كذبوا محمدا (ص) ان يصيبهم مثل ما أصاب الذين كذبوا أنبياءهم من قبل.

اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ وَ يَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذا أَصابَ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ. هذا توضيح للآية السابقة، و هي: **وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ** و يتلخص المعنى بأن اللّه سبحانه يرسل الرياح، فتحرك السحاب، و تنشره في السماء، ثم تقسمه بأمره إلى قطع، و تدفع بكل قطعة إلى البلد الذي أراده اللّه، فإذا وصلت اليه خرج الماء من السحابة و تساقط على البلد المقصود، فيفرح أهله، و يبشر بعضهم بعضا

بالخير، و من قبل كانوا قانطين يائسين. و تقدم مثله في الآية ٥٧ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٤٢.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٥١

العقل و فكرة البعث:

فَانْظُرْ إِلىٰ آثٰارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا إِنَّ ذٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتىٰ وَ هُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

المراد برحمة اللّه هنا المطر، و بآثاره إحياء الأرض بعد موتها، و هذا الإحياء ثابت بالعيان، و هو دليل قاطع و محسوس على ان فكرة البعث و الإحياء بعد الموت من حيث هي صحيحة لا تقبل الشك، لأن العاقل إذا تنبه و تدبر إحياء الأرض بعد موتها لا بد أن يسلم و يؤمن بفكرة البعث كفكرة، و إلا كان من الذين يجمعون بين الايمان بوجود الشيء و الايمان بعدمه في آن واحد ..

و بداهة ان هذا الجمع ممتنع بذاته و طبعه .. و هنا يكمن السر في تكرار الآيات التي تنبه العقول إلى إحياء الأرض بعد موتها كدليل على إمكان البعث، و من هذه الآية قوله تعالى: فَأَحْيَيْنٰا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا كَذٰلِكَ النُّشُورُ- ٩ فاطر، و قوله: وَ مِنْ آيٰاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خٰاشِعَةً فَإِذٰا أَنْزَلْنٰا عَلَيْهَا الْمٰاءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيٰاهٰا لَمُحْيِي الْمَوْتىٰ- ٣٩ فصلت. و غيرها كثير.

وَ لَئِنْ أَرْسَلْنٰا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ. الهاء في رأوه تعود إلى الزرع المفهوم من سياق الكلام، و مصفرا صفة له، لا للريح، و المعنى إذا أرسل اللّه ريحا يصفر منها زرعهم بعد خضرته يئسوا من رحمة اللّه، و اعترضوا على حكمته، و كفروا به و بنعمته، و ان دل هذا على شيء فإنما يدل على ان إيمانهم باللّه و هم و خيال، و لو كان مستقرا في القلوب لثبتوا عليه في السراء و الضراء. قال الإمام علي (ع): «من الايمان ما يكون ثابتا مستقرا في القلوب، و منه ما يكون عواري بين القلوب و الصدور إلى أجل معلوم» .. ان المؤمن يتألم و يحزن كإنسان إذا أصيب في نفسه أو ولده أو ماله، و لكنه لا يخرج عن دينه.

قال الرسول الأعظم (ص) عند وفاة ولده ابراهيم: تدمع العين، و يحزن القلب، و لا نقول ما يسخط الرب.

[سورة الروم (٣٠): الآيات ٥٢ الى ٦٠]

فَإِنَّكَ لاٰ تُسْمِعُ الْمَوْتىٰ وَ لاٰ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعٰاءَ إِذٰا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَ مٰا أَنْتَ بِهٰادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلاٰلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاّٰ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيٰاتِنٰا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٥٣) اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَ شَيْبَةً يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) وَ يَوْمَ تَقُومُ السّٰاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مٰا لَبِثُوا غَيْرَ سٰاعَةٍ كَذٰلِكَ كٰانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَ قٰالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمٰانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتٰابِ اللهِ إِلىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهٰذٰا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لٰكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ (٥٦)

فَيَوْمَئِذٍ لاٰ يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَ لاٰ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) وَ لَقَدْ ضَرَبْنٰا لِلنّٰاسِ فِي هٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَ لَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لاٰ يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَ لاٰ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاٰ يُوقِنُونَ (٦٠)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٥٢

الإعراب:

اللّه الذي خلقكم مبتدأ و خبر. و ما لبثوا جواب القسم. و لئن اللام للتوطئة.

و ليقولن اللام في جواب القسم، و يقولن يسد مسد جواب الشرط و القسم.

المعنى:

فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَ لا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ وَ ما أَنْتَ بِهادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ. تقدم بالنص

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٥٣

الحرفي في سورة النمل الآية ٨٠ و ٨١.

اللّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَ شَيْبَةً يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ. لم يكن الإنسان شيئا مذكورا ثم كان، و انتقل في العديد من الأطوار، فمن التراب إلى النطفة و الجنين، و منه إلى الرضيع و الفطيم، و من الصبي و الشاب إلى الكهل و الشيخ الفاني، و الضعف الأول الذي أشارت اليه الآية هو ضعف البنية و الإدراك في الطفل، و قيل: بل ضعف النطفة، و المراد بالقوة قوة الشباب، أما الضعف الثاني فهو ضعف الهرم و الكبر باتفاق المفسرين، و من أجل هذا قلنا: ان المراد بالضعف الأول الطفولة لأنها أنسب إلى الهرم من النطفة. و على أية حال فان القصد من الاشارة إلى تغيير الإنسان من حال الى حال هو أن يدرك انه في قبضة اللّه يتصرف به كيف يشاء إحياء و إماتة و إضعافا و تقوية، ثم اليه المنقلب و المصير. و تقدم مثله في الآية ٧٠ من سورة النحل ج ٤ ص ٥٣٠.

وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ. المراد بالساعة يوم القيامة، و بقوله: ما لبثوا غير ساعة الجزء من الزمن في الحياة الدنيا، و المعنى ان المجرمين حين ينسلون الى ربهم من الأجداث يحلفون باللّه من الدهشة ما لبثوا في قبورهم إلا قليلا. و تقدم ذلك مفصلا في الآية ١٠٢ من سورة طه ج ٥ ص ٢٤٤، و جمعنا هناك بين ثلاث آيات: الأولى: يتخافتون بينهم ان لبثتم إلا عشرا. و الثانية: قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم. و الثالثة الآية التي نحن بصددها.

كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ يصرفون عن الصدق إلى الكذب في الدنيا حيث كانوا يحلفون: لا بعث و لا حساب. و في الآخرة أيضا حيث حلفوا ما لبثوا غير ساعة.

وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ. قال المجرمون ما قالوا عن أمد مكثهم، فقال لهم أهل الايمان باللّه و حسابه و ثوابه: لقد لبثتم ما شاء اللّه أن تلبثوا، و الأمد الذي قضيتموه في قبوركم الى هذا اليوم ثابت في علمه تعالى، و لا يعلمه أحد سواه .. و أية جدوى من قسمكم و حديثكم عن أمد المكث في القبور و قد أنكرتم من قبل هذا اليوم الذي

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٥٤

ترون شدائده و أهواله؟ **وَ لكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ** أنكم في عمى و ضلال مبين.

فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ. المراد بالاستعتاب هنا الاقالة أي ان المجرمين يستقيلون ربهم فلا يقيلهم، و منه قوله تعالى: وَ إِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ- ٢٤ فصلت و عليه يكون المعنى لا عذر و لا إقالة لمجرم في ذلك اليوم بعد أن حذّر و أنذر فأبى إلا كفورا.

وَ لَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ. تقدم في الآية ٥٤ من سورة الكهف ج ٥ ص ١٣٩.

وَ لَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ. يقولون عن الأنبياء و المصلحين و عن الأحرار و المجاهدين: انهم مبطلون .. و عن الخونة المنافقين و العملاء المأجورين: انهم محقون .. و لا بدع فان الطغاة المجرمين يقيسون الحق و الباطل بمنافعهم و أهوائهم، فما وافقها فهو حق و ان كان شرا و فسادا، و ما خالفها فهو باطل و ان كان خيرا و صلاحا.

كَذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ. طبع اللّه على قلوبهم لأنهم سلكوا باختيارهم السبيل المؤدية إلى ذلك حتما .. فالعمى عن الحق نتيجة الجهل، و البغي و الطغيان نتيجة الانحراف عن طريق الهداية، أما نسبة ذلك اليه تعالى فمعناها ان هذه النتيجة تلزم مقدماتها و أسبابها و لا تنفك عنها بحال **فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَ لا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ**. اصبر يا محمد و امض في دعوتك، و تحمل الأذى في سبيلها، فما هي الا أيام حتى تنتشر رسالتك في شرق الأرض و غربها، و يقترن اسمك باسم اللّه تعالى و بالصلوات و التحيات .. و الحمد للّه الذي منّ علينا بمحمد صلى اللّه عليه و اله نبي الرحمة و قائد الانسانية الى الخير، فارزقنا شفاعته يا مبدل السيئات بأضعافها من الحسنات.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٥٥

سورة لقمان

مكية إلا بعض آيات، و آيها ٣٤.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة لقمان (٣١): الآيات ١ الى ١١]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (١) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدىً وَ رَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)

أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّخِذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (٦) وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) خالِدِينَ فِيها وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩)

خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها وَ أَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ بَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هذا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (١١)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٥٦

اللغة:

المراد بلهو الحديث هنا كل ما يصد عن الحق الذي عبّر عنه سبحانه في نفس الآية بسبيل اللّه. و الوقر الصمم. و الرواسي الجبال. و بث فرق. و زوج كريم صنف حسن.

الإعراب:

تلك آيات الكتاب مبتدأ و خبر. و هدى و رحمة حال من الآيات و العامل معنى الاشارة في تلك. و من الناس خبر مقدم، و من يشتري مبتدأ مؤخر. و يتخذها عطف على ليضل. و بغير علم متعلق بمحذوف حالا من فاعل يضل أي جاهلا. و مستكبرا حال. و كأن، أصله كأنه. و خالدين حال من الضمير في لهم. وعد اللّه منصوب على المصدرية أي وعد اللّه وعدا حقا، و حقا صفة للوعد المحذوف.

و ما ذا بمنزلة الكلمة الواحدة و محلها النصب بخلق و التقدير أيّ شيء خلق.

المعنى:

(الم) تقدم مثله في أول سورة البقرة **تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ**. تلك إشارة إلى آيات هذه السورة، و انها من كتاب اللّه، و وصفه سبحانه بالحكيم لأن فيه الحكمة البالغة **هُدىً وَ رَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ** و هم الذين يطلبون الحق و يعملون به لأنه حق، و لا ريب ان القرآن هدى و رحمة لكل من أخلص للّه و للحق، أما الذين أعمت المطامع قلوبهم فهم الداء الذي لا دواء له إلا الاستئصال **الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ** يداومون عليها **وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ** لمن يستحقها **وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ** و لا يشكون انهم مسؤولون أمام اللّه عن أقوالهم و أفعالهم **أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**. فميزان الهداية و الفلاح عند اللّه أن تخلص للحق قولا و عملا، و لا تعبد إلا اللّه، و لا تبخل بما آتاك من فضله. و تقدمت هذه الآيات في أول سورة البقرة.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٥٧

الاتجار بالدين و الضمير:

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّخِذَها هُزُواً. قال صاحب مجمع البيان: «أكثر المفسرين على ان المراد بلهو الحديث الغناء .. و عن الإمام جعفر الصادق (ع) انه الطعن بالحق و الاستهزاء به».

و هذا التفسير أقرب الى الواقع، و أليق بالسياق، فإن اللّه سبحانه بعد أن ذكر المؤمنين المفلحين ذكر المجرمين الذين يشترون الذمم من الذين يتاجرون بالدين و الضمير ليضللوا الناس عن الحق، و يصرفوهم عنه بالأوهام و الأباطيل .. و أوضح مثال على ذلك ما تلجأ اليه قوى الشر و الاستغلال في هذا العصر لتدعيم مكانتها و بث دعايتها، حيث تنفق الملايين على الصحف المأجورة لتنشر الأكاذيب و الافتراءات، و تروّج للخونة و العملاء، و تشكك بالمخلصين الأحرار، و فوق هذا ان تلك الأجهزة الشريرة ألبست عملاءها ثياب أهل الدين ليلصقوا به البدع و يفسروه بما شاء لها البغي و الاستغلال، و يبثوا الفتن و الشقاق بين الطوائف و أهل الأديان .. و بعد حرب الشرق الأوسط سنة ١٩٦٧ شاهدنا ألوانا من الاشاعات الكاذبة و الحرب النفسية في الصحف المأجورة، أما نشاط الدخلاء فقد بلغ الغاية في الجرأة على اللّه و رسوله ..

و لكن الأيام كشفت الحقائق، و فضحت الدخلاء و العملاء، و أوان التصفية آت لا محالة **أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ** لأنهم باعوا دينهم للشيطان، و تآمروا معه على الحق و أهله.

وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ. المؤمن المخلص يستمع للحق، و يتصامم عن الباطل، و الخبيث المجرم صاحب الغايات و الأهداف يصغي للباطل، و يتصامم عن الحق ..

و لا جزاء له إلا عذاب أليم، قال الرازي: «العاقل يطلب الحكمة بأي ثمن، و هم ما كانوا يطلبونها، و إذا جاءتهم مجانا ما كانوا يسمعونها» **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ**. لمّا بيّن سبحانه جزاء من أعرض عن آياته و انه عذاب أليم بيّن جزاء من آمن و عمل بها و انه جنات النعيم **خالِدِينَ فِيها** و لهم ما يشتهون **وَعْدَ اللهِ حَقًّا** لأنه واقع لا محالة **وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** عزيز بقدرته التي لا تغلب، حكيم بتدبيره الذي لا ينكره إلا جاهل أو مكابر.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٥٨

خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها وَ أَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ بَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ. تقدم في الآية ٢ و ما بعدها من سورة الرعد ج ٤ ص ٣٧٣ **هذا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ**. كل ما في الكون يشهد للّه على قدرته و وحدانيته، فأين الدليل أيها المشركون على ان معبودكم شريك للّه في صفة من صفاته؟ **بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ**. و كل من جحد الحق، أي حق، بعد أن تظهر دلائله فهو ظالم آثم.

و تسأل: من يتتبع الآيات الكريمة يرى ان اللّه سبحانه كثيرا ما يؤكد البديهات و الواضحات فيما يعود إلى أبطال الشرك مثل قوله للمشركين: فأروني ما ذا خلق الذين من دونه. و قوله: لن يخلقوا ذبابا، فما هو السر؟

الجواب: السر أن يكشف سبحانه ان الفئة الباغية لا تؤمن إلا بمصلحتها، و انها تنكر من أجل مصلحتها الشخصية كل حقيقة حتى و لو كانت من الوضوح على مثل ضوء الشمس. و هذه الصفة من أقبح الصفات و أخطرها، و لا دواء لها إلا القوة الرادعة.

[سورة لقمان (٣١): الآيات ١٢ الى ١٩]

وَ لَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَ مَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) وَ إِذْ قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ وَ هُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَ فِصالُهُ فِي عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَ لِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَ إِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَ صاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً وَ اتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَ انْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ اصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَ لا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَ لا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ (١٨) وَ اقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٥٩

اللغة:

الوهن الضعف. و الفصال الفطام. و جاهداك بذلا الجهد. و أناب رجع.

و لا تصعر خدك لا تمل بوجهك و هو كناية عن التكبر. و مختال من الخيلاء، و هي العجب و التكبر. و اقصد في مشيك من القصد، و هو وسط بين الافراط و التفريط.

الإعراب:

ان اشكر (ان) مفسرة بمعنى أي. و جملة حملته حال على تقدير قد حملته.

و هنا مصدر في موضع الحال من أمه أي موهونة. و معروفا صفة لمحذوف أي مصاحبا معروفا بمعنى مصاحبة معروفة كما في مجمع البيان. و الضمير في انها يعود إلى فعلة الإنسان من خير و شر. و تك، أصلها تكون فحذفت الواو لالتقاء الساكنين و النون للتخفيف، و اسم تك ضمير مستتر يعود إلى الفعلة و مثقال خبرها.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٦٠

و من خردل متعلق بمحذوف صفة لحبة. فتكن عطف على تك. و يأت جواب ان الشرطية. و مرحا مصدر في موضع الحال أي متكبرا.

المعنى:

وَ لَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ. تطلق الحكمة على معان، منها العلم باللّه و صفاته، و منها وضع الشيء في محله، و منها الكلمة الواعظة، و منها طاعة اللّه، و في الحديث: «رأس الحكمة مخافة اللّه». و كان لقمان من أهل العلم باللّه و طاعته و الدعاة اليه تعالى بأسلوب هادئ و رزين، و واضح و مقنع **وَ مَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ**. تقدم في الآية ٤٠ من سورة النمل.

و اختلفوا: هل كان لقمان نبيا أو عبدا صالحا و كفى. و لا يمت هذا الاختلاف بسبب الى العقيدة و الحياة، و الذي يجب الايمان به هو ما نص عليه القرآن الكريم من ان اللّه سبحانه منّ على لقمان بالحكمة التي هي العلم باللّه و طاعته و الدعوة الى سبيله بالموعظة الحسنة. و ذكر المفسرون و أهل السير الكثير من حكم لقمان و فطنته، من ذلك انه كان عبدا مملوكا، و كان أهون مملوك على سيده، و في ذات يوم بعثه مع غيره من مماليكه الى بستان له ليأتوه بشيء من ثمره، و لما وصلوا إلى البستان أكلوا ثمره ما عدا لقمان .. فتآمروا عليه لأنه لم يشاركهم في الجريمة، و كادوا له عند سيدهم حيث قالوا له: ان لقمان أكل الثمر و لم يبق منه شيئا ..

و لما سأل لقمان قال له: اسقنا جميعا دواء نتقيأ به ما في بطوننا و عندئذ تظهر لك الحقيقة، و هكذا كان .. تقيأوا الفاكهة دون لقمان، و حاق المكر السيئ بمن أساء.

و من ذلك أيضا ان سيده سكر يوما، و راهن قوما على مال كثير ان يشرب بحيرة هناك، و لما أفاق ندم و علم انهم اصطادوه من حيث لا يشعر، فالتجأ إلى لقمان و قال له: هذا يومك. فقال لقمان للقوم: ان للبحيرة أنهرا تصب فيها، فاحبسوها عن البحيرة كي يشرب ماءها. قالوا لا نستطيع ذلك. فقال لهم لقمان:

انه راهن على شربها، و لم يراهن على مواردها و مصادرها.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٦١

و سواء أصحت هذه الرواية، أم لم تصح فإنها أوضح مثال على ان اللّه سبحانه قد منح لقمان الحكمة و المعرفة، و يظهر من أقوال المفسرين و أهل السير انه كان معاصرا للنبي داود. انظر تفسير الآية ٨٠ من الأنبياء.

وَ إِذْ قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ وَ هُوَ يَعِظُهُ. بعد ان ذكر سبحانه انه قد منّ على لقمان بالحكمة ذكر طرفا من مواعظه لابنه رفقا به و شفقة عليه، و قد أوصى الإمام علي ولده الإمام الحسن (ع) بوصية طويلة جاء في مقدمتها: «وجدتك بعضي بل وجدتك كلي حتى كأن شيئا لو أصابك أصابني، و كأن الموت لو أتاك أتاني فعناني من أمرك ما يعنيني من أمر نفسي». قال لقمان:

١- **يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**. يرى بعض المفسرين ان هذا القول من لقمان لابنه يشعر بأن ابنه كان مشركا. و الحق ان النهي عن الشيء لا يدل على صدوره من المخاطب، فقد خاطب سبحانه خليله ابراهيم (ع) بقوله: أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً- ٢٦ الحج، و قال لحبيبه محمد (ص):

فَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ- ٥٢ الفرقان. و قال الإمام علي (ع) للإمام الحسن (ع):

اعتصم باللّه .. و ليكن له تعبدك .. و لو كان لربك شريك لأتتك رسله.

٢- **وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ**. هذه الآية و التي بعدها استطراد في سياق وصية لقمان لابنه .. و الوهن الضعف و الجهد، و كلما نما الجنين في بطن أمه زادها ضعفا و جهدا **وَ فِصالُهُ فِي عامَيْنِ**. ترضع الأم ولديها عامين، ثم تفطمه عن الرضاع، و تقاسي خلالهما الشدائد بالاضافة إلى ما قاسته أيام الحمل و عند الوضع. و تقدم الكلام مفصلا عن مدة الرضاع عند تفسير الآية ٢٣٣ من سورة البقرة ج ١ ص ٣٥٦ و ما بعدها **أَنِ اشْكُرْ لِي وَ لِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ** فأسالك يومئذ: هل كنت من أهل الشكر و الطاعة أو العقوق و المعصية لي و لوالديك **وَ إِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما** حيث لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق **وَ صاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً** بخفض الصوت و طيب الكلام و لين العريكة، و الحرص على ما يرغبان. و تقدم الكلام عن البر بالوالدين مفصلا عند تفسير الآية ٢٣ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٣٥ و تفسير الآية ٨ من سورة العنكبوت.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٦٢

وَ اتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ. بعد أن أمر سبحانه بالشكر له و للوالدين أمر بطاعة اللّه في كل شيء، لا في بر الوالدين فقط، و عبّر عن ذلك بمتابعة الصالحين الذين أطاعوا اللّه في أوامره و نواهيه. قال الإمام زين العابدين (ع): اللهم ألحقني بصالح من مضى، و اجعلني من صالح من بقي، و خذ بي سبيل الصالحين **ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**. هذا تهديد و وعيد لمن يعصي اللّه و الوالدين.

الصخرة و قرن الثور:

٣- **يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ**. عاد الكلام الى وصية لقمان لابنه .. و ضمير انها يعود على الفعلة من الحسنات و السيئات، و لفظ الفعلة و ان لم يذكر في الكلام، و لكن السياق يدل عليها و «مثقال حبة من خردل» كناية عن الفعلة الصغيرة، و **فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ** كناية عن السر و الخفاء، و المعنى الجملي ان اللّه سبحانه يعلم مقاصد الإنسان و أقواله و أفعاله ما خفي منها و ما ظهر، لا يغادر منها صغيرة و لا كبيرة إلا أحصاها و حاسب عليها .. و القصد من سياق هذا الكلام هو إنذار الضالين المضلين الذين يعيشون مع الناس بألسنتهم، و مع أعداء اللّه و الانسانية بقلوبهم، و ان يعلموا ان مصيرهم الى الخزي و الوبال.

و تساءل بعض المفسرين و قال: كيف ذكر اللّه السموات و الأرض بعد أن ذكر الصخرة مع العلم بأن الصخرة لا بد أن تكون في الأرض، لا في السماء.

و أجابه آخر بأن هذه الصخرة ليست في السماء و لا في الأرض، و انما هي تحت سبع أرضين، و بالضبط هي نفس الصخرة التي يقف الثور عليها و هو يحمل الأرض على قرنه، و قال قائل: كلا، ان هذه الصخرة قائمة في الهواء بمحض خلق اللّه تعالى. و قال ثالث: هي خضراء اللون. (انظر تفسير الطبري و الرازي).

و القرآن الذي وصفه اللّه بالنور و الهدى و فصل الخطاب منزه عن هذه التأويلات التي يتخذ العدو منها وسيلة للطعن و الاستهزاء بالدين .. و ان دلت هذه التفاسير و ما اليها على شيء فإنما تدل على ان أصحابها لا يعرفون حكمة اللّه في إرسال رسله

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ١٦٣

و انزال كتبه، و يجهلون ان الإسلام هو دين الفطرة و الحياة، و ان أساس دعوته الايمان و الإخلاص، و ضوءها العلم و العدل، و طريقها الجد و العمل، و هدفها السعادة و الهناء.

٤- **يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ** لأنها تذكرك باللّه و تنزهك عن الكبر **وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَ انْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ**. و من أمر بالمعروف شد أزر المؤمنين، و أرغم أنوف المنافقين **وَ اصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** و المراد بعزم الأمور قوة الارادة الخيرة، و الثبات على الحق .. و الأمر بالصبر بعد الأمر بالمعروف يومئ الى ان من دعا دعوة الحق لاقى في ذات اللّه ما يلاقيه كل مجاهد مخلص من سرّ المبطلين و الانتهازيين.

وَ لا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ لا تمل بوجهك عنهم تكبرا، بل أقبل عليهم، و تواضع لهم .. و في نهج البلاغة: لا وحدة أوحش من العجب، و لا حسب كالتواضع **وَ لا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ** ..

بعد أن نهى عن مشي المرح بيّن معناه بأنه المشي باختيال و فخر، و الاختيال هو الزهو، و الفخر هو المباهاة، و لا شيء أدل على الجهل و النقص من هذه الصفات.

وَ اقْصِدْ فِي مَشْيِكَ لا تبطئ، و لا تسرع، و اتخذ بين ذلك سبيلا **وَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**. و أنكرها أوحشها و أقبحها، و فيه إيماء الى ان رفع الصوت أكثر مما تدعو الحاجة اليه- يدل على البلادة، و مثله الإخفات المخل، و من أخذ بالقصد و الاعتدال فقد عرف السبيل، و انما يحسن الكلام مع القصد في الصوت إذا كان في موضعه، و الا فالسكوت أجمل و أكمل، و مما جاء في وصف لقمان انه كان يسمع كثيرا و يتكلم قليلا، فإذا تكلم جاءت كلمته كالدرة بين الحصى. و إلى مثلها ينبغي السكوت و الإصغاء، و في بعض الروايات: ان الصمت باب من أبواب الحكمة. أي من الحكمة السكوت و الإصغاء للحكمة، أما قول من قال: إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب فمعناه السكوت عن الباطل و الفضول، و إلا فان كلمة الحق نور و جهاد بخاصة إذا كانت ضد الظلم و الجور، و في الحديث: الساكت عن الحق شيطان أخرس.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ١٦٤

[سورة لقمان (٣١): الآيات ٢٠ الى ٣٨]

أَ لَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَ باطِنَةً وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لا هُدىً وَ لا كِتابٍ مُنِيرٍ (٢٠) وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَ وَ لَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ (٢١) وَ مَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى وَ إِلَى اللهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢) وَ مَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ (٢٤)

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ

الأَرْضِ إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) ما خَلْقُكُمْ وَ لا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ واحِدَةٍ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨)

اللغة:

أسبغ أتم. و يسلم وجهه للّه كناية عن الإخلاص له. و العروة من الدلو ما

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٦٥

يمسك به القابض، و من الثوب مدخل الزر. و الوثقى مؤنث الأوثق، و هو الأشد و الأحكم. و ذات الصدور القلوب و الضمائر.

الإعراب:

ظاهرة و باطنة حال من نعم اللّه. أولو الهمزة للإنكار و الواو للعطف و لو للامتناع، و جوابها محذوف و التقدير لاتبعوهم، و ضمير الجمع يعود للآباء.

و جملة و هو محسن حال، و جملة فقد استمسك خبر من يسلم. و قليلا صفة لمفعول مطلق محذوف أي تمتعا قليلا.

المعنى:

أَ لَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الأَرْضِ وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَ باطِنَةً. ان نعم اللّه كما وصفها سبحانه بقوله: وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها- ٣٤ ابراهيم ج ٤ ص ٤٤٨. و من يحصي و يحيط بما في السموات و الأرض غير خالق السموات و الأرض؟ و مثّل المفسرون للنعم الظاهرة بما تدركه الحواس، و للباطنة بقوى النفس و غرائزها. و قال الملا صدرا في المجلد الثالث من أسفاره:

«ان أفاضل البشر عاجزون عن إدراك الأمور السماوية و الأرضية على وجهها، و عن الاحاطة بما فيها من الحكمة و العناية، بل الأكثرون لا يعرفون حقيقة النفس التي هي ذات الشخص و تفاصيل أحوالها، و ما خفي على ذوي الاختصاص أكثر مما ظهر لهم، و إذا كانت احاطة الإنسان بنفسه و بدنه متعذرة فكيف يحيط بالعالم الجسماني و الروحاني، و ما لنا مع هذا العجز إلا أن نتأمل و نتفكر في عجائب الخلقة و بدائع الفطرة».

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لا هُدىً وَ لا كِتابٍ مُنِيرٍ. جمعت هذه الآية على إيجازها بين أسباب المعرفة الثلاثة: الأول الحس و التجربة، و إليه الاشارة بالعلم، و الثاني العقل، و هو المراد من الهدى، و الثالث الوحي الذي

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٦٦

عبر عنه، جلت عظمته، بالكتاب المنير. و تقدمت هذه الآية بنصها الحرفي في سورة الحج الآية ٣ و ٨ **وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَ وَ لَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ**. تقدم في الآية ١٧٠ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٥٩.

من هو المستمسك بالعروة الوثقى؟

وَ مَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى وَ إِلَى اللهِ عاقِبَةُ الأُمُورِ. العروة الوثقى الطرف القوي الذي لا ينقطع، و هو كناية عن القرآن و عن حبل اللّه و مرضاته، و ما إلى ذلك مما يكون معه الإنسان آمنا من عذاب اللّه و غضبه .. و كل من اجتمع له وصفان فقد أخذ بهذا الطرف القوي الأمين: الأول أن يؤمن باللّه، و يفعل ما

أمره به من العبادة كالصوم و الصلاة، و يترك ما نهاه عنه كالزنا و الكذب و الخمر. الثاني: أن يكون محسنا، و المحسن هو الذي يتعدى إحسانه إلى الآخرين، و لا يقف عند الإحسان لنفسه و ذويه، فيشارك الناس في آلامهم، و يعمل لخلاص المظلومين و المحرومين، و من أجل الحق و العدل أينما كان و يكون، و بالايجاز ان المحسن تماما كالماء الطهور طاهر بنفسه، مطهر لغيره.

و بهذا يتبين معنا ان الآمنين من غضب اللّه و عذابه هم المؤمنون المحسنون، أما من آمن باللّه و تعبد له و لم يحسن الى الآخرين بالتعاون معهم على ما فيه خير الجميع، أو أحسن و لم يؤمن باللّه، أما هذا و ذاك فلا أمان لهما من عذاب اللّه و غضبه لأنهما لم يستمسكا بالعروة الوثقى .. و في ذلك كثير من الأحاديث منها:

«من لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم .. لا يصدق ايمان العبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .. أحب الناس الى اللّه أنفعهم للناس». و كفى بقول الرسول الأعظم (ص): «اني بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» و قوله: «أنا رحمة مهداة» كفى بهذا شاهدا على ان رسالة الإسلام هي رسالة الانسانية .. و من خلالها حدد بعض العارفين المسلم بأنه «انسان ممتد بمنافعه في معناه الاجتماعي حول أمته كلها لا انسان ضيق حول نفسه بهذه المنافع».

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ١٦٧

وَ مَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ. علام تحزن و تتألم يا محمد لكفر من كفر، و قد بلّغت و أنذرت و أديت الرسالة كاملة؟ فدع المجرمين و دنياهم، فنحن أعلم بهم، إلينا مصيرهم و علينا حسابهم **نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ** ما هي إلا أيام يلعبون بها و تلعب بهم، ثم يحيط بهم العذاب الشديد من حيث لا يشعرون.

و تقدم في مثله أكثر من آية، منها الآية ١٧٦ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٢٠٩.

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ. تقدم مثله في الآية ٨٤ من سورة المؤمنون ج ٥ ص ٣٨٣ و الآية ٦١ من سورة العنكبوت **لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الأَرْضِ إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** له وحده الملك و الحمد، و لا غني إلا من استغنى به.

وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. سبعة أبحر كناية عن الكثرة، و المراد بكلمات اللّه قدرته تعالى على إيجاد الكائنات متى شاء، و المعنى لو فرض ان البحر مداد، و الأشجار أقلام تكتب قدرة اللّه على إيجاد ما يشاء لانتهت البحار و الأقلام و بقيت قدرة اللّه الى ما لا نهاية .. و بكلمة ان الحد لقدرة اللّه ان لا حد لها.

و تقدم مثله في الآية ١١٠ من سورة الكهف ج ٥ ص ١٦٦.

و قال ابن عربي في المجلد الرابع من الفتوحات المكية: «البحار و الأقلام من جملة الكلمات، فلو كانت البحار مدادا ما انكتب بها سوى عينها، و بقيت الأقلام و الكلمات الحاصلة في الوجود ما لها ما تكتب به مع تناهيها بدخولها في الوجود، فكيف بما لم يحصره الوجود من شخصيات الممكنات». يريد لو كانت البحار حبرا، و أردنا أن نكتب عن العجائب و الأسرار التي أودعها اللّه في البحار فقط لنفدت البحار بنفاد الكتابة عن عجائبها و أسرارها، و إذا نفد الحبر بنفاد البحار تعطلت الأقلام عن الكتابة، و عليه تظل بقية الكائنات الموجودة بلا كتابة عنها .. هذا بالنسبة الى ما هو موجود بالفعل، فكيف بما يدخل تحت قدرة اللّه من الكائنات التي يوجدها بكلمة «كن» متى يشاء؟

ما خَلْقُكُمْ وَ لا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ واحِدَةٍ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ. كل قادر غير

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۱۶۸

اللّه يقدر على شيء، و يعجز عن أشياء، و الشيء الذي يقدر عليه منه ما لا يحتاج إلى جهد، و منه ما يحتاج إلى جهد يسير، و منه ما يحتاج إلى جهد كثير ..

و اللّه قادر على كل شيء، و يتساوى عند قدرته الخطير و الحقير، و عليه يكون خلق الناس جميعا تماما كخلق واحد منهم، و كذلك بعثهم للحساب و الجزاء.

قال الإمام علي (ع): «لا شيء إلا الواحد القهار الذي اليه مصير جميع الأمور بلا قدرة منها كان ابتداء خلقها، و بغير امتناع منها كان فناؤها، و لو قدرت على الامتناع دام بقاؤها، لم يتكاءده- أي لم يشق عليه- صنع شيء منها إذ صنعه، و لم يؤده- أي لم يثقله- منها خلق ما خلقه و برأه».

[سورة لقمان (۳۱): الآيات ۲۹ الى ۳۲]

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَ أَنَّ اللهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (۲۹) ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ وَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (۳۰) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (۳۱) وَ إِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (۳۲)

اللغة:

الظلل جمع ظلة، و هي ما يظللك و يعلوك من كل شيء، و المراد هنا ان الموج ارتفع فوق من في السفينة. و الختّار الغدّار مبالغة في الغدر.

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۱۶۹

الاعراب:

مخلصين حال من فاعل دعوا. و نقل ابن هشام في كتاب المغني عن ابن مالك ان (لمّا) هنا بمعنى إذا، بدليل دخول الفاء على جوابها.

المعنى:

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ. تقدم في الآية ۲۷ من سورة آل عمران ج ۲ ص ۳۷ و الآية ٦١ من سورة الحج **وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَ أَنَّ اللهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**. تقدم في الآية ۲ من سورة الرعد ج ٤ ص ۳۷۳ **ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ وَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**. تقدم بالحرف الواحد في الآية ٦٢ من سورة الحج.

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ. من نعم اللّه تيسير المواصلات، و من وسائلها الفلك، و هي تحتاج الى الماء و الريح و السماء، و هذه الأسباب و ما اليها تنتهي اليه تعالى **إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** يصبر على التأمل و النظر إلى عجائب اللّه في خلقه، و يشكره على آلائه.

وَ إِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا

إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ. قال بعض المفسرين:

المراد بالمقتصد هنا من أضمر الكفر. و قال الرازي: هو من اقتصد في الكفر.

و الصواب ان المراد به المعتدل الذي لم يظلم نفسه بتعريضها لعذاب اللّه و غضبه، و لم يكن من السابقين إلى الخيرات. قال تعالى: فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ- ٣٢ فاطر. أما الختار فهو شديد الغدر، و المراد به هنا من نقض عهد الفطرة التي ولد عليها كل مولود. و تقدم مثله في الآية ٢٢ من سورة يونس ج ٢ ص ١٤٧ و الآية ٦٥ من سورة العنكبوت.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٧٠

[سورة لقمان (٣١): الآيات ٣٣ الى ٣٤]

يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَ اخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَ لا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ لا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ (٣٣) إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ يُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَ يَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)

اللغة:

جاز مغن. و كل ما غرك فهو غرور إنسانا كان أو غير انسان.

الإعراب:

يوما مفعول به لا خشوا. و لا مولود عطف على والد، و يجوز أن يكون مبتدأ أول «و هو» مبتدأ ثان و جاز خبر الثاني و الثاني و خبره خبر الأول. و شيئا مفعول جاز.

المعنى:

يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَ اخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَ لا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ لا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ. أمر سبحانه بالتقوى لأنها سبيل النجاة من يوم يفر فيه المرء من بنيه و أمه و أبيه .. و هذا اليوم آت لا محالة، و المخدوع من اغتر بالأباطيل و الأكاذيب.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٧١

لما ذا خلق اللّه الإنسان؟

قرأت لكاتب يقول: «من الأسئلة التي لا جواب لها هذا السؤال: لما ذا خلق اللّه الإنسان؟». و ما من شك ان كل واحد يتمنى لو عرف الجواب عن هذا السؤال لأنه يرتبط ارتباطا طبيعيا و مباشرا بوجوده و حقيقته، و لا أخفي سرا كان في نفسي، و هو اني قرأت أجوبة كثيرة عن هذا السؤال للفلاسفة و علماء الكلام و غيرهم من القدامى و الجدد، و لكني لم اقتنع بشيء منها بيني و بين نفسي ..

مع ان هذا السؤال قد وجه إليّ أكثر من مرة، و أجبت عنه بما أجابوا لا لشيء إلا لأني لا أملك غير ما قالوا، و الا لأني أريد أن أجيب.

و حين باشرت بتفسير آي الذكر الحكيم نسيت السؤال و ما كنت أحفظ من جوابهم لأن «التفسير الكاشف» أفقدني كل

شيء حتى ذاكرتي، و لم يدع لي إلا البصيرة التي أهتدي بها إلى معاني كتاب اللّه و أهدافه و ربطها بواقع الحياة .. و ما مضيت في التفسير إلا قليلا حتى وجدت الجواب في آيات اللّه واضحا لا يقبل الشك و التأويل .. و لا بدع فان خالق الشيء هو أعلم بما أراد من خلقه .. وجدت في كتاب اللّه آيات تدل دلالة واضحة على ان الإنسان خلق للآخرة لا للدنيا، لحياة طيبة لا مشاكل فيها و لا تعقيد.

و لكن شاءت حكمة الخالق ان يربط بين الحياة الطيبة في الآخرة التي خلق الإنسان من أجلها و بين صدق الايمان بالحق و الإخلاص له و العمل لحمايته، كما قضت حكمته تعالى ان من لا يؤمن بهذا الارتباط، أو يؤمن به نظريا و لا يعمل له- أن يحاسبه حسابا عسيرا، و يعذبه عذابا أليما لأنه جهل أو تجاهل الغاية التي من أجلها وجد، و تنكب عن الطريق السوي بسوء اختياره بعد أن أرشده اللّه اليه، و أمره بسلوكه .. و بكلام آخر ان حياة الإنسان في واقعها باقية ببقاء خالقها، و إنما وضعه تعالى في دار الدنيا مؤقتا و الى حين، ثم ينتقل به إلى دار القرار، و أمره أن يعمل للدارين معا، و يحتاط لما يمكن أن يقع له في الدار الأولى، و لما هو واقع لا محالة في الدار الثانية، فإن امتثل و أطاع فقد اختار لنفسه الأمن و الفلاح تماما كمن سافر، و هو مزوّد بما يحتاج اليه في سفره، و من أعرض

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٧٢

و تولى فقد اختار لها شر العواقب كمن سافر إلى بلد بعيد و غريب على غير زاد، و شيء من الاستعداد «١».

و الآن نذكر طرفا من الآيات التي دلت على ان الغاية من خلق الإنسان هي الحياة الثانية، و هذه الآيات على أنواع:

«منها» ما تصف الدنيا باللهو و اللعب و متاع الغرور، و بالزوال و الفناء، و بالهشيم و التفاخر و التكاثر، و تصف الآخرة بدار اللّه و الخير و الحيوان و الرضوان، فكيف يخلق سبحانه الإنسان، و يودع فيه من الأسرار و الطاقات ما يخلق الحضارات، و يغير تاريخ الإنسان و الأرض و السماء، كيف يخلق هذا الكائن العجيب للهو و متاع الغرور و لحياة أشبه بالأحلام، و هو القائل: وَ لَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ- ٧٠ الإسراء. و لا شيء يناسب الكرامة الانسانية، و الحكمة الإلهية إلا الحياة الباقية ببقاء خالقها.

و «منها» الآيات الدالة على ان اللّه سبحانه يبتلي الإنسان و يمتحنه- و هو أعلم به- ليكشف الستار عن دخيلته و حقيقته، و تظهر أفعاله التي يستحق بها الثواب و العقاب في الآخرة، و من هذه الآيات قوله تعالى: وَ ما كانَ لَهُ- أي لإبليس- عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ- ٢١ سبأ و قوله: إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً- ٧ الكهف. و ليس القصد مجرد الإعلان و الاظهار .. كلا، بل لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا وَ يَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى- ٣١ النجم.

و بما ان هذا الجزاء لم يتحقق في الدنيا فتعين أن يكون في اليوم الآخر، و إلا كان وعد اللّه تهويلا .. تعالى اللّه عما يقول الجاهلون.

و «منها» الآيات الدالة على خلود من آمن و أحسن في الجنة، و خلود من كفر و أساء في النار.

و تسأل: و ما ذا تصنع بقوله تعالى: وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ- ٥٦ الذاريات حيث دل بصراحة على ان الغاية من خلق الإنسان ان يعبد اللّه

(١). انظر تفسير الآية ٧٧ من سورة القصص: **وَ ابْتَغِ فِيما آتاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَ لا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا.**

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۱۷۳

في الحياة الدنيا، لا أن يحيا حياة طيبة دائمة في الآخرة؟

الجواب: المراد بالعبادة هنا كل عمل يرضي اللّه تعالى، و يتقرب به اليه، و ليس من شك ان مرضاة اللّه هي السبيل الوحيد للحياة الطيبة الدائمة، و عليه يكون المعنى ما خلقت الجن و الانس إلا ليعملوا عملا صالحا يحيون بسببه حياة طيبة دائمة في الآخرة، و بكلام آخر ان قوله تعالى: وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ يرادف قوله: وَ قَضى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ- ٢٣ الإسراء و قوله: وَ ما أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ- ٥ البينة. و نتيجة الإخلاص في الدين حياة دائمة، و جنة قائمة.

أما الآيات التي أناطت نعيم الآخرة بعمل الخير و الصلاح في الحياة الدنيا، و أناطت عذاب الآخرة بعمل الشر و الفساد في الأرض فهي تعد بالعشرات، منها الآية ٧٢ من سورة الإسراء: وَ مَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى وَ أَضَلُّ سَبِيلاً و منها الآية ١٤٢ من سورة آل عمران: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَ يَعْلَمَ الصَّابِرِينَ. و المراد بالجهاد هنا الجهاد لحماية الحق و أهله، و الاستشهاد في سبيل اللّه، و المراد بالصبر الثبات ضد المبطلين و المعتدين .. لا صبر الذين يستسلمون لقوى الشر و البغي، و على الذل و الفقر.

و متى تبين معنا ان الغاية من خلق الإنسان هي الحياة الباقية، و ان نعيمها منوط بعمل الخير و الصلاح في الحياة الدنيا، و جحيمها منوط بعمل الشر و الفساد في الأرض، إذا تبين معنا هذا أدركنا ان أي تفسير للغاية من خلق الإنسان لا يعكس هذه الحقيقة فهو بعيد عن الصواب و الواقع، و كفى دليلا على ذلك قوله تعالى:

أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ- ١١٥ المؤمنون أي لو لم يخلق اللّه الإنسان للآخرة لكان اللّه عابثا جلت حكمته.

علم الساعة و الغيث و ما في الأرحام:

إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ يُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَ يَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ. و تسأل: ان معلومات اللّه سبحانه لا يبلغها الإحصاء، كما قال في الآية ٣ من سورة سبأ:

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۱۷۴

عالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ و الآية: وَ يَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ ما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُها وَ لا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ وَ لا رَطْبٍ وَ لا يابِسٍ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ- ٥٩ الانعام و قال الإمام علي (ع): ان اللّه يعلم مسقط القطرة و مقرها و مسحب الذرة و مجرّها، و ما يكفي البعوضة من قوتها. فلما ذا خص سبحانه هذه الأشياء بالذكر؟

و قيل في الجواب: ان سائلا سأل النبي (ص) عن هذه الأشياء فنزلت الآية.

و قال الرازي: لما ذكر سبحانه يوم القيامة ناسب أن يذكر هذه الأشياء. و قلنا نحن أكثر من مرة: ان القرآن كتاب دين و هداية ينتقل بالإنسان من شأن إلى شأن. قال الإمام جعفر الصادق (ع): ان الآية يكون أولها في شيء و آخرها في شيء

آخر، و هو كلام متصل ينصرف بعضه إلى وجوه .. و مهما يكن فقد تضمنت الآية خمسة أشياء، و هي:

١- إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلاَّ هُوَ- ١٨٦ الأعراف، و الحكمة في ذلك أن يكون الناس على حذر و توقع دائم فيحتاطوا لمواجهة الاحتمالات.

٢- وَ يُنَزِّلُ الْغَيْثَ قال كثير من المفسرين: ان المراد بـ «ينزل الغيث» ان العلم بنزوله مختص باللّه وحده .. و الصواب ان تؤخذ كلمة «ينزل» على ظاهرها أي ان القدرة على انزال الغيث تختص باللّه لأن أسبابه الكونية تنتهي اليه تعالى .. و هذا لا يمنع أبدا ان يعلم الإنسان وقت نزول المطر عند ظهور دلائله .. و لو سلمنا- جدلا- بأن المراد من «ينزل» العلم فنقول: ان الإنسان يعلم وقت نزول المطر حين تظهر دلائله و علاماته، و لكن لا يعلم متى تظهر هذه الدلائل و العلامات إلا اللّه وحده.

و تسأل: ان العلماء ينزلون المطر الصناعي، و عليه فلا يختص إنزاله باللّه وحده؟

الجواب: ان العلماء يحولون السحاب الموجود إلى مطر، و اللّه يكوّن السحاب و يوجده، ثم يسوقه من بلد الى البلد الذي يشاء، و الفرق بعيد بين إيجاد الشيء و بين تحويل الشيء الموجود الى شيء آخر.

٣- وَ يَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ. و تسأل: ان العلم الحديث يعلم أيضا بواسطة الأشعة ما في الأرحام من ذكر أو أنثى؟

الجواب: ان الأشعة تعكس المادة الموجودة بالفعل، أما غيرها من الصفات

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ١٧٥

و الغرائز التي سيكون عليها الحمل في المستقبل كالحسن أو القبح، و الذكاء أو البلادة، و ما إلى ذلك، أما هذه فعلمها عند اللّه وحده، قال الإمام علي (ع):

«يعلم سبحانه ما في الأرحام من ذكر أو أنثى، و قبيح أو حسن، و سخي أو بخيل، و شقي أو سعيد، و من يكون في النار حطبا، أو في الجنان للنبيين مرافقا».

٤- وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً لأن كل يوم هو في شأن، و قد أثبتت الأيام نظرية الفيلسوف اليوناني هرقليطس الذي قال: «انك لا تنزل النهر الواحد مرتين» يشير الى ان جميع المظاهر الكونية و الاجتماعية تتغير بين لحظة و لحظة من حال إلى حال، و عليه يتعذر العلم بما يحدث للإنسان في مستقبله.

٥- وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ و لا بأي زمن أيضا لأن الموت لا ضابط له، فقد يأخذ الطفل الصغير و الشاب المعافى، و يترك العليل و الشيخ الكبير.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ١٧٦

سورة السّجدة

عدد آياتها ٣٠، قال صاحب مجمع البيان: هي مكيّة ما خلا ثلاث آيات فإنها مدينية، ابتداء من قوله تعالى: أ فمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون:

إلى تمام الآيات الثلاث.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة السجده (٣٢): الآيات ١ الى ٩]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الم (١) تَنْزِيلُ الْكِتٰابِ لاٰ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعٰالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرٰاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مٰا أَتٰاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣) اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى الْعَرْشِ مٰا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لاٰ شَفِيعٍ أَ فَلاٰ تَتَذَكَّرُونَ (٤)

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمٰاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كٰانَ مِقْدٰارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذٰلِكَ عٰالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهٰادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسٰانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاٰلَةٍ مِنْ مٰاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوّٰاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصٰارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مٰا تَشْكُرُونَ (٩)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٧٧

اللغة:

يعرج يصعد. و مهين ضعيف و المراد به المني.

الإعراب:

تنزيل خبر لمبتدأ محذوف أي هذا تنزيل، و قال أبو حيان الأندلسي: تنزيل مبتدأ، و من رب العالمين خبر، و لا ريب فيه جملة معترضة. أم يقولون (أم) منقطعة بمعنى بل و الهمزة. و من ربك و المصدر من لتنذر يتعلقان بمحذوف حالا من الحق. من ولي (من) زائدة اعرابا و ولي مبتدأ و من دونه حال من ولي و لكم خبر لولي. و الذي أحسن خبر بعد خبر لذلك أو خبر لمبتدأ محذوف أي هو الذي أحسن. و خلقه الجملة صفة لكل شيء. و قليلا صفة لمفعول مطلق محذوف و ما زائدة أي شكرا قليلا تشكرون.

المعنى:

(الم) أنظر أول سورة البقرة **تَنْزِيلُ الْكِتٰابِ لاٰ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعٰالَمِينَ**.

لا شك في صدق القرآن و انه من وحي السماء لا من صنع الإنسان .. و قدمنا على ذلك العديد من الشواهد. أنظر ج ١ ص ٦٥ و ج ٢ ص ٣٨٩ و ج ٥ تفسير الآية ٥٥ من سورة النور.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرٰاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مٰا أَتٰاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ. قال المترفون المستغلون من عتاة قريش: القرآن من نسج محمد (ص) .. فقال سبحانه ردا عليهم: كلا، انه من وحي اللّه، و قد أتاكم بما لم يأتكم به أحد من قبل و لا يأتكم به أحد من بعد، جاءكم بخير الدنيا و الآخرة، و نهاكم عما أنتم فيه من البغي و الفساد لتتعظوا و تنتهوا قبل أن تدور على رؤوسكم دائرة السوء، و كان المفروض أن تشكروا محمدا (ص) على هذا الفضل بدل أن تضمروا له العداء، و تنسبوه إلى الكذب و الافتراء.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٧٨

اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى الْعَرْشِ مٰا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لاٰ شَفِيعٍ أَ فَلاٰ تَتَذَكَّرُونَ. ستة أيام كناية عن الدفعات أو الأطوار، و المراد بالعرش الاستيلاء. و تقدم مثله في الآية ٥٤ من سورة الأعراف و ٣ من سورة يونس و ٥٩ من سورة الفرقان. و في ج ٣ ص ٣٣٨ ذكرنا الأقوال حول الأيام الستة و رأينا فيها.

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ. المراد ب «يدبر الأمر» ان اللّه سبحانه خلق الكون، و منح كل مخلوق من الصفات ما تستدعيه الحكمة و العناية الإلهية، و أوجب على من منحه القدرة و الإدراك ان يلتزم الطريق الذي أرشده اليه. و المراد ب**يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ** ان أعمال الخلائق ترفع اليه يوم القيامة. و ألف سنة كناية عن تطاول الزمن، و المعنى ان الخلائق مشمولة بتدبير اللّه و عنايته، فهو سبحانه أوجدها و أتقنها الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى- ٥٠ طه و هو يفنيها و يعيدها، و اليه ترفع الأعمال في يوم هو أطول و أثقل يوم على العصاة و المجرمين.

ذلِكَ عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ. ان خالق كل شيء، و القائم على كل شيء هو العالم بما كان و يكون كبيرا أو صغيرا، ظاهرا للعيان أو خفيا عنها، و العزيز بقدرته و سلطانه، و الرحيم بخلقه و عباده **الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ**. كل مخلوق وجد على النظام الأتم فهو حسن و متقن يدل على قدرة الصانع و عظمته، و ما من شيء في الوجود إلا و ترى فيه النظام و التناسق الذي يدل على العليم الحكيم: ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ- ٤ الملك.

وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ. المراد بالإنسان هنا أبو البشر آدم **ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ**. نسله ذريته، و سلالة لانسلاله من صلبه، و الماء المهين المنيّ (ثم سواه) في أحسن تقويم **وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ** هذا كناية عن الحياة. و تقدم مثله في الآية ٢ من سورة الأنعام ج ٣ ص ١٥٨ و الآية ١٢ من سورة «المؤمنون». **وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ**.

تقدم في الآية ٧٨ من سورة «المؤمنون». و لا تقلّ نعمة البيان عن نعمة السمع

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٧٩

و البصر و الإدراك، أما شهوة الغذاء فهي لحفظ الحياة، و شهوة الجنس لبقاء النوع، و ما من غريزة في الإنسان إلا و لها فائدة و حكمة.

[سورة السجده (٣٢): الآيات ١٠ الى ١٤]

وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ (١٠) قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) وَ لَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَ سَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَ لَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها وَ لكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا إِنَّا نَسِيناكُمْ وَ ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤)

اللغة:

للضلال معان، منها ضد الهداية، و الموت، و الغياب، و هو المراد بضللنا في الأرض أي غبنا فيها. و النكس قلب الشيء على رأسه و جعل أعلاه أسفله.

و نسيناكم أهملناكم.

الإعراب:

نقل أبو حيان الأندلسي عن سيبويه ان (لو) في قوله تعالى **وَ لَوْ تَرى**

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٨٠

هي لوقوع شيء في المستقبل عند وقوع شيء آخر. و أجمعين توكيد للناس.

و جملة فذوقوا مفعول لقول محذوف أي يقال لهم: فذوقوا. و هذا عطف بيان من يومكم.

المعنى:

وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ. هذا مثل قولهم:

أَ إِذا كُنَّا تُراباً أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ- ٥ الرعد ج ٤ ص ٣٧٨ **بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ.**

و تسأل: لقد أعلن المشركون كفرهم بلقاء اللّه صراحة، فما هو وجه الاضراب في قوله تعالى: **بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ**؟ و هل هو إلا كقولنا: أنت كافر لمن أعلن الكفر؟

الجواب: المراد انهم لم يكفروا باليوم الآخر عن علم، بل عن جهل و تقليد، فهو تماما كقولنا لمن أعلن الكفر: أنت جاهل.

قُلْ يَتَوَفّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ. قل يا محمد للذين كفروا باليوم الآخر: أنتم ميتون ما في ذلك ريب، و بعد الموت تنكشف لكم الحقيقة، و تعلمون ان الساعة آتية لا ريب، و ان اللّه يبعث من في القبور.

وَ لَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ. أنكروا البعث، و سخروا ممن آمن به و دعاهم إلى العمل له، و حذرهم من عواقبه .. و لما بعثوا و وقفوا بين يدي اللّه للحساب طأطئوا رؤوسهم حياء و ندما و قالوا: **رَبَّنا أَبْصَرْنا وَ سَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ.** تقدم مثله في الآية ٢٧ من سورة الأنعام ج ٣ ص ١٧٨ و الآية ١٠٠ من سورة «المؤمنون».

وَ لَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها. قال الرازي: «هذا صريح في ان مذهبنا صحيح حيث نقول: ان اللّه ما أراد الايمان من الكافر، و ما شاء منه إلا الكفر».

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٨١

و نقول للرازي: إذا كان اللّه هو الذي أراد الكفر من الكافر و لا رادّ لمشيئته فعلى أي شيء يعذبه و يعاقبه؟ كيف و هو القائل: وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لكِنْ كانُوا هُمُ الظّالِمِينَ- ٧٦ الزخرف. و الصحيح ان المراد بمشيئة اللّه هنا المشيئة التكوينية التي هي عبارة عن كلمة «كن». و عليه يكون المعنى لو أراد اللّه إلجاءهم الى الهداية لاهتدوا .. و لو فعل ذلك لبطل الثواب و العقاب، و لم تلزم الأسماء معانيها.

و تقدم ذلك أكثر من مرة. انظر ج ٣ ص ٦٩.

وَ لكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النّاسِ أَجْمَعِينَ. لقد حق القول من اللّه تعالى أن يملأ جهنم من الذين أفسدوا و تمادوا في الغي بملء اختيارهم و إرادتهم، أما الذين استجابوا لربهم فلهم مغفرة و أجر كريم. و في الحديث القدسي: خلقت الجنة لمن أطاعني و لو كان عبدا حبشيا، و النار لمن عصاني و لو كان سيدا قرشيا.

فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا إِنَّا نَسِيناكُمْ وَ ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. ما انقاد أحد لأهوائه و شهواته إلا و نسي اللّه و الحساب، و كفر بالحق و الضمير .. و غدا تقول ملائكة العذاب لهذا المجرم: سكرت بحلاوة الدنيا فذق الآن مرارة الآخرة. و تقدم مثله في الآية ٥١ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٣٦ و الآية ٦٧ من سورة التوبة ج ٤ ص ٦٧.

[سورة السجده (٣٢): الآيات ١٥ الى ٢٢]

إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنَا الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً وَ سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ هُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (١٦) فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) أَ فَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى نُزُلاً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٩)

وَ أَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْواهُمُ النَّارُ كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها وَ قِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (٢٢)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٨٢

اللغة:

تتجافى تبتعد من الجفاء. و المضاجع جمع مضجع و هو فراش النوم. و المأوى ما تأوي اليه. و المراد بالنزل هنا العطاء. و المراد بالعذاب الأدنى عذاب الدنيا، و بالعذاب الأكبر عذاب الآخرة.

الإعراب:

سجّدا حال من فاعل خرّوا. و خوفا و طمعا و جزاء مفعول من أجله. أ فمن (من) مبتدأ و كمن خبر. و لا يستوون الجملة مستأنفة. و نزلا حال أو مفعول مطلق.

المعنى:

إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنَا الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً وَ سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ.

المراد بالمؤمنين هنا الذين يعرفون الحق، و يعملون به، و يضحون من أجله،

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٨٣

و يعبدون اللّه في ليلهم و نهارهم ثقة به و إخلاصا له وحده لا شريك له، أما التسبيح و الركوع و السجود بدافع الكسب و التجارة بالدين فهو نفاق لا عبادة، و زندقة لا ايمان **وَ هُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ** أي ان المؤمنين يرحبون بالحق، و يتخلون من أجله عن مصالحهم الشخصية لأنه هو دينهم و مصلحتهم. و يجب أن يسجد للّه من قرأ هذه الآية أو استمع اليها، و قيل: من سمعها أيضا من غير قصد.

تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَ طَمَعاً. المضاجع كناية عن النوم. و إذا عطفنا هذه الآية على قوله تعالى: رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَ إِقامِ الصَّلاةِ- ٣٧ النور و جمعنا الآيتين في كلام واحد يكون المعنى ان المؤمنين لا تلهيهم تجارة و لا بيع و لا نوم عن عبادة اللّه التي تعكس خوفهم من عذابه، و طمعهم بثوابه. و هذه العبادة هي التي عناها اللّه بقوله:

إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ و في الحديث: «ان قيام العبد قربة إلى اللّه، و منهاة عن الإثم، و تكفير للسيئات، و مطردة للداء عن الجسد». أما صلاة التجار المراءين، فإنها تأمر بالفحشاء و المنكر لأن السيئة تقود إلى مثلها، و كذلك الحسنة **وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ** عبدوا اللّه بالقلوب و الأجسام و الأموال.

فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ. المراد بالنفس أية نفس كانت و تكون في

الأرض أو في السماء، و المعنى لا أحد يعلم حقيقة ما أعد اللّه للمؤمنين العاملين من الأجر و الثواب الذي يغتبطون به و يفرحون.

و في الحديث الصحيح: «يقول اللّه تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، و لا أذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر، بله ما اطلعتكم عليه، اقرأوا ان شئتم: فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين».

أَ فَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ. جاء في كثير من التفاسير، منها جامع البيان للطبري، و البحر المحيط للأندلسي، و روح البيان لحقي: ان هذه الآية نزلت بالمدينة في علي بن أبي طالب و الوليد بن عقبة بن أبي معيط، و نختار النص الذي جاء في تفسير الطبري: «كان بين الوليد و بين علي كلام، فقال الوليد: أنا أبسط منك لسانا، و أحدّ منك سنانا، و أرد منك لكتيبة.

فقال علي: اسكت فإنك فاسق. فأنزل اللّه فيهما **أَ فَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً**

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ١٨٤

لا يَسْتَوُونَ .. لا و اللّه، ما استووا في الدنيا، و لا عند الموت، و لا في الآخرة».

أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى نُزُلاً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ.

هذا بيان للفرق بين المؤمنين الأتقياء و المجرمين الأشقياء، و انه تماما كالفرق بين الطيب و الخبيث، و الخير و الشر، و الجنة التي أعدها اللّه للمتقين، و النار التي أعدها للمجرمين **وَ أَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْواهُمُ النَّارُ كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها وَ قِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ** للمؤمنين جنات النعيم، و للفاسقين نار الجحيم، و تقدم مثله في الآية ٢٢ من سورة الحج ج ٥ ص ٣٢٠.

وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ. المراد بالعذاب الأدنى عذاب الدنيا كالقحط و الوباء و ما اليهما، ينذر اللّه به و بالحجج البالغة الغافلين و المتشاغلين بالباطل عن الحق ليتعظوا و يرتدعوا، و إلا أخذهم بالعذاب الأكبر: جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها هِيَ حَسْبُهُمْ وَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَ لَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ- ٦٨ التوبة.

و تجدر الاشارة إلى ان القادة و الولاة هم المصدر الأول للفساد و الشقاء، و في بعض الروايات: إذا كذب الولاة حبس المطر، و إذا جار السلطان هانت الدولة.

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ.

من رأى العظة و لم يتعظ فهو أعظم جرما من كل مجرم، و قد وعظهم اللّه سبحانه بلسان أنبيائه، ثم بالبأساء و الضراء، فقست قلوبهم و تمادوا في الظلم و الفساد، فانتقم اللّه منهم، و اللّه عزيز ذو انتقام.

[سورة السجده (٣٢): الآيات ٢٣ الى ٣٠]

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ وَ جَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ (٢٣) وَ جَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَ كانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥) أَ وَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ أَ فَلا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ وَ أَنْفُسُهُمْ أَ فَلا يُبْصِرُونَ (٢٧)

وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ انْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (٣٠)

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۱۸۵

اللغة:

الأرض الجرز هي اليابسة التي لا نبات فيها من العطش. و يوم الفتح هو يوم الفصل و الحكم بالحق، و المراد به يوم القيامة، قال تعالى: قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِّ- ٢٦ سبأ أي يحكم بيننا بالحق.

الإعراب:

فاعل يهد محذوف أي أو لم يهد اللّه لهم. و محل كم النصب بأهلكنا. و الزرع مصدر و المراد به اسم المفعول أي مزروع.

المعنى:

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ وَ جَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ. قال كثير من المفسرين: ان الهاء في لقائه يعود إلى موسى، و ان محمدا

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۱۸۶

يلتقي به في السماء ليلة المعراج .. و الصواب ان الهاء تعود إلى القرآن و ان النبي يتلقاه من اللّه لا من سواه، قال تعالى: وَ إِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ- ٦ النمل. و في كتب اللغة: تلقى الشيء بمعنى لقيه، و استقبله، و عليه يكون معنى الآية لقد أنزلنا اليك القرآن يا محمد كما أنزلنا التوراة على موسى، و لا ينبغي الشك في ذلك منك و لا من غيرك. أما نهي النبي عن الشك فقد تكلمنا عنه مرارا. انظر ج ٢ ص ٧٥.

وَ جَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَ كانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ. المراد بالأئمة هنا أنبياء بني إسرائيل كموسى و عيسى الذي ينتهي نسب أمه الى داود ..

و كل نبي اسرائيلي كان يلاقي من قومه ألوانا من الأذى و العناء، بل قتل الاسرائيليون العديد من أنبيائهم: وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ- ٦١ البقرة. و مع هذا صبروا و استمروا في تأدية رسالتهم، فاصبر أنت يا محمد على أذى قومك، و استمر في دعوتك **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.** تقدم في الآية ١١٣ من سورة البقرة و الآية ٩٣ من سورة يونس و الآية ١٢٤ من سورة النحل.

أَ وَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ أَ فَلا يَسْمَعُونَ. تقدم مثله في الآية ١٢٨ من سورة طه ج ٥ ص ٢٥٣ **أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ**- اليابسة- **فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ وَ أَنْفُسُهُمْ أَ فَلا يُبْصِرُونَ** كيف أحيا اللّه الأرض بعد موتها، و أنبت فيها من كل زوج بهيج يأكل منه الناس و الانعام؟ كذلك يحيي اللّه الموتى بعد أن تصبح ترابا و عظاما .. و تقدم هذا المعنى في العديد من الآيات. انظر تفسير الآية ٥ من سورة الحج ج ٥ ص ٣١١.

وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. هذا مثل: وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ- ٣٨ الأنبياء لأن المراد بالفتح هنا اليوم الذي يحكم فيه بالحق، و يؤيد ذلك قوله تعالى: **قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا** و عاندوا الحق في الحياة الدنيا (ايمانهم) في الآخرة حين يرون العذاب لأن هذا فرار من حريق الجحيم، و ليس إيمانا من القلب و إيقانا من العقل **وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ**

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۱۸۷

لا يمهلهم اللّه يوم القيامة لأنه أمهلهم في الدنيا طويلا فلم يبادروا الى التوبة و يغتنموا الفرصة قبل فواتها **فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ انْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ**. انهم يتربصون بك يا محمد ريب المنون .. فدعهم و شأنهم، و اصبر قليلا لترى حكم اللّه فيك و فيهم .. انه ناصرك و مخزيهم: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدىٰ وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ- ۳۳ التوبة.

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۱۸۸

سورة الأحزاب

مدنية و آياتها ۷۳.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

[سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۱ الى ۳]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

يٰا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَ لاٰ تُطِعِ الْكٰافِرِينَ وَ الْمُنٰافِقِينَ إِنَّ اللهَ كٰانَ عَلِيماً حَكِيماً (۱) وَ اتَّبِعْ مٰا يُوحىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللهَ كٰانَ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (۲) وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَ كَفىٰ بِاللهِ وَكِيلاً (۳)

المعنى:

أمر سبحانه في هذه الآيات نبيه الكريم، أمره بالتقوى و التوكل عليه و العمل بما أوحاه اليه، و نهاه عن طاعة الكافرين و المنافقين .. و تساءل المفسرون: ان النبي معصوم، فما هو المبرر لأمره بالطاعة، و نهيه عن المعصية؟

و أجاب بعضهم بأن هذا تأكيد لما عليه النبي (ص) من الطاعة و الانقياد.

و قال آخر: ان أبا سفيان طلب من رسول اللّه (ص) أن يكف عن سب الأصنام التي تعبدها قريش، و كان مع أبي سفيان جماعة من الكافرين و المنافقين، فنزل قوله تعالى: **وَ لاٰ تُطِعِ الْكٰافِرِينَ وَ الْمُنٰافِقِينَ** و قلنا نحن فيما تقدم: ان للأعلى أن يأمر بالطاعة، و ينهى عن المعصية من هو دونه حتى و لو كان معصوما و الآن نعطف على قولنا هذا ما يلي:

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۱۸۹

لا شيء أثقل على من لا يخشى اللّه من كلمة: «اتق اللّه» و لا عدو له أعدى و ألد من قائلها .. نقل عن عبد الملك بن مروان انه حين تولى الملك قال في خطبة العرش: «من قال لي بعد اليوم: اتق اللّه ضربت عنقه». أما من خاف مقام ربه و نهى النفس عن الهوى فهي عنده كلمة الحب و الإشفاق، و يتمنى لو سمعها في كل حين، حتى و لو كان معصوما من الخطايا و الذنوب، بل ان حبه لها و لسماعها من عصمته و عظمته .. ان العظيم يتهم نفسه بالتقصير مهما اجتهد ..

اذن، لا داعي للتأويل و التخريج .. هذا الى ان في أمر سيد الكونين بالتقوى حكمة بالغة و درسا عظيما لأصحاب الجاه و السلطان، و انهم مهما بلغوا من السمو و الرفعة فليسوا فوق أن يؤمروا بالعدل و التقوى، و في نهج البلاغة: من استثقل الحق أن يقال له، أو العدل أن يعرض عليه كان العمل بهما عليه أثقل.

[سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ٤ الى ٥]

مٰا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَ مٰا جَعَلَ أَزْوٰاجَكُمُ اللاّٰئِي تُظٰاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهٰاتِكُمْ وَ مٰا جَعَلَ أَدْعِيٰاءَكُمْ أَبْنٰاءَكُمْ

ذٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوٰاهِكُمْ وَ اللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَ هُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لِآبٰائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبٰاءَهُمْ فَإِخْوٰانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ مَوٰالِيكُمْ وَ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنٰاحٌ فِيمٰا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لٰكِنْ مٰا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَ كٰانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً (٥)

اللغة:

يقال: ظاهر من امرأته و تظاهر منها إذا قال لها: أنت عليّ كظهر أمي

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٩٠

و يأتي التفصيل في سورة المجادلة. و ادعياء جمع دعيّ و هو الذي يتبناه الإنسان.

و المراد بالسبيل هنا طريق الحق. و اقسط أعدل.

الإعراب:

اللائي صفة لأزواجكم، و هي جمع التي. ذلكم أي دعاءكم. و ما تعمدت عطف على فيما أخطأتم أي و لكن فيما تعمدت.

قلب واحد و ايمان واحد:

مٰا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ. و المرأة أيضا مثل الرجل، و خص سبحانه الرجل بالذكر لأنه أمر نبيه الكريم بتقوى الله، فناسب ان يعقب بعد هذا الأمر بأن الرجل لا يملك قلبين يتقي الله بأحدهما، و الناس بالآخر، و الغرض من ذلك أن يبين سبحانه ان الإنسان لا يستطيع أن يؤمن في وقت واحد بشيئين متناقضين، فيؤمن- مثلا- بدين يحرم الظلم و العدوان كالاسلام و المسيحية، و في نفس الوقت يستحل الظلم و العدوان إلا إذا كان له قلبان و وجهان و لسانان كأبناء الولايات المتحدة الأمريكية التي ينص قانونها الجديد على أن للأمريكي من رعاياها أن يتجنس بالجنسية الاسرائيلية، و يقاتل العرب باسم إسرائيل، و هو يحتفظ بجنسيته الأمريكية .. اللهم الا ان تكون إسرائيل قاعدة استعمارية عدوانية للولايات المتحدة، و ان الجنسية الاسرائيلية اسم بلا مسمى حتى الجنسية التي يحملها الحاكمون في إسرائيل، لأنهم مجندون كمرتزقة لحماية الاستعمار و الاحتكار. قال رجل للإمام علي (ع):

اني أحبك و أحب معاوية. فقال له الإمام: أنت أعور، فإما أن تعمى، و إما أن تشفى من العور.

و تسأل: ما رأيك فيمن يقول: أنا من الوجهة الدينية ألتزم بعقيدة الإسلام أو المسيحية، و من الوجهة السياسية ألتزم بسياسة الكتلة الشرقية أو الغربية، فهل يمكن الجمع بين هذين الالتزامين؟

الجواب: ان أي انسان يؤمن بالحق عن صدق و اخلاص يجوز له بل يجب

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٩١

عليه أن يؤيد كل من يقف موقفا يناصر فيه الحق و العدالة، سواء أ كان شرقيا أم غربيا، و لا يجوز له بحال أن يؤيد أحدا- كائنا من كان- تأييدا مطلقا و من غير قيد حتى و لو كان مبطلا، لأن الجمع بين الايمان بالحق و تأييد الباطل و أهله جمع بين المتناقضين، و هو محال بطبعه، و عليه فلا يمكن الجمع بين الالتزام بعقيدة الإسلام و بين الالتزام بأية سياسة أو أي مبدأ التزاما مطلقا و على كل حال.

هذا فيما يعود إلى الإسلام، أما فيما يعود إلى العقيدة المسيحية فندع الكلام للقساوسة الأحرار الذين عبروا عن غضبهم لرفض البابا الاجتماع بهم و اجتماعه في الوقت نفسه برواد الفضاء الأمريكيين، فقد قالوا في احتجاجهم: ان اجتماع

البابا بهؤلاء الرواد هو دليل واضح على الصلة الوثيقة الموجودة بين الكنيسة كمؤسسة دينية، و بين السلطة السياسية و الاقتصادية التي تقوم بعمليات الاضطهاد و الظلم ضد الأغلبية من البشر، و هي الصلة التي أعلن هؤلاء القساوسة انهم يكافحون من أجل القضاء عليها» «١».

وَ ما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللاَّئِي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ. كان الرجل في الجاهلية يطلّق امرأته بقوله: أنت عليّ كظهر أمي. فنهى الإسلام عن ذلك لأن الزوجة لا تصير أما بهذا القول، و أوجب الكفارة على قائله إذا توافرت الشروط التي يأتي بيانها في سورة المجادلة.

وَ ما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ. كان الرجل في الجاهلية يتبنى المولود من غيره، و يلحقه بنسبه، و يجري عليه أحكام الابن الحقيقي في كل شيء، و كان الناس يدعون هذا المولود باسم الذي تبناه دون اسم أبيه، فحرم اللّه التبني بهذه الآية **ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ** و القول لا يغير الواقع **وَ اللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَ هُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**. و القول الحق و السبيل القويم ان المتبنى لا يصير ابنا بالتبني، و لا الزوجة أما بالمظاهرة **ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ** الذين ولدوهم لا للذين تبنوهم **هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ**. ضمير «هو» يعود الى المصدر المتصيد من أدعوهم أي دعاؤكم إياهم لآبائهم أعدل عند اللّه.

فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ مَوالِيكُمْ. يطلق المولى على المنعم

---

(١). جريدة «الجمهورية» المصرية تاريخ ١٧- ١٠- ١٩٦٩.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٩٢

و المنعم عليه، و على القريب نسبا أو مودة، و المعنى ان جهلتم أبا المتبنى فقولوا:

هذا أخي في الدين أو مولاي إشارة الى المودة، أو مولى فلان ان كان رقا و أعتقه. و قال المفسرون و أهل السير: ان زيد بن حارثة سبي صغيرا، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد، و لما تزوجها رسول اللّه (ص) و هبته له، و بعد نزول الوحي على النبي (ص) دعاه إلى الإسلام فأسلم، و آخى بينه و بين عمه حمزة بن عبد المطلب. و جاء حارثة أبو زيد الى رسول اللّه (ص) و قال له: إما ان تبيع ابني زيدا، و اما ان تعتقه، فأعتقه الرسول، و قال له: اذهب حيث شئت، فأبى أن يفارق رسول اللّه، و كان الناس يدعونه ابن محمد (ص) إلى أن نزل القرآن بإبطال التبني.

وَ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَ كانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً. من دعا إنسانا إلى غير أبيه، و هو يرى انه أبوه فلا بأس عليه، و إنما الإثم على من علم و تعمد. قال رسول اللّه (ص): «رفع عن أمتي الخطأ و النسيان و ما استكرهوا عليه و ما لا يعلمون و ما لا يطيقون و ما اضطروا عليه» شريطة أن لا يقع ذلك عن تقصير و إهمال.

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٦ الى ٨]

النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ أَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُهاجِرِينَ إِلاَّ أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً (٦) وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً (٧) لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَ أَعَدَّ

لِلْكٰافِرِينَ عَذٰاباً أَلِيماً (٨)

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۱۹۳

الإعراب:

أمهاتهم على حذف مضاف، أي مثل أمهاتهم. و أولو الأرحام مبتدأ و بعضهم مبتدأ ثان و أولى خبره و الجملة خبر المبتدأ الأول. و المصدر من أن تفعلوا مبتدأ و خبره محذوف و الجملة في محل نصب على الاستثناء المنقطع، و التقدير و لكن فعلكم الى أوليائكم معروفا جائز.

هل النبي حاكم بأمره؟

اَلنَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ. للولاية معان تختلف باختلاف من تنسب اليه، فولاية اللّه سبحانه معناها السلطة و القوة التي لا تغلب، و معنى ولاية النبي الطاعة من غير اعتراض، و هذا المعنى هو المراد من قوله تعالى: **اَلنَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ**.

و تسأل: أليس معنى هذا ان النبي حاكم بأمره، و لا حرية معه لفرد أو جماعة؟ و كيف تجمع بين هذا و بين مبدأ الحرية التي هي حق طبيعي لكل انسان؟

الجواب: نجمع بينهما كما نجمع بين حرية الإنسان و طاعته للّه .. ان النبي لسان اللّه و بيانه: وَ مٰا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوىٰ إِنْ هُوَ إِلاّٰ وَحْيٌ يُوحىٰ- ٤ النجم.

و صحّ الحديث عن رسول اللّه (ص): «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به». فالتبعية و الطاعة لما جاء به من عند اللّه لا من عند نفسه .. هذا إلى أن الحر هو الذي يلتزم الطريق القويم، و يعمل بالحق و يتحمل مسؤوليته بإرادته، و يدافع عنه حسب طاقته، أما من يندفع وراء الرغبات غير مكترث بحسيب و رقيب فهو عبد الأهواء و الشهوات. قال فيلسوف شهير: «الحرية ليست فضيلة داخلية تسمح بأن نفصل أنفسنا عن المواقف الملحة، و انما هي القدرة على بناء مستقبل أفضل».

وَ أَزْوٰاجُهُ أُمَّهٰاتُهُمْ. ان لأزواج النبي (ص) من الاحترام و حرمة الزواج بهن من بعده تماما ما للأمهات، و ما عدا ذلك فهن و الأجنبيات سواء **وَ أُولُوا الْأَرْحٰامِ بَعْضُهُمْ أَوْلىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتٰابِ اللّٰهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُهٰاجِرِينَ**. تقدم في

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۱۹۴

الآية ٧٥ من سورة الأنفال ج ٣ ص ٥١٦ **إِلاّٰ أَنْ تَفْعَلُوا إِلىٰ أَوْلِيٰائِكُمْ مَعْرُوفاً**.

المراد بالمعروف هنا الوصية، و بالأولياء الأصدقاء و المعتقون و الأقارب غير الوارثين.

و المعنى ان الميراث هو لأقرب الناس إلى الميت، أما الوصية فهي للموصى له قريبا كان أم بعيدا **كٰانَ ذٰلِكَ فِي الْكِتٰابِ مَسْطُوراً** أي ان هذا الحكم ثابت عند اللّه و من عصاه فهو من الهالكين.

وَ إِذْ أَخَذْنٰا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثٰاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْرٰاهِيمَ وَ مُوسىٰ وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ. الخطاب في «منك» لمحمد (ص)، و المراد بالميثاق تبليغ رسالة اللّه على أكملها، و الصبر على ما يصيبهم في سبيلها .. و خص سبحانه بالذكر نوحا و ابراهيم و موسى و عيسى و محمدا بعد أن ذكر النبيين على وجه العموم، ذكرهم بالخصوص لأنهم أفضل

الأنبياء، و قدم محمدا لأنه أفضل الخمسة، و في الآية ٣٥ من سورة الأحقاف اشارة الى انهم من اولي العزم، و سبب هذه التسمية كما في بعض الروايات ان كل نبي بعد نوح كان تابعا لشريعته، ثم نسخت شريعة نوح بشريعة ابراهيم، و نسخت هذه بشريعة موسى، و شريعته بشريعة عيسى، ثم نسختها شريعة محمد (ص) التي لا تنسخ الى يوم القيامة حيث لا نبي بعده.

وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً. هذا الميثاق هو الأول بالذات، و أعاده سبحانه ليصفه بالمتانة و القوة، و قد وصف الميثاق بالغليظ في مواضع ثلاثة من كتابه العزيز:

الأول ميثاق الزواج: وَ أَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً- ٢١ النساء. الثاني الميثاق الذي أخذه على بني إسرائيل: **وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً**- ١٥٤ النساء.

الثالث الميثاق الذي أخذه على النبيين. و قد ذهل الشيخ محمود شلتوت عن ذلك حيث قال: «ان وصف الميثاق بالغليظ لم يرد في موضع من مواضعه- أي مواضع القرآن- إلا في عقد الزواج». و العصمة للّه.

لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ. أرسل سبحانه الأنبياء و أخذ عليهم ميثاق التبليغ كي يسأل الصادقين: ما ذا أرادوا بالصدق؟ هل أرادوا به وجه اللّه، أو ليقول الناس: انهم صادقون و ما إلى ذلك من الأغراض الشخصية؟ قال الإمام جعفر الصادق (ع): «إذا سأل اللّه الإنسان عن صدقه على أي وجه قاله، فيجازى بحسبه، فكيف حال الكاذب؟». **وَ أَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً**.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٩٥

لما ذكر سبحانه الرسل قال: من كفر به فله عذاب أليم، و بالمقابل من آمن و عمل صالحا فله جنات النعيم.

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٩ الى ١٥]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَ كانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً (٩) إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيداً (١١) وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللهُ وَ رَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً (١٢) وَ إِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وَ ما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِراراً (١٣)

وَ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْها وَ ما تَلَبَّثُوا بِها إِلاَّ يَسِيراً (١٤) وَ لَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ وَ كانَ عَهْدُ اللهِ مَسْؤُلاً (١٥)

اللغة:

زاغت الأبصار و بلغت القلوب الحناجر كناية عن شدة الخوف. و ابتلي المؤمنون اختبروا و امتحنوا. و زلزلوا اضطربوا من الفزع. و المراد بالذين في قلوبهم مرض

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٩٦

ضعفاء العقل و الايمان الذين ينعقون مع كل ناعق. و يثرب من أسماء المدينة المنورة و من أسمائها أيضا طيبة. و بيوتنا عورة أي منكشفة للعدو و السارق.

الإعراب:

قال أبو البقاء: كتبت الظنونا بالألف في المصاحف لتناسب الآيات، و مثله الرسولا و السبيلا. و هنالك للبعيد، و هنا للقريب، و هناك للمتوسط. و يثرب لا تنصرف للعلمية و وزن الفعل. و يسيرا صفة لظرف زمان محذوف أي الا زمنا يسيرا. و لا يولون جواب عاهدوا لأنه بمعنى أقسموا.

ملخص قصة الأحزاب:

هذه الآيات و ما بعدها إلى الآية ٢٧ نزلت في غزوة الأحزاب، و تسمى أيضا وقعة الخندق، و خلاصتها ان نفرا من زعماء اليهود استحثوا قريشا و غيرها من قبائل العرب على حرب رسول اللّه (ص)، و رصدوا لذلك كثيرا من المال، و استطاعوا أن يحزبوا الأحزاب، و يؤلفوا جيشا ضخما لا عهد للجزيرة العربية بمثله من قبل، و زحف الجيش الهائل على المدينة بقيادة أبي سفيان.

و لما علم الرسول الأعظم (ص) بقصدهم أمر بحفر الخندق بإشارة من سلمان الفارسي، و عمل الرسول فيه بيده، و عمل معه المسلمون المخلصون، و كان سلمان يلهبهم حماسا بحديثه عما أعد اللّه للعاملين و المجاهدين، و لكن المنافقين كانوا يثبطون عزم رسول اللّه و يتسللون بغير علمه.

و انتهى حفر الخندق على أية حال، و أقبلت الأحزاب بألوفها المؤلفة، و لما رآهم المسلمون سيطر الخوف على كثير منهم، و اشتد عليهم البلاء، و أخذوا يظنون باللّه الظنون، و زاد من فزعهم و هلعهم ان بني قريظة، و هم قبيلة من اليهود، كانوا يساكنون رسول اللّه (ص) بالمدينة، و كان بينه و بينهم عهد و ميثاق أن لا يعينوا عليه عدوا، و ظلوا قائمين على العهد حتى جاء جيش الأحزاب، فنقضوا العهد و أعلنوا الحرب في أصعب الظروف و أشقها على المسلمين .. و هذا

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٩٧

هو شأن اليهود في كل زمان و مكان، يتذللون كالكلاب حينما لا تساعدهم الفرصة؟؟؟

على البغي و العدوان، فإذا سنحت عقروا و غدروا .. و بعث الرسول (ص) سعد ابن معاذ و جماعة من الصحابة إلى بني قريظة في محاولة لبقائهم على العهد، فأصروا على الغدر، فوقع المسلمون في حصار شديد يحيط بهم العدو من فوقهم و من أسفل منهم.

و في فقه السيرة للشيخ الغزالي: «أقبل عمرو بن ود و عكرمة بن أبي جهل و ضرار بن الخطاب حتى رأوا مكانا ضيقا من الخندق، فضربوا خيلهم فاقتحمته، و أحس المسلمون بالخطر الداهم، فأسرع فرسانهم يسدّون الثغر يقودهم علي بن أبي طالب، و قال علي لعمرو بن ود، و هو فارس شجاع معلم: يا عمرو انك عاهدت اللّه لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه.

قال: أجل. قال له علي: أدعوك إلى اللّه، إلى الإسلام. قال عمرو: لا حاجة لي بذلك. قال علي: أدعوك إلى النزال. فأجابه عمرو: و لم يا ابن أخي فواللّه ما أحب أن أقتلك- استصغارا لشأنه- فقال له علي: لكني و اللّه أحب أن أقتلك .. فحمي عمرو و اقتحم عن فرسه فعقره و ضرب وجهه، ثم أقبل على علي، فتنازلا و تجالدا، فقتله علي، و خرجت خيل المشركين من الخندق منهزمة حتى اقتحمته هاربة».

و لما شعر جيش الأحزاب انه لا سبيل إلى اقتحام الخندق أخذوا يصوبون سهامهم على المسلمين، فأصاب سهم منها أكحل سعد بن معاذ و جرحه جرحا بليغا، فأمر النبي (ص) ان يحمل إلى امرأة بالمدينة تدعى رفيدة كانت تداوي جرحى المسلمين لوجه اللّه. فقال سعد، و قد رأى جرحه المميت: اللهم ان كنت أبقيت من حرب قريش شيئا، فأبقني

لها فإنه لا قوم أحب إلي أن أجاهدهم من قوم آذوا رسول اللّه و كذبوه و أخرجوه، و ان كنت قد وضعت الحرب بيننا و بينهم فاجعله لي شهادة، و لا تمتني حتى تقرّ عيني من قريظة. و قد استجاب اللّه دعاءه، حيث حكّمه في بني قريظة، فعاقب رجالهم بالقتل، و نساءهم بالسبي. و يأتي التفصيل عند تفسير الآية ٢٦: فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَ تَأْسِرُونَ فَرِيقاً.

و دام الحصار بضعا و عشرين ليلة ليس فيها إلا الترامي بالنبل و الحجارة. و فجأة

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٩٨

هبت ريح عاتية دكت معسكر الأحزاب، و اقتلعت خيامهم، و أفسدت كل شيء، فانسحبوا مخذولين بقيادة أبي سفيان، و أيّد اللّه نبيه بنصره، و هتف يقول: لا إله إلا اللّه وحده، صدق وعده، و نصر عبده، و أعز جنده، و هزم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده.

و اتفق الرواة على أن هذه الغزوة كانت في السنة الخامسة من الهجرة، و اختلفوا في تعيين الشهر، فمن قائل: انه ذو القعدة، و قائل: انه شوال. هذا مجمل غزوة الأحزاب، و التفصيل فيما يلي من شرح الآيات:

المعنى:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَ كانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً. اذكروا أيها المؤمنون الذين كنتم مع رسول اللّه (ص) في غزوة الخندق تحيط بكم الأعداء من كل جانب، اذكروا ذلك و اشكروا إنعام اللّه عليكم بالخلاص و النصر حيث أرسل على أعدائكم ريحا عاتية **وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها** قال المفسرون: انها الملائكة. و يجوز أن تكون كناية عما ألقاه سبحانه في قلوب الأحزاب من الخوف و الهلع.

و في البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي: كان جيش الأحزاب يتألف من خمسة عشر ألفا، و المسلمون ثلاثة آلاف، و اتفق أهل التفاسير و السير ان صخرة ظهرت في بطن الخندق، فكسرت حديدهم و شقّت عليهم، فأخذ رسول اللّه (ص) المعول من سلمان، و ضرب به الصخرة ضربة صدعها، و لمعت من تحت المعول برقة، ثم ضربها ثانية، فلمعت برقة أخرى، و ثالثة فلمعت ثالثة. فقال رسول اللّه (ص): رأيت في البرقة الأولى مدائن كسرى، و في الثانية قصور قيصر، و في الثالثة قصور صنعاء، و أخبرني جبريل ان أمتي ظاهرة عليها جميعا فأبشروا.

و تحقق كل ما قاله سيد الكونين (ص).

إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ. المراد ان جيش الأحزاب حاصر عسكر المسلمين و لم يدع له منفذا، و قال جماعة من أهل التفسير: جاءت غطفان

تفسير الكاشف، ج٦، ص ١٩٩

و بنو قريظة و بنو النضير من اليهود من قبل المشرق، و جاءت قريش و بنو كنانة و أهل تهامة من قبل المغرب **وَ إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ**. هذا كناية عن شدة الخوف و الفزع **وَ تَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا**. ظن بعض من آمن ان اللّه لن ينصر دينه و نبيه، و قال بعض المنافقين: وعدنا محمد بكنوز كسرى و قيصر، و أحدنا اليوم لا يأمن على نفسه ان يذهب الى حاجته .. و ليس من شك انه لا عذر أبدا للمنافق، أما من آمن ثم تساءل بحرقة و قال: لما ذا لم يخسف اللّه الأرض بالظالمين، أو ينزل عليهم صاعقة من السماء، أما هذا فلا نستبعد انه معذور عند اللّه ما دام مؤمنا به في قرارة نفسه.

هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيداً. لا تظهر كوامن النفس على حقيقتها إلا عند الشدائد و الامتحان بالمخاوف و المكاره .. و كانت وقعة الخندق امتحانا قاسيا للمؤمن و المنافق على السواء حيث ظهر كل على حقيقته وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ و هم الذين أبطنوا الكفر و أظهروا الايمان وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ و هم أصحاب الايمان الضعيف الذين صدّقوا المنافقين من غير روية. قال هؤلاء و أولئك: ما وَعَدَنَا اللهُ وَ رَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً. هم لا يؤمنون باللّه و لا برسوله لأن المؤمن لا ينطق بمثل هذا الكفر، و انما قالوا هذا ليشككوا البسطاء و ضعاف العقول.

وَ إِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا. حين باشر النبي و الصحابة بحفر الخندق قال جماعة من المنافقين: و ما جدوى الخندق؟ انه لا يغني عن الحرب شيئا، قالوا هذا قبل أن تأتي الأحزاب، و لما جاءت قالوا للمقاتلين: لا طاقة لكم بهذا الجيش الجرار، و لا نجاة منه إلا بالفرار و الاستسلام ..

تذكرت و أنا أفسر هذه الآية عملاء الصهيونية و الاستعمار الذين ينشرون في هذه الأيام الهلع و الفزع من قوة إسرائيل، تذكرتهم حيث علمت ان لهم أشباها و نظائر في الزمان القديم، و ان للحرب النفسية جذورا عميقة في التاريخ، و ما هي من بدع الصهيونية و الاستعمار، بل شيء بال و عتيق لا ينخدع به إلا ساذج العقل و قاصر النظر.

وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ. كان بعض المنافقين

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٢٠٠

يخلقون المعاذير للتهرب من عسكر رسول اللّه (ص)، و يقولون له: ان بيوتنا منكشفة للصوص، فأذن لنا بحمايتها، فأكذبهم اللّه و كشف عن نفاقهم بقوله:

وَ ما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِراراً من الجهاد و نصرة الحق.

وَ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْها وَ ما تَلَبَّثُوا بِها إِلاَّ يَسِيراً).

ضمير عليهم يعود إلى المنافقين، و إلى أصحاب الايمان المستودع الذي لا قرار له، و ضمير أقطارها إلى المدينة، و المراد بالفتنة هنا الارتداد عن الدين. و المعنى لو دخلت جيوش الشرك المدينة و أحاطت بها من كل جانب، و قال المشركون للمنافقين و لمرضى القلوب: ارتدوا عن الإسلام و أعلنوا الشرك لاستجابوا على الفور من غير تردد، أو ترددوا قليلا، ثم استسلموا للقوة .. و بالبداهة ان المؤمن الحق لا يرتد عن عقيدته، بل يقتل عليها، و هو يعلم ان السعيد من سلم له دينه مهما كانت النتائج، كما هو شأن شهداء العقيدة الذين لا يبالون بسيف الجلاد.

وَ لَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ). تذرعوا بالأكاذيب للفرار من عسكر رسول اللّه (ص) بعد أن أعطوه العهود و المواثيق على أن يثبتوا في الجهاد بين يديه حتى الموت. و في تفسير الطبري: «ان بني حارثة و بني سلمة همّوا بالفشل يوم أحد، ثم عاهدوا اللّه على أن لا يعودوا لمثلها أبدا، فذكّرهم اللّه الآن بهذا العهد الذي أعطوه من أنفسهم». أنظر تفسير قوله تعالى: إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا- ١٢٢ آل عمران ج ٢ ص ١٤٩ وَ كانَ عَهْدُ اللهِ مَسْؤُلاً يوم القيامة عن الوفاء به: فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وَ مَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً- ١٠ الفتح.

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ١٦ الى ٢٠]

قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَ إِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَ لا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً (١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَ الْقائِلِينَ

لإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا وَ لا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمالَهُمْ وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً (١٩) يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَ إِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الْأَعْرابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ وَ لَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً (٢٠)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٠١

اللغة:

المعوقين المثبطين. و المراد بالبأس هنا القتال و الجهاد. و أشحة جمع شحيح، و المراد به من يبخل بالتضحية بالنفس و المال لنصرة الحق. سلقوكم آذوكم. ألسنة حداد قادرة على الكلام. لو انهم بادون أي لو أنهم من أهل البادية. و الأعراب هم أهل البادية من العرب.

الإعراب:

لا تمتعون إلا قليلا أي إلا زمنا قليلا. و هلم اسم فعل بمعنى أقبل و تعال عند أهل الحجاز، و تقال بلفظ واحد للمفرد و المثنى و الجمع و المذكر و المؤنث. و أشحة حال في الموضعين. كالذي الكاف بمعنى مثل صفة لمصدر محذوف أي تدور أعينهم دورانا مثل عين الذي يغشى عليه. الأحزاب مفعول أول ليحسبون و جملة لم يذهبوا مفعول ثان. و بادون جمع باد.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٠٢

المعنى:

(قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ). فروا من الجهاد خوفا من الموت، و ما ينجو من الموت من خافه، و لا يعطى البقاء من أحبه **(وَ إِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً)**. و ان سلمتم من القتل في ساحة الوغى فستلاقون حتفكم بعد قليل، ثم الى عذاب السعير، أما الشهداء فإلى جنات النعيم. قال الإمام علي (ع): «و الذي نفسي بيده لألف ضربة بالسيف أهون علي من ميتة على الفراش».

قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَ لا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً. و نفسره بقوله تعالى: قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً- ١١ الفتح.

و تقدم مثله في الآية ١١ من سورة الرعد ج ٤ ص ٣٨٦ **قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَ الْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا وَ لا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً**. اللّه سبحانه يعلم المنافقين، و انهم يثبطون الناس، و يقول بعضهم لبعض: تعالوا إلى الراحة و الدعة، مالنا و للقتال؟ و ان ينكشف أمرهم و تظهر دخيلتهم يمشوا الى القتال كالذي يساق الى الموت، و يقاتلوا لماما، و هم مضطربون متثاقلون .. و لهؤلاء أشباه و نظائر في كل عصر.

(أشحة عليكم) بالمال و نصرة الحق .. و كل بخل يعفو اللّه عنه إلا البخل بحق الجهاد و المال **فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ**. تعكس هذه الآية جبن المنافقين و خورهم عند القتال، و جرأتهم على الذنوب و الآثام و هم آمنون مطمئنون ترتعش منهم

القلوب، و تدور العيون في رؤوسهم فزعا و هلعا في ساحة الوغى و عند السلم و الأمن يطلقون ألسنتهم السلاط تنهش المؤمنين و المجاهدين. و في نهج البلاغة: «ان المنافق يتكلم بما أتى على لسانه لا يدري ما ذا له و ما ذا عليه».

و قد قال رسول اللّه (ص): «لا يستقيم ايمان عبد حتى يستقيم قلبه، و لا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه».

تفسير الكاشف، ج ۶، ص ۲۰۳

(أشحة على الخير). المراد بالخير هنا الغنيمة أي انهم عند البأس جبناء، أما عند توزيع الغنيمة فتعلو أصواتهم بالاحتجاج، و انهم أحق بها من الجميع **أُولٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا** بل أظهروا الايمان، و أضمروا الكفر، و قاتلوا معكم نفاقا و رياء **فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمٰالَهُمْ** أي أبطل قتالهم معكم لأنه لغير وجه اللّه، و في الحديث: من كانت هجرته إلى اللّه و رسوله، فهجرته الى اللّه و رسوله و من كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر اليه **وَ كٰانَ ذٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً**. ذلك إشارة الى إحباط قتالهم، و هو يسير على اللّه تعالى لأنه لا جور فيه و لا ظلم ما داموا منافقين مرائين.

يَحْسَبُونَ الْأَحْزٰابَ لَمْ يَذْهَبُوا .. ذهبت الأحزاب إلى غير رجعة، و مع هذا يأبى المنافقون أن يصدقوا، لا لشيء إلا لأنهم يتمنون أن تقضي الأحزاب على النبي و الصحابة، و قد صوّرت لهم أمنيتهم هذه ان الأحزاب ما زالت تحاصر المدينة، و انها ستقضي على المسلمين غدا أو بعد غد **وَ إِنْ يَأْتِ الْأَحْزٰابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بٰادُونَ فِي الْأَعْرٰابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبٰائِكُمْ**. و إذا تأكد المنافقون من هزيمة الأحزاب، ثم عادت إلى المدينة كرة ثانية تمنى المنافقون لو كانوا بعيدين عنها يقيمون في البادية مع أهلها يسألون كل قادم عما جرى على المسلمين **وَ لَوْ كٰانُوا فِيكُمْ مٰا قٰاتَلُوا إِلاّٰ قَلِيلاً**. هذا مثل قوله تعالى في الآية السابقة من هذا المقطع:

وَ لاٰ يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاّٰ قَلِيلاً.

[سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۲۱ الى ۲۷]

لَقَدْ كٰانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كٰانَ يَرْجُوا اللهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللهَ كَثِيراً (٢١) وَ لَمّٰا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزٰابَ قٰالُوا هٰذٰا مٰا وَعَدَنَا اللهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ اللهُ وَ رَسُولُهُ وَ مٰا زٰادَهُمْ إِلاّٰ إِيمٰاناً وَ تَسْلِيماً (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجٰالٌ صَدَقُوا مٰا عٰاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضىٰ نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ مٰا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) لِيَجْزِيَ اللهُ الصّٰادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَ يُعَذِّبَ الْمُنٰافِقِينَ إِنْ شٰاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كٰانَ غَفُوراً رَحِيماً (٢٤) وَ رَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنٰالُوا خَيْراً وَ كَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتٰالَ وَ كٰانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزاً (٢٥)

وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظٰاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ مِنْ صَيٰاصِيهِمْ وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَ تَأْسِرُونَ فَرِيقاً (٢٦) وَ أَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِيٰارَهُمْ وَ أَمْوٰالَهُمْ وَ أَرْضاً لَمْ تَطَؤُهٰا وَ كٰانَ اللهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (٢٧)

تفسير الكاشف، ج ۶، ص ۲۰۴

اللغة:

أسوة بضم الألف و كسرها قدوة. و قال صاحب مجمع البيان: «قضى نحبه أي مات أو قتل في سبيل اللّه». و ظاهروهم عاونوهم. و الصياصي جمع صيصة، و هي كل ما يمتنع به كالحصن و نحوه، و يقال لقرون البقر و الظباء صياصي.

الإعراب:

لمن كان يرجو متعلق بحسنة. و كثيرا صفة لمصدر محذوف أي ذكرا كثيرا.

و فاعل زادهم ضمير مستتر يعود الى البلاء. و ما عاهدوا اللّه (ما) اسم موصول في محل نصب بنزع الخافض أي صدقوا فيما عاهدوا اللّه عليه. و كفى هنا تتعدى الى مفعولين مثل كفاك اللّه شر الأعداء، و المؤمنين مفعول أول، و القتال مفعول ثان.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٠٥

المسلم على قسمين:

لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللهَ كَثِيراً. المراد بالاسوة الحسنة هنا الاقتداء برسول اللّه (ص). و **يَرْجُوا اللهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ** أي يأمل ثواب اللّه و نعيم الآخرة. و **ذَكَرَ اللهَ كَثِيراً)** كناية عن إقامة الفرائض الخمس. و الخطاب في «لكم» للذين انصرفوا عن رسول اللّه (ص) في وقعة الأحزاب، و القصد منه التوبيخ و التقريع لأنهم تركوا الرسول (ص) في ساعة العسرة، و هم يتظاهرون بالإسلام، فيصلّون مع المسلمين، و يدّعون الايمان باللّه و اليوم الآخر، و في معنى هذه الآية قوله تعالى: ما كانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ وَ لا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ- ١٢٠ التوبة ج ٤ ص ١١٦.

و تومئ الآية الى أن المسلم الحق هو الذي يقتدي بنبيه و لا يعصي له أمرا.

و تسأل: لقد اتفق الفقهاء على ان من قال: لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه، يعامل معاملة المسلم، سواء أطاع أم عصى؟

الجواب: أجل، انه يعامل معاملة المسلم في الحياة الدنيا من حيث الزواج و الإرث و ما اليهما، و لكن معاملته في هذه الحياة كمسلم شيء، و اعتباره مسلما عند اللّه و في يوم الحساب شيء آخر. و بكلمة أوضح، ان المسلم على قسمين: مسلم عند الناس لا عند اللّه، و هو الذي يقول: لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه، و يعصي اللّه و الرسول، و هذا يعامل معاملة المسلم في الدنيا فقط، و مسلم يقول:

لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه، و يطيع اللّه و الرسول، و هذا يعامل معاملة المسلم في الدنيا و الآخرة. قال الإمام علي (ع): الفقر و الغنى بعد العرض على اللّه.

وَ لَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ اللهُ وَ رَسُولُهُ وَ ما زادَهُمْ إِلَّا إِيماناً وَ تَسْلِيماً. ذكر المفسرون القدامى لهذه الآية معنيين، أرجحهما ان النبي (ص) كان قد وعد المسلمين من قبل بأنهم سيلاقون ألوانا من المحن و الشدائد، و ان أهل الكفر و الشرك سيتظاهرون على حربهم و استئصالهم، و قد جاء هذا الوعد في الآية ٢١٤ من سورة البقرة: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَ الضَّرَّاءُ ج ١ ص ٣١٩.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٠٦

و لما رأى المؤمنون جيش الأحزاب يحاصرهم من كل جانب: «قالوا هذا ما وعدنا اللّه و رسوله و صدق اللّه و رسوله» و ازدادوا ايمانا على ايمان، و طاعة على طاعة للّه و للرسول حيث رأوا بالعيان صدق الوعد و النبوءة، أما المنافقون و الذين في قلوبهم مرض فقد ازدادوا نفاقا و عنادا و قالوا: ما وَعَدَنَا اللهُ وَ رَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً.

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ من الجهاد و الثبات عند لقاء العدو حتى الموت **فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى**

نَحْبَهُ قبل وقعة الأحزاب كالذين استشهدوا يوم بدر و أحد وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ الشهادة أو النصر وَ ما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً. و أيضا المنافقون و الذين في قلوبهم مرض ما بدلوا بل ماتوا على النفاق.

و قال المفسرون: ان انس بن النضر غاب عن بدر، فشق ذلك عليه، و قال:

لقد غبت عن أول مشهد شهده رسول اللّه (ص)، و لئن أراني اللّه تعالى مشهدا مع رسول اللّه (ص) فيما بعد ليرينّ ما أصنع، فشهد يوم أحد، فاستقبله سعد ابن معاذ، فقال له: يا أبا عمرو إلى أين؟ قال: واها لريح الجنة، و اللّه اني لأجدها دون أحد .. فقاتل حتى قتل رضوان اللّه عليه، و قد وجد في جسده الشريف بضع و ثمانون ضربة و طعنة و رمية.

لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً و عادلا و حكيما، لا لغو و لا عبث في مشيئته و أفعاله، فهو يثيب من يستحق الثواب كأهل الصدق و الايمان، ان استمروا على صدقهم و ايمانهم، و يعذب أهل الكفر و النفاق ان أصروا على الكفر و الضلال و ان تابوا شملهم برحمته، و غفر لهم ما سلف، فقوله تعالى: وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ معناه انه يشاء تعذيبهم ان لم يتوبوا، و الدليل على ذلك قوله: أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً أي ان تابوا تاب عليهم و غفر لهم و شملهم برحمته.

وَ رَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ و هم الأحزاب الذين تجمعوا لقتل النبي (ص) بقيادة أبي سفيان لَمْ يَنالُوا خَيْراً أي ما زعمته الأحزاب انه خير، و هو الظفر بالنبي و من آمن معه وَ كَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ وَ كانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزاً.

تفسير الكاشف، ج ۶، ص ۲۰۷

قال أبو حيان الأندلسي في تفسيره البحر المحيط: «كفاهم القتال بإرسال الرياح و الجنود، و هم الملائكة، و قيل: المراد علي بن أبي طالب و من معه، برزوا للقتال، و قتل علي عمرو بن ود». و في الحديث: «لضربة علي يوم الخندق أفضل من عمل الثقلين». و في رواية ثانية: «لمبارزة علي لعمرو أفضل من عمل أمتي الى يوم القيامة». نقل هذه الرواية الحاكم في المستدرك ج ٣ ص ٣٢. (السيد محسن الأمين، أعيان الشيعة ج ٢ و الشيخ المظفر، دلائل الصدق ج ٢).

ملخص قصة بني قريظة:

وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ صَياصِيهِمْ وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَ تَأْسِرُونَ فَرِيقاً وَ أَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِيارَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ وَ أَرْضاً لَمْ تَطَؤُها وَ كانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً. المراد بأهل الكتاب هنا بنو قريظة خاصة. و ضمير «هم» في قوله تعالى «ظاهروهم» يعود الى الأحزاب، و صياصيهم حصون بني قريظة. أما قوله تعالى: وَ أَرْضاً لَمْ تَطَؤُها فهو بشارة بالفتوح الاسلامية.

قلنا فيما تقدم: ان بني قريظة، و هم قبيلة من اليهود، كانوا يساكنون النبي (ص) بالمدينة أو بضواحيها، و انه كان بينه و بينهم عهد أن لا يعينوا عليه عدوا، و لما حاصرت الأحزاب المدينة نقضوا العهد و أعلنوا الحرب، كما هو شأن اليهود قديما و حديثا .. و هاتان الآيتان اللتان نحن بصددهما تشيران الى ما حدث لبني قريظة بعد نقضهم العهد و هزيمة الأحزاب، و خلاصته:

لما كفى اللّه المؤمنين قتال الأحزاب نادى منادي رسول اللّه بالخروج الى بني قريظة، و لما وصل اليهم جيش المسلمين أغلقوا عليهم الحصن، فعرض النبي (ص) عليهم الإسلام على أن يكون لهم ما للمسلمين، و عليهم ما عليهم، و إلا حاصروهم حتى يستسلموا أو يحاربوا، فأشار عليهم رئيسهم كعب بن أسد أن يسلموا و يؤمنوا بمحمد (ص)، و قال: فواللّه لقد تبين لكم أنه نبي مرسل و انه الذي تجدونه في التوراة، فأبوا و قالوا: لا نفارق ديننا.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٠٨

و امتد الحصار خمسا و عشرين ليلة حتى أوشكوا على الهلاك من الجهد و الخوف، و عندئذ طلبوا من النبي (ص) باختيارهم و ملء إرادتهم أن ينزلوا على حكم سعد ابن معاذ، و هو رئيس الأوس، و كان بنو قريظة حلفاء لهم، فاستجاب النبي لطلبهم، و استدعى سعدا، و قال له: ان هؤلاء قد نزلوا على حكمك مختارين، فاحكم بما شئت. قال سعد: و حكمي نافذ عليهم؟ قال النبي (ص): نعم.

فحكم سعد أن تقتل رجالهم المقاتلون، و ان تقسم أموالهم، و تسبى ذراريهم و نساؤهم، و ان تكون ديارهم للمهاجرين دون الأنصار، لأن للأنصار ديارا، و لا ديار للمهاجرين.

فأمر النبي (ص) بقتل الرجال الذين كانوا يحملون السلاح، و من حث بني قريظة على نقض العهد و دبر المعركة ضد المسلمين كحيي بن أخطب زعيم بني النضير، ثم قسمت الأموال، و سبيت الذراري و النساء كما حكم سعد الذي اختاره بنو قريظة حكما. و الى هذا يشير قوله تعالى: **فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَ تَأْسِرُونَ فَرِيقاً**.

و قدمنا ان سهما من أسهم الأحزاب أصاب أكحل سعد، و انه طلب من اللّه ان لا يميته حتى يقر عينيه من بني قريظة .. و بعد أن نفّذ فيهم حكمه انفجر الجرح و انتقل إلى رحمة اللّه و رضوانه، و هو قرير العين بالشهادة و استجابة الدعاء.

هل ظلم محمد (ص) بني قريظة:

و تسأل: كيف أقر النبي (ص) حكم سعد، و فيه ما فيه من العنف و القسوة حتى اتخذ منه أعداء الإسلام وسيلة للطعن و التشهير؟

الجواب: ان محمدا لم يظلم بني قريظة، و انما أنفسهم كانوا يظلمون لأنهم اختاروا لها هذا المصير بملء ارادتهم، و يشهد لذلك:

أولا: انهم عاهدوا النبي و نكثوا العهد في أحرج الأوقات، كما هو دأب اليهود منذ القديم قال تعالى: أَ وَ كُلَّما عاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ- أي الرؤساء- ١٠٠ البقرة.

ثانيا: ان النبي (ص) عرض عليهم أن يدعهم و شأنهم شريطة أن يقولوا:

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٠٩

لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه، و نصحهم رئيسهم كعب بن أسد أن يستجيبوا و ينطقوا بكلمة الشهادة فرفضوا.

ثالثا: ان بني قريظة أبوا النزول على حكم رسول اللّه (ص)، و قبلوا حكم سعد من تلقاء أنفسهم.

رابعا: ان سعدا حكم بشريعتهم التي يدينون بها، و يحكمون على الناس بموجبها. قال العقاد: «انما دانهم سعد بنص التوراة الذي يؤمنون به كما جاء في التثنية: «حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح، و فتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير و يستعبد لك. و ان لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها، و إذا دفعها الرب إلهك إلى يدك، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، و أما النساء و الأطفال و البهائم و كل ما في المدينة كل غنيمة تغنمها لنفسك و تأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك إلهك ..

اصحاح ١٠ إلى ١٥ تثنية». (كتاب العبقريات الاسلامية ص ٢١٩ طبعة دار الفتوح بالقاهرة).

و هذا النص موجود في التوراة اصحاح ٢٠ من التثنية، لا اصحاح ١٠ إلى ١٥ كما جاء في العبقريات الاسلامية، و هو يدل بوضوح على أكثر مما حكم به سعد ابن معاذ على بني قريظة، لأنه يقول صراحة: ان استجابت المدينة إلى الصلح

فجميع أهلها عبيد مسخرون، و ان أبت وجب ذبح جميع الذكور بحد السيف المقاتلين منهم و غير المقاتلين، و نهب الأموال و سبي النساء و الأطفال.

و هناك نص آخر في التوراة لم يذكره العقاد، و هو أعظم جورا من النص الذي ذكره، لأنه يأمر بقتل جميع السكان، و لا يستثني النساء و الأطفال، ثم إحراق المدينة بجميع ما فيها بحيث لا يمكن بناؤها و تجديدها إلى الأبد .. فقد جاء في الاصحاح الثالث عشر من التثنية ما نصه بالحرف الواحد: «فضربا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف، و تحرّمها بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف، و تجمع كل أمتعتها إلى وسط ساحتها، و تحرق بالنار المدينة، و كل أمتعتها كاملة للرب إلهك، فتكون تلا إلى الأبد لا تبنى بعد».

فهل بعد هذا يقال: ان محمدا (ص) ظلم يهود بني قريظة، و ان سعدا جار في حكمه عليهم؟ .. فمن القضاء العدل أن تلزم كل انسان بما ألزم به نفسه،

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢١٠

و تحكم عليه بما يدين و يعتقد، و اليهود يعتقدون دينا، و يطبقون عملا ذبح الذكور، و نهب الأموال، و سبي النساء و الأطفال، و هدم البيوت و إحراق القرى و المدن من كل شعب من الشعوب دون أن يعلن عليهم حربا أو ينكث لهم عهدا أو يسيء اليهم بحرف تماما كما تفعل الآن إسرائيل مع شعب فلسطين .. فهل يعد ظالما من يحكم عليهم بتوراتهم، و يعاملهم بما عاملوا به الناس؟ مع العلم بأن النبي (ص) قتل المقاتلين منهم بعد أن نكثوا عهده و أعلنوا عليه الحرب، و هم يقتلون و يحرقون لا لشيء إلا لأن القتل و الحرق و الفساد دين لهم و طبيعة .. و لو حكم عليهم بالقتل و النهب و السبي دون أن ينكثوا العهد و يعلنوا الحرب لكان الحكم حقا و عدلا، لأنه حكم بما يدينون و يفعلون .. و اتفقت جميع الشرائع السماوية و الوضعية على ان من دان بدين لزمته أحكامه، و هنا يكمن السر في قول الرسول الأعظم (ص) لسعد: «حكمت فيهم بحكم اللّه من فوق سبعة أرقعة». جمع رقيع و هو اسم السماء.

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٢٨ الى ٣٠]

يٰا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوٰاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيٰاةَ الدُّنْيٰا وَ زِينَتَهٰا فَتَعٰالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَ أُسَرِّحْكُنَّ سَرٰاحاً جَمِيلاً (٢٨) وَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَ رَسُولَهُ وَ الدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنٰاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً (٢٩) يٰا نِسٰاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفٰاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضٰاعَفْ لَهَا الْعَذٰابُ ضِعْفَيْنِ وَ كٰانَ ذٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً (٣٠)

اللغة:

أسرحكن سراحا جميلا أطلقكن طلاقا بلا ضرر و خصومة. و المراد

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢١١

بالفاحشة هنا المعصية. و ضعف الشيء مثله في المقدار، أو مثله و زيادة غير محصورة.

المعنى:

شكا أزواج النبي (ص) له من قلة النفقة و الزينة، و طلبن ان يوسع عليهن مما أفاء اللّه عليه من الأنفال و الغنائم، فنزل قوله تعالى: **يٰا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوٰاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيٰاةَ الدُّنْيٰا وَ زِينَتَهٰا فَتَعٰالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَ أُسَرِّحْكُنَّ سَرٰاحاً جَمِيلاً وَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَ رَسُولَهُ وَ الدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنٰاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً**. أمر اللّه نبيه الكريم أن يقول لهن: اخترن واحدا من اثنين: إما الطلاق مع المتعة ان أردتن ما تريده النساء من الدنيا، و المتعة

هي عبارة عن منحة يقدمها المطلّق لمطلقته، و يراعى فيها حال الرجل يسرا و عسرا. انظر ج ١ ص ٣٦٦. و إما الحياة مع رسول اللّه (ص) على ان تصبرن على مكابدة الفقر و العوز في الدنيا، و جزاؤكن عند اللّه في الآخرة الأجر العظيم. فاختارت نساء النبي (ص) اللّه و الرسول و الدار الآخرة على الدنيا و زينتها، و تسمى هذه الآية آية التخيير.

النبي و كثرة الأزواج:

و آية التخيير دليل قاطع على تكذيب ما زعمه المتقولون من ان النبي (ص) استكثر من النساء لأهواء نفسية، لأن الحريص على الاستمتاع بالمرأة- كما قال مصطفى صادق الرافعي- لا يخيرها بين الحياة معه على ان تكابد الفقر و العوز الى آخر يوم، و بين الابتعاد عنه ان أرادت الحياة و زينتها، بل يخاطب عاطفتها و يقرب لها كل بعيد يشبع رغبتها من الزينة و المظاهر .. و في الأمثال: «فرشة العرس عالية».

و قال العقاد في كتاب العبقريات الاسلامية: «لو كانت لذات الحس هي التي سيطرت على زواج النبي بعد وفاة خديجة لكان الأحجى بإرضاء هذه الملذات ان يجمع اليه تسعا من الفتيات اللاتي اشتهرن بفتنة الجمال في مكة و المدينة و الجزيرة

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢١٢

العربية، فيسرعن اليه راضيات فخورات، و أولياء أمورهن أرضى منهن و أفخر بهذه المصاهرة التي لا تعلوها مصاهرة».

ثم ذكر العقاد زوجات النبي (ص) واحدة فواحدة، و بيّن السبب الموجب لزواجه بها، و قال: «الا ان المشهرين المتقولين نسوا كل حقيقة من حقائق هذه الحياة الزوجية، و نسوا أن محمدا اتسم بالطهر و العفة في شبابه، و انه بقي إلى نحو الخامسة و العشرين لم يتعسف في طلب الحلال، و هو ميسر له تيسره لكل فتى وسيم حسيب، و نسوا أنه لما تزوج في تلك السن كان زواجه بسيدة في نحو الأربعين، و انه اختار أحسابا في حاجة الى التآلف أو الرعاية، و لم يختر جمالا مطلوبا للمتاع، و نسوا ان الرجل الذي وصفوه بلذات الحس لم يكن يشبع في بعض أيامه من خبز الشعير، نسوا كل هذا، و هو ثابت في التاريخ، نسوه لأنهم أرادوا أن يعيبوا و يقولوا و ينحرفوا عن الحقيقة».

يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً. المراد بالفاحشة هنا المعصية من أي نوع تكون، و مبينة واضحة .. و لنساء النبي منزلة كريمة عند اللّه و الناس لصلتهن بالرسول الأعظم (ص)، فمن أقدمت منهن على المعصية فقد خاطرت بمكانتها، و استحقت من العذاب مثلي ما تستحقه غيرها، لأن اللّه سبحانه يحاسب الناس على قدر منازلهم، كما يحاسبهم على قدر عقولهم، و قد عاتب الأنبياء بما لا يعاتب به أحدا غيرهم.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢١٣

الجزء الثّاني و العشرون

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢١٥

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٣١ الى ٣٤]

وَ مَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَعْمَلْ صالِحاً نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ وَ أَعْتَدْنا لَها رِزْقاً كَرِيماً (٣١) يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ

مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَ قُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً (٣٢) وَ قَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَ لا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى وَ أَقِمْنَ الصَّلاةَ وَ آتِينَ الزَّكاةَ وَ أَطِعْنَ اللهَ وَ رَسُولَهُ إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (٣٣) وَ اذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللهِ وَ الْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كانَ لَطِيفاً خَبِيراً (٣٤)

اللغة:

القنوت الطاعة. و في قلبه مرض أي ريبة. و قولا معروفا بعيدا عن الريبة.

و قرن من الاستقرار. و التبرج اظهار الزينة. و المراد بالرجس هنا الذنب و المعصية.

الإعراب:

مرتين نائب مناب المفعول المطلق لأنه بمعنى مثلين. و قال كأحد و لم يقل كواحدة لأن (أحد) هنا بمعنى غير، أي لستن كغيركن من النساء. و المصدر من، ليذهب متعلق بيريد. و أهل البيت منادى أي يا أهل البيت.

المعنى:

وَ مَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَعْمَلْ صالِحاً نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ وَ أَعْتَدْنا لَها

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢١٦

رِزْقاً كَرِيماً. كما ان العذاب يضاعف لمن تتجرأ على معاصي اللّه من نساء النبي فإن الثواب يضاعف لمن تخافه و تتقيه **يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ**. يقول سبحانه لنساء النبي: أنتن فوق النساء كرامة و شرفا برسول اللّه ان اتقيتن معصية اللّه في القول و الفعل، و إلا انقطعت كل صلة بينكن و بين الرسول .. و قال الحافظ محمد بن أحمد الكلبي في التسهيل: «حصل لهن التفضيل بالتقوى على النساء إلا فاطمة بنت محمد (ص) و مريم بنت عمران و آسية بنت مزاحم».

فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَ قُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً وَ قَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَ لا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى. كان عصر النبي (ص) خير العصور، و مع هذا حذر سبحانه نساء النبي من لين الكلام مع الرجال، و الخروج من البيوت حاسرات متبرجات، كيلا يثرن الطمع في القلوب الفاسقة الفاجرة .. هذا، و هن من العفة و الصون فوق كل ريبة و شبهة، فكيف بعصرنا الذي قفزت فيه الأنثى من البيت الى المسابح و المسارح، و كشفت عن أنوثتها بأسلوب جنسي محموم؟

وَ أَقِمْنَ الصَّلاةَ لأنها تنهى عن التبرج و التخنث و غيرهما من المحرمات **وَ آتِينَ الزَّكاةَ** فهي تطهر الأموال كما تطهر الصلاة النفوس **وَ أَطِعْنَ اللهَ وَ رَسُولَهُ** في كل شيء، لا في خصوص الصلاة و الزكاة، و لا في ترك التبرج و الخضوع بالقول فحسب.

أهل البيت:

إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً. المراد بالرجس هنا الذنوب. و قد استدل الشيعة بهذه الآية على عصمة أهل البيت، و قالوا: انما أداة حصر تدل على ثبوت الطهارة من الذنوب لأهل البيت دون غيرهم، و لا معنى للعصمة إلا الطهارة من الذنوب.

و في صحيح مسلم القسم الثاني من الجزء الثاني ص ١١٦ طبعة ١٣٤٨ هـ ما نصه بالحرف: «قالت عائشة خرج النبي (ص) غداة و عليه مرط مرحل- برد من

تفسير الكاشف، ج۶، ص ٢١٧

برود اليمن- من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله ثم جاء الحسين فدخل معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علي فأدخله ثم قال: «**إِنَّمٰا يُرِيدُ اللّٰهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**». و مثله سندا و دلالة ما رواه الترمذي في صحيحه و الإمام أحمد في مسنده و غيرهما من أئمة الحديث من أهل السنة.

و في تفسير الطبري عن أبي سعيد الخدري الصحابي الجليل و أم سلمة زوجة الرسول (ص): «قالت: لما نزلت آية إنما يريد اللّه ليذهب عنكم الرجس أهل البيت دعا رسول اللّه (ص) عليا و فاطمة و حسنا و حسينا، و وضع عليهم كساء و قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي اللهم أذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا. قالت أم سلمة: أ لست منهم؟ قال: أنت إلى خير».

و مثله في تفسير البحر المحيط للأندلسي و التسهيل للحافظ و الدر المنثور للسيوطي و غيرها من التفاسير.

و في ج ١ ص ٨٨ نقلنا ما قاله محيي الدين بن عربي حول هذه الآية في الجزء الأول و الثاني من الفتوحات المكية، و ننقل الآن ما قاله عن أهل البيت في الجزء الرابع ص ١٣٩ طبعة دار الكتب العربية الكبرى بمصر، قال: «ان النبي (ص) و أهل بيته على السواء في مودتنا فيهم، فمن كره أهل بيته فقد كره النبي (ص)، فإنه واحد من أهل بيته، فمن خانهم فقد خان رسول اللّه (ص).

(وَ اذْكُرْنَ مٰا يُتْلىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيٰاتِ اللّٰهِ وَ الْحِكْمَةِ إِنَّ اللّٰهَ كٰانَ لَطِيفاً خَبِيراً).

المراد بالحكمة هنا السنة النبوية لاقترانها بكتاب اللّه و آياته، و المعنى اشكرن يا نساء النبي إنعام اللّه عليكن حيث جعلكن في بيوت تسمعن فيها تلاوة كتاب اللّه و سنة نبيه، و هي نور للعقول، و ربيع للقلوب.

و تسأل: ان سياق الآيات يدل على ان المراد بآية التطهير نساء النبي (ص)، فكيف أخرجهن عنها من نقلت عنهم من المفسرين و المحدثين؟

الجواب أولا: ان صاحب تفسير المنار نقل عن أستاذه الشيخ محمد عبده في ج ٢ ص ٤٥١ طبعة ثانية: «ان من عادة القرآن أن ينتقل بالإنسان من شأن إلى شأن آخر، ثم يعود الى مباحث المقصد الواحد المرة بعد المرة». و قال الإمام جعفر الصادق (ع): ان الآية من القرآن يكون أولها في شيء، و آخرها في شيء آخر .. و على هذا فلا يصح الاعتماد على دلالة السياق لآي الذكر الحكيم كقاعدة كلية.

تفسير الكاشف، ج۶، ص ٢١٨

ثانيا: لو سلمنا- جدلا- بصحة الاعتماد على دلالة السياق للآيات فإن قوله تعالى: «ليذهب عنكم .. و يطهركم» بضمير المذكر دون ضمير المؤنث هو نص صريح على اخراجهن من الآية. و ليس من شك ان دلالة النص مقدمة على دلالة السياق لأنها أقوى و أظهر.

ثالثا: ان المفسرين و المحدثين الذين ذكرناهم قد اعتمدوا في اخراجهن على الحديث الصحيح عن الرسول الأعظم (ص)، و قد اتفقت كلمة المسلمين على ان السنة النبوية تفسير و بيان لكتاب اللّه.

[سورة الأحزاب (٣٣): آية ٣٥]

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِمٰاتِ وَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنٰاتِ وَ الْقٰانِتِينَ وَ الْقٰانِتٰاتِ وَ الصّٰادِقِينَ وَ الصّٰادِقٰاتِ وَ الصّٰابِرِينَ وَ الصّٰابِرٰاتِ وَ الْخٰاشِعِينَ وَ الْخٰاشِعٰاتِ وَ الْمُتَصَدِّقِينَ وَ الْمُتَصَدِّقٰاتِ وَ الصّٰائِمِينَ وَ الصّٰائِمٰاتِ وَ الْحٰافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَ الْحٰافِظٰاتِ وَ الذّٰاكِرِينَ اللّٰهَ كَثِيراً وَ الذّٰاكِرٰاتِ أَعَدَّ اللّٰهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً (٣٥)

المعنى:

الإسلام اقرار للّه بالوحدانية، و لمحمد بالرسالة، و الايمان اقرار باللسان و عقد في الجنان و عمل بالأركان، و تدل الآية ١٤ من سورة الحجرات على الفرق بين الإسلام و الايمان: «قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا و لكن قولوا أسلمنا و لما يدخل الايمان في قلوبكم». و المراد بالقنوت هنا القيام بالطاعة و الدوام عليها، و بالصدق الإخلاص، و بالصبر تحمّل الصعاب و الشدائد من أجل الحق و نصرته،

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢١٩

و بالخشوع التواضع، و بالتصدق الإنفاق في سبيل اللّه، و الصيام معلوم، و كذلك حفظ الفرج عن الحرام، أما ذكر اللّه كثيرا فهو كناية عن المواظبة على الصلوات الخمس .. و من جمع هذه الصفات فله عند اللّه مقام كريم، و أجر عظيم ذكرا كان أم أنثى. أنظر ج ١ ص ٣٤٣ و ج ٢ ص ٤٤٦ فقرة «بين الرجل و المرأة».

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٣٦ الى ٤٠]

وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَ مَنْ يَعْصِ اللهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً (٣٦) وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَ اتَّقِ اللهَ وَ تُخْفِي فِي نَفْسِكَ ما اللهُ مُبْدِيهِ وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَ كانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً (٣٧) ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ كانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللهَ وَ كَفى بِاللهِ حَسِيباً (٣٩) ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَ لكِنْ رَسُولَ اللهِ وَ خاتَمَ النَّبِيِّينَ وَ كانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٤٠)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٢٠

اللغة:

قال أبو حيان الأندلسي: الخيرة مصدر من تخير على غير قياس كالطيرة من تطير. و الوطر الحاجة. و المراد بالحرج هنا البأس. و قدرا مقدورا أي قضاء مقضيا.

الإعراب:

قال سبحانه: «لهم الخيرة من أمرهم» و لم يقل لهما لأن كلا من مؤمن و مؤمنة وقع نكرة في سياق النفي، و هي تفيد العموم. و المصدر من أن تخشاه مجرور بباء محذوفة أي أحق بالخشية. و سنة منصوب على المصدرية أي سن اللّه سنة. و الذين يبلغون صفة للذين خلوا، و المراد بهم الأنبياء السابقون، و جملة و كان أمر اللّه معترضة. و حسيبا تمييز. و رسول اللّه خبر كان محذوفة أي و لكن كان محمد رسول اللّه.

هل اشتهى النبي زينب بنت جحش؟

كثر الكلام حول هذه الآيات من أنصار الإسلام و أعدائه .. طعن هؤلاء بعفة الرسول و نزاهته، و قالوا: اشتهى زينب بنت جحش الأسدية ابنة عمته أميمة، و مال اليها، و هي زوجة مولاه زيد بن حارثة، و أخفى ذلك خوفا من الناس لا خوفا من اللّه، و تشبثوا بقوله تعالى: **وَ تُخْفِي فِي نَفْسِكَ ما اللهُ مُبْدِيهِ وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ**. ورد

عليهم أنصار الإسلام بالحق و المنطق السليم، و ان كان البعض منهم سلك في التأويل مسلكا يضعه موضع التهمة بالدفاع عن دينه و عقيدته .. و نحن كأي مسلم يؤمن بعصمة نبيه، و يذهب عنها بدافع من دينه و عقيدته .. و لكن مع ذلك سنقف من هذه الآيات و تفسيرها موقفا محايدا، نلتزم فيه بظاهر اللفظ، لا نؤوّل و لا نخرج عن دلالة الآيات، و ندع الحكم للقارئ المنصف .. و قبل أن نشرع بالتفسير نمهد بما يلي:

كان زيد بن حارثة عبدا مملوكا لرسول اللّه (ص) .. و في ذات يوم جاء أبوه

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٢١

إلى الرسول، و طلب أن يعتق ابنه أو يبيعه له بأي ثمن شاء، فأعتقه نبي الرحمة لوجه اللّه و خيّره بين البقاء معه و الذهاب مع أبيه، فآثر زيد النبي على أبيه، و عندئذ قال أبوه حارثة: يا معشر قريش اشهدوا انه ليس ابني. فقال النبي (ص):

اشهدوا انه ابني .. فظن الناس ان النبي قد تبنى زيدا، و دعوه بعد ذلك بزيد ابن محمد.

و كان العرب قبل الإسلام يجرون أحكام الابن الحقيقي على الابن الدعي حتى في استحقاق الإرث، و حرمة النسب .. و من المتفق عليه عند العقلاء الأخيار منهم و الأشرار ان العادات الموروثة عن الآباء و الأجداد هي بمنزلة القانون و الديانة لا يجوز لأحد أن يخالفها كائنا من كان.

و شاءت حكمته تعالى أن يلغي هذه العادة، و ينهى عنها بالفعل لا بالقول، و ذلك بأن يتزوج زيد بن حارثة الذي كان بالأمس عبدا مملوكا لا يقدر على شيء، أن يتزوج من امرأة لها شأنها نسبا و جمالا، و لا يطمع في أمثالها إلا السادة الأشراف، و هي زينب بنت جحش ابنة أميمة بنت عبد المطلب جد الرسول الأعظم (ص)، و أن يقضي منها زيد حاجته، ثم يطلقها، و بعد انقضاء عدتها يتزوجها رسول اللّه (ص)، لأن ذلك أقوى و أبلغ في النهي عن هذه العادة من جهة، وكيلا يأنف الأشراف من الزواج بمطلقات الموالي و المستضعفين من جهة ثانية، و مع هذا و ذاك أن لا تأنف كريمة النسب أو وليها من الزواج بمن هو دونها حسبا و نسبا ..

قضى اللّه بذلك و قدره كما نص عليه سبحانه بقوله: «و كان أمر اللّه مفعولا ..

و كان أمر اللّه قدرا مقدورا». و أوحى سبحانه الى نبيه الكريم بهذا القضاء و القدر، و أمره أن يزوج زيدا من زينب، و ما كان لنبي إذا قضى اللّه أمرا أن تكون له الخيرة من أمره.

فتقدم النبي الى زينب، و خطبها لمولاه زيد، و أخفى في نفسه ما أوحى اللّه به اليه من أنه قد قضى و قدر أن يتزوجها هو بعد زيد، أخفى النبي هذا الوحي لأنه ثقيل على الناس لبعده عن طباعهم و تقاليدهم، و الى هذا الإخفاء أشار سبحانه بقوله: «و تخفي في نفسك ما اللّه مبديه و تخشى الناس و اللّه أحق أن تخشاه» ..

خطب النبي (ص) ابنة عمته لمولاه زيد، فأبى أخوها عبد اللّه أن تتزوج أخته من

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٢٢

غير كفؤ، و شاركته هي هذا الإباء، فنزل قوله تعالى: «و ما كان لمؤمن و لا مؤمنة إذا قضى اللّه و رسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم». فخضعت زينب و أخوها لقضاء اللّه و رسوله، و تم الزواج.

و بعد حين من الدهر فترت العلاقة بين الزوجين، فذهب زيد الى رسول اللّه يريد طلاق زينب، فنهاه و أمره بالصبر، و لكن أمر اللّه كان مفعولا، فتم الطلاق، و بعد العدة تزوجها الرسول، و تحطم نظام التبني و زالت آثاره .. و من غير

الرسول الأعظم يتحدى المجتمع في عاداته و تقاليده التي نشأ عليها و ورثها أبا عن جد! .. اذن، مسألة زواج النبي (ص) من زينب ليست مسألة شهوة و غرام و انما هي مسألة أمر اللّه و قضائه و قدره بنص الآيات الواضحات التي حاول المفترون تحريفها و تأويلها على أهوائهم .. و هذا هو النص ينطق بصراحة: **وَ كانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً. وَ كانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً**. «و تخفي في نفسك ما اللّه مبديه». و المراد بالأمر المفعول و المقدور و بالذي يعلنه اللّه و يبديه شيء واحد، و هو زواج النبي من زينب الذي أعلنه سبحانه و أبداه صراحة بقوله: «زوجناكها».

و لو كان النبي قد أضمر شهوتها في نفسه كما يقول المفترون لأظهر اللّه ذلك و أبداه لقوله: «ما اللّه مبديه» و لا شيء في الآيات يشير من قريب أو بعيد الى الشهوة التي ابتدعها المتقولون .. هذا، إلى ان زينب كانت في قبضة النبي (ص) و أطوع اليه من بنانه، و لو كانت المسألة مسألة شهوة و غرام لما زوّجها من مولاه زيد ليقضي منها وطره، ثم يتزوجها من بعده .. حاشا سيد الكونين من الشهوات و الأهواء، و تعالى عنها علوا كبيرا.

و بعد، فإن هذه الآيات قد تواردت بأجمعها على موضوع واحد، فهي متشابكة متماسكة، و لا يمكن بحال تجزئتها و الأخذ ببعضها دون بعض، فإما أن تؤخذ جملة، و إما أن تترك جملة، و من أخذ بقوله تعالى: **وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ** ككلام مستقل، و تجاهل قوله: **وَ كانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً** و قوله: «ما اللّه مبديه» فهو من الذين زاغ بهم الباطل عن جادة الحق عنادا له و لأهله .. و قد وضح بهذا التمهيد معنى الآيات، و عرف المقصود منها، لذلك نمر بها مرا سريعا نشير فيه إلى تطبيق الآيات على مراحل القصة من الزواج الأول إلى الزواج الثاني.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٢٢٣

المعنى:

(وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ). نزلت هذه الآية حين خطب النبي زينب بنت جحش لمولاه زيد ابن حارثة، و أنفت من الاقتران به هي و أخوها عبد اللّه لأن زيدا ليس لها بكفؤ، و المعنى ان هذا الزواج بأمر اللّه و رسوله، و لا ارادة لأحد من المؤمنين مع اللّه و الرسول، و من أبى فهو من الضالين الهالكين .. و عندئذ نزلت زينب و أخوها على حكم اللّه و الرسول، و تم الزواج.

(وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ) و هو زيد بن حارثة، أنعم اللّه عليه بالإسلام و صحبة الرسول، و أنعم الرسول عليه بالعتق **(أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَ اتَّقِ اللهَ)**. بعد حين من الزواج فترت العلاقة الزوجية بين زينب و زيد، و قال للنبي (ص): أريد طلاقها. فأوصاه بإمساكها و بتقوى اللّه في جميع أحواله .. و لكن النبي (ص) كان على يقين بأن زيدا سيطلق زينب، و انه سيتزوجها من بعده، إلا انه لم يبد ذلك خوفا من لوم اللائمين، فستره بقوله لزيد: أمسك عليك زوجك، و على هذا عاتبه اللّه بقوله:

(وَ تُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ). المراد بـ**(مَا اللهُ مُبْدِيهِ)** زواج النبي من زينب بعد طلاقها من زيد، و قد أبداه اللّه في الحال و في نفس الآية، أبداه و أظهره بقوله: **(فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها)**. هذا ما أخفاه محمد و أبداه اللّه فأين هي الشهوة التي أخفاها محمد في نفسه؟ و لما ذا سكت اللّه بعد أن قال: «ما اللّه مبديه»؟ .. أخفى النبي (ص) علمه بأن زيدا سيطلق زينب، و انها ستكون حليلة له بعد الطلاق، و على هذا الإخفاء عاتبه اللّه و قال له تلويحا لا تصريحا: من كان له مقامك عند اللّه فلا يهتم بلوم اللائمين و أقوال المتقولين.

(فَلَمَّا قَضىٰ زَيْدٌ مِنْهٰا وَطَراً زَوَّجْنٰاكَهٰا لِكَيْ لاٰ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوٰاجِ أَدْعِيٰائِهِمْ إِذٰا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَ كٰانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً). تزوج زيد من زينب و قضى منها حاجته، ثم طلقها و بعد العدة تزوجها الرسول (ص). و كان

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۲۲۴

زواج النبي منها بيانا من اللّه للمؤمنين و للناس أجمعين لرفع الإثم عنهم إذا تزوجوا حلائل أدعيائهم الذين قضوا حاجتهم منهن (مٰا كٰانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمٰا فَرَضَ اللهُ لَهُ). لقد أمر سبحانه نبيه الكريم أن يتزوج حليلة ابنه الدعي ليبطل بذلك عادة الجاهلية، فاستجاب النبي لأمر اللّه، و ما على النبي و لا على غيره من غضاضة في زواج حليلة ابن التبني و ان عابه الناس ما دام اللّه قد أحل ذلك.

(سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ كٰانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسٰالاٰتِ اللهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لاٰ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللهَ وَ كَفىٰ بِاللهِ حَسِيباً). المراد بالذين خلوا و بالذين يبلغون رسالات اللّه- الأنبياء السابقون، و المعنى ما من نبي من الأنبياء إلا و قد أرسله اللّه داعيا الى الحق و ناهيا عن الباطل، و منه العادات و التقاليد التي ما أنزل اللّه بها من سلطان، و قد بلغ الرسول رسالات ربه بأمانة و اخلاص، و ما هادن و لا داهن، و لم يخش إلا اللّه، و تحمّل من أجل ذلك الكثير من العناء و البلاء، و لك يا محمد فيمن مضى من إخوانك الأنبياء أسوة و عزاء. و على اللّه وحده حساب المكذبين و المعاندين.

(مٰا كٰانَ مُحَمَّدٌ أَبٰا أَحَدٍ مِنْ رِجٰالِكُمْ) بالنسب و الولادة كي تحرم مطلقة زيد ابن حارثة عليه .. و بالمناسبة: ولد لرسول اللّه (ص) أربعة ذكور ثلاثة من خديجة، و هم القاسم و الطيب و الطاهر، و قيل: ولدان لأن الطاهر هو الطيب.

و واحد من مارية القبطية و هو ابراهيم، و ماتوا جميعا في سن الطفولة، أما الحسن و الحسين فهما ولدا ابنته فاطمة من علي (ع)، و لكن الرسول قد اعتبرهما ولدين له حيث قال: ابناي هذان إمامان قاما أو قعدا، و قال أيضا: كل بني بنت ينتسبون إلى أبيهم إلا أولاد فاطمة فإني أنا أبوهم. انظر ج ٣ ص ٢١٩.

(وَ لٰكِنْ رَسُولَ اللهِ) و الرسول غير الأب، و ان كان أشد حرصا على المؤمنين و أكثر رحمة بهم من آبائهم و أمهاتهم (وَ خٰاتَمَ النَّبِيِّينَ) فلا نبي بعد محمد (ص)، و لا شريعة بعد شريعة الإسلام (وَ كٰانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً) و منه علمه تعالى حيث يجعل رسالته، و حيث يختمها بمحمد (ص).

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۲۲۵

لما ذا ختمت النبوة بمحمد؟

اتفق المسلمون قولا واحدا على انه لا وحي إلى أحد بعد محمد (ص)، و من أنكر ذلك فما هو بمسلم، و من ادعى النبوة بعد محمد وجب قتله، و من طلب الدليل على نبوة هذا الدعي محتملا الصدق في قوله فهو كافر، و في تفسير إسماعيل حقي «روح البيان»: «لو جاء بعد رسول اللّه (ص) نبي لجاء علي بن أبي طالب لأنه كان منه بمنزلة هرون من موسى».

و تسأل: لما ذا ختمت النبوة بمحمد؟

الجواب: ان الغاية الأولى و الأخيرة من بعثة النبي هي أن يبلغ قوله تعالى إلى عباده، و ما من شيء يريد اللّه سبحانه أن

يبلغه إلى عباده إلا و هو موجود في القرآن الكريم، قال تعالى: وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ- ٨٩ النحل.

و قال: ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ- ٣٨ الانعام. أي من شيء يتصل بوظيفة الأنبياء و اختصاصهم في هداية الخلق و إرشادهم الى مصالحهم التي تضمن لهم سعادة الدارين.

و لا وسيلة لإثبات هذه الحقيقة إلا بالتجربة التي لا تقبل الشك و الجدال، و نعني بها أن يدرس أهل الاختصاص القرآن دراسة علمية شاملة من ألفه إلى يائه، ثم يقارنوا بينه و بين غيره من كتب الأديان .. و نحن على يقين بأنهم ينتهون من ذلك إلى أمرين: الأول ان القرآن ببلاغته و عقيدته و شريعته يفوق جميع كتب الأديان.

الثاني انهم يجدون في القرآن جميع الأصول و المبادئ التي تتجاوب مع حاجات الناس و مصالحهم و تقدمهم إلى قيام الساعة. فما من نهضة علمية أو ثورة تحررية إلا و يدعو اليها القرآن و يباركها، و ما من تشريع يحتاج اليه الناس في دور من أدوار التاريخ إلا و يستطيع أهل العلم و الاجتهاد أن يستخرجوه من أحد أصول القرآن و مبادئه، و قد أذن اللّه و رسوله لمن له الأهلية و الكفاءة، أن يفرّع على أصول القرآن، و يستخرج منها الأحكام التي فيها خير و صلاح للناس بجهة من الجهات، و معنى هذا ان حكم المجتهد العادل هو حكم القرآن و الرسول، و لذا جاء في بعض الروايات ان الراد على حكمه كالراد على اللّه. و معنى هذا أيضا ان النبي موجود

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٢٢٦

بوجود القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه .. و قد أجاد ابن عربي في قوله: «من حفظ القرآن فقد أدرج النبوة بين جنبيه». طبعا على شرط التدبر و الإيمان الخالص.

و بعد، فان محمدا بشر يوحى اليه كنوح و ابراهيم و موسى و عيسى و غيرهم من الأنبياء، و لكن اللّه سبحانه قد خص محمدا بما لم يخص به أحدا من الأنبياء، مع العلم بأنه تعالى قد منح كل نبي جميع الفضائل، لأن النبوة أم الفضائل كلها ..

و لكن للفضل مراتب، فهناك فاضل و أفضل، و كامل و أكمل تماما مثل عالم و أعلم، و كريم و أكرم: وَ لَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ- ٥٥ الإسراء.

و قد خص اللّه محمدا (ص) بأسمى المراتب و أكمل صفات الكمال بحيث لا شيء فوقها إلا اللّه و صفات اللّه .. و من ذلك إكمال الوحي الذي أنزل اليه، إكماله من جميع الجهات، و الدليل هذا القرآن الذي فيه تبيان كل شيء مما يدخل في وظيفة رسل اللّه، فأين هي كتب الأنبياء؟ فليأت الجاحدون بواحد منها فيه تبيان كل شيء، أو يجرأ على القول: إنه ما فرط فيه من شيء .. و إلى هذا أشار خاتم النبيين و سيد المرسلين حيث قال: «ان مثلي و مثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه و جمّله إلا موضع لبنة، فجعل الناس يطوفون به و يعجبون له و يقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ فأنا اللبنة، و أنا خاتم النبيين».

و نختم الجواب بما قلناه في كتاب «إمامة علي و العقل»: و إذا قال قائل:

لما ذا كان محمد (ص) خاتم الأنبياء؟ أجبناه بأن محمدا و دين محمد قد استوفيا جميع صفات الكمال، و بلغا الغاية منها و النهاية، تماما كما بلغت الشمس الحد الأعلى من النور، فلا كوكب و لا كهرباء يمتلئ الكون بنورهما بعد كوكب الشمس .. كذلك لا نبي يأتي بجديد لخير الانسانية بعد محمد (ص)». و يتصل بهذا الموضوع ما كتبناه بعنوان «الدين و الدعوة إلى الحياة» في ج ٣ ص ٤٦٥ و عند تفسير الآية ٩ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٢٣ و الآية ٣٠ من سورة الروم.

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۲۲۷

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٤١ الى ٤٩]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً (٤١) وَ سَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَ مَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ كانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَ أَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً (٤٤) يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (٤٥)

وَ داعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَ سِراجاً مُنِيراً (٤٦) وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً (٤٧) وَ لا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَ الْمُنافِقِينَ وَ دَعْ أَذاهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَ كَفى بِاللهِ وَكِيلاً (٤٨) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها فَمَتِّعُوهُنَّ وَ سَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلاً (٤٩)

اللغة:

الصلاة من اللّه المغفرة و الرحمة، و المراد بالنكاح هنا عقد الزواج، و بالمس الدخول، و بالمتعة العطية.

الإعراب:

و ملائكته عطف على الضمير المستتر في يصلي. و شاهدا حال. و من عدة (من) زائدة إعرابا وعدة مبتدأ مؤخر، و لكم خبر مقدم. و جملة تعتدونها صفة لعدة.

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۲۲۸

المعنى:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً وَ سَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً). هذا أمر بالمواظبة على الصلوات الخمس، و ذكر اللّه أحسن الذكر في سائر الأحوال **(هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَ مَلائِكَتُهُ)**. الصلاة من اللّه على المؤمن معناها المغفرة و الرحمة، و من غيره معناها الدعاء بالمغفرة و الرحمة، و على هذا فلكل انسان أن يصلي و يسلّم على كل من آمن و عمل صالحا. و تجدر الاشارة إلى ان السنّة إذا ذكروا صحابيا جليلا أو إماما عظيما من أئمة المسلمين قالوا- في الغالب-:

رضي اللّه عنه، أما الشيعة فيقولون: عليه السلام، و مصدر القولين واحد، و هو القرآن، قال تعالى: رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ- ١٢٠ المائدة». و قال:

سَلامٌ عَلى إِلْياسِينَ- ١٣٠ الصافات. و قال أيضا: «هو الذي يصلي عليكم و ملائكته». و في تفسير روح البيان «قال بنو إسرائيل لموسى: أيصلي ربنا؟ فكبر ذلك عليه». و ليس هذا ببعيد على إسرائيل .. و بالخصوص إذا أمرت بالصلاة.

(لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ). المراد بالظلمات هنا ظلمات الجحيم، و بالنور نور النعيم أي ان اللّه و ملائكته يصلّون على المؤمنين ليبعدوا عن عذاب السعير، و يدخلوا في روح و ريحان. و قيل: المراد بالظلمات ظلمات الكفر، و بالنور نور الايمان. و لا يتفق هذا مع قوله تعالى: **(وَ كانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً)** و أيضا لا يصلي اللّه و ملائكته على الكافرين ليخرجهم إلى الايمان.

(تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَ أَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً). تقدم في الآية ١٠ من سورة يونس ج ٤ ص ١٣٧ و الآية ٢٣ من

سورة ابراهيم.

(يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً وَ داعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ). أرسل اللّه محمدا (ص) داعيا إلى الحق، و زوده بالحجج الكافية الوافية مبشرا من أطاع بالجنة، و منذرا من عصى بعذاب أليم .. و سيشهد غدا على هذا بأنه أعرض و تولى، و لذاك بأنه سمع و أطاع. و في نهج البلاغة: أرسله داعيا إلى الحق و شاهدا على الخلق، فبلّغ رسالات ربه غير و ان و لا مقصر، و جاهد في اللّه أعداءه غير

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٢٩

واهن و لا معذّر- أي لم يدع لأحد عذرا- امام من اتقى، و بصر من اهتدى **(وَ سِراجاً مُنِيراً)** يهتدي به التائهون الى شاطئ السلام و الأمان.

(وَ لا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَ الْمُنافِقِينَ) تقدم بالحرف في أول هذه السورة مع التفسير و السؤال عن وجه النهي و جوابه (ودع أذاهم). النبي (ص) لم يؤذهم، و لكن المشركين هم الذين آذوه حتى قال: ما أوذي نبي بمثل ما أوذيت. و عليه يكون المعنى أعرض عنهم، و لا تهتم بجهلهم و سفههم **وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَ كَفى بِاللهِ وَكِيلاً**.

في نهج البلاغة: من توكل على اللّه كفاه، و من سأله أعطاه، و من أقرضه قضاه، و من شكره جزاه.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها فَمَتِّعُوهُنَّ وَ سَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلاً. المتعة بضم الميم و كسرها اسم للتمتع في اللغة، و في الشرع هي عبارة عن منحة يقدمها المطلق لمطلقته بحسب حاله يسرا و عسرا .. و لا عدة للمطلقة قبل الدخول، و أيضا لا تجب لها المتعة على المطلق ان استحقت عليه نصف المهر، و إلا وجبت المتعة. انظر ج ١ ص ٣٦٦.

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٥٠ الى ٥٢]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَ ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفاءَ اللهُ عَلَيْكَ وَ بَناتِ عَمِّكَ وَ بَناتِ عَمَّاتِكَ وَ بَناتِ خالِكَ وَ بَناتِ خالاتِكَ اللاَّتِي هاجَرْنَ مَعَكَ وَ امْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ وَ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَ كانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً (٥٠) تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَ تُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ وَ مَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَيْكَ ذلِكَ أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَ لا يَحْزَنَّ وَ يَرْضَيْنَ بِما آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَ اللهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَ كانَ اللهُ عَلِيماً حَلِيماً (٥١) لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ وَ لا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَ كانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً (٥٢)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٣٠

اللغة:

أجورهن مهورهن. و ما ملكت يمينك سهمك من الغنائم. و ترجي تبعد و تعزل.

و تؤوي تضم.

الإعراب:

و امرأة عطف على أزواجك أي و أحللنا لك امرأة. و خالصة حال من الضمير المستتر بوهبت. و لكيلا متعلق بخالصة. و

المصدر من ان تقر مجرور بإلى محذوفة و المصدر المجرور متعلق بأدنى. و كلهن تأكيد لنون يرضين.

المعنى:

ذكر سبحانه في هذه الآيات أنواع النساء التي تحل للنبي (ص)، و ترك له الخيار في أن يهجر من يشاء منهن، و يعاشر من يشاء، ثم حرم عليه أن يزيد على اللاتي عنده أو يبدل امرأة مكان امرأة، و كان في عصمته حينذاك تسع، و التفصيل فيما يلي:

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٢٣١

١- **يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ**. المراد بالأجور هنا المهور، و الإيتاء يكون بأداء المهر، و يكون بالالتزام به في الذمة، و تومئ الآية إلى أن للنبي أن يتزوج بأي عدد شاء، و هذا من خصائصه.

و تسأل: ان عقد الزواج يصح حتى و لو لم يذكر فيه المهر، فلما ذا قيد سبحانه التحليل بالمهر؟

الجواب: ان القيد هنا هو الالتزام بأداء ما تستحقه الزوجة من المهر، لا بذكر المهر في متن العقد، و التي لم يسمّ لها مهر في العقد تستحق مهر أمثالها ان دخل بها الزوج .. و كان مهر نساء النبي (ص) خمسمائة درهم، و قدّر بـ ٢٥ ليرة ذهبية.

٢- **وَ ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفاءَ اللهُ عَلَيْكَ**. من الفيء السبايا اللاتي كان يغنمها المسلمون بالحرب مع المشركين، و تسمى السراري، و قد أباحها اللّه للنبي الكريم و لأمته بغير عدد.

٣- **وَ بَناتِ عَمِّكَ وَ بَناتِ عَمَّاتِكَ وَ بَناتِ خالِكَ وَ بَناتِ خالاتِكَ اللاَّتِي هاجَرْنَ مَعَكَ**. و تسأل: ان بنات الأعمام و العمات و الأخوال و الخالات يدخلن في النوع الأول من النساء، فما هو الغرض من ذكرهن بالخصوص؟

الجواب: غير بعيد أن يكون ذكرهن بالخصوص للتنبيه الى ان الأليق بمقام الرسول أن يتزوج من القرشيات اللاتي هاجرن من دار الكفر الى دار الإسلام، أما المؤمنات منهن غير المهاجرات فالأولى ترك الزواج بهن.

سؤال ثان: ذكر أهل السير ان للنبي (ص) عشرة أعمام، و هم: العباس و حمزة و عبد اللّه و أبو طالب و الزبير و الحارث و حجلا و المقوم و ضرار و أبو لهب، و ست عمات، و هن صفية و أم حكيم البيضاء و عاتكة و أميمة و أروى و برة (السيرة النبوية لابن هشام). و قالوا: ان النبي (ص) لم يكن له خال و لا خالة لأن أمه آمنة بنت وهب (ع) لا أخ لها و لا أخت. (تفسير روح البيان). اذن، ما هو الوجه لقوله تعالى: **وَ بَناتِ خالِكَ وَ بَناتِ خالاتِكَ**؟

الجواب: المراد بأخوال النبي (ص) و خالاته عشيرة أمه بنو زهرة، و كانوا يقولون: نحن أخوال النبي.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٢٣٢

٤- **وَ امْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ**. من خصائص النبي (ص) ان يتزوج امرأة- ان شاء- وهبت له نفسها بلا مهر شريطة أن تكون مؤمنة .. أجل، يجوز لغيره أن يتزوج بمهر، ثم تهبه الزوجة مهرها كما يهب أي انسان لمن يشاء ما يشاء من المال.

(قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ وَ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَ كانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً.

حدد سبحانه للمؤمنين عدد الأزواج الأحرار، و اعتبر شروطا خاصة في نكاح الجواري، و حرم عليهم من وهبت لهم نفسها بلا مهر، و أطلق ذلك للرسول لكيلا يكون عليه حرج فيما أراد من النساء، و للدلالة أيضا على عظيم منزلته و مكافأة له على جهوده، و اللّه سبحانه أعلم بما يصلح الناس، و غفور للمؤمنين، و رحيم بهم.

تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَ تُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ. في الآية السابقة أطلق سبحانه لنبيه الكريم الحرية في عدد الزوجات،

و في هذه الآية جعل له الخيار في هجر من يشاء و معاشرة من أراد منهن **وَ مَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَيْكَ**. و له أيضا أن يعود إلى معاشرة من هجرها، و يهجر من عاشرها، و بتعبير بعض المتفاصحين له أن يقلب المقدم مؤخرا، و المؤخر مقدما.

ذلِكَ أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَ لا يَحْزَنَّ وَ يَرْضَيْنَ بِما آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ. ذلك اشارة الى تفويض الأمر الى مشيئة النبي (ص)، و المعنى انهن متى علمن ان الأمر اليك لا إليهن في التسوية بينهن رضيت كل واحدة بما تعطيها من المعاشرة قليلا كان أو كثيرا لعلمها بأن ذلك تفضل منك، و ليس بواجب عليك .. و مع هذا فقد كان النبي يساوي بين أزواجه **وَ اللهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ** من الميل الى بعض الزوجات دون بعض، و اللّه سبحانه لا يؤاخذ على ما في القلوب من حب أو بغض، و انما يؤاخذ على العمل الذي لا يرتضيه، و هذا المعنى هو المراد بقوله:

وَ كانَ اللهُ عَلِيماً حَلِيماً.

لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ، وَ لا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ. ذكر المفسرون لهذه الآية ثلاثة معان أقربها الى دلالة الظاهر ان اللّه سبحانه بعد أن أباح للنبي أنواع النساء التي أشار اليها في الآية السابقة أوجب عليه

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٣٣

في هذه الآية الاكتفاء بمن في عصمته فعلا، و كنّ تسعا، و حرم عليه أن يطلق واحدة منهن و يتزوج مكانها أخرى حتى و لو أعجبته، و قوله تعالى: «و لو أعجبك حسنهن» يدل على ان للرجل أن ينظر الى من يريد زواجها، و قد أفتى بذلك الفقهاء استنادا الى هذه الآية و الى أحاديث عن الرسول الأعظم (ص). **إِلَّا ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ** مما أفاء اللّه عليك من المسبيات **وَ كانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً** حتى على السرائر و الضمائر: وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ- ٤ الحديد.

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٥٣ الى ٥٥]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلى طَعامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ وَ لكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَ لا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَ اللهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَ إِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَ قُلُوبِهِنَّ وَ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَ لا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذلِكُمْ كانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيماً (٥٣) إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٥٤) لا جُناحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبائِهِنَّ وَ لا أَبْنائِهِنَّ وَ لا إِخْوانِهِنَّ وَ لا أَبْناءِ إِخْوانِهِنَّ وَ لا أَبْناءِ أَخَواتِهِنَّ وَ لا نِسائِهِنَّ وَ لا ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ وَ اتَّقِينَ اللهَ إِنَّ اللهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً (٥٥)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٣٤

اللغة:

غير ناظرين أي غير منتظرين. و إناه بالقصر، و يجوز فيه المد، تقول: إناه و اناؤه، و المراد به هنا الطعام الذي يوضع في الإناء بعد نضجه. و طعمتم أكلتم.

فانتشروا انصرفوا. و لا مستأنسين لحديث أي لا تمكثوا بعد الطعام للسمر و الحديث و المراد بالمتاع هنا ما في البيت من أثاث و أدوات.

الإعراب:

المصدر من أن يؤذن لكم في موضع الحال أي إلا مأذونا لكم. و إلى طعام متعلق بيؤذن. و غير ناظرين حال من فاعل تدخلوا. و لا مستأنسين عطف على غير ناظرين أي غير ناظرين و لا مستأنسين. ان ذلكم كان يؤذي النبي «ذلكم» إشارة الى المكوث. و ذلكم أطهر، اشارة إلى سؤال المتاع من وراء حجاب. و ان ذلكم كان عند اللّه عظيما، «ذلكم» إشارة الى نكاح أزواج النبي من بعده.

المعنى:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلى طَعامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ وَ لكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَ لا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ.

أي لا تمكثوا بعد الطعام إطلاقا، لا للاستئناس بالحديث و لا لغيره، و إنما ذكر سبحانه الاستئناس بالحديث لأن المكوث في الغالب يكون لهذه للغاية .. و يومئ ظاهر الآية إلى ان بعض الصحابة كان يدخل بيوت النبي (ص) من غير اذن جريا على عادة الجاهلية، و انه كان إذا رأى طعاما يوقد عليه في بيت النبي ينتظره للأكل، و انه كان يجلس بعد الطعام للحديث و السمر .. و ليس من شك ان هذا النوع من التطفل و سوء الأدب يؤذي كل انسان نبيا كان أو غير نبي، و من أجل هذا أدّب النبي الصحابة و غيرهم بأن لا يدخلوا أي بيت من البيوت إلا بعد الإذن من أهله- و تقدمت الاشارة الى ذلك في الآية ٢٨ من سورة النور-

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٢٣٥

و أن لا يقصدوه من أجل الطعام إلا بعد الدعوة على أن يأتوه بعد إعداد الطعام، و لا يتخلفوا بعد الانتهاء منه .. و لا يختص ذلك ببيت النبي وحده، و إنما ذكره سبحانه لأنه السبب الموجب لنزول الآية، و قلنا أكثر من مرة: ان سبب النزول لا يخصص عموم الآية.

إِنَّ ذلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَ اللّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ. المراد بالحق الذي استحيا منه النبي (ص) حقه الشخصي، و هو إخراج الثقلاء و المتطفلين من بيته، سكت النبي عنه حياء منهم، فنبه سبحانه الى ان بقاءهم بعد العام يؤذي النبي، و كذلك دخولهم على بيته من غير اذن، و في الحديث: الحياء شعبة من الإيمان، و من لا حياء له لا إيمان له. و في حديث آخر: لم يبق من أمثال الأنبياء إلا قول الناس: إذا لم تستح فاصنع ما شئت. و قد جاء في وصف النبي:

انه كان أشد حياء من العذراء في خدرها، و في نهج البلاغة: لا إيمان كالحياء و الصبر، و كان العرب يمدحون العظيم بالحياء، قال الفرزدق في مدح الإمام زين العابدين (ع):

يغضي حياء و يغضى من مهابته فلا يكلم إلا حين يبتسم

و من الطريف ما جاء في محاضرات الأدباء للأصفهاني: ان طفيليا عوتب على تطفله، فقال: لقد تطفل بنو إسرائيل على اللّه، ألا نتطفل نحن على الناس؟.

وَ إِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَ قُلُوبِهِنَّ. ضمير «هن» يعود لأزواج

النبي (ص)، أما ذكر المتاع فهو من باب المثال، لا من باب التخصيص به و نفي الحكم عن غيره، و يدل على ذلك قوله تعالى: ذٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَ قُلُوبِهِنَّ حيث يشعر بأن الاختلاط و إزالة الحجاب بين النساء و الرجال يؤدي الى الفساد و الفتنة، و معنى هذا ان الاختلاط محرم، أو ان الأولى تركه- على الأقل- و بهذا يتبين معنا ان الاختلاط سبب لاثارة الغريزة الجنسية، و ليس سببا لتهذيبها و كبح جماحها كما يدعي من يقول: قال اللّه و أقول! ... «و من أصدق من اللّه حديثا».

وَ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَ لا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذٰلِكُمْ كانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيماً.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٢٣٦

هذا الحكم من خصائص الرسول الأعظم (ص) وحده لأن أزواجه بمنزلة الأمهات للمؤمنين. و في تفسير الرازي، و روح البيان لإسماعيل حقي: «ان هذه الآية نزلت حين قال طلحة بن عبيد اللّه التيمي:

لئن مات محمد (ص) لأتزوجن عائشة» .. و يؤيد ذلك قوله تعالى: إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً. فإنه تهديد و وعيد لمن أعلن أو أضمر الزواج بنساء النبي (ص) من بعده.

لا جُناحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبائِهِنَّ وَ لا أَبْنائِهِنَّ وَ لا إِخْوانِهِنَّ وَ لا أَبْناءِ إِخْوانِهِنَّ وَ لا أَبْناءِ أَخَواتِهِنَّ وَ لا نِسائِهِنَّ وَ لا ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ وَ اتَّقِينَ اللهَ إِنَّ اللهَ كانَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً. بعد أن أمر سبحانه الرجال أن يخاطبوا النساء من وراء حجاب حين يسألونهن متاعا استثنى الآباء و الأبناء و الاخوة و أبناءهم و أبناء الأخوات و العبيد و النساء لأن المرأة لا يجب عليها أن تحتجب عن مثلها، و قال سبحانه: (نسائهن) لأن غير المؤمنات يصفن المؤمنات لرجالهن، و تقدم نظير ذلك في الآية ٣١ من سورة النور ج ٥ ص ٤١٧.

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٥٦ الى ٥٨]

إِنَّ اللهَ وَ مَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيماً (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً (٥٧) وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ بِغَيْرِ ما اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً (٥٨)

المعنى:

إِنَّ اللهَ وَ مَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٢٣٧

تَسْلِيماً. صلاة اللّه على النبي معناها الرضا و الرحمة و الثناء عليه بكل خير، و الصلاة عليه من الملائكة معناها التزكية، و من المؤمنين الدعاء بعلو المنزلة. فقد سئل الإمام الرضا (ع) عن معنى صلاة اللّه و الملائكة و المؤمنين على النبي؟ فقال: الصلاة من اللّه الرحمة، و من الملائكة التزكية، و من المؤمنين الدعاء .. و لا تنحصر الصلاة على النبي باللّه و الملائكة و المؤمنين برسالة محمد (ص)، فكل انسان يعمل بشيء من سنته أو يدرسها أو يستدل بها أو يدوّنها، أو يذكر فضيلة من فضائله فقد صلى عليه مؤمنا كان أم غير مؤمن، أراد ذلك أم لم يرد.

و قال الإمام جعفر الصادق (ع): ان صلاة الرجل على محمد مثل قوله:

سبحان اللّه و الحمد للّه و لا إله إلا اللّه و اللّه أكبر. يريد الإمام ان ثواب الصلاة على محمد تماما كثواب التسبيح و التحميد و التهليل و التكبير. و عن الرسول الأعظم (ص) انه قال: البخيل حقا من ذكرت عنده فلم يصلّ عليّ. اللهم صلّ

على محمد و آل محمد.

كيف نصلي عليك يا رسول اللّه؟

في صحيح البخاري ج ٨ باب «الصلاة على محمد»، و تفسير الطبري و الرازي و المراغي و غيرهم من المفسرين، و في كتب المحدثين أيضا: قيل: يا رسول اللّه كيف نصلي عليك؟ قال: قولوا اللهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صليت على ابراهيم و على آل ابراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على ابراهيم و على آل ابراهيم انك حميد مجيد.

و في تفسير «روح البيان» لإسماعيل حقي: «ينبغي أن يقول المصلي: اللهم صلّ على محمد و على آل محمد بإعادة كلمة «على» فإن أهل السنة التزموا إدخال «على» على الآل ردا على الشيعة فإنهم منعوا ذكر «على» بين النبي و آله». و نحن لا نجد أي فرق بين قول من قال: اللهم صلّ على محمد و آل محمد، و قول من قال: و على آل محمد، أما حديث: «من فصل بيني و بين آلي لم تنله شفاعتي» فاللّه أعلم بصحته. و قال الإمام الشافعي:

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٢٣٨

يا أهل بيت رسول اللّه حبكم فرض من اللّه في القرآن أنزله

كفاكم من عظيم القدر انكم من لا يصلّي عليكم لا صلاة له

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيٰا وَ الْآخِرَةِ وَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذٰاباً مُهِيناً

. المراد بإيذاء اللّه تعالى غضبه و نقمته، و السبب الموجب لغضبه الجحود و نسبة الشريك أو الولد اليه أو معصية حكم من أحكامه، و إيذاء الرسول يكون بإنكار رسالته أو إهمال سنته، أما اللعنة من اللّه فهي الطرد و الابعاد من رحمته، و من الناس الشتم و الدعاء بالسوء، و في نهج البلاغة لعن اللّه الآمرين بالمعروف التاركين له، و الناهين عن المنكر العاملين به.

وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنٰاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتٰاناً وَ إِثْماً مُبِيناً. بغير ما اكتسبوا أي بغير جناية يستحقون بها الإيذاء، و يكون الإيذاء بالغيبة و الكيد و الافتراء و ما اليه، و في الحديث: «المسلم من سلم الناس من يده و لسانه .. عز المؤمن بكفّ الأذى عن الناس .. و أذلّ الناس من أهان الناس».

و قال الإمام علي (ع): أسوأ الناس حالا من لم يثق بأحد لسوء ظنه، و لم يثق به أحد لسوء فعله.

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٥٩ الى ٦٢]

يٰا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوٰاجِكَ وَ بَنٰاتِكَ وَ نِسٰاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلاٰبِيبِهِنَّ ذٰلِكَ أَدْنىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلاٰ يُؤْذَيْنَ وَ كٰانَ اللهُ

غَفُوراً رَحِيماً (٥٩) لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ فِيها إِلاَّ قَلِيلاً (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَ قُتِّلُوا تَقْتِيلاً (٦١) سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً (٦٢)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٣٩

اللغة:

جلابيب جمع جلباب، و في معناه أقوال، منها انه رداء يغطي المرأة من رأسها الى قدميها، و منها انه الخمار الذي يغطي رأسها و وجهها، و على هذا صاحب مجمع البيان. و يدنين يسدلن. و المرجفون هم الذين يلفّقون الأكاذيب، و ينشرون الأباطيل، و يعرفون اليوم بالذين يثيرون الحرب النفسية. و الإغراء بالشيء التحريض عليه، و المراد هنا بنغرينك بهم نأمرك بقتلهم. و ثقفوا وجدوا. و خلوا مضوا.

الإعراب:

جملة يدنين مفعول قل. و ذلك أدنى مبتدأ و خبر، و المصدر من ان يعرفن مجرور بمن محذوفة. و لنغرينك اللام واقعة في جواب قسم محذوف. ثم لا يجاورونك عطف على لنغرينك. إلا قليلا صفة لمحذوف أي الا زمنا قليلا. و ملعونين حال من فاعل يجاورونك، أو منصوب على الذم و الشتم أي اشتم و أذم. و أينما في محل نصب بثقفوا، و هي تجزم فعلين الأول ثقفوا و الثاني أخذوا. و سنة اللّه منصوبة على المصدر أي سن اللّه ذلك سنة في الأمم الماضية.

المعنى:

مرّ معنا آيتان تدلان على وجوب الحجاب على النساء: الأولى قوله تعالى:

و لا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن الآية ٣١ من سورة النور ج ٥ ص ٤١٥. الثانية قوله تعالى: و إذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب الآية ٥٣ من سورة

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٤٠

الأحزاب، و أوضح من هاتين الآيتين قوله تعالى: **يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَ بَناتِكَ وَ نِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ** فإن قوله تعالى: «يدنين عليهن من جلابيبهن» عام يشمل الستر و الحجاب لجميع أجزاء البدن بما فيه الرأس و الوجه، و يؤيد هذا الشمول قوله سبحانه: «ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين».

فقد كانت المسلمات في أول الإسلام يخرجن من بيوتهن سافرات متبذلات على عادة الجاهلية، فطلب سبحانه من نبيه الكريم في هذه الآية أن يأمرهن بالستر و الحجاب، و الأمر يدل على الوجوب فيكون الحجاب واجبا .. أجل، لقد خرج من هذا العموم الوجه و الكفان لقوله تعالى: «و لا يبدين زينتهن إلا ما ظهر».

ذلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ بالعفة و الصون، فإن الحجاب يحجز بين المرأة المتحجبة و بين طمع أهل الفسق و الريب (فلا يؤذين) بالمعاكسات و النظرات الفاسقة **وَ كانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً** يغفر عما سلف، و يرحم من تاب و أناب.

لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ فِيها إِلاَّ قَلِيلاً. المنافقون هم الذين أضمروا الكفر و أظهروا الايمان، و المرجفون قوم من المنافقين كانوا ينشرون الدعايات المضللة ضد النبي (ص) و الصحابة، و يشككون ضعاف الايمان الذين عبّر عنهم سبحانه بقوله: **وَ الَّذِينَ فِي**

قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ. و الآية تهديد و وعيد بالقتل و النفي لأهل النفاق و الإرجاف و من يستمع اليهم إذا لم يكفوا عما هم عليه من الإضلال و الإفساد.

الحرب النفسية:

و في عصرنا يسمى الإرجاف بالحرب النفسية، و قد تفننت فيها قوى الشر، و بلغت الغاية من بث الأكاذيب و الأباطيل بكل وسيلة، بالصحف و الاذاعة و التلفزيون و أفلام السينما و الخطب و المنشورات و المدارس و الجامعات و الكتب و القصص و غيرها، و كررت هذه الأجهزة الأكذوبة الواحدة على مسامع الناس في كل يوم مرات و مرات حتى لا تجد الحقيقة مكانا لها عند الطيبين و المخلصين إلا إذا كانوا على وعي تام و علم مسبق بدعايات الاستعمار و الصهيونية و أساليبهما المضللة.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٤١

قرأت في جريدة «أخبار اليوم» المصرية عدد ١٣- ١٢- ٦٩: «ان للدعاية الاسرائيلية ٨٩٠ صحيفة في العالم لنشر الأخبار الكاذبة، بالاضافة الى سيطرة الصهيونية على كثير من أجهزة الاعلام بطريقة غير مباشرة كالتلفزيون و الراديو و الاعلانات .. الخ». و لا أدري: هل يدخل في هذا الإحصاء الصحف البيروتية التي لها صلة وثيقة بالاستعمار و الصهيونية أم لا؟ و مهما يكن فقد بدأت إسرائيل- و للّه الحمد- تحس بعنف الضربات القاسية من الأيدي العربية .. و انها لكفيلة بالقضاء على الدعايات التي تلفقها أمريكا و ربيبتها إسرائيل، و يذيعها العملاء بعد أن يقبضوا الثمن.

مَلْعُونِينَ أَيْنَمٰا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَ قُتِّلُوا تَقْتِيلاً. ملعونون على كل لسان لأن دينهم الدرهم و الدينار، و عملهم الغش و الكذب و الخداع .. و لا دواء لهم إلا القتل أينما كانوا لأنهم كالعضو الفاسد يفسد الجسم بكامله إذا لم يقطع منه **سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً**. المراد بسنّة اللّه هنا حكم اللّه سبحانه في الضالّ المضل، و هو القتل الذي شرعه، جلت حكمته، منذ الأزل، و سيبقى هذا الحكم الى الأبد من غير تبديل و تعديل.

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٦٣ الى ٦٩]

يَسْئَلُكَ النّٰاسُ عَنِ السّٰاعَةِ قُلْ إِنَّمٰا عِلْمُهٰا عِنْدَ اللهِ وَ مٰا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السّٰاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً (٦٣) إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكٰافِرِينَ وَ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً (٦٤) خٰالِدِينَ فِيهٰا أَبَداً لاٰ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لاٰ نَصِيراً (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النّٰارِ يَقُولُونَ يٰا لَيْتَنٰا أَطَعْنَا اللهَ وَ أَطَعْنَا الرَّسُولاٰ (٦٦) وَ قٰالُوا رَبَّنٰا إِنّٰا أَطَعْنٰا سٰادَتَنٰا وَ كُبَرٰاءَنٰا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاٰ (٦٧)

رَبَّنٰا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذٰابِ وَ الْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً (٦٨) يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسىٰ فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمّٰا قٰالُوا وَ كٰانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً (٦٩)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٤٢

اللغة:

الساعة يوم القيامة. و ما يدريك أي شيء جعلك داريا و عالما. و ضعفين مثلين.

الإعراب:

و ما يدريك (ما) استفهام في موضع رفع بالابتداء، و معناها النفي، و جملة يدريك خبر و فاعل الفعل محذوف أي و ما يدريك بها أحد. و قريبا صفة لمحذوف أي زمنا قريبا. و خالدين حال من الكافرين. و يوم متعلق بلا يجدون. يا ليتنا

(يا) لمجرد التنبيه و قيل: المنادى محذوف أي يا هؤلاء. و السبيلا مفعول ثان لأضلونا لمكان همزة التعدية، و يجوز أن يكون السبيل منصوبا بنزع الخافض أي عن السبيل.

المعنى:

يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَ مَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً. تقدم مثله في الآية ١٨٧ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٤٣١.

إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لاٰ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لاٰ نَصِيراً يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يٰا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَ أَطَعْنَا الرَّسُولاَ.

يساق الكافرون و العصاة غدا الى عذاب الحريق، و لا ناصر لهم و لا عاذر، فيعضون يد الندامة على ما فرطوا من معصية اللّه و الرسول .. و لكن «ندم البغاة و لات ساعة مندم». و تقدم مثله في الآية ٢٧ من سورة الفرقان ج ٥ ص ٤٦٤.

وَ قَالُوا رَبَّنٰا إِنَّا أَطَعْنٰا سٰادَتَنٰا وَ كُبَرٰاءَنٰا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ رَبَّنٰا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذٰابِ وَ الْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً.

المراد بالسادة و الكبراء زعماء الدين و الدنيا، و باللعن الخزي .. و قد أحال الضعفاء الذنب على القادة من الطرفين، و طلبوا من اللّه ان يضاعف لهم العذاب .. و من دقق التاريخ رأى ان الأمة الجاهلة يقودها- في الغالب- الطغاة و العتاة، أما أهل الوعي و المعرفة فإنهم لا يأتمنون على مصالحهم إلا الأمناء المخلصين. و تقدم مثله في الآية ٣٨ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٢٦.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٢٤٣

(يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسىٰ فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَ كَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً). الذين آذوا موسى (ع) هم بنو إسرائيل، ما في ذلك ريب، حيث و صفوه بما يتنزه عنه الأنبياء .. و تشير الآية إلى أن بعض الصحابة قد آذى الرسول الأعظم (ص) و نسبه الى ما هو بريء منه، فنهى سبحانه المسلمين عن ذلك. و في بعض الروايات: ان رسول اللّه (ص) قسم ذات يوم قسما، فقال له رجل من الأنصار: ان هذه القسمة ما أريد بها وجه اللّه، فاحمر وجهه ثم قال: رحمة اللّه على موسى، فقد أوذي بأكثر من هذا فصبر.

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٧٠ الى ٧٣]

يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَ قُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمٰالَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ مَنْ يُطِعِ اللهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ فٰازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١) إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمٰانَةَ عَلَى السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبٰالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهٰا وَ أَشْفَقْنَ مِنْهٰا وَ حَمَلَهَا الْإِنْسٰانُ إِنَّهُ كٰانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنٰافِقِينَ وَ الْمُنٰافِقٰاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكٰاتِ وَ يَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنٰاتِ وَ كٰانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً (٧٣)

اللغة:

القول السديد هو قول الحق و الصدق. و تقول عرضت الشيء له أي أظهرته له، و عرضته عليه أريته إياه. و عرض الأمانة على السموات و الأرض و الجبال كناية عن عظيم شأنها.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٢٤٤

الإعراب:

يصلح مضارع مجزوم بجواب قولوا. و أشفقن منها على حذف مضاف أي من حملها. و اللام في ليعذب لام العاقبة مثل: لدوا للموت، لأن الإنسان لم يحمل الأمانة كي يعذّب، بل كان نتيجة الحمل المعصية التي هي سبب العذاب.

المعنى:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَ قُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ. القول السديد أن تقول الحق و الصدق، و لا تكتم منه شيئا و لو كان على نفسك، و المراد به هنا ما ينفع الناس بقرينة قوله تعالى: **يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ** حيث جعل سبحانه القول السديد سببا لصلاح الأعمال، و مثال ذلك ان ترشد ضالا إلى طريق الخير و الأمان، أو تنصر مظلوما بكلمة العدل، أو تقول كلاما تصلح به بين اثنين، و ما إلى ذلك من القول الذي ينفع الناس بجهة من الجهات **وَ مَنْ يُطِعِ اللهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً.** يفوز في الدنيا بالنجاح و حسن السيرة، و في الآخرة بمرضاة اللّه و ثوابه.

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَ أَشْفَقْنَ مِنْها وَ حَمَلَهَا الْإِنْسانُ.

اختلف المفسرون في معنى الأمانة، فمن قائل: انها التكليف و الطاعة، و قائل: انها كلمة «لا إله إلا اللّه»، و قال ثالث: هي أعضاء الإنسان كسمعه و بصره و يده و رجله، و ان عليه ان يستعملها فيما خلقت من أجله، و ذهب رابع الى انها الأمانة في الأموال .. و الذي نراه نحن انها التضحية بالمصلحة الفردية لصالح الجماعة، لا لشيء إلا لوجه اللّه و الانسانية، لأن هذه التضحية قد بلغت من الثقل و الضخامة مبلغا لو عرضت على أقوى مخلوق كالسماوات و الأرض و الجبال لأشفق منها على فرض أنه يحسّ و يشعر.

فالغرض من ذكر السموات و الأرض و الجبال هو الاشارة الى عظمة هذه التضحية و تبعتها، و ان الإنسان هو المخلوق الوحيد من بين الكائنات الذي يستطيع أن يجاهد نفسه الأمّارة و شهواتها، و يقاوم أهواءها و نزعاتها، أما قوله تعالى: **إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً**

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٤٥

فمعناه ان الإنسان يظلم نفسه و غيره إذا خان هذه الأمانة، و يجهل العواقب السيئة التي تترتب على خيانته.

لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ الذين يتظاهرون بأداء الأمانة، و هم خائنون **وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكاتِ** يعذبهم اللّه لأن جريمة الشرك لا يكفّرها شيء حتى البذل و التضحية **وَ يَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ** إذا تلافوا ما بدر منهم من تقصير **وَ كانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً** أي يغفر للتائبين، و يرحم المستضعفين.

و صلّ اللهم على محمد و آله صلاة تشفع لنا يوم الفاقة اليك.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٤٦

سورة سبأ

مكيّة، و آياتها ٥٤.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة سبإ (٣٤): الآيات ١ الى ٦]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مٰا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَ مٰا يَخْرُجُ مِنْهٰا وَ مٰا يَنْزِلُ مِنَ السَّمٰاءِ وَ مٰا يَعْرُجُ فِيهٰا وَ هُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) وَ قٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاٰ تَأْتِينَا السّٰاعَةُ قُلْ بَلىٰ وَ رَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عٰالِمِ الْغَيْبِ لاٰ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقٰالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ لاٰ فِي الْأَرْضِ وَ لاٰ أَصْغَرُ مِنْ ذٰلِكَ وَ لاٰ أَكْبَرُ إِلاّٰ فِي كِتٰابٍ مُبِينٍ (٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ أُولٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)
وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِي آيٰاتِنٰا مُعٰاجِزِينَ أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذٰابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (٥) وَ يَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَ يَهْدِي إِلىٰ صِرٰاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٤٧

اللغة:

الولوج الدخول. و العروج الصعود. و لا يعزب عنه لا يغيب عنه. و معاجزين من عاجزه أي سابقه ليظهر عجزه. و المراد بالرجز هنا أسوأ العذاب، و من بيانية.

الإعراب:

الحمد للّه مبتدأ و خبر. و الذي عطف بيان من لفظ الجلالة. و عالم الغيب صفة لربي. و لا أصغر و لا أكبر عطف على مثقال ذرة. و المصدر من ليجزي متعلق بلا يعزب عنه. و الذين سعوا مبتدأ أول و أولئك مبتدأ ثان و لهم و عذاب خبر و المبتدأ الثاني و خبره خبر المبتدأ الأول. و معاجزين حال من فاعل سعوا. و الذي أنزل اليك مفعول أول ليرى الذين أوتوا العلم، و الحق مفعول ثان، و «هو» ضمير الفصل، و يهدي عطف على الحق لأن الفعل هنا بمعنى الاسم أي و الهدى إلى صراط العزيز الحميد.

المعنى:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ. اللّه سبحانه هو المستحق للحمد في الدارين، و مالك الكون و مدبره بما فيه على مقتضى علمه و حكمته. و في نهج البلاغة: نحمده على عظيم إحسانه، و نير برهانه، و نوامي فضله و امتنانه، حمدا يكون لحقّه قضاء، و لشكره أداء، و إلى ثوابه مقربا، و لحسن مزيده موجبا.

يَعْلَمُ مٰا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَ مٰا يَخْرُجُ مِنْهٰا وَ مٰا يَنْزِلُ مِنَ السَّمٰاءِ وَ مٰا يَعْرُجُ فِيهٰا وَ هُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ. تكرر هذا المعنى في العديد من الآيات، منها الآية ٥٩ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٠٠ و الآية ٦١ من سورة يونس ج ٤ ص ١٧٤، و ملخصه ان اللّه بكل شيء عليم.

وَ قٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاٰ تَأْتِينَا السّٰاعَةُ قُلْ بَلىٰ وَ رَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ. تقدم مثله في

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٤٨

الآية ٥٣ من سورة يونس ج ٤ ص ١٦٨ **عٰالِمِ الْغَيْبِ لاٰ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقٰالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ لاٰ فِي الْأَرْضِ وَ لاٰ أَصْغَرُ مِنْ ذٰلِكَ وَ لاٰ أَكْبَرُ إِلاّٰ فِي كِتٰابٍ مُبِينٍ.**

الكتاب المبين كناية عن الحفظ، و المعنى ان علم الساعة عند اللّه لا يجلّيها لوقتها إلا هو. أنظر تفسير الآية ١٨٧ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٤٣١.

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ. هذا بيان للحكمة من البعث، و هي أن يجزي اللّه الذين أحسنوا بالحسنى، و الذين أساءوا بما كانوا يعملون. أنظر ج ٤ ص ١٣٢ فقرة «الحساب و الجزاء حتم».

وَ يَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَ يَهْدِي إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ. المراد بالذين أوتوا العلم كل عالم منصف في كل زمان و مكان، و المراد بالذي انزل اليك القرآن، و المعنى ان أي عالم يدرس القرآن دراسة صحيحة لا بد أن ينتهي الى انه حق من عند اللّه، لأنه يهدي للتي هي أقوم في عقيدته و شريعته و جميع تعاليمه.

[سورة سبإ (٣٤): الآيات ٧ الى ٩]

وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذابِ وَ الضَّلالِ الْبَعِيدِ (٨) أَ فَلَمْ يَرَوْا إِلى ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٩)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٤٩

اللغة:

التمزيق التقطيع و التفريق، يقال: مزقهم اللّه كل ممزق أي فرقهم و شتتهم، و المراد بمزقتم في الآية بليتم في القبور. و المراد بالخلق الجديد البعث. و الجنة الجنون.

و كسفا جمع كسفة و هي القطعة. و منيب راجع.

الإعراب:

إذا تتعلق بفعل محذوف أي إذا مزقتم بعثتم، و لا يجوز أن تتعلق بينبئكم لأن النبأ كان قبل التمزيق لا بعده و لا حينه. و كل ممزق مفعول مطلق. و جملة انكم لفي خلق جديد مفعول ينبئكم. و افترى على اللّه أصلها أ افترى فلما دخلت همزة الاستفهام على همزة الوصل أسقطتها.

المعنى:

وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أَفْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ. هكذا قال المشركون: محمد كاذب أو مجنون- نعوذ باللّه- و لما ذا نطقوا بكلمة الكفر؟ .. لأن النبي قال: ان الإنسان بعد الموت يبعث حيا .. و لا دليل على انكارهم هذا إلا التعجب و الاستغراب تماما كقولهم: «أجعل الآلهة إلها واحدا ان هذا لشيء عجاب».

و هو، كما ترى، مستمد من ذاتهم و تصورهم، و معنى هذا انهم ينفون الواقع بالفكرة و التصور، مع العلم ان الفكرة لا تكون صادقة إلا إذا كانت انعكاسا عن الواقع و من صلبه، و ان على من يعتنق نظرية ما أن يبرهن على صدقها بوجود الواقع المعبر عنها، و ليس له أن ينفي الواقع بفكرة مسبقة لا تقوم على أساس ..

و الى هذا يشير الإمام علي (ع) بقوله: «يعرف الرجال بالحق، و لا يعرف الحق بالرجال». **بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذابِ وَ الضَّلالِ الْبَعِيدِ**.

هم في الجهل و الضلال لأنهم قاسوا الحق و الواقع بأفكارهم و أوهامهم، و العكس

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۲۵۰

هو الصحيح أي كان عليهم أن يقيسوا أفكارهم بالحق و الواقع.

أَ فَلَمْ يَرَوْا إِلىٰ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ. يقول سبحانه للمكذبين: و أي عجب من بعثكم بعد الموت: «أ و ليس الذي خلق السموات و الأرض بقادر على أن يخلق مثلهم» ألا يدل هذا الخلق على وحدانيته و كمال قدرته، و منها الاعادة الى الحياة بعد الموت؟ و تكلمنا عن ذلك مرارا. أنظر ج ١ ص ٧٧ و ج ٢ ص ٣٩٦ و ج ٤ ص ١٣٢.

إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ. ذلك اشارة الى خلق السموات و الأرض، فإنه يدل على عظمة اللّه و قدرته على إحياء العظاء و هي رميم عند من يرجع الى عقله و ضميره، أما قوله تعالى: **إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ** فهو تهديد و وعيد لمن جحد و كفر بالآخرة أن تبتلعه الأرض، أو ترميه السماء بقطع من نار فتحرقه.

[سورة سبإ (٣٤): الآيات ١٠ الى ١٤]

وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلاً يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَ الطَّيْرَ وَ أَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ وَ قَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَ اعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) وَ لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَ رَواحُها شَهْرٌ وَ أَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَ مِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ مَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَ تَماثِيلَ وَ جِفانٍ كَالْجَوابِ وَ قُدُورٍ راسِياتٍ اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ (١٣) فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ما دَلَّهُمْ عَلىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ما لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ (١٤)

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۲۵۱

اللغة:

الأوب الرجوع، و التأويب الترجيع بالتسبيح، و المراد بأوّبي هنا سبّحي.

و سابغات و سوابغ جمع سابغ، و هو التام من اللباس، و المراد بسابغات هنا دروع تامات كاملات. و قدّر عدّل. و السرد التتابع، و سرد الحديد نظمه. و غدوها سيرها بالغداة، و رواحها سيرها بالعشي. و القطر بكسر القاف النحاس أو الحديد أو الرصاص. و من يزغ من يعدل. و محاريب جمع محراب، و هو المعبد. و تماثيل جمع تمثال، و هو صورة الشيء. و الجفان جمع جفنة، و هي القصعة. و الجوابي جمع جابية، و هي الحوض الكبير. و قدور جمع قدر. و راسيات ثابتات. و المنسأة العصا الكبيرة.

الإعراب:

يا جبال أوّبي أي قلنا يا جبال أوبي. و الطير بالنصب لأنه معطوف على محل الجبال. و المصدر من أن اعمل مفعول من أجله لألنا أي ألنا له الحديد لأجل عمل الدروع، و قيل: ان مفسرة بمعنى أي. و الريح مفعول لفعل محذوف اي و سخرنا لسليمان الريح. و غدوها شهر مبتدأ و خبر، و الجملة حال من الريح.

و من الجن من يعمل «من» مفعول لفعل محذوف أي و سخرنا له من الجن من يعمل. و آل داود أي يا آل داود، و مفعول

اعملوا محذوف، و شكرا مفعول من أجله أي اعملوا الخيرات شكرا للّه. و قليل خبر مقدم و الشكور مبتدأ مؤخر.

و ان لو كانوا «ان» مخففة من الثقيلة، و اسمها محذوف، أي انهم، و المصدر المنسبك بدل اشتمال من الجن أي ظهرت الجن جهلهم و المعنى ظهر جهل الجن.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٥٢

المعنى:

وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلاً يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَ الطَّيْرَ وَ أَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ.

قال سبحانه في الآية ١٥ من سورة النمل: وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَ سُلَيْمانَ عِلْماً.

و في الآية ١٦٣ من سورة النساء: وَ آتَيْنا داوُدَ زَبُوراً. و في الآية التي نحن بصددها ذكر سبحانه انه أسبغ على داود نعمة الصوت الرخيم الذي تكاد تتجاوب الجبال و الطير مع صفائه. و في الآية ٧٨ من سورة الأنبياء قلنا يجوز ان يكون تسبيح الجبال و الطير على نحو الحقيقة مع داود لأن اللّه على كل شيء قدير، و قال قائل:

المراد بتسبيح الجبال و الطير معه انها كانت توحي اليه بالتسبيح، فإذا رآها قال مرددا: سبحان من خلق و صوّر .. و ايضا أنعم اللّه على داود بأن جعل الحديد طوع ارادته يعمل منه ما يشاء دون ان يحميه بالنار، او يضربه بالمطرقة .. و من الجائز ان اللّه سبحانه ألهمه الأسباب و الوسائل التي تجعل الحديد لينا.

أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ وَ قَدِّرْ فِي السَّرْدِ. يقول تعالى لداود: اعمل من الحديد دروعا، و أحكم صنعها بحيث تقي المقاتل السيف و السهم و السنان، و لا تمنعه من الحركة كما يريد **وَ اعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.** الخطاب لداود و آله، يأمرهم اللّه فيه بصالح الأعمال، و يعدهم عليها بالأجر و الثواب. و تقدم نظير هاتين الآيتين في سورة الأنبياء الآية ٧٩ و ٨٠ ج ٥ ص ٢٩٢.

وَ لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَ رَواحُها شَهْرٌ. يدل ظاهر الآية على ان الريح كانت تحمل سليمان بأمر اللّه الى ما يشاء، و انها كانت تقطع بالغداة مسيرة شهر كامل على الجمال أو الأقدام، و كذلك بالمساء **(وَ أَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ.**

القطر النحاس او الحديد، و الاسالة الاذابة، و المعنى انه تعالى أذاب الصلب لسليمان تماما كما ألانه لأبيه داود .. و يجوز ان اللّه أرشده الى سبب الاسالة و الاذابة.

وَ مِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ مَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَ تَماثِيلَ وَ جِفانٍ كَالْجَوابِ وَ قُدُورٍ راسِياتٍ. تقدم مع التفسير في الآية ٨٢ من سورة الأنبياء ج ٥ ص ٢٩٣

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٥٣

اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ. ذكر ابن عربي هذه الآية الكريمة في الجزء الرابع من الفتوحات، و قال: الشكر ان ترى النعمة من اللّه، لا من سواه، فقد أوحى سبحانه الى موسى: اشكرني حق الشكر.

فقال موسى: و من يقدر على ذلك يا رب؟ فقال له: إذا رأيت النعمة مني فقد شكرتني.

فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ما دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إِلاَّ دابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ما لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ. ضمير عليه يعود الى سليمان، و دابة الأرض هي الأرضة التي تأكل

الخشب، و المنسأة العصا، و المعنى ان سليمان وافاه الأجل، و هو متكئ على عصاه، و انه بقي بعد الموت كذلك الى ما شاء اللّه، و ان الانس و الجن كانوا ينظرون اليه، و يحسبونه حيا، الى ان دبت الأرضة في عصاه، و أكلت جوفها، فانكسرت و سقط سليمان، و علم الجميع بموته، و ظهر للانس ان الجن لا يعلمون الغيب، لأنهم لو علموه ما لبثوا في أسر سليمان و خدمته، و هو ميت.

و إذا كان بعض ما في هذه الآيات ممتنع الوقوع عادة فإنه جائز في نظر العقل، و من أجل هذا نصدقه و نسلم به كمؤمنين بمبدإ الوحي من اللّه الى نبيه الكريم.

انظر ج ٢ ص ٦١ فقرة «الممتنع عقلا و الممتنع عادة».

نقد الفكر الديني:

و لمناسبة ما جاء في هذه الآيات من ذكر الجن و خوارق العادات نشير الى كتاب صدر في هذه الأيام، اسمه «نقد الفكر الديني»- نحن الآن في تشرين الثاني سنة ١٩٦٩- و قد كثر الكلام حوله و حول صاحبه. و من قرأ الكتاب يحكم- من النظرة الأولى- على مؤلفه بأنه يقف موقف الشك و الريب من جميع الأديان، و قد اعترف المؤلف بذلك صراحة في الصفحة ٢٩ و ٧٧ و غيرهما.

و لكن من يستقرئ الكتاب و يأخذ بالظاهر دون الباطن يرى ان الباعث الأول على هذا الشك و الريب أمور:

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٢٥٤

الأول: محاولة بعض المؤمنين ان يلائم بين نصوص القرآن الكريم و مستكشفات العلم الحديث، و غلوهم في التأويل الى أبعد مما يحتمله اللفظ، و أورد المؤلف على ذلك العديد من الشواهد، منها ما نقله عن البعض في صفحة ٣٧: من ان اكتشاف نواميس الضوء يدل دلالة قاطعة على وجود الملائكة و الجن .. و علق المؤلف على هذا بقوله: لا أدري ما هي طبيعة العلاقة بين نظرية الضوء من ناحية، و وجود الجن و الملائكة من ناحية اخرى.

الأمر الثاني: الطقوس و الشعائر الجامدة التي لا تناسب حضارة القرن العشرين على حد تعبيره.

الأمر الثالث: مساندة بعض رجال الدين للاقطاع و الاستعمار باسم الإسلام و المسيحية .. و الكتاب متخم بالشواهد على ذلك، منها قوله في صفحة ٢٣:

«كان الدين في اوروبا حليف التنظيم الاقطاعي و لا يزال على هذه الحال في معظم البلاد المتخلفة، و خاصة في الوطن العربي .. فقد أصبح الدين الايديولوجية الرسمية للقوى الرجعية المتخلفة في الوطن العربي و خارجه .. و المرتبطة صراحة و مباشرة بالاستعمار الجديد الذي تقوده أميركا».

و قد أفاض المؤلف في نقد كتاب «المسيحية و الإسلام في لبنان» و هو مجموعة محاضرات الندوة اللبنانية لسنة ١٩٦٥، ألقاها أربعة من رجال الدين: سني و شيعي و اثنان من المسيحيين، و أربعة علمانيون، و لكنهم تكلموا باسم الدين، و عاهدوا اللّه جميعا على السعي الدائب لازالة الحواجز المفتعلة بين الإسلام و المسيحية.

و قال المؤلف فيما قال ردا على هؤلاء المحاضرين المتعاهدين في صفحة ٦٤:

ان الهدف الأول لهذه المحاضرات و المعاهدة هو حرص المسيحيين على النظام القائم بلبنان باعتبارهم المنتفعين منه اكثر من المسلمين الذين ينتمون بغزارة الى الفئة الفقيرة الكادحة، و تجاوب مع المسيحيين فئة من المسلمين، و روجت باسم الدين للنظام القائم بلبنان بكل مضامينه الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية، فعلت ذلك لا لشيء إلا لأن

هذا النظام يدر عليها و على المسيحيين الأرباح و المنافع .. و حتى تحوّل الأنظار عن ويلات النظام القائم و سيئاته- حملت هذه الفئة المسلمة مع المسيحيين شعارات التفاهم و الاخوة و المحبة و مصلحة لبنان العليا.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٢٥٥

أما الدليل القاطع على ان هذا هو هدف المحاضرين المتعاهدين في الندوة اللبنانية سنة ١٩٦٥ فيقدمه المؤلف في صفحة ٦٠ بقوله: ان الإسلام لا يعترف بالإنجيل و لا بالتثليث، و لا بالخطيئة و الفداء، و لا بصلب السيد المسيح و دفنه و خروجه من القبر، و ما إلى ذلك مما يؤمن به المسيحيون، كما انهم ينكرون القرآن و نبوة محمد (ص) .. فبأي شيء يزيل المحاضرون المتعاهدون هذه الحواجز؟. فالأصلح و الأنسب- ما زال الكلام للمؤلف- ان يتم التفاهم و الحوار بين اللبنانيين على صعيد وطني، و أساس المصلحة المشتركة، أما الدين فليترك لاختيار الفرد وفقا لمزاجه و قناعته.

و من أقوال المؤلف هذه و غيرها كثير في كتاب «نقد الفكر الديني» يتبين معنا ان السر لنقده فيما يظهر يكمن- كما أشرنا- في تعسف الذين حاولوا التوفيق بين النصوص الدينية و العلم الحديث، و في الطقوس الجامدة، و انحراف الذين وهبوا أنفسهم للاقطاع و الاستعمار، و برروا الظلم و الاستغلال باسم الدين .. و لو ان جميع رجال الدين أخلصوا له، و فهموه فهما صحيحا، و بينوه للناس كما نزل على عيسى و محمد، و لم يشتروا به ثمنا قليلا- لما وجد ناقد أو مأجور منفذا للطعن و الريب بالإسلام و لا بالمسيحية .. و لكن مما يدمي القلب أسفا ان قوما انتحلوا اسم الدين زورا و تطفلا، و آخرين وقفوا أنفسهم لتخريبه و تشويه حقائقه بعد ان قبضوا الثمن من أعداء اللّه و الانسانية .. فكانت ردة الفعل من مؤلف «نقد الفكر الديني» و غيره و قيل: ان هذا المؤلف أيضا مأجور.

و لكن أي ذنب للدين إذا استغله الانتهازيون، و اتسم به المتطفلون؟. و كان الأولى بالمؤلف أن ينظر الى الدين كقوة تتجه بالإنسان الى حياة أفضل، و انه منزه عن كل ما يأباه العقل، و يتصادم مع حقيقة من حقائق الحياة، و لو شاء هذا لوجد الكثير من الشواهد في كتاب اللّه و سنة نبيه، و تاريخ الإسلام و المسلمين، و قد اعترف بهذه الحقيقة العشرات من علماء الشرق و الغرب غير المسلمين.

أنظر ج ١ ص ٣٨ فقرة «القرآن و العلم الحديث» و ج ٣ ص ٤٦٥ فقرة «الدين و الدعوة إلى الحياة» و ج ٥ ص ٢٣ فقرة «الإسلام دين الفطرة».

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٢٥٦

[سورة سبإ (٣٤): الآيات ١٥ الى ٢١]

لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتانِ عَنْ يَمِينٍ وَ شِمالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَ اشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَ رَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَ بَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَ أَثْلٍ وَ شَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا وَ هَلْ نُجازِي إِلاَّ الْكَفُورَ (١٧) وَ جَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها قُرىً ظاهِرَةً وَ قَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وَ أَيَّاماً آمِنِينَ (١٨) فَقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا وَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ وَ مَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩)

وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَ ما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ وَ رَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١)

اللغة:

سبأ قبيلة من العرب سميت باسم الأب الذي تناسلت منه. و العرم بكسر الراء قيل: هو السد يمسك الماء فيرتفع و يسقي الزرع. الأكل الثمر المأكول. و الخمط شجر الأراك. و الأثل الطرفاء.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٥٧

الإعراب:

آية اسم كان، و لسبأ خبرها و في مسكنهم متعلق بما تعلق به لسبأ. و جنتان بدل من آية. و عن يمين و شمال صفة لجنتين. و كلوا أي يقال لهم كلوا. و بلدة طيبة خبر لمبتدأ محذوف أي هذه بلدة طيبة. و جنتين مفعول ثان لبدلناهم.

و ذواتي صفة لجنتين. و خمط بدل من أكل. و أثل عطف على أكل. و ذلك قائم مقام المفعول المطلق لجزيناهم أي ذلك الجزاء جزيناهم. و سيروا أي يقال لهم:

سيروا. و كل ممزق مفعول مطلق. و ظنه مفعول صدق. و من سلطان «من» زائدة اعرابا و سلطان اسم كان، و له عليهم خبرها.

ملخص القصة:

جاء في تاريخ المسعودي ما يتلخص بأن أول ملوك اليمن هو سبأ بن يشجب ابن يعرب بن قحطان، و كان اسمه عبد شمس، و سمي سبأ لسبيه السبايا، و كانت أرض سبأ أخصب أرض اليمن و أثراها و أغدقها، و قبل ذلك كان يركبها السيل و يهلك الزرع و يهدم البناء، فجمع ملك القوم أهل العلم في ذلك الزمان، و شاورهم في أمر السيل، فأجمع رأيهم على ان يقيموا سدا بين جبلين، و أخذ الملك بقولهم، و جعلوا للسد أبوابا تفتح و تغلق ليتحكموا بالماء وفق حاجتهم، و قد عرف هذا السد باسم مدينة مأرب القريبة من السد، ثم عمل الماء بالسد، و أضعفه مرّ السنين عليه، فخرب و تدافع الماء منه و أغرق الديار و الجنان، فهاجر السكان و تفرقوا في العديد من أنحاء الأرض، و من هنا قيل في الأمثال: تفرقوا أيدي سبأ.

و في تفسير الطبري و مجمع البيان: ان سائلا سأل رسول اللّه (ص) عن سبأ؟

فقال: كان رجلا من العرب، له عشرة أولاد: فتيمن منهم ستة، و تشاءم أربعة، فأما الذين تيمنوا فكندة و حمير و الأزد و الأشعريون و مذحج و أنمار الذين منهم خثعم و بجيلة، و اما الذين تشاءموا فعاملة و جذام و لخم و غسان.

و في تفسير المراغي: كان الباحثون في العصر الحديث يشكون في أمر هذا السد حتى تمكن المستشرق الفرنسي «ارنو» من الوصول الى مأرب سنة ١٨٤٣

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٥٨

و شاهد آثاره، و رسم له صورا نشرها في المجلة الفرنسية سنة ١٨٧٤، ثم زار مأرب بعده «هاليفي» و «غلازر» و وافقاه فيما قال و وصف.

المعنى:

لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتانِ عَنْ يَمِينٍ وَ شِمالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَ اشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَ رَبٌّ غَفُورٌ. آية أي دلالة و علامة على نعم اللّه الوافرة في تلك الأرض. و جنتان عن يمين و شمال كناية عن الخصب و

الازدهار في كل جزء من أجزاء البلاد، و ان المار بأرض سبأ كان انّى اتجه يرى الخيرات عن يمينه و شماله .. و قد أمر سبحانه قوم سبأ أهل تلك الأرض الطيبة، أمرهم بلسان أنبيائه و رسله أن يتنعموا في خيراته و يشكروه و يوحدوه **فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَ بَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَ أَثْلٍ وَ شَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ**.

استعانوا بنعمة اللّه على معصيته، و استغنوا بفضله عن عبادته، فحذرهم و أنذرهم على لسان رسله، فلم ينتفعوا بالنذر، و يتعظوا بالعبر، فأرسل عليهم سيلا عظيما خرّب السد و أهلك الزرع و الضرع، و أبدلهم اللّه بالحدائق الغناء و البساتين الفيحاء أشجارا لا تسمن و لا تغني من جوع كالطرفاء و السدر و ما إليه مما ينبت في الصحراء، و لا يستسيغه إلا حيوان جائع أو إنسان أضناه الفقر و العوز.

ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا وَ هَلْ نُجازِي إِلاَّ الْكَفُورَ. جزاهم بالفقر، و هو أفظع الجزاء .. و في رواية: الفقر الموت الأحمر. و في ثانية: كاد الفقر يكون كفرا. و في ثالثة: الفقر سواد الوجه في الدارين. و قال الإمام علي (ع) لولده محمد بن الحنفية: ان الفقر منقصة للدّين- أي يحمل الإنسان على معصية اللّه- مدهشة للعقل، داعية للمقت.

وَ جَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها قُرىً ظاهِرَةً وَ قَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وَ أَيَّاماً آمِنِينَ. ضمير بينهم يعود الى قوم سبأ، و المراد بالقرى قرى الشام- كما قال المفسرون- و بارك اللّه فيها بالماء و الأشجار، و الخصب و الثمار، و ظاهرة أي ان القرى كانت قريبة يظهر بعضها لبعض، و قدّرنا في السير

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٥٩

قسّمنا مراحل السفر بين القرية و القرية بحيث يصبح المسافر في واحدة منها، و يمسي في أخرى .. و الآية تصف قوم سبأ قبل خراب السد، و معناها ان من نعم اللّه و فضله عليهم ان أحدهم كان إذا قصد سفرا يسافر و هو في أمن و أمان من كل شيء، لا يخشى أحدا على نفسه و ماله، و لا يحمل زادا، و لا يخاف جوعا و لا عطشا.

و لكن غلبت عليهم شقوتهم، و بطروا النعمة، و ملوا العافية **فَقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا** اجعل بيننا و بين القرى فلوات و مفاوز لنركب الرواحل و نحمل الزاد في الأسفار، تماما كما فعل بنو إسرائيل حيث ملوا نعمة المن و السلوى، و قالوا لموسى: فَادْعُ لَنا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِها وَ قِثَّائِها وَ فُومِها وَ عَدَسِها وَ بَصَلِها قالَ أَ تَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ- ٦١ البقرة. **وَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ** بالطغيان و كفران النعم **فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ وَ مَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**. شتتهم سبحانه و وزعهم في أقطار الأرض حتى صاروا أحدوثة للأجيال، و عبرة لمن صبر على الضراء، و شكر عند السراء.

وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ ما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ. أغراهم الشيطان بمعصية اللّه، فسمع له و أطاع من كفر و بغى، و عصاه من آمن و اتقى. و تشير هذه الآية الى قول إبليس في الآية ٣٩ من سورة الحجر: وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قالَ هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ ج ٤ ص ٤٧٨.

إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ ان اللّه سبحانه أعلم بعباده من أنفسهم، و لكنه يبتليهم بالسراء و الضراء، و بالشهوات و الأهواء لتظهر إلى عالم الوجود و العيان مقاصدهم و أفعالهم التي يستحقون عليها الثواب و العقاب.

و تكرر هذا المعنى مرات و مرات، منها في الآية ١٤٠ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١٦٤ **وَ رَبُّكَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ**. لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض و لا في السماء. و في الحديث: اتق اللّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۲۶۰

[سورة سبإ (٣٤): الآيات ٢٢ الى ٣٠]

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لاٰ يَمْلِكُونَ مِثْقٰالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ لاٰ فِي الْأَرْضِ وَ مٰا لَهُمْ فِيهِمٰا مِنْ شِرْكٍ وَ مٰا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَ لاٰ تَنْفَعُ الشَّفٰاعَةُ عِنْدَهُ إِلاّٰ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتّٰى إِذٰا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قٰالُوا مٰا ذٰا قٰالَ رَبُّكُمْ قٰالُوا الْحَقَّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ قُلِ اللهُ وَ إِنّٰا أَوْ إِيّٰاكُمْ لَعَلىٰ هُدىً أَوْ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ (٢٤) قُلْ لاٰ تُسْئَلُونَ عَمّٰا أَجْرَمْنٰا وَ لاٰ نُسْئَلُ عَمّٰا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنٰا رَبُّنٰا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنٰا بِالْحَقِّ وَ هُوَ الْفَتّٰاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكٰاءَ كَلاّٰ بَلْ هُوَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) وَ مٰا أَرْسَلْنٰاكَ إِلاّٰ كٰافَّةً لِلنّٰاسِ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ النّٰاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ (٢٨) وَ يَقُولُونَ مَتىٰ هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ (٢٩) قُلْ لَكُمْ مِيعٰادُ يَوْمٍ لاٰ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سٰاعَةً وَ لاٰ تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠)

اللغة:

المراد بالشرك هنا النصيب. و ظهير معين. و فزّع عن قلوبهم بتشديد الزاي ذهب الفزع عن قلوبهم. و أجرمنا أذنبنا. و يفتح يحكم. و الفتاح الحاكم.

الإعراب:

زعمتم تتعدى الى مفعولين، و هما هنا ضميران محذوفان أي زعمتموهم آلهة من

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۲۶۱

دون اللّه. و من شرك «من» زائدة إعرابا و شرك مبتدأ و الخبر «لهم فيهما» و مثله من ظهير. و إلا لمن اذن له استثناء مفرغ أي لا تنفع الشفاعة عنده لأحد إلا لمن أذن له. اللّه مبتدأ و الخبر محذوف أي قل اللّه يرزقكم. أو إياكم معطوف على اسم ان. و أروني تتعدى الى ثلاثة لمكان همزة التعدية، و ياء المتكلم المفعول الأول و الذين الثاني، و شركاء الثالث. و كافة حال من كاف أرسلناك، و في البحر المحيط ان كافة بمعنى عامة لا تكون إلا حالا و لا يتصرف فيها بغير ذلك، و التاء في كافة للمبالغة مثل تاء علامة أي ما أرسلناك إلا حال كونك عاما جميع الناس في التبليغ.

و للناس متعلق بكافة. و بشيرا حال بعد حال.

المعنى:

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ. عبد المشركون الملائكة و الأصنام، فنهاهم النبي (ص) فلم ينتهوا، فقال لهم بأمر من اللّه: أين الدليل على ألوهية من جعلتموهم شركاء للّه؟ ادعوهم للنفع أو الضر، ثم انظروا: هل يسمعون و يستجيبون؟ و الغرض من هذا الطلب هو إقامة الحجة عليهم بالتحدي و التعجيز، و مثله قوله تعالى: قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلاٰ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَ لاٰ تَحْوِيلاً- ٥٦ الاسراء ج ٥ ص ٥٥.

لاٰ يَمْلِكُونَ مِثْقٰالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ لاٰ فِي الْأَرْضِ وَ مٰا لَهُمْ فِيهِمٰا مِنْ شِرْكٍ وَ مٰا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ. ضمير لا يملكون و لهم و منهم يعود الى الشركاء المزعومين و ضمير له اليه تعالى، و ضمير فيهما الى السموات و الأرض، و

مثقال ذرة كناية عن أحقر الأشياء و أدناها، و الشرك النصيب، و الظهير المعين، و المعنى لا شريك للّه و لا معين، و لا أحد يملك معه شيئا **وَ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ.**

هذا رد على قول المشركين: ما نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللهِ زُلْفى ٣- الزمر.

انظر ج ١ ص ٩٧ فقرة: «الشفاعة».

(حتى إذا فزّع- أي ذهب الفزع- عن قلوبهم قالوا ما ذا قال ربكم قالوا الحق و هو العلي الكبير). اختلف المفسرون في ضمير قلوبهم الى من يعود؟

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٦٢

و من هو السائل و المسئول؟ و الأرجح ان الضمير يعود بقرينة السياق الى من في السموات و الأرض و ان هذا الفزع يحصل للجميع عند قيام الساعة إلا من شاء اللّه، كما جاء في الآية ٨٧ من سورة النمل: وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شاءَ اللهُ وَ كُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ. و قلنا أكثر من مرة: ان آيات القرآن يفسر بعضها بعضا، و عليه يكون المعنى انه عند قيام الساعة ينقسم أهل السماء و الأرض فريقين: فريق يأخذه الفزع الأكبر، و فريق من فزع يومئذ آمنون، و الى هؤلاء أشار سبحانه بقوله: إِلاَّ مَنْ شاءَ اللهُ فإذا هدأ روع الفريق الأول قليلا سأل الفريق الثاني: ما ذا قال ربكم؟ أي ما هو مصيرنا و مآلنا؟ فيجيب الفريق المسئول: ان اللّه قال الحق و هو العلي الكبير. و هذا الجواب على اجماله يومئ الى أنه لا شريك و لا معين للّه و لا شفاعة عنده إلا بإذنه.

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ. الخطاب في قل لرسول اللّه (ص) و في يرزقكم للمشركين، أما رزق السماء فهو المطر و الضياء، و رزق الأرض النبات و الزرع (قل اللّه) لا الأصنام و لا الملائكة و لا عيسى و عزير، و لما كان هذا هو الجواب الوحيد أمر سبحانه نبيه الكريم أن يجيب به عن المسئولين.

وَ إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ. النبي على يقين انه على هدى، و ان المشركين على ضلال، و لكن لما أبوا الإذعان للهدى و الحق خاطبهم بهذا الأسلوب الحكيم، و قال لهم: ان أحدنا محق و الآخر مبطل، فارجعوا إلى عقولكم و اسألوها: أينا على صواب؟ و هذا من أسلوب نبي الهدى و الرحمة، بالاضافة إلى ان المحق يثق من نفسه حتى و لو خالفه أهل الأرض أجمعون.

قُلْ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا وَ لا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ. هذا مثل قوله تعالى:

وَ إِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَ لَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ- ٤١ يونس ج ٤ ص ١٦٢ **قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَ هُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ.** لليوم الآخر أسماء، منها يوم الجمع، قال تعالى:

يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ- ٩ التغابن و الفتح الحكم و الفصل، و المعنى ان اللّه سبحانه سيجمعنا و إياكم لنقاش الحساب و الجزاء و الأعمال، و عندئذ

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٦٣

ينكشف الغطاء و تعلمون أي الحزبين أهدى سبيلا؟

قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكاءَ. ضمير به يعود اليه تعالى، و في الكلام حذف أي أروني الدليل على ان الأصنام شركاء اللّه في خلقه، أو يقربونكم اليه زلفى (كلا) لا شريك و لا معين للّه و لا شفاعة لديه إلا بإذنه **بَلْ هُوَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** لا عز و لا قوة إلا للّه و باللّه، أما دلائل حكمته و عظمته فإنها تتجلى في خلق الكون و عجائبه.

وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ كافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ. ان اللّه سبحانه أرسل محمدا (ص) لجميع الناس في كل زمان و مكان. انظر تفسير الآية ٩٢ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٢٥ و الآية ٤٠ من سورة الأحزاب. فقرة «لما ذا ختمت النبوة بمحمد» **وَ يَقُولُونَ مَتىٰ هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ**.

تقدم بنصه الحرفي في الآية ٤٨ من سورة يونس ج ٤ ص ١٦٦ **قُلْ لَكُمْ مِيعادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً وَ لا تَسْتَقْدِمُونَ**. لأنه تعالى قد وعد بالبعث و الحساب و الجزاء، و هو منجز وعده لا محالة، و لكن في الوقت الذي حدده، جلت حكمته، لا يتقدم عليه، و لا يتأخر عنه، فلا يغرنكم أيها المشركون ما أنتم فيه، فإنما هو الى حين طال أم قصر، ثم الى اللّه مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون.

[سورة سبإ (٣٤): الآيات ٣١ الى ٣٣]

وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهٰذَا الْقُرْآنِ وَ لا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ لَوْ تَرىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَ نَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدىٰ بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَ قالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَ نَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً وَ أَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَ جَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣)

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۲۶۴

اللغة:

رجّع في صوته ردده، و الرجيع من الكلام المردود الى صاحبه، و المراد بيرجع بعضهم الى بعض القول ان كلا من الفريقين يحيل الخطأ على الآخر.

الإعراب:

مفعول ترى محذوف و كذلك جواب لو أي و لو ترى الظالمين آنذاك لرأيت عجبا.

و مكر فاعل لفعل محذوف أي صدنا عن الحق مكركم بنا في الليل و النهار. و أضاف المكر إلى الليل و النهار على سبيل المجاز. و إذ تأمروننا «إذ» في محل نصب بمكر. و المصدر من أن نكفر مجرور بباء محذوفة أي تأمروننا بالكفر باللّه.

المعنى:

وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهٰذَا الْقُرْآنِ وَ لا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ من التوراة و الإنجيل. و الذين قالوا هذا هم مشركو العرب بدليل الآية ٣٠ من سورة الفرقان:

«و قال الرسول يا رب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا». هجروا القرآن و كفروا به لأنه ساوى بين الأبيض و الأسود، و قال لهم: لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَ لا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَ لا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَ لا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ- ١١ الحجرات. و كفروا بنبوة محمد (ص) لأنه أراد أن يخرجهم من الجهل و التخلف الى العلم و الحضارة .. قال

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۲۶۵

المستشرق المعاصر «جاك ريزلر» صاحب كتاب «يقظة الإسلام»، و كتاب «الحضارة العربية» الذي طبع في فرنسا سنة

١٩٦٢، قال:

«بظهور الدين الاسلامي بدأت أولى مراحل الحضارة العربية، و يعزى نجاح قيام هذه الحضارة و انتشارها إلى عدة أسباب: أهمها ارتفاع الروح المعنوية لدى المسلمين بفضل الدين الجديد، الأمر الذي أكسبهم جرأة جعلتهم يستهينون بالموت في سبيل اللّه».

وَ لَوْ تَرىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ.

بعد أن يئس الرسول الأعظم (ص) من ايمان المشركين قال له المولى، جلت عظمته، مسليا: سوف ترى غدا حال هؤلاء المكذبين و ما هم فيه من الخزي و الهوان حين يقفون للحساب بين يدي اللّه كيف يتلاوم التابع و المتبوع، و يخطئ كل منهما الآخر **يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لاٰ أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ.**

المستضعفون هم الأتباع، و المستكبرون هم القادة **قٰالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَ نَحْنُ صَدَدْنٰاكُمْ عَنِ الْهُدىٰ بَعْدَ إِذْ جٰاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ.** تماما:

كَمَثَلِ الشَّيْطٰانِ إِذْ قٰالَ لِلْإِنْسٰانِ اكْفُرْ فَلَمّٰا كَفَرَ قٰالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخٰافُ اللّٰهَ رَبَّ الْعٰالَمِينَ- ١٦- الحشر. و غير بعيد أن يكون هذا الشيطان في الآية الكريمة كناية عن القادة الضالين المضلين.

وَ قٰالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَ النَّهٰارِ إِذْ تَأْمُرُونَنٰا أَنْ نَكْفُرَ بِاللّٰهِ وَ نَجْعَلَ لَهُ أَنْدٰاداً.

لما يئس التابعون و المتبعون من النجاة تلاوموا و تبادلوا التهم، و أحال كل فريق الذنب على صاحبه، تماما كاللصوص يتفقون حين اقتراف الجريمة حتى إذا أخذوا بها لعن بعضهم بعضا .. و قد كانت الغلبة في النهاية للمستضعفين حيث جابهوا المستكبرين بما كانوا يمكرون بهم ليلا و نهارا، و يغرونهم بالكفر و الشرك بشتى الأساليب، و ان كان هذا لا يعفيهم من العذاب، و لا يخففه عنهم ما داموا عقلاء مختارين: «قٰالَتْ أُخْرٰاهُمْ لِأُولاٰهُمْ رَبَّنٰا هٰؤُلاٰءِ أَضَلُّونٰا فَآتِهِمْ عَذٰاباً ضِعْفاً مِنَ النّٰارِ قٰالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَ لٰكِنْ لاٰ تَعْلَمُونَ- ٣٨ الأعراف ج ٣ ص ٣٢٦.

وَ أَسَرُّوا النَّدٰامَةَ و هم التابعون و المتبعون **لَمّٰا رَأَوُا الْعَذٰابَ** و كل من

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٢٦٦

قصّر و فرّط فمصيره العذاب و الندامة و الكآبة **وَ جَعَلْنَا الْأَغْلاٰلَ فِي أَعْنٰاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا** من القادة و أتباعهم **هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ** كلا، فإن المرء مجزي بما أسلف، و مقدم على ما قدّم وَ مٰا رَبُّكَ بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِيدِ.

[سورة سبإ (٣٤): الآيات ٣٤ الى ٤٣]

وَ مٰا أَرْسَلْنٰا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاّٰ قٰالَ مُتْرَفُوهٰا إِنّٰا بِمٰا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كٰافِرُونَ (٣٤) وَ قٰالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوٰالاً وَ أَوْلاٰداً وَ مٰا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يَقْدِرُ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ النّٰاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ (٣٦) وَ مٰا أَمْوٰالُكُمْ وَ لاٰ أَوْلاٰدُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنٰا زُلْفىٰ إِلاّٰ مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحاً فَأُولٰئِكَ لَهُمْ جَزٰاءُ الضِّعْفِ بِمٰا عَمِلُوا وَ هُمْ فِي الْغُرُفٰاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَ الَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيٰاتِنٰا مُعٰاجِزِينَ أُولٰئِكَ فِي الْعَذٰابِ مُحْضَرُونَ (٣٨)

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ وَ مٰا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَ هُوَ خَيْرُ الرّٰازِقِينَ (٣٩) وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلاٰئِكَةِ أَ هٰؤُلاٰءِ إِيّٰاكُمْ كٰانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قٰالُوا سُبْحٰانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنٰا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كٰانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لاٰ يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَ لاٰ ضَرًّا وَ نَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذٰابَ النّٰارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهٰا تُكَذِّبُونَ (٤٢)

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۲۶۷

اللغة:

المترفون هم الذين يتنعمون في الملذات كما يشاءون. و يقدر يضيق. و زلفى قربى. و معاجزين جمع معاجز أي سابقه ليظهر عجزه.

الإعراب:

كافرون اسم انّا، و بما أرسلتم متعلق بكافرين، و به متعلق بأرسلتم. و أموالا و أولادا تمييز. و بمعذبين الباء زائدة إعرابا، و معذبين خبر نحن. و زلفى مفعول مطلق لتقربكم. إلا من آمن و عمل صالحا على الاستثناء المنقطع أي لكن من آمن و عمل صالحا فإيمانه و عمله الصالح يقربانه من اللّه زلفى. فأولئك مبتدأ أول و جزاء مبتدأ ثان و الضعف مجرور بالإضافة من إضافة المصدر الى مفعوله أي فأولئك نضاعف لهم الجزاء، و لهم خبر الثاني، و الجملة من الثاني و خبره خبر الأول، و هؤلاء مبتدأ و إياكم مفعول يعبدون و جملة يعبدون خبر كان و جملة كان و اسمها و خبرها خبر هؤلاء.

المعنى:

وَ ما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ وَ قالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وَ أَوْلاداً وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ. هذا هو تفكير المترفين، و هذه هي لغتهم .. المال هو الأول و الأخير، هو السيد و هم العبيد، و من أجله يحملون لواء الشر و الاعتداء على الناس، و يتحكمون بالأسواق و الأقوات، و يثيرون الحروب الحامية و الباردة، و يسيطرون بكل أسلوب على مختلف مستويات الحياة، و يربطون كل شيء بمكاسبهم و أرباحهم، فالعلم ليس بشيء إلا إذا زاد من ثرواتهم، و الدين أداة هدم و تخريب إلا إذا كان حارسا لهم و لمصالحهم، و السلم هو ان يسلبوا و ينهبوا و لا يزجرهم زاجر أو يسألهم سائل .. انظر تفسير الآية ١٦ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٣٠ فقرة «المترفون» و الآية ٩٠ من نفس السورة و المجلد ص ٨٥.

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۲۶۸

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ.

تقدم في الآية ٢٦ من سورة الرعد ج ٤ ص ٤٠١ فقرة: «الإنسان و الرزق» **وَ ما أَمْوالُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا وَ هُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ.** ان اللّه سبحانه لا يقيس الخير و الفضيلة بالأموال و الأولاد، و لا بالمناصب و الأنساب، بل بالإيمان و العمل الصالح، فبهما يكون العبد مرضيا عند اللّه راضيا بثوابه و فضله. قال الإمام علي (ع): ليس الخير أن يكثر مالك و ولدك، و لكن الخير أن يكثر علمك و يعظم حلمك، و ان تباهي الناس بعبادة ربك، فإن أحسنت حمدت اللّه، و ان أسأت استغفرت اللّه، و لا خير في الدنيا إلا لرجلين: رجل أذنب ذنوبا فهو يتداركها بالتوبة، و رجل يسارع في الخيرات.

وَ الَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ. تقدم مثله في سورة الحج الآية ٥١ ج ٥ ص ٣٣٨ **قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ.** و تسأل: لما ذا كرر سبحانه هذه الآية مع العلم بأنه لا فاصل بينها و بين الأولى سوى آيتين؟

و أجاب المفسرون بأن الآية الأولى تختص بالكافرين، و الثانية بالمؤمنين، قال الرازي: «و الدليل على ذلك انه تعالى ذكر

في الآية الثانية «من عباده» دون الأولى، و العبد المضاف اليه تعالى يراد به المؤمن» و غير بعيد أن يكون التكرار للوعظ و التمهيد للحض على الإنفاق الذي أشار اليه سبحانه بقوله: **وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**.

و عن الرسول الأعظم (ص) انه قال:

ينادي مناد كل ليلة: اللهم هب لكل منفق خلفا، و ينادي مناد آخر: اللهم هب لكل ممسك تلفا. و في نهج البلاغة: استنزلوا الرزق بالصدقة.

وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَ هؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ. القصد من توجيه هذا السؤال للملائكة هو تقريع المشركين و توبيخهم، و تدل الآية ان بعض العرب كانوا يعبدون الملائكة، و في الآية ٤٠ من سورة الإسراء إيماء إلى ذلك: أَ فَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَ اتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِناثاً و من نسب الولد اليه تعالى فقد جعل له شبيها و في العز شريكا **قالُوا سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ**

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٦٩

أي أنت سيدنا و هم أعداء لنا، و نحن نبرأ منهم اليك **بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ**. قال جماعة من المفسرين: المراد بالجن هنا الشياطين، و انهم زينوا للمشركين عبادة الملائكة و غيرهم من دون اللّه. و قال آخرون: ان عبادة الجن كانت معروفة عند العرب، و عليه تكون الآية على ظاهرها، و لا داعي للتأويل .. و سواء أ كان الجن هم المعبودين عند العرب، أم كان المعبود غيرهم بتزيين الشياطين فإن القصد الأول من الآية نفي الشريك للّه، و الشفيع لديه إلا بإذنه، و انه لا ملجأ منه إلا اليه.

و من أجل هذا عقب سبحانه بقوله: **فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَ لا ضَرًّا**. فلا الملائكة و لا الانس و الجن يملكون لأنفسهم شيئا عند نقاش الحساب فكيف يملكونه لغيرهم؟ له وحده الملك و الحمد، و هو على كل شيء قدير **وَ نَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ**. قالوا:

لا جنة و لا نار، و لا نؤمن حتى نراهما جهرة، فأحرقهم اللّه بعذابها استجابة لطلبهم .. و ذكرتني هذه الآية بمن يقول: لا علم و لا معرفة إلا عن طريق المشاهدة و التجربة حتى في غير المنظور و المحسوس.

[سورة سبإ (٣٤): الآيات ٤٣ الى ٥٠]

وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ وَ قالُوا ما هذا إِلاَّ إِفْكٌ مُفْتَرىً وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (٤٣) وَ ما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها وَ ما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٤٤) وَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ ما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (٤٥) قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَ فُرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ (٤٦) قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧)

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَ ما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَ ما يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي وَ إِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٧٠

اللغة:

النكير الإنكار، و المراد به هنا الهلاك. مثنى و فرادى أي اثنين اثنين و واحدا واحدا. و الجنة الجنون. و القذف الرمي و المراد به هنا الوحي إلى النبي (ص).

بدأ الشيء فعله ابتداء، و أعاده كرره، و المراد هنا ان الباطل لا أثر له على الإطلاق.

الإعراب:

كيف خبر كان و نكير اسمها و أصلها نكيري. و المصدر من أن تقوموا بدل من واحدة. و مثنى و فرادى حال من فاعل تقوموا. بين يدي ظرف منصوب بنذير. ما سألتكم «ما» اسم موصول مبتدأ، و جملة فهو لكم خبر و العائد على الموصول محذوف أي ما سألتكموه. و علام الغيوب خبر مبتدأ محذوف أي هو.

فبما يوحي متعلق بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف أي فاهتدائي كائن بالوحي إليّ.

المعنى:

وَ إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آيٰاتُنٰا بَيِّنٰاتٍ قٰالُوا مٰا هٰذٰا إِلاّٰ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمّٰا

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۲۷۱

كٰانَ يَعْبُدُ آبٰاؤُكُمْ وَ قٰالُوا مٰا هٰذٰا إِلاّٰ إِفْكٌ مُفْتَرىً وَ قٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمّٰا جٰاءَهُمْ إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ سِحْرٌ مُبِينٌ. ضمير عليهم و قالوا يعود الى مشركي العرب، و مرادهم بالرجل محمد (ص) و قد وصفوه بالافتراء و السحر و الجنون لأنه دعاهم الى نبذ الوثنية و تقاليدهم الجاهلية و الكف عن المحارم و الفواحش و اراقة الدماء و التحكم بالضعفاء، و إلى العمل بالعلم و العدل .. هذا هو ذنب الرسول الأعظم عندهم، و هو- كما ترى- ذنب العالم المخلص عند الجاهل الخائن، و الطبيب الناصح عند العليل الذي يرى نفسه سليما معافى .. و صدق من قال: يفعل الجاهل بنفسه ما لا يفعله العدو بعدوه.

وَ مٰا آتَيْنٰاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهٰا وَ مٰا أَرْسَلْنٰا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ. أشركوا باللّه، و كل شيء يدل على انه واحد، و قلدوا الآباء و الأجداد، و لا حجة لهم من وحي منزل أو نبي مرسل أو أثارة من علم. أنظر تفسير الآية ٣ من سورة الحج ج ٥ ص ٣٠٨ فقرة «جدال الجهل و الضلال» **وَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ مٰا بَلَغُوا مِعْشٰارَ مٰا آتَيْنٰاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كٰانَ نَكِيرِ**. لقد أشرك قبلكم كثير من الأمم، و كذبوا الرسل كما كذبتم رسولكم، و كانوا أكثر منكم قوة و حضارة، و مع ذلك أخذهم اللّه بظلمهم و تمردهم .. ألا تعتبرون بهم، و تخافون أن يصيبكم ما أصابهم؟ و تقدم مثله في الآية ٦٩ و ٧٠ من سورة التوبة ج ٤ ص ٦٧.

قُلْ إِنَّمٰا أَعِظُكُمْ بِوٰاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلّٰهِ مَثْنىٰ وَ فُرٰادىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مٰا بِصٰاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاّٰ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذٰابٍ شَدِيدٍ. أعظكم أدعوكم، و واحدة خصلة واحدة، ان تقوموا للّه أن تتجردوا للحق بعيدين عن التقاليد و الأهواء، و مثنى ان يراجع أحدكم الآخر و تتدارسوا دعوتي و رسالتي. و فرادى ان يرجع كل منكم الى عقله و ضميره و ينعم الفكر فيما جئتكم به .. و المعنى قل يا محمد للذين كذبوك: أنا لا أطلب منكم إلا شيئا واحدا، هو العدل و الانصاف، هو ان تفكروا مجتمعين و منفردين في دعوتي بوعي و إخلاص، ثم تنظروا: هل أنا مفتر أو ساحر أو مجنون كما تزعمون، أم أنا بشير و نذير، و ناصح بصير؟ .. و قد دعا النبي الكريم أهل الكتاب الى مثل هذه الدعوة: قُلْ يٰا أَهْلَ الْكِتٰابِ تَعٰالَوْا إِلىٰ كَلِمَةٍ سَوٰاءٍ بَيْنَنٰا وَ بَيْنَكُمْ أَلاّٰ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّٰهَ وَ لاٰ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً- ٦٤ آل عمران و لا شيء أصدق في الدلالة على صدق رسول اللّه (ص) في كل ما جاء به من

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۲۷۲

دعوة خصومه الى منهج الحق و العدل.

روي عن ابن عباس ان النبي (ص) صعد الصفا ذات يوم، و قال: يا صباحاه- كلمة يقولها المستغيث عند حدوث أمر عظيم- فاجتمعت قريش، فقال: أرأيتم لو أخبرتكم ان العدو يصبحكم أو يمسيكم، اما كنتم تصدقوني؟

قالوا: بلى. قال: اني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فأجابه أبو لهب بكلمة الكفر .. و لكن ما مضت الأيام حتى استسلموا أذلاء صاغرين.

(قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَ هُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ). المراد بـ**(فَهُوَ لَكُمْ)** نفي سؤال الأجر من الأساس مثل: «فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ- ٧٢ يونس» ج ٤ ص ١٨٠ **(قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ)** أي يوحي بالحق الى أنبيائه، و هو أعلم به، و بأهلية من أوحى اليه للرسالة العظمى.

(قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَ ما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَ ما يُعِيدُ). المراد بالحق هنا رسالة محمد (ص) و بالباطل الشرك، و ما يبدئ و يعيد كناية عن إزهاق الباطل و انتهاء أمره و عدم ظهور أثره في الجزيرة العربية إطلاقا بعد الرسالة المحمدية **(قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلىٰ نَفْسِي)** و ضرر ضلالي عليّ وحدي، و لا شيء عليكم منه **(وَ إِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي)** و اليه وحده الفضل في هدايتي و لا أملك منها و لا من غيرها إلا ما ملكني **(إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ)** ان قلتم سمع، و ان أضمرتم أو فعلتم علم لأنه أقرب إليكم من حبل الوريد.

[سورة سبإ (٣٤): الآيات ٥١ الى ٥٤]

وَ لَوْ تَرىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَ أُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَ قالُوا آمَنَّا بِهِ وَ أَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَ قَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَ يَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ ما يَشْتَهُونَ كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (٥٤)

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٢٧٣

اللغة:

إذ فزعوا إذ خافوا. فلا فوت فلا مهرب. و يقذفون يرجمون. و التناوش التناول. و المراد بالأشياع هنا الأمثال و الأشباه.

الإعراب:

جواب لو محذوف أي لرأيت عجبا. و فوت اسم لا و خبرها محذوف أي لهم.

و التناوش مبتدأ، و انّى لهم أي من أين لهم و هو متعلق بمحذوف خبرا للتناوش.

المعنى:

(وَ لَوْ تَرىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَ أُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ). الخطاب لرسول اللّه (ص) و أخذوا من مكان قريب كناية عن انهم في متناول قدرة اللّه تعالى، و المعنى لو رأيت غدا يا محمد ما يصيب المكذبين بنبوتك من الذعر و العذاب الذي لا مفر لهم منه لرأيت عجبا. و الغرض من هذا الخطاب تهديد المشركين و التخفيف عن سيد المرسلين.

(وَ قالُوا آمَنَّا بِهِ وَ أَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ). ضمير به يعود الى رسول اللّه (ص) لأن ذكره قد مر في الآية السابقة ٤٦: «ما بصاحبكم من جنة» و التناوش التناول، و المعنى ان المكذبين بمحمد يقولون حين يرون العذاب: آمنا به، و لكن من أين ينالون هذا الايمان، أو يجديهم نفعا، و هو أبعد ما يكون عنهم لأن يوم القيامة هو يوم حساب و

جزاء، لا يوم ايمان و عمل. قال الإمام علي (ع): اليوم عمل و لا حساب، و غدا حساب و لا عمل .. عباد اللّه زنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، و حاسبوها قبل أن تحاسبوا.

(وَ قَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ) فوات الفرصة، و حيث ينفعهم الايمان **(وَ يَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ)**. يقذفون بالغيب أي يتكلمون من غير علم، و من مكان بعيد كناية عن بعد أقوالهم و ايمانهم عن الحق و الواقع، و المعنى انهم كانوا يقولون:

محمد مفتر و ساحر و مجنون، و لا جنة و لا نار جهلا و من غير دليل.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٧٤

(وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ ما يَشْتَهُونَ). اشتهوا النجاة و الإفلات من عذاب جهنم، فلجئوا إلى الايمان و التوبة، و لكن بعد فوات الأوان، فازدادوا حسرة و ألما **(كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ)**. فلقد كان لهم أشباه و نظائر من الأمم البائدة، أعرضوا عن ربهم في الحياة الدنيا، و فزعوا اليه في الآخرة، فقال لهم: «اخْسَؤُا فِيها وَ لا تُكَلِّمُونِ- ١٠٨ المؤمنون» **(إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ)** من البعث و النشور، و شك مريب مثل عجب عجيب، و ظل ظليل، لأن الشك و الريب بمعنى واحد.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٧٥

سورة فاطر

مكية، و آيها ٤٥.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة فاطر (٣٥): الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنى وَ ثُلاثَ وَ رُباعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ما يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها وَ ما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣)

اللغة:

فاطر السموات و الأرض خالقهما على غير مثال سابق. و مثنى و ثلاث و رباع معدولة عن اثنين اثنين و ثلاثة ثلاثة و أربعة أربعة، و لم يسمع فيما زاد عن هذه الأعداد مثل مخمس. و المراد بما يفتح هنا ما يعطي. و تؤفكون تصرفون عن الحق إلى الضلال.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٧٦

الإعراب:

فاطر السموات صفة للّه. و جاعل صفة ثانية، و قيل: انه يعمل عمل الفعل لأنه مضاف فأشبه المقرون باللام، و عليه يكون

مضافا الى المفعول الأول و هو الملائكة، و رسلا مفعول ثان. و أولي أجنحة بدل من رسل، و مثنى و ما بعدها صفات للملائكة. و ما يفتح «ما» شرطية في محل نصب بيفتح. فأنّى تؤفكون أي فإلى أين، و المجرور متعلق بتؤفكون.

المعنى:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنى وَ ثُلاثَ وَ رُباعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ). حمد اللّه نفسه ليعلّمنا كيف نحمده و نشكره .. و تدل الآية على ان من الملائكة من له جناحان، و منهم له ثلاثة، و منهم له أربعة، و انه تعالى يزيد لآخرين في الأجنحة ما يشاء .. و هذا و ما اليه يتفق مع قدرة اللّه و عظمته، و العقل لا يأباه، هذا ما نعلمه، و ما عداه نتركه إلى علم اللّه سبحانه لأنّا غير مسؤولين عنه، و لا يمت إلى حياتنا بسبب، و لا دليل عليه من آية أو رواية متواترة. و أخشى أن يقول أنصار تأويل النصوص الدينية بالعلم الحديث، أن يقولوا: ان مثنى اشارة الى الطائرة ذات المحركين، و ثلاث الى المحركات الثلاثة، و رباعا الى ذات الأربعة، أما قوله تعالى: يزيد في الخلق ما يشاء فهو إشارة الى طائرات المستقبل ذات المحركات العديدة.

(ما يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها وَ ما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ). الفتح العطاء، و الإمساك المنع، و الإرسال الإطلاق بعد المنع. و ليس المراد بالرحمة هنا مجرد المال كما قال بعض المفسرين، و لا هو مع الصحة و الجاه و العلم كما قال آخرون .. كلا، فإن المال قد يؤدي الى الطغيان و الاستغلال، فقد رأينا الكثير من أصحاب الملايين حولوا الشعوب الضعيفة الى شركات مساهمة يملكون أسهمها، و يتحكمون بأهلها و يحيلونهم الى عبيد مستخدمين أو لاجئين مشردين .. و قد تؤدي الصحة بصاحبها الى المغامرة و الأخطار، أما

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٢٧٧

الجاه فهو- في الأعم الأغلب- أداة للبغي و العدوان. و رب علم الجهل خير منه كالعلم الذي أنتج القنبلة الذرية، و ما اليها من الأسلحة الجهنمية .. كلا، ليس المراد برحمته تعالى في هذه الآية المال وحده و لا الصحة وحدها، و لا مجرد الجاه و العلم، و إنما المراد بها لطف اللّه و هدايته الى الخير، و وقايته من الشر.

قال الإمام علي (ع): «عند تناهي الشدة تكون الفرجة، و عند تضايق حلق البلاء يكون الرخاء» و قد شاهدنا أيسر المشاكل تزداد تعقيدا كلما اجتهد أصحابها في حلها، و رأينا أعسرها تحل بسهولة و يسر أو تلقائيا، و لا سر لذلك إلا إرادة اللّه و رحمته، و صدق من قال: «ينام الإنسان على الشوك مع رحمة اللّه فإذا هو مهاد، و ينام على الحرير بدون هذه الرحمة فإذا هو شوك القتاد».

(يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ). هذا التذكير بنعمة اللّه و بأنه وحده الخالق الرازق انما هو تأكيد للآية السابقة: «ما يفتح اللّه للناس الخ» و في نهج البلاغة: «فكم خصكم اللّه بنعمته، و تداركم برحمته، أعورتم له- أي ظهرت له عوراتكم- فستركم، و تعرضتم لأخذه- أي لهلاكه- فأمهلكم ..

فاستتموا نعم اللّه عليكم بالصبر على طاعته، و المجانبة لمعصيته، فإن غدا من اليوم قريب».

[سورة فاطر (٣٥): الآيات ٤ الى ٨]

وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَ إِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤) يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ لا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ (٦)

الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَ فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ (٨)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٧٨

الإعراب:

أ فمن زيّن له «من» مبتدأ و الخبر محذوف أي كمن لم يزين له. و حسرات مفعول من أجله لتذهب، و عليهم متعلق بتذهب لا بحسرات لأنها مصدر، و المصدر لا يقدم معموله عليه. هكذا قال النحاة.

المعنى:

وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَ إِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ فيثيب المؤمن الصابر في جهاده، و يعاقب من كذب الحق على تكذيبه، و الغرض التخفيف عن الرسول الأعظم (ص)، و تهديد خصومه و أعدائه. و تقدم مثله في الآية ١٨٤ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٢٢٢ و الآية ٤٢ من سورة الحج ج ٥ ص ٣٣٥.

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ لا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ. المراد بوعد اللّه هنا الحساب و الجزاء بعد الموت، و مغريات الدنيا المال و الجاه و النساء و البنون، و الغرور الشيطان. و تقدم مثله في الآية ٣٣ من سورة لقمان **إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ**. أعلن الشيطان صراحة عداوته لبني آدم بقوله: لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ- ٣٩ الحجر. و حزبه هم أتباعه الذين يستمعون إلى وسوسته و اغرائه.

و قد حذرنا سبحانه من طاعته لأنه يدعو إلى الفساد و الهلاك، و اللّه يدعو إلى الخير و الرحمة.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٧٩

الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ. لكل امرئ عاقبة حلوة أو مرّة، فعاقبة من كفر و أفسد جهنم و ساءت مصيرا، و عاقبة من آمن و أصلح جنة قائمة، و راحة دائمة.

زين له سوء عمله:

أَ فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً. لا أحد من الناس يعيش بلا فلسفة و مثل أعلى له، حتى الذين يرفضون الفلسفات و المثل العليا فقد جعلوا هذا الرفض فلسفة لهم و مثلا أعلى .. و من هنا قيل: من نفى الفلسفة فقد تفلسف .. أجل، لكل انسان فلسفة، و الفرق ان بعض الناس يبني فلسفته و أحكامه على التجربة و التحليل، و منهم من يبنيها على العقل أو على الدين، و منهم من يحكم على الأشياء من خلال ذاته و ميوله الخاصة معرضا عن كل ما عداها لا يبحث و لا يفكر و لا يحلل، لأنه لا يؤمن بعلم و لا عقل و لا دين، لا بشيء إلا بما يراه و يهواه ..

انه ينظر الى نفسه على انها المقياس الوحيد للحق و الخير و الصواب، و انها في عصمة من النقص و الخطأ .. و الكلام عن هذا لا يدخل في أي بحث من البحوث إلا كشاهد على السفاهة و الغرور القاتل، و قد أشار سبحانه إليه في العديد من الآيات منها هذه الآية، و منها: قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً- ١٠٣ الكهف ج ٥ ص ١٦٣ و منها: وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قالُوا إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَ لكِنْ لا يَشْعُرُونَ- ١٢ البقرة.

فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ. هذا تعليل لقوله تعالى: **أَ فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً** أي ان اللّه قد كتب عليه الضلال و سوء المصير لأنه سلك الطريق المؤدية الى ذلك تماما كما كتب الموت على من شرب السم، و الغرق على من رمى نفسه في البحر، و هو جاهل بفن السباحة. و تقدم مثله في الآية ٢٧ من سورة الرعد و الآية ٤ من سورة ابراهيم و الآية ٩٣ من سورة النحل.

فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ. لا تأسف و لا تحزن يا محمد على الذين لم يستجيبوا لدعوتك ما داموا قد سلكوا طريق الضلال

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٨٠

و الهلاك بسوء اختيارهم، و قد أحصى اللّه عليهم كل صغيرة و كبيرة، و سوف يعاملهم بما يستحقون. و تقدم مثله في الآية ٦ من سورة الكهف ج ٥ ص ١٠٢.

[سورة فاطر (٣٥): الآيات ٩ الى ١١]

وَ اللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذلِكَ النُّشُورُ (٩) مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَ الَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ مَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠) وَ اللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً وَ ما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَ لا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَ ما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ (١١)

اللغة:

يبور من البوار و هو الهلاك. و أزواجا أصنافا بيضا و سودا و ذكورا و إناثا.

و المعمر من طال عمره.

الإعراب:

جميعا حال من العزة. و مكر مبتدأ و هو ضمير فصل، و جملة يبور خبر.

و من معمر «من» زائدة إعرابا و معمر نائب فاعل ليعمّر. و نائب فاعل لا ينقص محذوف أي لا ينقص شيء من عمره. و في كتاب متعلق بمحذوف خبرا لمبتدأ محذوف أي الا هو كائن في كتاب.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٨١

المعنى:

وَ اللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذلِكَ النُّشُورُ.

تقدم نظيره في الآية ٥٧ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٤٢.

مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً. العزة للّه و لدين اللّه بالذات، و بهما يكون الإنسان عزيزا، و من اعتز بغير اللّه ذل، قال ابن عربي في الفتوحات: عزة الحق لذاته إذ لا إله إلا هو، و عزة رسوله باللّه، و عزة المؤمنين باللّه و برسوله .. فعزة هؤلاء بإعزاز اللّه، فثبت للفرع ما ثبت للأصل.

و ما ذل المسلمون في هذا العصر إلا لأنهم اعتزوا بغير الإسلام، و قد كانوا من قبل أقل من اليوم عددا، و لكن كانوا كثيرين بالإسلام عزيزين بالاجتماع و وحدة الكلمة ضد عدو اللّه و عدوهم.

إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ. صعود الكلام و رفع العمل اليه تعالى كناية عن قبولهما و الاثابة عليهما، و الكلام الطيب ما نفع، و مثله العمل الصالح، و تومئ الآية الى ان سبب العزة و الرفعة عند اللّه تعالى هو ما ينفع الناس من الأقوال و الأفعال **وَ الَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ مَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ**. يمكرون السيئات أي يدبرون الأذى و الاساءة الى المؤمنين و الطيبين، و لكن هذا المكر و الخداع الى بوار و هباء، و في معنى ذلك قوله تعالى: وَ لا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ- ٤٣ فاطر.

وَ اللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ. تقدم في الآية ٥ من سورة الحج ج ٥ ص ٣١٠ **ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً** أصنافا أسود و أبيض و ذكرا و أنثى **وَ ما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَ لا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ** لأنه بكل شيء محيط **وَ ما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ**. المعمر طويل العمر. و لا ينقص من عمره كناية عن قصر العمر، و في كتاب أي في علم اللّه، و المعنى الأعمار بيده تعالى. و في نهج البلاغة: «لا تنالون من الدنيا نعمة إلا بفراق أخرى، و لا يعمر معمر منكم يوما من عمره إلا بهدم آخر من أجله». انظر ج ٢ ص ١٧١ فقرة: «الأجل محتوم».

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٨٢

[سورة فاطر (٣٥): الآيات ١٢ الى ١٨]

وَ ما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَ هذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَ مِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَ تَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَواخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا ما اسْتَجابُوا لَكُمْ وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَ لا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللهِ وَ اللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَ ما ذلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وَ إِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ مَنْ تَزَكَّى فَإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَ إِلَى اللهِ الْمَصِيرُ (١٨)

اللغة:

عذب حلو لذيذ. و السائغ سهل المرور في الحلق. و ملح أجاج شديد الملوحة.

و مواخر جمع ماخرة، يقال: مخرت السفينة إذا جرت. و قطمير قشر رقيق على نوى التمر كاللفافة لها. و الوزر الذنب. و المثقلة النفس التي أثقلتها الذنوب.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٨٣

الإعراب:

شرابه فاعل سائغ. و جملة تلبسونها صفة لحلية. و المصدر من لتبتغوا متعلق بمواخر. ذلكم مبتدأ و اللّه خبر أول و ربكم خبر ثان، و له الملك مبتدأ و خبر و الجملة خبر ثالث. و من دونه متعلق بمحذوف حالا من مفعول تدعون المحذوف أي و الذين تدعونهم كائنين من دونه. و كل من وازرة و أخرى و مثقلة صفة لنفس محذوفة أي و لا تزر نفس وازرة وزر نفس أخرى. و لو كان ذا قربى «لو» للوصل و اسم كان محذوف أي و لو كان المدعو ذا قربى.

المعنى:

وَ ما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَ هذا مِلْحٌ أُجاجٌ. هذه الآية من الآيات الكونية، و هي تشير إلى تنوع الماء عذوبة و ملوحة، و هذا التنوع و ان استند مباشرة إلى أسبابه الطبيعية فإنها تنتهي الى خالق الطبيعة و مبدعها. و تقدم مثله في الآية ٥٣ من سورة الفرقان ج ٥ ص ٤٧٦ (و من كل) واحد من البحرين **تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا** كالسمك **وَ تَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَ تَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَواخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.** تقدم بالنص الحرفي في الآية ١٣ من سورة النحل ج ٤ ص ٥٠٢.

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ. تتحرك الأفلاك و يدور بعضها حول بعض، فتتعدد الفصول، و يأخذ الليل من النهار في فصل، و النهار من الليل في فصل آخر، و هذا التنظيم الدقيق المطرد في كل عام مدى الملايين من القرون- يدل دلالة قاطعة على وجود المدبر الحكيم لهذا الكون، تماما كما تدل الآلة التي تؤدي الغرض المطلوب منها- على صانعها و منظمها، و الصدفة باطلة بحكم التكرار. و تقدم مثله في الآية ٢٧ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٣٧ **وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى.** تقدم بنصه الحرفي في الآية ٢ من سورة الرعد ج ٤ ص ٣٧٣.

ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ.

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۲۸۴

القطمير كناية عن أحقر الأشياء و أتفهها، و المعنى ان ما ترونه من مظاهر الكون و عجائبه فهو من صنع اللّه الذي لا إله سواه، أما الذين تعبدون و ترجون فإنهم لا يملكون مع اللّه شيئا **إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ** ان كانوا بلا احساس و شعور كالأحجار و الأشجار و الكواكب **وَ لَوْ سَمِعُوا** ان كانوا من الإنس أو الجن أو الملائكة **ما اسْتَجابُوا لَكُمْ** لأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعا و لا ضرا، فكيف يملكون ذلك لغيرهم **وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ.** يبرءون منكم و يوبخونكم على الشرك و الضلال **وَ لا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ** بمصير هؤلاء المكذبين بنبوتك يا محمد و غيرهم من العصاة و الطغاة.

يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللهِ وَ اللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ. ان افتقار المخلوق الى خالقه لا ينقطع أبدا تماما كافتقار المعلول الى علته، و المسبب الى سببه، قال ابن عربي في الفتوحات: للإنسان وجهان: وجه مفتقر الى اللّه، و وجه غني عن العالم، فهو فقير ذليل أبدا بالنسبة اليه تعالى، و غني عزيز بالنسبة الى من استغنى عنه.

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَ ما ذلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ. ذلك اشارة الى إفناء العاصين، و إيجاد المطيعين مكانهم، و لو أراد ذلك سبحانه لكان ما أراد، لأنه على كل شيء قدير. و تقدم في الآية ١٩ من سورة ابراهيم بالنص الحرفي ج ٤ ص ٤٣٦، و بالمعنى في الآية ١٣٢ من سورة النساء ج ٢ ص ٤٥٦ و الآية ١٣٣ من سورة الانعام ج ٣ ص ٢٦٦.

وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى كل مذنب يحاسب و يعاقب على ذنبه فقط، و العكس في التوراة سفر العدد اصحاح ٢٤: «الرب طويل الروح .. و لكنه لا يبرئ بل يجعل ذنب الآباء على الأبناء». و تقدمت الآية بنصها الحرفي في سورة الأنعام الآية ١٦٤ ج ٣ ص ٢٩٣ **وَ إِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى.**

مثقلة أي نفس تحمل حملا ثقيلا من الأوزار، و المعنى لا يجدي في ذلك اليوم تضرع و خضوع و لا طلب العون و الغوث من قريب و حبيب لأن لكل انسان من نفسه شاغلا عن غيره: **يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ وَ صاحِبَتِهِ وَ**

بَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ- ٣٧ عبس.

تفسير الكاشف، ج۶، ص ٢٨٥

إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ. انما يستجيب لدعوتك يا محمد الذين يخافون اللّه، و يرجون ثوابه، أما الذين لا يؤمنون به و لا باليوم الآخر فلا يجدي معهم نصح و لا إنذار **وَ مَنْ تَزَكَّى فَإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ**. هذا مثل قوله تعالى: مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَساءَ فَعَلَيْها وَ ما رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ ٤٦ فصلت. و في نهج البلاغة: حاسب نفسك لنفسك، فإن غيرها من الأنفس لها حسيب غيرك **وَ إِلَى اللهِ الْمَصِيرُ** فيثيب من آمن و أصلح، و يعاقب من أفسد و أساء.

[سورة فاطر (٣٥): الآيات ١٩ الى ٣٨]

وَ ما يَسْتَوِي الأَعْمى وَ الْبَصِيرُ (١٩) وَ لا الظُّلُماتُ وَ لا النُّورُ (٢٠) وَ لا الظِّلُّ وَ لا الْحَرُورُ (٢١) وَ ما يَسْتَوِي الأَحْياءُ وَ لا الأَمْواتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ وَ ما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنْتَ إِلاَّ نَذِيرٌ (٢٣)
إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيها نَذِيرٌ (٢٤) وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَ بِالزُّبُرِ وَ بِالْكِتابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (٢٦) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها وَ مِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَ حُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَ غَرابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَ مِنَ النَّاسِ وَ الدَّوَابِّ وَ الأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ كَذلِكَ إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)

تفسير الكاشف، ج۶، ص ٢٨۶

اللغة:

استوى هذا و ذاك أي هما سواء أو على سوية. و الظّل الفيء و الظلال ما أظلك. و الحرور الريح الحارة و المحرور من داخلته حرارة الغيظ و نحوه. و الجدد بضم الجيم جمع جدة بالضم أيضا، و هي الطريق و الجادة من الألوان المختلفة. و غرابيب جمع غربيب الشديد السواد، و في البحر المحيط يقال: اسود حلكوك و اسود غربيب.

الإعراب:

ان نافية، و من زائدة اعرابا، و أمة مبتدأ، و جملة خلا خبر. و مختلفا صفة لثمرات و ألوانها فاعل مختلف. و من الجبال جدد مبتدأ و خبر، و بيض و حمر صفة لجدد. و مختلف ألوانها صفة لحمر. و بيض موصوفة بمختلف محذوف، و هو من باب حذف الأول لدلالة الثاني عليه، و المعنى ان الجدد البيض تختلف في البياض شدة و ضعفا، و الجدد الحمر تختلف في الحمرة كذلك. و من الناس و ما بعده متعلق بمحذوف خبرا لمبتدأ محذوف، و مختلف ألوانه صفة للمبتدإ المحذوف اي جنس مختلف ألوانه. و كذلك الكاف بمعنى مثل صفة لمفعول مطلق محذوف اي اختلافا مثل ذلك.

المعنى:

وَ ما يَسْتَوِي الأَعْمى وَ الْبَصِيرُ وَ لا الظُّلُماتُ وَ لا النُّورُ وَ لا الظِّلُّ وَ لا الْحَرُورُ وَ ما يَسْتَوِي الأَحْياءُ وَ لا الأَمْواتُ. المراد بالأعمى من انحرف عن طريق الحق و الهداية، و ضده البصير، و الظلمات كناية عن الجهل و الضلال و النور كناية عن العلم و الهدى، و الظل يومئ إلى النعيم و الحرور الى الجحيم، أما الأحياء فهم أصحاب القلوب الحية الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، و ضدهم الأموات، و المعنى ليس سواء عند اللّه و في الواقع من آمن و أصلح و

من كفر و أفسد، بل ان الفرق بينهما تماما كالفرق بين العمى و البصر، و النور و الظلام، و الجحيم و النعيم، و الموت و الحياة.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٢٨٧

إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ وَ ما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ إِنْ أَنْتَ إِلاَّ نَذِيرٌ.

ان كلامه تعالى يؤثر و يعمل عمله في نفوس الذين يطلبون الحق لوجه الحق، و يستمعون اليه رغبة في العمل به، أما الذين لا يحركهم شيء إلا المصالح الخاصة و لا يعملون إلا بوحي منها فإنهم لا يستمعون إلى كلامه تعالى، و لا هو، جلت حكمته، يلجئهم إلى الهداية و إلا بطل الثواب و العقاب. و تقدم مثله في الآية ٤٢ من سورة يونس ج ٤ ص ١٦٢ و الآية ٨٠ من سورة النمل.

إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَ نَذِيراً. أرسل اللّه محمدا (ص) بالحجج الكافية الوافية داعيا إلى الحق، و شاهدا على الخلق، فبلّغ رسالات ربه على أكمل وجه، و كان رحمة للعالمين بعامة، و للعرب بخاصة حيث نقلهم من الجاهلية الجهلاء الى نور الإسلام و كرامته. و تقدم بنصبه الحرفي الآية ١١٩ من سورة البقرة ج ١ ص ١٩٠.

لكل أمة رسول:

في القرآن الكريم آيات تدل صراحة على ان اللّه سبحانه أرسل لكل أمة رسولا، منها هذه الآية: **وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيها نَذِيرٌ»** و منها: فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ- ٤١ النساء ج ٢ ص ٣٢٧، و منها: وَ لَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً- ٣٦ النحل ج ٤ ص ٥١٢، و منها: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ- ٤٧ يونس ج ٤ ص ١٦٥. بالاضافة الى قوله تعالى: فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ- ٩٢ الحجر، و قوله: أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً- ٣٦ القيامة و نحو ذلك.

و غير بعيد أن يكون المراد بالرسول و النذير و الشهيد كل ما تقوم به الحجة، و تقطع به المعذرة من نبي مرسل أو كتاب منزل أو مرشد مصلح أو حكم من أحكام العقل البديهية التي لا ينبغي ان يختلف فيها اثنان من ذوي العقول السليمة و فطرة اللّه التي فطر عليها الناس، كقبح الظلم و الخيانة، و حسن العدل و الأمانة، و ما إلى ذاك. و لا نعرف أمة من الأمم عاشت فوضى و بلا نظام، تدع كل واحد من أفرادها و ما يشاء لا تحاسبه على قول أو فعل.

و تسأل: ألا يتنافى قوله تعالى: **وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيها نَذِيرٌ** مع

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٢٨٨

قوله: وَ ما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ- ٤٤ سبأ حيث أثبت في الآية الأولى النذير لكل قوم، و نفاه في الثانية عن قوم محمد (ص) قبل بعثته؟

الجواب: النذير في الآية الأولى يشمل كل نذير نبيا كان أم غير نبي، أما النذير في الآية الثانية فالمراد به النبي بالخصوص، و عليه فلا تضاد بين الآيتين لأن المعنى ان قوم محمد (ص) لم يأتهم نبي مرسل قبل البعثة، و لكن أتاهم نذير من العقل و الفطرة، و هو كاف واف لالقاء الحجة عليهم بخاصة في عبادتهم الأحجار و من أجل هذا كان الرسول الأعظم (ص) يجادلهم فيها بمنطق العقل و يقول لهم:

أَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً- ٧٦ المائدة.

وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَ بِالزُّبُرِ وَ بِالْكِتابِ الْمُنِيرِ. الزبر الكتب، و المراد بها هنا الحكم و المواعظ، و الكتاب المنير التوراة التي نزلت على موسى، و الإنجيل الذي نزل على عيسى، و

غيرهما من الكتب المنزلة قبل بعثة خاتم الأنبياء و المرسلين. و تقدم في الآية ١٨٤ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٢٢٢ **ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ**. المراد بالنكير العذاب أي ان اللّه سبحانه أنكر عليهم بالفعل لا بالقول. و تقدم في الآية ٤٤ من سورة الحج ج ٥ ص ٣٣٧ و الآية ٤٥ من سورة سبأ.

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها و طعمها و روائحها، و ليس من شك ان هذا الاختلاف يستند مباشرة إلى أسبابه الطبيعية، و لكن هذه الأسباب تنتهي الى خالق الطبيعة. و تقدم مثله في الآية ٤ من سورة الرعد ج ٤ ص ٣٧٥ و ٣٧٦ فقرة «السيد الأفغاني و الدهريون».

وَ مِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَ حُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَ غَرابِيبُ سُودٌ. يقول، عز من قائل: انه جعل في الجبال طرقا، بعضها طرق بيض، و بعضها طرق حمر، و بعضها طرق سود، و كل صنف من هذه الطرق الثلاث يختلف في لونه شدة و ضعفا، و العبرة في هذا الاختلاف هي الدلالة على قدرة اللّه و ارادته تعالى تماما كدلالة اختلاف الثمار **وَ مِنَ النَّاسِ وَ الدَّوَابِّ وَ الْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ كَذلِكَ**.

و عطف الانعام على الدواب من باب عطف الخاص على العام لأن المراد بالدواب الحيوانات التي تدب على الأرض، و منها الانعام التي تطلق على الإبل و البقر و الغنم

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٨٩

و الماعز، و المعنى ان اختلاف ألوان الناس و اختلاف ألوان الدواب يدلان على قدرة اللّه تماما كما دل اختلاف الثمرات و الطرق.

إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ. المراد بالعلماء هنا الذين آمنوا باللّه عن علم لا عن تقليد، و عرفوا عظمته بالأدلة و البراهين، و ما من شك ان العالم بقدرة من لا يقهره شيء و لا يفوته شيء- لا ينفك أبدا عن الخوف منه، و من ثم كان العلماء باللّه أشد الناس خوفا من غضب اللّه و سطوته، و أكثرهم رجاء لفضله و عفوه .. و نحن من الذين يؤمنون بأنه لا إيمان حقا بلا تقوى، و لا تقوى بلا وعي، و من أجل ذلك قال الرسول الأعظم (ص): «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على النجوم» و اشتهر عنه (ص): نوم العالم خير من عبادة الجاهل **إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**. عزيز في انتقامه ممن طغى و بغى، غفور لمن تاب و أناب.

[سورة فاطر (٣٥): الآيات ٢٩ الى ٣٥]

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللهِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللهَ بِعِبادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤاً وَ لِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ (٣٣)

وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ وَ لا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ (٣٥)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٩٠

اللغة:

العدن الاقامة. و الحزن بفتحتين من الأرض ضد السهل، و من النفس ضد الفرح. و دار المقامة دار الخلود، و هي الجنة. و النصب تعب الجسم. و اللغوب تعب النفس الناشئ عن تعب الجسم.

الإعراب:

سرا قائم مقام المفعول المطلق أي إنفاقا سرا مثل قمت طويلا أي قياما طويلا.

و جملة يرجون خبر إنّ. و المصدر من ليوفينهم متعلق بيرجون أي يهدفون من أعمالهم الصالحة إلى أجر اللّه و فضله. هو ضمير الفصل لا محل له من الإعراب و الحق خبر الذي، و مصدقا حال. جنات عدن خبر لمبتدأ محذوف أي ثوابهم جنات عدن. و جملة يدخلونها حال، و مثلها جملة يحلّون، و من أساور متعلق بيحلون. و لؤلؤا عطف على محل أساور لأن كل مجرور لفظا هو منصوب محلا أو مفعول لفعل محذوف أي و يحلون فيها لؤلؤا. و دار الاقامة مفعول ثان لأحلنا و «نا» مفعول أول. و جملة لا يمسنا حال من «نا».

المعنى:

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللهِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ.

المراد بكتاب اللّه القرآن الكريم، و بالتلاوة التدبر و العمل، لأن قوله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللهِ** الخ بعد قوله:

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٩١

إِنَّمٰا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبٰادِهِ الْعُلَمٰاءُ يومئ الى ان المراد من «يتلون» ما قلناه، و في نهج البلاغة: ليس في ذلك الزمان سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حق تلاوته، و لا أنفق منه- أي اروج- إذا حرف عن مواضعه .. فقد دل السياق على ان المراد بحق التلاوة العمل. و معنى الآية ان الذين يتدبرون القرآن و يعملون بأحكامه قاصدين وجه اللّه فقد ربحت تجارتهم، و كانوا هم الفائزين. و في نهج البلاغة: باع المؤمنون قليلا من الدنيا لا يبقى بكثير من الآخرة لا يفنى **لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ**. آمنوا و عملوا و أخلصوا طلبا لمرضاة اللّه و مثوبته، و عفوه و رحمته فنالوا ما يبتغون. و تقدم مثله في الآية ٢٧٤ من سورة البقرة ج ١ ص ٤٢٨ و الآية ٢٢ من سورة الرعد ج ٤ ص ٣٩٨.

وَ الَّذِي أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتٰابِ هُوَ الْحَقُّ. المراد بالكتاب القرآن، و هو يحمل معه الأدلة و البراهين على صدقه و حقيقته، و هي أحكامه و تعاليمه التي تعطي الأولية للايمان بعدل اللّه و وحدانيته، و بكرامة الإنسان و حريته **مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَيْهِ** من الكتب و الشرائع التي تقوم على هذا الأساس، أساس الايمان باللّه و بالإنسان **إِنَّ اللهَ بِعِبٰادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ** بما يصلحهم و ما يفسدهم، فينهاهم عن هذا، و يأمرهم بذاك. و لكن المسلمين تركوا ما امر به القرآن، و فعلوا ما نهى عنه، و صدق عليهم قول الرسول الأعظم: يأتي على أمتي زمان ينهون فيه عن المعروف، و يأمرون بالمنكر .. فلا بدع إذا تسلط عليهم شرار خلق اللّه.

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتٰابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنٰا مِنْ عِبٰادِنٰا. المراد بالكتاب القرآن، ما في ذلك ريب، و اختلف المفسرون في المراد بالمصطفين، فذهب أكثرهم أو الكثير منهم الى انهم أمة محمد (ص). و الذي نراه نحن انهم محمد (ص) و أهل بيته و صحابته و علماء أمته الذين ساروا بسيرته، و عملوا بسنته لأن كلمة اصطفينا معناها اخترنا، و اللّه سبحانه لا يختار إلا المتقين الأبرار، و قد استعمل القرآن الكريم كلمة الاصطفاء بهذا المعنى في العديد من الآيات، منها: إِنَّ اللهَ اصْطَفىٰ آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ- ٣٣ آل عمران. و منها: وَ لَقَدِ اصْطَفَيْناهُ فِي الدُّنْيا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ

الصَّالِحِينَ- ١٣٠ البقرة. أما ضمير «منهم» في قوله تعالى: **فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللهِ** أما هذا الضمير فإنه يعود الى «عبادنا» لأنهم أقرب من «الذين اصطفينا».

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٩٢

و الظالم لنفسه من رجحت سيئاته على حسناته، و السابق بالخيرات من رجحت حسناته على سيئاته، و بالأولى من لا سيئات له، و المقتصد بينهما أي الذي استوت حسناته و سيئاته.

ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤاً وَ لِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ.

ذلك اشارة الى الميراث و الاصطفاء، و جنات عدن الخ. بيان و تفسير لفضل اللّه الكبير الذي جعله جزاء للذين اصطفى، و الذهب و اللؤلؤ و الحرير تعبير ثان عن قوله تعالى: وَ فِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ- ٧١ الزخرف و في الحديث ان أعرابيا قال: يا رسول اللّه هل في الجنة سماع أي غناء؟ قال: نعم يا أعرابي.

وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ وَ لا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ. حمدوا اللّه و شكروه على الخلاص من الخوف و الاضطراب، و النجاة من الجحيم و العذاب، و التحرر من الأتعاب و الأرزاء، و على الخلود في النعيم و الهناء.

[سورة فاطر (٣٥): الآيات ٣٦ الى ٣٩]

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَ لا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها كَذلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَ هُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ جاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٣٧) إِنَّ اللهَ عالِمُ غَيْبِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٣٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ لا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً وَ لا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَساراً (٣٩)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٩٣

اللغة:

يصطرخون يصيحون مستغيثين. نعمركم نمهلكم. و خلائف جمع خليفة و هو الذي يخلف من قبله.

الاعراب:

فيموتوا منصوب بأن مضمرة لأن الفعل وقع جوابا للنفي، و المصدر المنسبك فاعل لفعل محذوف أي فيحصل لهم الموت. و صالحا صفة لمفعول محذوف أي عملا صالحا. و ما يتذكر «ما» مصدرية ظرفية أي ألم نعمركم أمدا كافيا للتذكر. و مقتا و خسارا تمييز.

المعنى:

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَ لا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها. ذكر سبحانه صورا لعذاب العصاة الطغاة، منها هذه الصورة، و هي أليم العذاب و شدته، و دوامه و استمراره، فلا موت ينتهي به العذاب، و لا سبب يوجب التخفيف **كَذلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ** جزاء وفاقا لجرمه و جريرته و تقدم مثله في الآية ٥٦ ج ٢ ص ٣٥٣ **وَ هُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ.** صاحوا و استغاثوا و لا مغيث، و تضرعوا و

تابوا و لكن بعد فوات الأوان. و تقدم مثله في الآية ١٠٠ من سورة المؤمنون ج ٥ ص ٣٨٨ و الآية ١٠٧ ص ٣٩٠ من نفس السورة و المجلد. و قال سبحانه في الآية

تفسير الكاشف، ج‌٦، ص ٢٩٤

٣٨ من سورة الأنعام: وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ ج ٣ ص ١٧٩.

أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ جاءَكُمُ النَّذِيرُ. طلبوا من اللّه ان يعيدهم الى الدنيا ثانية ليستدركوا ما فات من الايمان و صالح الأعمال، فأجابهم سبحانه: لقد كنتم في الدنيا من قبل، و مكثتم فيها أمدا غير قصير، و جاءكم البشير و النذير، و دللتم الى سبيل الرشد و الهداية، فأبيتم إلا البغي و الضلال (فذوقوا) العذاب الآن بما كنتم تكفرون **فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ** لأنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بسوء اختيارهم، لأن اللّه أعذر اليهم بالحجج و البينات.

إِنَّ اللهَ عالِمُ غَيْبِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ. يعلم السرائر و الضمائر، و ما يغيب في الأرض و السماء عن الأبصار و البصائر، و لا يخفى عليه من شيء كان و يكون **هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ لا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَ لا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَساراً**. خلق سبحانه الأرض في تكوينها و إمكانياتها معاشا و حياة للناس، يرثونها جيلا بعد جيل، و منحهم العقل و القدرة على التحكم بها و بخيراتها كما يشاءون، و أمرهم أن يعبدوه و لا يشركوا به شيئا، و حدد لهم حدودا، و نهاهم أن يعتدوها .. فمن سمع و اتقى فله أجر كريم، و من أعرض و نأى فله عذاب الجحيم يتضاعف و يزداد كلما ازدادوا عتوا و طغيانا: إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً- ١٧٨ آل عمران ج ٢ ص ٢١٠.

[سورة فاطر (٣٥): الآيات ٤٠ الى ٤٣]

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً فَهُمْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً (٤٠) إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَ لَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً (٤١) وَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ما زادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً (٤٢) اسْتِكْباراً فِي الْأَرْضِ وَ مَكْرَ السَّيِّئِ وَ لا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً (٤٣)

تفسير الكاشف، ج‌٦، ص ٢٩٥

اللغة:

أرأيتم أخبروني. جهد أيمانهم بالغوا فيها و اجتهدوا.

الإعراب:

شركاءكم مفعول أول لأرأيتم. و الذين بدل من شركائكم. و أروني تأكيد لأرأيتم لأن كلا منهما بمعنى أخبروني. و مضمون الاستفهام من «ما ذا خلقوا» مفعول ثان. و بعضهم بدل بعض من الظالمين. و المصدر من ان تزولا مفعول من أجله ليمسك. و جهد مفعول مطلق لأقسموا لأنه مضاف إلى الايمان. و استكبارا مفعول من أجله، و مكر السيء معطوف عليه.

المعنى:

احتج سبحانه في الآية الأولى على المشركين بأمور ثلاثة:

١- **قُلْ أَ رَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ.**

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٩٦

أخبروني أيها المشركون: ما الذي دعاكم ان تجعلوا للّه أندادا و أضدادا؟ فهل من شيء في الأرض يدل صنعه على تعدد الصانع و الأنداد؟ .. كلا، فإن جميع الكائنات ينطق وجودها بوحدانية اللّه، و يشهد إحكامها بعظمته و حكمته.

٢- **أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ.** المراد بالشرك هنا النصيب، و المعنى أم لمعبود المشركين أثر في السماء يدل على انهم شركاء للّه في خلقه؟

٣- **أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً فَهُمْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْهُ.** ضمير «هم» يعود الى المشركين لا الى الشركاء، و ضمير «منه» يعود الى الكتاب، و المعنى أم جعلتم شركاء للّه في العبادة و غيرها اعتمادا على كتاب منزل أو نبي مرسل؟ و بالإجمال لا عذر للمشركين من العقل أو النقل فيما يشركون، بل هم في سكرتهم يعمهون.

بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً. المراد بالغرور هنا الباطل، و قد كان رؤساء الشرك و الضلال يقولون للضعفاء و الأتباع: ان الأصنام يشفعون لكم غدا .. و ليس من شك ان هذا الوعد و القول كذب و افتراء، و إغراء بالباطل

إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَ لَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً.

أمسك سبحانه الكواكب بنظام الجاذبية، تماما كما أمسك الطير في السماء بجناحيه، و أسند تعالى الإمساك اليه لأنه خالق الكون و مسبب الأسباب. و تقدم مثله في الآية ٦٥ من سورة الحج ج ٥ ص ٣٤٦.

وَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ.

ضمير أقسموا يعود إلى مشركي قريش، و احدى الأمم أي أية أمة من الأمم، و في البحر المحيط يقال: إحدى الأمم، تفضيلا لها على غيرها أي لا نظير لها ..

و قد كانت قريش تنكر على اليهود انحرافهم عن دينهم و قتلهم أنبياءهم، و تحلف الأيمان المغلظة لئن جاءها رسول من اللّه لتكونن أطوع اليه من بنانه **فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ما زادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً اسْتِكْباراً فِي الْأَرْضِ وَ مَكْرَ السَّيِّئِ.** و أخيرا جاءهم رسول من عند اللّه بالهدى و البينات .. و لكنهم كذبوه و نفروا منه و تعالوا عليه و على دعوته، و مكروا به و بأتباعه، و صدوا الناس عن الايمان بنبوته .. و لكن في النهاية نصره اللّه عليهم و استسلموا لأمره أذلاء صاغرين.

وَ لا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ. المكر السيء أن تضمر الشر لأخيك،

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٢٩٧

و تدبره له في الخفاء ليقع فيه من حيث لا يشعر .. و إذا جهل المسكين ما أضمرت و دبرت فإن اللّه به عليم، و هو مجازيك عليه لا محالة جزاء الكاذب المخادع، و يعود عليك و بال كيدك و مكرك **فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً.** سنة الأولين أي سنة اللّه في الأولين، و هي هلاك من كذّب أنبياء اللّه و رسله، و المعنى ألا يعلم الذين كذّبوا رسولنا محمدا ان اللّه قد أهلك قوم نوح و عاد و ثمود و أمثالهم ممن كذّبوا الرسل، و ان هذه هي عادته في كل مكذّب بأنبياء اللّه و رسله، و انها لا تتبدل و لا تتحول؟ أ فلا يعتبرون بالغير، و يتعظون بالعبر؟

[سورة فاطر (٣٥): الآيات ٤٤ الى ٤٥]

أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ ما كانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ عَلِيماً قَدِيراً (٤٤) وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دابَّةٍ وَ لكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً (٤٥)

اللغة:

المراد بالدابة هنا كل ما دب و يدب على الأرض حتى بني آدم.

الإعراب:

قوة تمييز. و اللام في ليعجزه لمجرد تأكيد النفي. و من زائدة إعرابا و شيء فاعل يعجزه. و الضمير في ظهرها يعود الى الأرض التي دل عليها سياق الكلام.

و من زائدة و دابة مفعول ترك.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٢٩٨

المعنى:

أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً. هذه الآية ترتبط بالتي قبلها، فتلك تقول: ان سنّة اللّه فيمن مضى من مكذبي الرسل هي الإهلاك و الاستئصال، و تقول هذه لمن كذّب محمدا (ص): تلك آثار المكذبين قبلكم و ديارهم ظاهرة للعيان، و ما هي منكم ببعيد، فاضربوا في الأرض قليلا و شاهدوها لعلكم تذكّرون و تتعظون. و تقدم في الآية ٤٦ من سورة الحج ج ٥ ص ٣٣٧.

وَ ما كانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ عَلِيماً قَدِيراً لا يفوته المقيم، و لا يعجزه الهارب، فكل شيء خاضع لقدرته، و خاشع لعظمته. و في بعض التفاسير: ان جميع المخلوقات خصماء المذنبين حتى الدواب و الوحوش و الذر و الطيور، لأن اللّه ينزل العذاب عليهم، و إذا نزل العذاب عمّ كما قال تعالى: وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً- ٢٥ الأنفال ج ٣ ص ٤٦٨.

وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دابَّةٍ وَ لكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً. و أدل شيء على عقوق الإنسان لخالقه انه يأكل رزقه، و يعبد غيره .. و هذا وحده كاف واف للعقاب و المؤاخذة، و لكن لكل شيء عند اللّه مدة و أجلا مسمى.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٢٩٩

سورة يس

مكية إلا آية واحدة، و عدد الآيات ٨٣.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة يس (٣٦): الآيات ١ الى ١٢]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يس (١) وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤)

تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَ جَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (٩)

وَ سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَ أَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ (١٢)

اللغة:

المقمح الذي يغض بصره بعد أن يرفع رأسه، يقال: قمح البعير رأسه إذا رفعه بعد شرب الماء. فأغشيناهم جعلنا على أبصارهم غشاوة.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٠٠

الإعراب:

على صراط متعلق بالمرسلين. تنزيل نصب على المصدرية. و المصدر لتنذر متعلق بتنزيل. و ما نافية و جملة ما انذر صفة لقوم. و سواء مبتدأ و جملة أنذرتهم خبر، و الهمزة هنا للتسوية لا للاستفهام.

المعنى:

(يس) أكثر المفسرين على ان هذه الكلمة مثل (الم) و تقدم الكلام عنها في أول سورة البقرة، أما قوله تعالى: سَلامٌ عَلى إِلْياسِينَ إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ فإن المراد بيس هنا الياس **وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ**. أقسم سبحانه بالقرآن الحكيم ان محمدا (ص) على الدين القويم، و قسم اللّه بالقرآن مع وصفه بالحكمة يومئ إلى شرف القرآن و عظمته، و انه من أقوى الأدلة على صدق محمد (ص) في دعوته، أما وصفه سبحانه لنفسه بالعزة و الرحمة في قوله: **تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ** فهو اشارة إلى ان اللّه يأخذ العصاة المتمردين أخذ عزيز مقتدر، و يرحم المؤمنين و المنيبين، قال الإمام علي (ع): لا يشغله غضب عن رحمة، و لا تلهه رحمة عن عقاب.

الموسيقى الباطنية في القرآن:

في سنة ١٩٥٩ ألّف الأديب المصري المعروف مصطفى محمود كتاب «اللّه و الإنسان»، و أنكر فيه وجود الخالق، و ألفت في الرد عليه كتاب «اللّه و العقل»، ثم تتبعته في مقالاته و مؤلفاته .. فقرأت له في مجلة «روز اليوسف» تاريخ ١٠- ٤- ١٩٦٧ مقالا أقر فيه بالبعث و الحياة بعد الموت، و أشرت الى ذلك في بعض حواشي المجلد الأول من هذا التفسير ص ٧٧.

و مصطفى محمود أديب بطبعه، غني بذكائه الفطري الذي يكشف الدقيق الغامض من أسرار اللغة، و خير شاهد على هذه الحقيقة ما كتبه عن القرآن الكريم بمجلة

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٠١

«صباح الخير» تاريخ ١- ١- ١٩٧٠ بعنوان «المعمار القرآني» نقتطف منه ما يلي:

«اني أحار في وصف الشعور الذي تلقيت به أول عبارة من القرآن .. فكانت كلماته تسعى الى نفسي و كأنها مخلوق حي

مستقل له حياته الخاصة .. و قد اكتشفت دون أن أدري حكاية الموسيقى الداخلية الباطنية في العبارة القرآنية، و هذا سر من أعمق الأسرار في التركيب القرآني .. انه ليس بالشعر و لا بالنثر و لا بالكلام المسجوع، و إنما هو بيان خاص من الألفاظ صيغت بطريقة تكشف عن الموسيقى الباطنية فيها ..

ان الموسيقى المألوفة تأتي من الخارج، و تصل الى الاذن من خارج العبارة، و ليس من داخلها، بل من البحر و الوزن و القافية، أما موسيقى القرآن فتخلو من القافية و الوزن و التشطير و مع ذلك فهي تقطر من كل حرف .. من أين؟

و كيف؟ هذا سر من أسرار القرآن لا يشاركه فيه أي تركيب أدبي .. انه محير لا ندري كيف يتم .. انه نسيج وحده بين كل ما كتب باللغة العربية سابقا و لاحقا.

و تقليده محال».

أجل، ان تقليده محال .. و هنا يكمن سر الاعجاز .. و بعد أن قدم الكاتب العديد من الشواهد على هذه الحقيقة من كلمات اللّه و آياته قال:

«و ليست الموسيقى الباطنية هي كل ما انفردت به العبارة القرآنية، بل ان مع هذه الموسيقى صفة أخرى تشعرك بأنها من صنع الخالق لا من صنع المخلوق ..

اسمع القرآن يصف العلاقة الجنسية بين رجل و امرأة بكلمة رقيقة مهذبة لا تجد لها مثيلا و لا بديلا في أية لغة: «فَلَمَّا تَغَشَّاها حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً- ١٨٩ الأعراف.

هذه الكلمة تغشاها .. تغشاها .. يمتزج الذكر و الأنثى كما يمتزج ظلان، و كما تذوب الألوان بعضها في بعض .. هذا اللفظ العجيب يعبر به القرآن عن التداخل الكامل بين اثنين هو ذروة في التعبير .. لقد انفرد القرآن بخاصة عجيبة تحدث الخشوع في النفس، و تؤثر في الوجدان و القلب بمجرد أن تلامس كلماته الأذن، و قبل أن يبدأ العقل في العمل، فإذا بدأ يحلل و يتأمل اكتشف أشياء جديدة تزيده خشوعا، و لكنها مرحلة ثانية قد تحدث و قد لا تحدث، قد تكشف الآية عن سرها و قد لا تكشف، قد تؤتي البصيرة و قد لا تؤتي، و لكن الخشوع ثابت و مستقر».

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٠٢

و هذه أيضا إحدى ظواهر الإعجاز في القرآن .. و ختم الكاتب صاحب كتاب «اللّه و الإنسان» مقاله الطويل بقوله: «ان القرآن لفظا و معنى من اللّه الذي أحاط بكل شيء علما».

لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ. بعد أن ذكر سبحانه ان محمدا (ص) هو رسول اللّه حقا، و ان القرآن تنزيل من العزيز الرحيم- بيّن مهمة القرآن و انه يهتف بالزواجر عن محارم اللّه في إسماع العرب الغافلين عن اللّه و الحق دون ان ينذرهم منذر قبل رسول اللّه (ص). و عند تفسير قوله تعالى:

وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيها نَذِيرٌ- ٢٤ فاطر قلنا: ان المراد بالنذير في هذه الآية كل ما تقوم به الحجة من العقل و النقل، و ان المراد بالنذير في الآية التي نحن بصددها هو النبي بالخصوص.

لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ. المراد بالقول هنا الوعيد بالعذاب، و ضمير أكثرهم يعود الى الآباء في قوله تعالى: **ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ** أي آباء العرب الذين كانوا في عهد رسول اللّه (ص) حيث مات أكثرهم على الشرك، و القليل القليل منهم كانوا على دين التوحيد. أنظر تفسير الآية ١٠٧ من سورة الإسراء، فقرة «الحنفاء» ج ٥ ص ٩٦.

إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ. الأغلال جمع غل و هو الطوق من الحديد، و الأذقان

جمع ذقن و هو مجتمع اللّحيين ..

و إذا شدت الأيدي بالأغلال الى الأعناق ارتفع الرأس إلى فوق، و استحال على المغلول ان يلتفت يمنة و يسرة أو ينظر الى الأمام فهو أبدا ينظر الى السماء، و هذا هو المقمح وَ جَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ. يجعلهم اللّه يوم القيامة بين سدّين من نار: واحد من أمامهم و آخر من خلفهم لا يجدون متقدّما عنهما و لا متأخرا و لا يبصرون سماء و لا غيرها لأن السدين قد أعميا أبصارهم .. و غير بعيد أن يكون هذا كناية عن أليم العذاب و شدته، و مهما يكن فإن هذا العذاب و ما اليه لا يختص بالمشركين، بل يعم كل مجرم و ظالم، قال الإمام علي (ع): «أما أهل معصيته فأنزلهم شر دار، و غل الأيدي الى الأذقان، و قرن النواصي بالأقدام، و ألبسهم سرابيل القطران، و مقطعات

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٠٣

النيران، و باب قد أطبق على أهله في نار لها كلب و لجب». و تقدم مثله في الآية ٥ من سورة الرعد و ٣٣ من سورة سبأ.

وَ سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ. سيان عندهم يا محمد وعظت أم لم تعظ فإنهم لا يتحركون إلا بوحي من أهوائهم و مصالحهم. و تقدم مثله في الآية ٧ من سورة البقرة إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَ أَجْرٍ كَرِيمٍ. انما يستمع اليك و يقبل منك من طلب الحق لوجه الحق، و يمضي عليه مهما تكن النتائج. و تقدم مثله في الآية ١٨ من سورة فاطر.

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ. الإمام المبين كناية عن علمه تعالى، و المعنى ان اللّه يبعث الناس غدا من قبورهم، و قد أحصى عليهم ما فعلوا من خير و شر، و ما تركوا من آثار نافعة أو ضارة، و انه يجزي كل نفس بما كسبت و هم لا يظلمون.

[سورة يس (٣٦): الآيات ١٣ الى ٢٧]

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤) قالُوا ما أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا وَ ما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥) قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَ ما عَلَيْنا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٧)

قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَ لَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ (١٨) قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَ إِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (١٩) وَ جاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَ ما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢)

أَ أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَ لا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٠٤

اللغة:

عز عليّ اشتد عليّ، و عزني في الخطاب غلبني في حجاجه، و عززني بكذا قوّاني به، و هذا المعنى هو المراد بقوله:

فعززنا بثالث. و تطيرنا تشاءمنا، و طائركم شؤمكم. و أقصى أبعد.

الإعراب:

اضرب بمعنى اجعل، و أصحاب القرية مفعول أول، و مثلا مفعول ثان.

و إذ الثانية بدل من إذ الأولى. و مفعول عززنا محذوف أي فعززناهما. و جواب أئن ذكرتم محذوف أي أئن ذكرتم تطيرتم. و لا ينقذون الأصل ينقذونني.

فاسمعون النون للوقاية و الأصل فاسمعوا قولي ثم حذف المضاف و هو القول للتخفيف فصار الفعل فاسمعوني ثم حذفت الياء للوقف. يا ليت «يا» للتنبيه.

المعنى:

(وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحابَ الْقَرْيَةِ. الخطاب في اضرب لمحمد (ص) و ضمير «لهم» لمشركي العرب، أما القرية فقال أكثر المفسرين: انها مدينة انطاكية، و لكن اللّه سبحانه لم يحدد لأن القصد من ضرب المثل الاتعاظ و الاعتبار ..

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٠٥

و هذا لا يتصل باسم القرية و موضعها .. و يغلب على الظن ان المفسرين اعتمدوا على كتب النصارى حيث جاء في الاصحاح الحادي عشر من أعمال الرسل: ان برنابا و شاول ذهبا إلى انطاكية و علّما جمعا غفيرا. و الرسل هم التلاميذ الاثنا عشر الذين اختارهم السيد المسيح (ع) ليعاينوا حوادث حياته على الأرض و يروه بعد قيامه من القبر، و يخبروا العالم بذلك. إنجيل متى و أعمال الرسل. أما برنابا فهو قبرصي اعتنق المسيحية في زمن الرسل، و أصبح داعية اليها. (قاموس الكتاب المقدس).

إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ. في كثير من التفاسير ان هؤلاء الرسل كانوا من حواريي عيسى (ع) و تلاميذه، و انه هو الذي أرسل الى القرية اثنين، ثم شد ازرهما بثالث .. و لكن كلمة المرسلين مع إسنادها اليه تعالى في قوله: أرسلنا .. فعززنا تدل على انهم أرسلوا بأمر اللّه مباشرة لا بأمر عيسى (ع) .. و مهما يكن فإن العبرة بالمسميات لا بالأسماء .. هذا، الى اننا غير مسؤولين عنها أمام اللّه، و لا صلة لها بحياتنا من قريب أو بعيد. و المعنى واضح، و هو ان اللّه سبحانه أرسل لأهل تلك القرية ثلاثة يدعونهم الى الحق.

فَقالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ قالُوا ما أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا وَ ما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ. أبدا ماركة مسجلة: كلما جاء أمة رسولها قالوا ما أنت إلا بشر مثلنا و ما كان لك علينا من فضل حتى يختارك من دوننا، و ما نحن لك بمؤمنين .. انظر الآية ١٠ من سورة ابراهيم و الآية ٩٤ من سورة الإسراء و الآية ٢٤ من سورة المؤمنون و الآية ٣ من سورة الأنبياء و الآية ١٥٤ من سورة الشعراء **قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ وَ ما عَلَيْنا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ**. بعد أن أقام الرسل الحجة البالغة على صدقهم قالوا للمكذبين: لقد أرسلنا اللّه إليكم، و زودنا بما رأيتم من البينات، و أدينا رسالته على وجهها، و ما علينا من حسابكم من شيء و ما حسابنا عليكم و انما ذلك على اللّه وحده، و كفى به عليما و حسيبا.

قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَ لَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَ إِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ. طائركم معكم أي لا واقع للطيرة، و إنما هي من وحي أوهامكم، و في الحديث المشهور: لا عدوى و لا طيرة و لا هامة.

و الهامة نوع من البوم يألف القبور و الخرائب. و قال الإمام الصادق (ع): الطيرة

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٠٦

على ما تجعلها أنت، فإن هونتها تهونت، و ان شددتها تشددت، و ان لم تجعلها شيئا لم تكن شيئا. أي ان الطيرة لا شيء في ذاتها، و لا أثر لها على الإنسان إطلاقا، و إنما تؤثر على نفسه و أعصابه لأنه قد توهم انها تبصر و تؤثر تماما كالطفل نحال الشبح وحشا يفترسه.

و المعنى ان المكذبين قالوا للرسل: لقد تشاءمنا من دعوتكم، و نحن نخاف ان تعود علينا بتفريق الكلمة، و انقسامنا الى فئتين معكم و عليكم، فسكوتكم خير لنا و لكم و إلا أسكتناكم بالرجم و شدة العذاب، فقال لهم الرسل: لا مصدر لهذا الخوف و التشاؤم إلا أنفسكم التي توسوس إليكم بأن دعوتنا شؤم و شر و الشر بأنفسكم و فيما أنتم عليه من الشرك و الجهل و الفساد.

وَ جٰاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعىٰ لم يشر سبحانه الى اسم الرجل و مع هذا قال المفسرون أو أكثرهم: اسمه حبيب النجار، و ان بيته كان في أطراف المدينة، و انه كان قد آمن باللّه، و لما سمع ان قومه يهمون بقتل الرسل أسرع إلى مناصرتهم و الدفاع عنهم بلسانه .. و لا أدري من أين جاء المفسرون بهذا الاسم؟

و قد بحثت عنه في فهرست الكتاب المقدس و قاموسه أيضا، فلم أعثر على اسم حبيب. و نقله الطبري عن ابن عباس و كعب الأحبار، و أيا كان فلا علاقة لنا باسم الرجل، و لا يعنينا منه إلا بقدر ما تدل عليه الآيات، و قد وصفته بالايمان و الصلاح لأنه **قٰالَ يٰا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لاٰ يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَ هُمْ مُهْتَدُونَ**.

نصح لقومه أن يقبلوا دعوة الرسل، و لا ينكصوا عنها لأنها لخيرهم و صلاحهم، و الداعون للحق لا يطلبون أجرا و لا شكورا، و لا علوا و لا فسادا في الأرض.

وَ مٰا لِيَ لاٰ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. هذه حكاية لقول المؤمن الناصح، و معناه أي مانع يمنعني عن عبادة الذي أوجدني من العدم، ثم يبعثنا جميعا بعد الموت للحساب و الجزاء؟ و في هذا تعريض بقومه لتركهم عبادة الواحد الأحد، و هو يمضي في هذا التقريع و يقول: **أَ أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمٰنُ بِضُرٍّ لاٰ تُغْنِ عَنِّي شَفٰاعَتُهُمْ شَيْئاً وَ لاٰ يُنْقِذُونِ إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ**.

كيف أعبد أصناما لا تضر و لا تنفع، و لا تنقذ و لا تشفع .. لقد ضللت اذن، و ما أنا من المهتدين .. كلا **إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ**. لا يجابه بهذه الكلمة قوى الشر و الفساد إلا من لا يبالي بالموت في سبيل الحق و نصرته .. و في بعض

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٠٧

الروايات: انه لما جابه قومه بهذه الحقيقة قتلوه رميا بالحجارة و ما وجد من يدافع عنه .. و ليس هذا ببعيد عن سيرة الطغاة و أهل الفساد، و الذي يؤيد صدق هذه الرواية قول المشركين للرسل: «لئن لم تنتهوا لنرجمنكم و ليمسنكم منا عذاب أليم».

و في تفسير الزمخشري و الثعلبي: ان سباقي الأمم ثلاثة لم يكفروا قط طرفة عين:

علي بن أبي طالب، و صاحب يس، و مؤمن آل فرعون.

قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ باع نفسه للّه، فكانت الجنة هي الثمن، و كفى بالجنة ثوابا و نوالا **قٰالَ يٰا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمٰا**

غفر لي ربّي و جعلني من المكرمين.

لم يقل هذا تشفيا من قومه برغم انهم كذبوه و آذوه .. حاشا الأصفياء الأخيار ..

بل قاله حبا بالخير و تحسرا على ما فاتهم منه متمنيا لو علموا انه كان لهم من الناصحين، و ان تطيرهم به و بالمرسلين كان وهما و جهلا.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٠٩

الجزء الثّالث و العشرون

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣١١

[سورة يس (٣٦): الآيات ٢٨ الى ٣٦]

وَ ما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ وَ ما كُنَّا مُنْزِلِينَ (٢٨) إِنْ كانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ (٢٩) يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٣٠) أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ (٣١) وَ إِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (٣٢)

وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها وَ أَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَ جَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ وَ فَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَ ما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَ فَلا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)

اللغة:

القرون جمع قرن، و هو القوم المقترنون في زمن واحد. و الأزواج الأصناف.

الإعراب:

اسم كانت محذوف أي ان كانت الصيحة أو العقوبة إلا صيحة واحدة.

و حسرة منادى أي احضري يا حسرة فهذا وقتك و نصبت لأن على العباد يتعلق بها. و كم خبرية و محلها النصب بأهلكنا. و المصدر من انهم اليهم لا يرجعون مفعول لفعل محذوف أي قضينا انهم لا يرجعون، و قيل: ان هذا المصدر بدل من

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣١٢

أهلكنا، و يلاحظ بأن البدل على نية التكرار، و لا يقال: كم كونهم لا يرجعون.

و ان نافية و كل مبتدأ و لمّا بمعنى الا، و قال صاحب البحر المحيط: ان «لمّا» لا تستعمل في الاستثناء إلا في المسموع فقط، فلا يقال قام القوم لمّا زيدا.

و الأرض مبتدأ و الميتة صفة لها، و آيه خبر أي و الأرض الميتة آية لهم. و ما عملته «ما» عطف على ثمره أي و يأكلون من الذي عملته أيديهم.

المعنى:

وَ ما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ وَ ما كُنَّا مُنْزِلِينَ إِنْ كانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ

خامِدُونَ. ضمير قومه يعود إلى المؤمن الذي قال:

اتبعوا المرسلين الخ. و المراد بجند السماء الملائكة، و الصيحة هي صيحة العذاب، و خامدون ميتون. و المعنى ان إهلاك المكذبين علينا سهل يسير، فإذا أردناه فلا نرسل عليهم ملائكة العذاب، بل ما هي إلا صيحة يسمعونها من السماء حتى تصبح بيوتهم قبورا لأجسامهم.

يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ. هذا بيان و تفسير للسبب الموجب للحسرة، و هو إصرار المشركين على تكذيب الرسل، و اتخاذهم سخريا و هزوا. و تسأل: من هو المتحسر، مع العلم بأن اللّه سبحانه لا يتحسر على أحد؟

الجواب: لا متحسر في الدنيا على الإطلاق، لأن الحسرة هنا كناية عن سوء مصيرهم و عاقبتهم الوخيمة التي يتحسرون معها حين يرون عذاب جهنم، و يندمون على اضاعة الفرصة في الحياة الدنيا.

أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ. يتحسرون و يندمون في الآخرة لأنهم لم يتعظوا في الدنيا بالأمم الماضية الذين أهلكهم اللّه لما كذبوا الرسل أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ. قال أكثر المفسرين القدامى و الجدد، و منهم المراغي و صاحب الظلال، قالوا في معنى هذه الجملة الكريمة: ألم ير المكذبون ان الأمم الذين أهلكناهم لا يعودون إلى الدنيا ثانية! .. و في هذا التفسير نظر، لأن عدم عودة الأموات إلى الدنيا حجة للمكذبين بالبعث، و ليس حجة عليهم .. و المعنى الصحيح

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٣١٣

- كما نظن - ألم ير المكذبون ان اللّه قد أهلك الماضين بقضهم و قضيضهم، و لم يبق منهم أحد يرجع الى المكذبين اللاحقين ينبئهم بخبر المكذبين السابقين، و انما دل على إهلاكهم المعالم و الآثار: فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ- ٥٢ النمل فهذه الجملة أشبه بقوله تعالى: فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَ لا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ- ٥٠ يس. وَ إِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ.

كل الناس موقوفون غدا بين يدي اللّه لنقاش الحساب و جزاء الأعمال. كان على ربك حتما مقضيا.

وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها وَ أَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ وَ جَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ وَ فَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ. تقدم مثله في الآية ٩٩ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٣٤ و الآية ٤ من سورة الرعد ج ٤ ص ٣٧٦ و الآية ٥ من سورة الحج ج ٥ ص ٣١١.

لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَ ما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَ فَلا يَشْكُرُونَ نعم اللّه التي لا تعد و لا تحصى. و قوله: «ما عملته أيديهم» فيه إيماء الى أن النعمة حقا هو المال الحلال المكتسب من كد اليمين و عرق الجبين، أما المال الحرام فهو نار و جحيم: إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً- ١٠ النساء: ما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ ١٧٤ البقرة.

سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لا يَعْلَمُونَ. تنزه عن الشريك، و تعالى علوا كبيرا الذي خلق الأنواع و الأصناف في الحيوانات و الطيور، و في النباتات و الإنسان، و فيما لا نعلم من أقطار السماء و تخوم الأرض، و كل صنف من هذه الأصناف يختلف لونا و حجما، و في بعضها طعم كالنبات، و في آخر أخلاق كالإنسان. و يقول أهل الاختصاص: ان المادة الجامدة مؤلفة من شيئين أيضا: سالب و موجب، و لولاهما لما وجد كائن .. و لا مصدر لذلك إلا العليم الحكيم، أما الصدفة فلا يلجأ اليها إلا قاصر أو مكابر.

[سورة يس (٣٦): الآيات ٣٧ الى ٤٤]

وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١)

وَ خَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ (٤٢) وَ إِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَ لا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣) إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا وَ مَتاعاً إِلى حِينٍ (٤٤)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣١٤

اللغة:

نسلخ منه النهار أي نزيل النهار و نضع الليل مكانه. و مظلمون داخلون في الظلام. و العرجون على وزن فعلول من الانعراج أي الاعوجاج، و هو غصن النخلة شبه به القمر إذا انتهى في نقصانه. فلا صريخ فلا مغيث.

الإعراب:

الليل مبتدأ مؤخر و آية خبر مقدم. ذلك تقدير العزيز كلام مستأنف مبتدأ و خبر. و القمر على حذف مضاف و العامل به فعل محذوف أيضا دل عليه الموجود أي و قدرنا دوران القمر قدرناه. و منازل منصوب على الظرفية أي في منازل مثل دخلت الدار أي في الدار خلافا لصاحب مجمع البيان. و كل مبتدأ و في فلك متعلق بيسبحون و الجملة خبر، و الجمع باعتبار المنازل، و تدل يسبحون على ان واو الجمع تطلق بعض الأحيان على غير العقلاء، و قال قائل: ان الشمس و القمر من العقلاء. و المصدر من انّا حملنا مبتدأ مؤخر، و آية لهم خبر مقدم أي حملنا ذريتهم في الفلك آية لهم. و رحمة مفعول من أجله و متاعا عطف على رحمة.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣١٥

المعنى:

ذكر سبحانه هنا آيات كونية تدل على قدرته و عظمته، و هي:

١- **وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ**. يتعاقب الليل و النهار نتيجة لكروية الأرض و دورانها حول نفسها تماما كدوران الرحى، و جانب الأرض الذي يحاذي الشمس حين الدوران يصير نهارا، و غير المحاذي يصير ليلا، فإذا تجاوز عن الشمس ما كان محاذيا لها بسبب الدوران و حلّ محله الجانب الآخر الذي كان ليلا، إذا كان كذلك ينعكس الأمر، فيصير ما كان ليلا نهارا، و ما كان نهارا يصير ليلا، و هكذا دواليك، و قد عبّر سبحانه عن هذا بالانسلاخ، و أسنده اليه لأنه خالق الكون و سبب الأسباب، و تقدم مثله في الآية ٢٧ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٣٧ و الآية ١٢ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٢٦.

٢- **وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**. اختلف المفسرون في المراد من مستقرها على أقوال أنهاها الرازي الى أربعة، و كلها بعيدة عن الافهام، و الصواب ان مستقرها كناية عن سيرها بنظام محكم و دقيق، و يومئ الى هذا قوله تعالى: ذلك تقدير العزيز العليم. و نقل مؤلف كتاب القرآن و العلم الحديث عن كبار علماء الفلك المعاصرين: «ان الشمس تجري بسرعة ١٢ ميلا في الثانية غير دورانها حول نفسها، و انها تختلف عن حال دوران

الأرض». و تقدم ما يتصل بذلك في الآية ٢ من سورة الرعد ج ٤ ص ٣٧٣.

وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ. و هذه المنازل لا تبدل بغيرها، و لا تتحول من مكانها، و لا القمر يضل عنها. و قال الفلكيون: انها ٢٨ ينزل كل ليلة في واحد منها، و يستتر في ليلتين إذا كان الشهر ٣٠ يوما، و في ليلة واحدة إذا كان ٢٩، و عندئذ يصير كغصن النخلة في الدقة و الانحناء، و هذا هو المراد بالعرجون. و تقدم ما يتعلق بذلك في الآية ٣٦ من سورة التوبة ج ٤ ص ٢٩ فقرة الأشهر القمرية هي الأشهر الطبيعية.

لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ. لكل كوكب فلكه الخاص يدور فيه بنظام، و يجري في منازل مقدرة إلى أن يطويها اللّه طي السجل للكتاب. و في نهج البلاغة: «و جعل شمسها- أي

تفسير الكاشف، ج‌۶، ص ۳۱۶

شمس الكواكب- آية مبصرة لنهارها، و قمرها آية ممحوة من ليلها- أي ان ضوء القمر يطغى على ضوء بقية الكواكب- فأجراهما، و قدر سيرهما في مدارج درجهما ليميز بين الليل و النهار بهما، و ليعلم عدد السنين و الحساب بمقاديرهما .. و مما قرأته في هذا الباب حديث قدسيّ ذكره صاحب الأسفار في المجلد الثالث، و معناه ان اللّه سبحانه قال: لو وضعت الشمس في جانب خاص من الكون لرفع الغني بناءه و حجب نور الشمس عن الفقير، و لكن وضعتها في أفق تدور فيه و تسير حتى يجد الفقير نصيبه من ضوئها تماما كما يجد الغني.

٣- **(وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ)**. ضمير «لهم» و ذريتهم يعود إلى أبناء آدم .. يذكرهم اللّه سبحانه بأنعمه العظام عليهم، و منها حملهم في السفن مملوءة بهم و بمتاعهم تنقلهم من بلد الى بلد. و تقدم مثله في الآية ٣٢ من سورة ابراهيم ج ٤ ص ٤٤٨ و الآية ٦٦ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٦٥.

٤- **(وَ خَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ)**. ضمير مثله يعود إلى الفلك، و قال المفسرون القدامى: المراد بمثله الإبل و الخيل و البغال و الحمير. قالوا هذا حيث لا طائرة و لا سيارة و لا مركبة فضاء **(وَ إِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ)** و لو كانوا في المدرعات و حاملات الطائرات. و الغرض هو أن يذكرهم سبحانه بنعمة النجاة من الغرق، و انه لولا رحمته و عنايته لكانوا من الهالكين **(فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَ لا هُمْ يُنْقَذُونَ)** من الغرق مهما استغاثوا و استجاروا **(إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا وَ مَتاعاً إِلى حِينٍ)** إلا أن يتداركهم اللّه برحمته من أهوال البحر، و يؤخرهم الى أجل مسمى وفقا لعلمه و حكمته.

[سورة يس (٣٦): الآيات ٤٥ الى ٥٤]

وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَ ما خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَ ما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (٤٦) وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَ نُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٤٧) وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٤٨) ما يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَ هُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩)

فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَ لا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ لا تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣١٧

الإعراب:

جواب و إذا قيل لهم اتقوا محذوف أي أعرضوا بدلالة قوله: معرضين في الآية التالية. و ويلنا منادى أي يا ولينا احضر هذا أوانك. هذا ما وعدنا الرحمن مبتدأ و خبر و الكلام مستأنف.

المعنى:

(وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَ ما خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ). ضمير «لهم» يعود الى مشركي العرب. و المراد بما بين أيديهم معاصي اللّه و محارمه، و بما خلفهم العقاب عليها. و في نهج البلاغة: «ان الساعة تحدوكم من خلفكم». و المعنى ان رسول اللّه نهاهم عن المعاصي، و أنذرهم بنقمة اللّه و عذابه ان عصوا، و بشرهم برحمته و ثوابه ان أطاعوا، و لكنهم انقلبوا على أعقابهم مدبرين. (وَ ما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ). كلما جاءهم الرسول بمعجزة

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣١٨

ظاهرة أو بيّنة واضحة كذّبوا بها تمردا و عنادا. و تقدم مثله في الآية ٥ من سورة الشعراء ج ٥ ص ٤٨٨.

(وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَ نُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) للمترفين مبدأ واحد و دين واحد، و هو الحرص على ثرائهم و مصالحهم، فإذا تكلموا أو فعلوا فبوحي منه يقولون و يفعلون، و إذا نظروا فمن خلاله ينظرون، و إذا قيل لهم: لا تفسدوا في الأرض قالوا: انما نحن مصلحون، و إذا قيل لهم: آمنوا كما آمن الناس. قالوا: أ نؤمن كما آمن السفهاء؟ و إذا قيل لهم: اسجدوا للرحمن قالوا: و ما الرحمن؟ بل نسجد للدرهم و الدينار. و إذا أمرهم آمر أن ينفقوا على المحاويج قالوا: قضى اللّه عليهم بالفقر، و قدر لنا الغنى .. و جهلوا أو تجاهلوا ان الفقر من صنع الأرض لا من صنع السماء، من فساد الأوضاع و جور أنظمة السلب و النهب و استغلال الضعفاء.

(وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ). و إذا حذرهم اللّه و الرسول من سوء العاقبة و بئس المصير. قالوا ساخرين: و متى هذا المصير؟ و تقدم مثله في العديد من الآيات (ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَ هُمْ يَخِصِّمُونَ) أي يتنازعون في شئون دنياهم، و مثله: فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ- ٩٥ الأعراف.

فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَ لا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ. إذا جاءت صيحة العذاب فلا يمهل أحد منهم ليوصي أهله بما أهمه، و ان كان غائبا عنهم لا يملك الرجوع اليهم وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ. تقدم مثله في الآية ١٠٠ من سورة الكهف ج ٥ ص ١٦٢.

قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا. تعجبوا من إحيائهم بعد الموت، و كانوا من قبل يسخرون ممن يعدهم به، و يأمرهم بالاستعداد له، و بعد أن شاهدوه قالوا: هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ بأن الساعة آتية لا ريب فيها و ان اللّه يبعث من في القبور إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ. فالخلق و الموت و البعث لديه تعالى سواء .. كل واحد منها

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣١٩

يكون بكلمة واحدة: ما خَلْقُكُمْ وَ لا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ- ٢٨ لقمان.

و تقدم مثله في الآية ٣٢ من هذه السورة (فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ لا تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. و في معناه: الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسابِ- ١٧ غافر.

[سورة يس (٣٦): الآيات ٥٥ الى ٦٨]

إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَ أَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ (٥٦) لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَ لَهُمْ ما يَدَّعُونَ (٥٧) سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (٥٨) وَ امْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩)

أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَ أَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَ فَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤)

الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) وَ لَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (٦٦) وَ لَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ عَلى مَكانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا وَ لا يَرْجِعُونَ (٦٧) وَ مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَ فَلا يَعْقِلُونَ (٦٨)

اللغة:

فاكهون مرحون من الفكاهة لا من الفاكهة. و ظلال جمع ظل و هو الفيء.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٢٠

و الأرائك جمع أريكة و هي السرير. و ما يدعون ما يطلبون. و امتازوا انفردوا و ابتعدوا عن أهل الخير و الصلاح. جبّلا كثيرا خلقا كثيرا. اصلوها قاسوا حرها و الزموا العذاب بها. و الطمس المحو و المراد به هنا العمى أي لأعميناهم.

فاستبقوا من الاستباق أي بادروا و انطلقوا. و نكس الشيء هو جعل أسفله أعلاه.

الإعراب:

في شغل خبر ان و فاكهون خبر ثان. و هم مبتدأ و أزواجهم عطف عليه، و في ظلال خبر، و متكئون خبر ثان و على الأرائك متعلق به. و سلام بدل من ما يدعون. و قولا منصوب على المصدرية. أن لا تعبدوا «أن» مفسرة للعهد.

و ان اعبدوني عطف على أن لا تعبدوا الشيطان.

المعنى:

إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ هُمْ وَ أَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَ لَهُمْ ما يَدَّعُونَ. ان أغلى أمنية للإنسان الصحة و الأمان و راحة البال من المشاغل و المتاعب، و ان يتوفر له ما لذ و طاب من مأكل و مشرب و مسكن و ملبس و متعة بالنساء و الأشجار و الأنهار، و كل ذلك و ما إليه متوفر لأهل الجنة، و فوق كل شيء سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ و سلام اللّه أمان و رحمة، و رضوانه منتهى السعادة و النعمة .. و من هنا قال الإمام علي (ع): كل نعيم دون الجنة محقور، و كل بلاء دون النار عافية.

وَ امْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ. كان المجرمون في الحياة الدنيا يتظاهرون بالصلاح و يلبسون مسوح الرهبان، و يختلطون مع أهل التقى و الخير .. و يخفى حالهم على الكثير من الناس، أما في يوم الفصل و الجزاء فيباعد اللّه بينهم و بين الصالحين، و يقول لهم: ادخلوا النار مع الداخلين يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَ الْأَقْدامِ- ٤١ الرحمن.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٣٢١

أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَ أَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ. حذّر سبحانه العباد من الشيطان و وسوسته، و نهاهم عن طاعته، و أرشدهم إلى طريق الخير و الهداية، فأطاع الكثير منهم الشيطان و عصوا الرحمن، و إلى هذا أشار بقوله:

وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَ فَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ. الجبلّ الخلق، و كل من سلك مسلك الهالكين بعد أن حذّر و أنذر فهو في عمى عن نور العقل و هدايته، و لا جزاء لمثله إلا العذاب الذي أشار اليه سبحانه بقوله: هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ بها على ألسنة الرسل، و تسخرون منها و منهم اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ. و هذا مصير كل من ضيع و فرط.

الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ.

كل جارحة للعصاة الطغاة ينطقها اللّه غدا لتشهد على صاحبها بما اجترح من السيئات، فاليد تشهد عليه بما ضرب و سرق و كتب و أشار، و الرّجل بما سعى، و العين بما نظر .. و هكذا.

و تسأل: كيف تجمع بين قوله تعالى هنا: الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ و قوله في الآية ٢٤ من سورة النور: يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ فقد أثبت لهم النطق هنا و نفاه هناك؟

الجواب: ان للعباد غدا مواقف لا موقفا واحدا، يؤذن لهم بالكلام في بعضها دون بعض، قال تعالى: يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِه- ١٠٥ هود.

وَ لَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ وَ لَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ عَلى مَكانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا وَ لا يَرْجِعُونَ. لو أراد سبحانه أن يعاقب المجرمين في الدنيا لأعمى أبصارهم فلا يهتدون إلى شيء، و لمسخهم تماثيل جامدة لا حراك فيها و لا حياة وَ مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَ فَلا يَعْقِلُونَ.

نكس الشيء هو جعل أسفله أعلاه، و كلما تقدم الإنسان في السن تقهقر إلى الوراء، فيخرف بعد الإدراك، و يضعف بعد القوة .. و الغرض من هذا البيان هو الاشارة إلى أن اللّه سبحانه قد أمدّ الإنسان بحياة كافية وافية لأن يهتدي فيها و يعمل صالحا، و انه لو عمّر أكثر من المعتاد لأقعده العجز و المرض، و كان

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٣٢٢

طول العمر عليه شرا و وبالا: أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ جاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ- ٣٧ فاطر.

[سورة يس (٣٦): الآيات ٦٩ الى ٧٠]

وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَ يَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ (٧٠)

حاول أعداء اللّه و الحق تكذيب محمد (ص) بشتى الوسائل، من ذلك قولهم:

انه مجنون. فقال قائل منهم، و هو الوليد بن المغيرة الذي عاش و مات على الكفر، قال: «كلا، ان لقوله- يريد القرآن- لحلاوة، و ان عليه لطلاوة، و ان أعلاه لمثمر، و ان أسفله لمغدق، و انه يعلو و لا يعلى عليه». فعدلوا عن رمي رسول اللّه بالجنون الى القول: هذا ساحِرٌ كَذّابٌ- ٤ ص. و لما استبان انهم هم الكاذبون قالوا: كاهن يخطئ و يصيب أو شاعر حلو الكلام خصب القريحة و الخيال.

و تجدر الاشارة الى ان اتهامهم الرسول الأعظم (ص) بالشعر يدل على ان الشعر عند العرب لا يحده الوزن و القافية، بل هو أوسع و أشمل .. انه التعبير الفني و جماله موزونا كان أم غير موزون، و كذلك هو عند الفلاسفة القدامى، قال صاحب تفسير روح البيان: «الشعر عند الحكماء القدماء ليس على وزن و قافية، و لا هما ركن من أركانه عندهم» .. و شاعت هذه الفكرة اليوم في الدراسات الأدبية و النقدية، و آمن بها كثير من أساتذة الأدب الحديث.

و قد رد سبحانه اتهام نبيه الكريم بالشعر و الكهانة في العديد من الآيات، منها:

إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلاً ما تُؤْمِنُونَ وَ لا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ- ٤٠ الحاقة. و منها: فَما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكاهِنٍ وَ لا

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٢٣

مَجْنُونٍ أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ- ٢٩ الطور. و منها ما حكاه سبحانه عن المشركين:

أَ إِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ- ٣٦ الصافات. و منها: بَلْ هُوَ شاعِرٌ- ٥ الأنبياء.

و منها الآية التي نحن بصددها **وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَ يَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ**. المراد بالحي هنا من أحيا عقله بالتدبر و التأمل، و تفتّح قلبه للحق و الخير، و بالقول كلمة العذاب تماما كقوله تعالى: وَ لكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ- ٧١ الزمر .. قال المشركون: القرآن الذي جاء به محمد (ص) ما هو إلا شعر يعبر عن تفكيره و خياله، و ليس بوحي من عند اللّه .. فردّ عليهم سبحانه بأن الشعر يرتكز على عاطفة الشاعر و ميوله و أهوائه، يناصر يحب و ان كان مبطلا، و يقاوم من يكره و ان كان محقا، و القرآن هو القول الجد و الفصل، و ما هو بالهوى و الهزل، هو كتاب عقيدة و شريعة، و أخلاق و عظات، و فيه علم و فكر، و أين الشعر من ذلك؟.

و لو كان القرآن من صنع محمد (ص) لبث فيه آلامه و أحزانه و حياته و أزماته، تماما كما هو شأن الشعراء .. مع العلم بأن القرآن في معزل عن مشاكل محمد (ص) و مشاغله.

بقي أن نشير الى ان النبي (ص) كان يقدر الشعر و يحترمه كفن له أثر ايجابي في التعبير عن رغبات الجماهير و أمانيها .. و قد اشتهر انه قال: «ان من البيان لسحرا، و ان من الشعر لحكمة». و كان يدعو بالتوفيق و التسديد للشعراء الذين ناصروا الحق و أهله .. و خلع بردته على كعب بن زهير تكريما له حين مدحه بقصيدته الشائعة الذائعة المعروفة بقصيدة البردة، و مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم أثرها لم يفد مكبول

و منها:

ان الرسول لنور يستضاء به و صارم من سيوف اللّه مسلول

أنظر تفسير الآية ٤ من السورة التي نحن بصددها، فقرة «الموسيقى الباطنية في القرآن»، و تفسير الآية ٢٢٤ من سورة الشعراء ج ٥ ص ٥٢٤.

تفسير الكاشف، ج ۶، ص ۳۲۴

[سورة يس (٣٦): الآيات ٧١ الى ٧٦]

أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُونَ (٧١) وَ ذَلَّلْناها لَهُمْ فَمِنْها رَكُوبُهُمْ وَ مِنْها يَأْكُلُونَ (٧٢) وَ لَهُمْ فِيها مَنافِعُ وَ مَشارِبُ أَ فَلا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (٧٤) لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (٧٥)

فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ (٧٦)

اللغة:

ركوبهم بفتح الراء، و المراد به هنا المركوب مثل حلوب أي المحلوب.

المعنى:

أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُونَ وَ ذَلَّلْناها لَهُمْ فَمِنْها رَكُوبُهُمْ وَ مِنْها يَأْكُلُونَ وَ لَهُمْ فِيها مَنافِعُ وَ مَشارِبُ أَ فَلا يَشْكُرُونَ. المراد بالانعام الإبل و البقر و الغنم، و هي نعمة من اللّه على عباده يأكلون من لحومها، و يشربون من ألبانها، و يتخذون من جلودها و أصوافها و أوبارها بيوتا و أثاثا و لباسا، و تحملهم و أثقالهم إلى بلد ما كانوا بالغيه إلا بشق الأنفس .. و كرر سبحانه ذلك في العديد من الآيات، منها الآية ١٤٢ من سورة الانعام ج ٣ ص ٢٧٣ و الآية ٧ من سورة النحل ج ٤ ص ٤٩٨. و الغرض من ذلك هو الحث على شكر اللّه و طاعته، و قد أشار سبحانه الى ذلك بقوله: **أَ فَلا يَشْكُرُونَ**. و في نهج البلاغة: لو لم يتوعد اللّه على معصيته لكان يجب أن لا يعصى شكرا لنعمه.

و المراد بقوله تعالى: **مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا** الأسباب الطبيعية لأن اللّه ليس بجسم

تفسير الكاشف، ج ۶، ص ۳۲۵

حتى يكون له أيد حقيقة، قال ابن عربي في الفتوحات: ان أهل اللّه يقسمون المخلوقات الى نوعين: نوع يوجده سبحانه بكلمة «كن». و يعبرون عن هذا بعالم الأمر، لأن قوله «كن» أمر، و نوع يوجده بأيدي الأسباب، و يعبرون عنه بعالم الخلق. و تقدم الكلام عن ذلك مفصلا في المجلد الأول من هذا التفسير ص ٣٩٢ فقرة «اللّه و سنن الطبيعة».

وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ. غريب، و لا شك، أن يعبد العاقل أحجارا لا تضر و لا تنفع و لكن الأغرب أن يحرسها و يقوم على حمايتها من السرقة أو التحطيم، و في الوقت نفسه يرجو أن تنصره في الشدائد، و تقرّبه من اللّه زلفى **لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ** أي ان الأصنام أعجز و أحقر من أن تنصر نفسها فكيف تنصر غيرها؟ **وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ**. ضمير «هم» للمشركين، و ضمير «لهم» للأصنام، و محضرون حاضرون أو قائمون، و المعنى ان الأصنام لا تجدي المشركين نفعا، و مع ذلك يتجندون و يتطوعون للذب عنها كل حين .. و هنا مكان الغرابة.

و فوق هذا كله قال عبدة الأصنام عن النبي (ص): مجنون .. و لما ذا؟ لأنه لا يعبد الأحجار، و هم العقلاء لأنهم يعبدون

ما ينحتون فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ يا محمد: إنك مجنون أو شاعر أو كاهن إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ.

أضمروا الحقد و الضغينة على النبي (ص)، و أعلنوا الطعن به و بدعوته .. و ليس من شك ان اللّه بذلك عليم و قدير على حسابهم و عذابهم .. اذن، لما ذا الحزن و الألم؟.

[سورة يس (٣٦): الآيات ٧٧ الى ٨٣]

أَ وَ لَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَ ضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَ وَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى وَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٣٢٦

اللغة:

ملكوت مبالغة في ملك اللّه و سلطانه.

الإعراب:

أول مرة نصب على الظرفية، و العامل فيه أنشأها. و جعل لكم بدل من الذي أنشأها. و بلى حرف جواب، و تختص بالإيجاب، سواء أ كان قبلها مثبتا أو منفيا أي انها تؤكد الإثبات، و تبطل النفي.

المعنى:

أَ وَ لَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ. كان الإنسان بالأمس نطفة، حتى إذا صار بقدرة اللّه مخلوقا سويا ذا فهم و بيان نسي أصله، و خاصم ربه بالعصيان و تحذلق في الكلام وَ ضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ. الضمير المستتر في ضرب يعود إلى من أنكر البعث، و قد ضرب هذا المنكر مثلا على امتناع البعث قائلا: كيف تجتمع و تتآلف من جديد أجزاء العظام، و تدب فيها الحياة بعد أن تبلى و تصير ترابا مبددا هنا و هناك؟

فردّ سبحانه على صاحب المثل: أتعجب من قدرة اللّه، و تنكر البعث و تضرب الأمثال، ثم تنسى نفسك، و ان اللّه قد خلقك من تراب ثم من نطفة؟ لقد أوجدك و لم تكن شيئا مذكورا، فكذلك يعيدك بعد أن تصبح عظامك رميما.

قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ. قل يا محمد للجاحد

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٣٢٧

المعاند: أي عجب من إحياء العظام و هي رميم؟ ان الذي جعل للنطفة سمعا و بصرا، و فهما و بيانا هو الذي يعيد العظام إلى سيرتها الأولى ... و تقدم مثله في العديد من الآيات، منها الآية ٤٩ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٥٢.

الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ. هذا المثال تتضح منه فكرة البعث، و بيان ذلك ان المنكرين استبعدوا إحياء الموتى لا لشيء إلا ظنا منهم ان الأشياء لا يمكن أن تتحول إلى أضدادها. فأجابهم سبحانه بأن هذا الظن وهم و خيال، لأن هذا التحول واقع بالفعل، و محسوس ترونه أنتم صباحا و مساء، و لكن لا تنتبهون اليه .. فالشجر الأخضر الريان يتحول إلى نار محرقة، و الأرض الهامدة تحيا و تهتز بأنواع النبات و الأشجار إذا نزل عليها الماء

..

فكيف تنكرون إحياء العظام البالية، و تقرون بإحياء الأرض الهامدة و تحوّل الأشجار إلى نار مع ان الجميع من باب واحد، و هو انقلاب الشيء من حقيقة إلى ضدها؟.

أَ وَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى وَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ. من أوجد الكون من لا شيء يهون عليه أن يوجد مثله ساعة يشاء. و تقدم نظيره في الآية ٩٩ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٨٩ **إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**. بدأ الخلق بكلمة «كن» و يعيده بها.

و تقدم في الآية ٤٠ من سورة النحل ج ٤ ص ٥١٥ **فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**. تنزه ربنا عن الشريك، و هو وحده المبدئ و المعيد.

تفسير الكاشف، ج ۶، ص ۳۲۸

سورة الصّافات

مكية و آياتها ١٨٢.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ١ الى ١٠]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ الصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِراتِ زَجْراً (٢) فَالتَّالِياتِ ذِكْراً (٣) إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحِدٌ (٤)

رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ رَبُّ الْمَشارِقِ (٥) إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ (٦) وَ حِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ (٧) لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ (٨) دُحُوراً وَ لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ (٩)

إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ (١٠)

اللغة:

الصافات فالزاجرات فالتاليات هي من صفات الملائكة، و يأتي التفصيل. و السماء الدنيا هي أدنى السموات و أقربها إلينا. و مارد عات متمرد و مريد بفتح الميم مبالغة في المارد. و الدحور الطرد. واصب أي دائم. و ثاقب مضيء.

الإعراب:

و الصافات الواو للقسم. و صفّا مفعول مطلق و مثله زجرا، أما ذكرا فمفعول به.

تفسير الكاشف، ج ۶، ص ۳۲۹

و رب السموات بدل من واحد. و الدنيا صفة للسماء. و حفظا مفعول مطلق لفعل محذوف أي و حفظناها حفظا. و دحورا مصدر في موضع الحال أي مدحورين و صاحب الحال الواو في يقذفون. و من خطف «من» في محل رفع بدلا من واو لا يسمعون أو في محل نصب على الاستثناء.

المعنى:

وَ الصَّافَّاتِ صَفًّا فَالزَّاجِراتِ زَجْراً فَالتَّالِياتِ ذِكْراً. اختلف المفسرون في معنى الصافات و الزاجرات و التاليات. فمنهم من قال: انها الملائكة. و منهم من قال:

الصافات هي جماعة المؤمنين تصطف في الصلاة و في الجهاد، و الزاجرات زواجر القرآن و آياته، و التاليات قرّاء القرآن يتلونه في الصلاة و غيرها.

و غير بعيد أن يكون المراد بالأنواع الثلاثة الذين ذكرهم الإمام علي (ع) في الخطبة الأولى من نهج البلاغة. قال في وصف الملائكة: فمنهم سجود لا يركعون، و راكعون لا ينتصبون، و صافّون لا يتزايلون أي ثابتون في أماكنهم. فجائز أن يكون قوله: «و صافون لا يتزايلون» إشارة الى «الصافات صفا». ثم قال:

و منهم أمناء وحيه و ألسنة الى رسله. أي ينزلون بالوحي على أنبيائه كجبريل (ع)، و يجوز أن يكون قوله هذا إشارة الى التاليات ذكرا لأنهم يتلون كتاب اللّه حين يبلّغونه الى الأنبياء. ثم قال: و منهم الحفظة لعباده. و قال الشيخ محمد عبده في بيان هؤلاء: «كأنهم قوى مودعة في أبدان البشر و نفوسهم يحفظ اللّه الموصولين بها من المهالك و المعاطب، و لولا ذلك لكان العطب ألصق بالإنسان من السلامة».

و يريد الشيخ عبده بهذا التصوير أن يقرب للافهام كيفية حفظ الملائكة للعباد كما يشعر بذلك قوله «و كأنهم» و عليه يجوز أن يكون قول الإمام: «و منهم الحفظة لعباده» إشارة الى الزاجرات زجرا إذا قلنا: ان الزجر معناه دفع الأذى عن العباد.

إِنَّ إِلٰهَكُمْ لَواحِدٌ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ رَبُّ الْمَشارِقِ. المراد بالمشارق مشارق الشمس بالنظر إلى أنها تشرق كل يوم من مشرق، و تغرب في مغرب .. و قد اقسم سبحانه انه واحد لا شريك له في الخلق و تدبيره.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٣٠

اللّه و القسم بخلقه:

و تسأل: لما ذا أقسم اللّه بالملائكة؟

و أجاب المفسرون بأن اللّه أقسم بالملائكة للتنبيه الى عظيم منزلتهم و علو شأنهم ..

و هذا هو جوابهم- كمبدأ- عن كل ما أقسم به سبحانه: سواء أ كان زمانا أم مكانا أم أي كائن من الكائنات العلوية و السفلية. أما صاحب الظلال فقد ربط بين هذا القسم و بين قول أهل الجاهلية، ان الملائكة بنات اللّه كما جاء في الآية ٤٠ من سورة الإسراء: أَ فَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَ اتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِناثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً قال صاحب الظلال: ان الغرض من القسم بالملائكة هو الرد على من آمن بهذه الخرافة، و نطق بهذا القول العظيم.

و الذي نراه ان اللّه يقسم بالأشياء مهما كانت لغرض واحد، و هو ان كل شيء في الوجود يدل بطبعه على ان اللّه واحد لا شريك له .. و ليس من شك ان الملائكة الصافات منهم و غير الصافات قد عبدوا اللّه و أطاعوه عن علم و يقين به و بوحدانيته، و عليه يكون علمهم هذا دليلا قاطعا على انه تعالى واحد لا شريك له في الخلق و الملك و التدبير، تماما كعلم العلماء بحقيقة موضوعية اكتشفوها و لمسوها في مختبراتهم و معاملهم.

إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ. المراد بالسماء العلو و الفضاء، و بالدنيا دنيانا نحن بني آدم، و ليس الكون بأسره، و المراد بالكواكب ما كان منها في أقرب سماء إلينا، و المعنى ان اللّه سبحانه جعل الكواكب في سمائنا زينة و جمالا بأشكالها و أنوارها، بالاضافة الى منافعها و فوائدها: وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ- ٩٧ الأنعام: هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَ الْقَمَرَ نُوراً وَ قَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسابَ- ٥ يونس.

وَ حِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ دُحُوراً وَ لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ.

مفردات هذه الآيات واضحة، و قد بيّنا البعض منها في فقرة «اللغة» ما عدا حقيقة الشيطان المارد، و حقيقة الملأ الأعلى، و اللّه و رسوله قد سكتا و لم يبينا لنا

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٣١

ما المراد من الشيطان المارد و الملأ الأعلى .. و نحن لا نفسر من غير علم، و لذا نقول: ان هذه الآيات من المتشابهات عندنا، و قد تكون من الواضحات عند غيرنا.

و غير بعيد أن يكون السبب الموجب للسكوت هو ان معرفة هذا الشيطان و هذا الملأ لا تتصل بحياتنا، أو ان أفهامنا تعجز عن ادراك حقيقتهما .. و العالم مهما اجتهد و دقّق فإنه لن يحيط بكل شيء، بل لا يستطيع أن يعرف حقيقة أي شيء من جميع جهاته و كما هو في واقعه، أما معرفتنا بمفردات الآيات كالشهاب الثاقب و العذاب الواصب و القذف و الخطف و الدحور فلا تجدي نفعا في تفسير المراد من الآيات بمجموعها ما دمنا نجهل حقيقة الشيطان المارد و الملأ الأعلى.

و قال بعض المفسرين: المراد بالشيطان المارد شيطان الجن، و قال آخر: بل الإنسان الذي لا يفكر في عظمة الكواكب و دلالتها على وجود اللّه. و قال صوفي:

المراد بالشيطان التصورات الوهمية و القوى التخيلية .. و كل ذلك رجم بالغيب ..

و الصمت خير من القول بالجهل: وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً.

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ١١ الى ٣٦]

فَاسْتَفْتِهِمْ أَ هُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَ يَسْخَرُونَ (١٢) وَ إِذا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ (١٣) وَ إِذا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَ قالُوا إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥)

أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَ وَ آباؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَ أَنْتُمْ داخِرُونَ (١٨) فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩) وَ قالُوا يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠)

هذا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْواجَهُمْ وَ ما كانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ (٢٤) ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ (٢٥)

بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٣٢

اللغة:

فاستفتهم فاسألهم. و اللازب اللازم. و داخرون صاغرون. و المراد بزجرة واحدة صيحة واحدة. و يوم الدين يوم الجزاء، و يوم الفصل بين الخلائق و تمييز المحق من المبطل.

الإعراب:

و أزواجهم مفعول معه لاحشروا. و ما لكم مبتدأ و خبر، و جملة لا تناصرون حال أي ما شأنكم غير متناصرين؟

المعنى:

فَاسْتَفْتِهِمْ أَ هُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ. اسأل يا محمد الذين أنكروا البعث: أخلق السموات و الأرض من لا شيء أصعب أم اعادة الإنسان بعد موته إلى الحياة، و قد خلقه اللّه من طين رخو لزج يلزم ما يجاوره و يلتصق به؟ ان الذي قدر على إيجاد الكون من لا شيء يهون عليه أن يعيد أجزاء الإنسان، و يجمعها بعد تفرقها. و في الآية ٥٧ من سورة غافر:

لَخَلْقُ السَّماواتِ وَ الأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ.

و تسأل: قال تعالى في سورة الكهف الآية ٢٢: وَ لا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً و قال هنا: «فاستفتهم» فما هو وجه التوفيق بين الآيتين؟

الجواب: ان موضوع آية الكهف خاص بأهل الكهف وحدهم، حيث نهى

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٣٣٣

سبحانه نبيه الكريم أن يسأل أحدا عنهم بعد أن أخبره اللّه عن أحوالهم، أما السؤال هنا فإنه موجه الى المشركين فقط، و القصد منه توبيخهم و إلقاء الحجة عليهم.

بَلْ عَجِبْتَ وَ يَسْخَرُونَ. انك تعجب يا محمد من المشركين حيث جعلوا للّه شركاء مع ان دلائل التوحيد بينة واضحة .. و هم أيضا يعجبون منك بل و يسخرون لأن دلائل الشرك هي البينة الواضحة في مفهومهم .. لا دلائل التوحيد.

و يدل على ان هذا المعنى هو المراد- ما حكاه سبحانه عن المشركين في الآية ٥ من سورة ص: أَ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ. و إذا قال قائل مع المعري:

كل يعزز دينه يا ليت شعري ما الصحيح

قلنا في جوابه: هناك مبادئ واضحة و حقائق لا يختلف عليها اثنان حيث يشترك في معرفتها الجاهل و العالم، مثل العلم خير من الجهل، و الغنى خير من الفقر، و ما الى ذلك، فإذا تنازع اثنان في مسألة نظرية، فمن انتهى قوله الى المبادئ الواضحة فهو المحق و الا فهو مبطل.

وَ إِذا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ وَ إِذا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ. لأن من استسلم لأهوائه و تقاليد آبائه عمي عن الحق «و من زاغ ساءت عنده الحسنة، و حسنت عنده السيئة، و سكر سكر الضلالة» كما قال الإمام علي (ع). **وَ قالُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ.** تكرر منهم هذا القول في العديد من الآيات، منها الآية ٧ من سورة الأنعام ج ٣ ص ١٦٣ **أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَ وَ آباؤُنَا الْأَوَّلُونَ.** المعنى واضح و تكرر مرات. أنظر الآية ٥ من سورة الرعد و ٤٩ و ٩٨ من سورة الإسراء و ٨٢ من سورة المؤمنون و ٦٨ من سورة النمل.

قُلْ نَعَمْ وَ أَنْتُمْ داخِرُونَ فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ. قل يا محمد لمنكري البعث جوابا عن سؤالهم: أئنا لمبعوثون؟ قل لهم: أجل، انكم تبعثون من قبوركم بكلمة واحدة من اللّه، و تحشرون اليه أذلاء صاغرين، و ترون

بالعين العذاب الذي كنتم به تكذبون.

(و قالوا يا ويلنا هذا يوم الدين- أي الجزاء- هذا يوم الفصل- أي بين الحق و الباطل-

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٣٣٤

الذي كنتم به تكذبون). إذا جاءهم الحق، و سنحت الفرصة للعمل قالوا: هذا كذب و سحر لا يصدق به إلا جاهل مخدوع. و إذا فات أوان العمل و جاء وقت الجزاء و ذاقوا وبال أمرهم قالوا: يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين .. و تتكرر هذه الصورة في كل حين .. يسعى الجاهل فيما يضره، فينهاه العاقل الناصح، و يحذره من العواقب، و لكنه يسخر و يركب رأسه حتى إذا وقعت الواقعة، و جاءه البلاء الذي لا مفر له منه، و أدرك أنه أخيب الناس سعيا عض يد الندامة و قال:

يا ليتني لم أك شيا.

احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْواجَهُمْ وَ ما كانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ. المراد بالأزواج هنا الأشكال و الأشباه، و تومئ الآية الى تصنيف المجرمين، و ان المشرك يحشر مع المشركين في مكان واحد من جهنم و معهم الأصنام التي كانوا يعبدون، و كذلك السارق مع السارقين، و هكذا كل شكل الى شكله قرين تماما كما كانوا في الحياة الدنيا **فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ**. بعد أن يتم حساب المجرمين يقال للملائكة: عجلوا بهم إلى سواء الجحيم.

وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ. قبل أن تذهب الملائكة بالمجرمين الى جهنم يحبسون الى السؤال عما كانوا يعملون. و في بعض الروايات: يسأل المرء يومذاك عن عمره فيم أبلاه، و عن ماله مم كسبه و فيم أنفقه، و عن علمه ما ذا عمل به، أما التوفيق بين هذه الآية و بين قوله تعالى: فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لا جَانٌّ- ٣٩ الرحمن أما هذا التوفيق فقد أشرنا إليه أكثر من مرة، و يتلخص بأن لليوم الآخر مواقف يسأل المرء في بعضها دون بعض. انظر تفسير الآية ٦٥ من سورة يس.

ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ؟ الخطاب للمجرمين، و المعنى يقال لهم غدا: لما ذا لا يدفع بعضكم العذاب عن بعض في هذا اليوم، و قد كنتم في الحياة الدنيا متكافلين متضامنين ضد الحق و أهله. و الغرض من هذا السؤال التقريع و التوبيخ **بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ**. انقادوا لأمر اللّه لا يستطيعون حيلة و لا يهتدون سبيلا.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٣٣٥

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ٢٧ الى ٣٧]

وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (٢٧) قالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَ ما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ (٣١)

فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلاَّ اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَ يَقُولُونَ أَ إِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦)

بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَ صَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧)

اللغة:

يطلق اليمين على معان، منها اليد، و منها الجهة التي هي ضد اليسار، و منها البركة و القوة، و المراد بها هنا الإغواء مجازا

بدليل جواب المتبوعين للتابعين:

فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ.

الإعراب:

جملة إنّا لذائقون مفعول القول. و مفعول ذائقون محذوف أي العذاب.

المعنى:

وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ قالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ. يتساءل

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٣٣٦

المجرمون و يتلاومون حين يرون العذاب، و يلقي الضعفاء التبعة و المسئولية على الرؤساء، و يقولون لهم فيما يقولون: لولا اغراؤكم و خداعكم لكنا مؤمنين .. و عبروا عن هذا الخداع باليمين لأن العرب تتفاءل بما يأتي من جهة اليمين، فقولهم:

تأتوننا عن اليمين أشبه بقول القائل: أتاني من ميولي و رغباتي. و تقدم مثله في الآية ٣٨ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٢٦.

قالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَ ما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ. هذا قول الرؤساء أجابوا به الضعفاء، و محصّله: ما كنا نملك إلا الدعوة و تزيينها، و قد دعوناكم الى الكفر فاستجبتم، و دعاكم الرسول الى الايمان فنفرتم، و السر هو خبثكم و طغيانكم و إلا فأي سلطان لنا عليكم لو آمنتم باللّه و رسوله كما آمن غيركم؟ و قد كان من نتيجة كفرنا و اغوائنا لكم، و استجابتكم لنا ان حقت علينا و عليكم كلمة العذاب، كما ترون .. و ليس بعد العذاب الذي نقاسيه من مستعتب. و تقدم مثله في الآية ٢٥ من سورة العنكبوت و ٦٧ من سورة الأحزاب.

فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ. هذا من كلام اللّه سبحانه، و معناه ان العذاب يقع على جميع المجرمين في ذلك اليوم الذي تساءلوا فيه و تلاوموا **إِنَّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ.** عقاب صارم، و عذاب دائم من غير فرق بين التابع و المتبوع.

إِنَّهُمْ كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلاَّ اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ. تعالوا و تعاظموا عن قبول الحق و كلمته، فأصابهم ما أصاب المستكبرين قبلهم من بأس اللّه و عذابه **وَ يَقُولُونَ أَ إِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ.** قال المفسرون: خلط المشركون في كلامهم، و ارتبكوا في غيهم حيث وصفوا الرسول الأعظم (ص) بالشاعر و المجنون معا مع ان الشاعر ينتقي المعاني بفكر و روية، و يؤلف بينها بدقة و إحكام، و يعبر عنها ببراعة و إتقان، و أين المجنون من هذا؟

بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَ صَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ. كلا، ما هو بشاعر و لا مجنون، و إنما هو رسول كريم، جاء بالحق من عند اللّه، و صدق من تقدمه من الرسل، و ما بين يديه من الكتب .. و بعد، فإن المجنون خير و أفضل ممن وصف محمدا (ص)

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٣٣٧

بالجنون، و هو الذي اصطفاه اللّه و اختاره لرسالته، و جعله سيد المرسلين و خاتم النبيين. انظر تفسير الآية: وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما يَنْبَغِي لَهُ- ٦٩ يس.

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ٣٨ الى ٤٩]

إِنَّكُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الأَلِيمِ (٣٨) وَ ما تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلاَّ عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (٤١) فَواكِهُ وَ هُمْ مُكْرَمُونَ (٤٢)

فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ (٤٤) يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (٤٥) بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (٤٦) لا فِيها غَوْلٌ وَ لا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ (٤٧)

وَ عِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (٤٩)

اللغة:

معين ماء غزير. لذة لذيذة. غول صداع. و لا هم عنها ينزفون لا يفنى شرابهم. قاصرات الطرف يحبسن نظراتهن على أزواجهن. و عين جمع عيناء و هي واسعة العينين. مكنون مستور.

الإعراب:

إلا ما كنتم تعملون «الا» أداة حصر. و الا عباد اللّه المخلصين استثناء منقطع من ذائقو العذاب، و ما بين المستثنى و المستثنى منه اعتراض. فواكه بدل من رزق. على سرر متعلق بمتقابلين و متقابلين حال من «مكرمون». و بيضاء صفة للكأس. و عندهم خبر لمبتدأ محذوف أي حور. و قاصرات الطرف صفة للحور، و عين صفة ثانية. و مكنون صفة للبيض.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٣٨

المعنى:

إِنَّكُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الأَلِيمِ وَ ما تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. بعد ان قال سبحانه: ان المجرمين في العذاب مشتركون قال لهم: ان عذابكم هو جزاء لما كسبت أيديكم، و لا تظلمون فتيلا.

إِلاَّ عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ. هذا على عادة القرآن، يذكر المجرمين و عقابهم، و يعقب بذكر الطيبين و ثوابهم، و هو بالإجمال رزق معلوم عند اللّه و عندهم، و هو بالتفصيل (فواكه) مما يشتهون **وَ هُمْ مُكْرَمُونَ** لأن الفواكه و الطعام و الشراب مع الاهانة سموم و هموم، و في الأمثال اللبنانية:

«استقبلني و لا تطعمني». **فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ** تجري من تحتها الأنهار **عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ** ينظر بعضهم الى بعض بغبطة و سرور **يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ** يحمل الولدان اليهم أنواعا من الشراب الذي لا ينضب له معين **بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ** مشرقة اللون طيبة الطعم **لا فِيها غَوْلٌ** لا صداع من شرابها و لا أوجاع **وَ لا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ** أي لا يفنى شرابها، يقال: نزف ماء البئر إذا استخرجه بكامله. و نزف الرجل إذا ذهب عقله، و من ثم قال بعض المفسرين: المراد ان عقولهم لا تذهب من شرابها **وَ عِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينٌ**. فواكه و تكريم و سرر و خدم و شراب، و فوق ذلك حور عفيفات جميلات واسعات العيون **كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ** هذا كناية عن صيانتهن و بعدهن عن لمس الأيدي و نظرات الأعين.

المرأة و الفتيان:

بالأمس القريب جاءني كتاب من إحدى الطالبات الكويتيات، تقول فيه:

جرى حديث بينها و بين أترابها في حقوق المرأة، فقالت هي: الإسلام لا يفرق بين الرجال و النساء .. فاعترضن عليها

بأن القرآن نصّ صراحة على ان اللّه غدا يكافئ الرجال الطيبين بالحور العين، و سكت عن مكافأة النساء الطيبات بالشبان و الفتيان الفوارس الأشاوس .. و لو كانت الحقوق سواء لوجب أن يكون الجزاء من نوع واحد ..

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٣٩

و تقول الآنسة: انها عجزت عن الجواب. و رغبت إليّ ان أكتب به اليها، لتقنع الفتيات المعترضات.

و يدلنا هذا الحوار البريء على ان المرأة تماما كالرجل في غرائزه و ميوله، و ان الرجل على شرطها هي و شروطها أفضل جزاء لها و ثواب- طبعا و الرجل كذلك- و أيضا يدل هذا الحوار على أن غيرة المرأة من الرجل تماما كغيرة الضرائر و النظائر.

و قلت في جوابي لها: ان القرآن الكريم نص صراحة على المساواة بين الذكر و الأنثى كمبدأ عام، و ذلك حيث يقول: أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى- ١٩٥ آل عمران: وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لا يُظْلَمُونَ نَقِيراً- ١٢٤ النساء ..

و ليس من شك أن من دخل الجنة وجد فيها ما تشتهي الأنفس و تلذ الأعين ذكرا كان أو أنثى كما في الآية ٧١ من الزخرف .. هذا، الى أن القرآن الكريم ذكر الولدان المخلدين كما ذكر الحور العين، و إذا وصف الحور بالبيض المكنون فقد وصف الولدان باللؤلؤ المنثور كما في الآية ١٩ من سورة الدهر.

و غير بعيد أن يكون السكوت عن مكافأة النساء بالفتيان و الشبان جاريا على المألوف بين الناس، حيث يقولون للشاب لم لا تتزوج؟ و متى تتزوج؟ و لا يقولون ذلك للفتيات و الآنسات حيث يغلب عليهن الحياء، و قديما قيل: أشد حياء من فتاة .. و أيضا قيل: ان ملذات الجنة كلها روحية، لا شائبة فيها لمادة أو جنس، و ان ذكر الحور و الفاكهة و الكأس هو مجرد رمز و اشارة بلذة الجسم الى لذة الروح، و ان السرر كناية عن الدرجات و المراتب.

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ٥٠ الى ٦٨]

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (٥٠) قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤)

فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قالَ تَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَ لَوْ لا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَ فَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلاَّ مَوْتَتَنَا الْأُولى وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩)

إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ (٦١) أَ ذلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤)

طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٤٠

اللغة:

قرين صاحب. و مدينون محاسبون و مجزيون. و مطلعون مشرفون. و سواء الجحيم وسطها. و تردين تهلكني. و محضرين من الإحضار، و أحضره جعله حاضرا، و قالوا: لا تستعمل احضر الا في الشر. و النزل ما يهيأ للنازل. و الزقوم

شجرة تخرج في الجحيم كما قال سبحانه، و قيل: ان العرب تعرف لها نظيرا في الدنيا و انها مرّة و توجد في تهامة. و الطلع أول ما يخرج من النخلة في أكمامه. و رؤوس الشياطين كناية عن قبح المنظر. و الشوب خلط الشيء بغيره. و الحميم الحار.

الإعراب:

ان كدت «ان» مخففة من الثقيلة و اسمها محذوف أي انك. و لتردين اللام هي الفارقة بين المخففة و النافية، و تردين أصلها ترديني. و نعمة ربي مبتدأ و الخبر محذوف أي كائنة. و نزلا تمييز.

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۳۴۱

المعنى:

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ. ما زال الكلام عن أحوال الجنة.

قال سبحانه في الآيات السابقة: ان أهل الجنة يتنعمون بأنواع الملذات. و قال في هذه الآية: انهم يتكالمون مسرورين عما كان يجري معهم في الحياة الدنيا، من ذلك **قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ أَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَدِينُونَ**. يتحدث هذا المؤمن الى إخوانه و جيرانه عن جليس له كان يسخر من الذين آمنوا بيوم الدين، و يقول فيما يقول: أبعد الفناء نبعث أحياء؟ حديث خرافة يا أم عمرو .. و هذا ما يلوكه كل ملحد .. و السر ان الايمان بالبعث فرع عن الايمان بالوحي من اللّه الى من اصطفى من عباده، و الملحد لا يؤمن بهذا الوحي فكيف يؤمن بالبعث بعد الموت؟. و في جملة واحدة ان البعث غيب، و الغيب أسطورة عند الملحدين.

قالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ. الخطاب من المؤمن لزملائه في الجنة يدعوهم أن يشرفوا على جهنم ليروا عاقبة ذاك الساخر المكابر **فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ**.

قال لهم هذا، و أشرف هو على جهنم فرأى قرينه في قلبها (قال- له موبخا- تاللّه ان كدت لتردين) أي تهلكني و توقعني في الشك بوسوستك و شكوكك **وَ لَوْ لا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ** معك في سواء الجحيم.

ثم يلتفت المؤمن الى إخوانه و يقول لهم: **أَ فَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولى وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** يتحدث فرحا بما أصاب، و يقول:

تجاوزنا الامتحان بنجاح، و للّه الحمد .. فلا موت و لا أتعاب بعد اليوم .. لا شيء إلا نعمة اللّه و رضوانه، و في هذا المعنى قوله: لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى وَ وَقاهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ- ۵۷ الدخان.

لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ و يتنافس المتنافسون .. أضاف سبحانه الأعمال و الأفعال الى العباد، و أوجب عليهم عمل ما فيه خيرهم و صلاحهم، و نهاهم عما يعود عليهم بالشر و الفساد، و ترك لهم الخيار فعلا و تركا فيما عدا ذلك، و وعد

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۳۴۲

من أطاع بالجنة، و من عصى بعذاب الحريق، و ليس من شك ان العاقل يرحم نفسه و يختار لها الأصلح، و في نهج البلاغة: ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنة، فلا تبيعوها إلا بها.

(أَ ذٰلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ إِنَّا جَعَلْنٰاهٰا فِتْنَةً لِلظّٰالِمِينَ). ذلك إشارة إلى النعيم، و هو أجر من أصلح و أحسن عملا. و نزلا ما يعد للنازل. و الفتنة هنا معناها العذاب كما هي في الآية ١٣ من سورة الذاريات: يَوْمَ هُمْ عَلَى النّٰارِ يُفْتَنُونَ أي يعذبون، أما شجرة الزقوم فقد بينها سبحانه بقوله: إِنَّهٰا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهٰا كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّيٰاطِينِ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهٰا فَمٰالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ. الزقوم من قول العرب: تزقم الطعام إذا تناوله على كره. و في تفسير الطبري: ان أبا جهل لما نزلت هذه الآية قال ساخرا: انا آتيكم بالزقوم، ثم أتى بزبد و تمر، و قال: دونكم تزقموا، هذا هو الزقوم الذي يخوفكم به محمد.

و رؤوس الشياطين كناية عن قبح الشجرة و منظرها المخيف .. و من قال: ان شجرة الزقوم ترمز الى سوء العذاب فلا اعتراض لنا عليه.

ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهٰا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ. الشوب الخلط، و الحميم الحار، و المعنى انهم يأكلون الزقوم، و يشربون من ماء الصديد، و هو القيح المخلوط بالدم: مِنْ وَرٰائِهِ جَهَنَّمُ وَ يُسْقىٰ مِنْ مٰاءٍ صَدِيدٍ- ١٦ ابراهيم ج ٤ ص ٤٣٣ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ. و المراد بمرجعهم سكنهم الأخير و مقرهم الدائم، و المعنى طعامهم الزقوم، و شرابهم الحميم، و سكنهم الجحيم، أما لباسهم فقد أشارت اليه الآية ٥٠ من سورة ابراهيم: سَرٰابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرٰانٍ.

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ٦٩ الى ٨٣]

إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبٰاءَهُمْ ضٰالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلىٰ آثٰارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠) وَ لَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (٧٢) فَانْظُرْ كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣)

إِلاّٰ عِبٰادَ اللّٰهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤) وَ لَقَدْ نٰادٰانٰا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَ نَجَّيْنٰاهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَ جَعَلْنٰا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبٰاقِينَ (٧٧) وَ تَرَكْنٰا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨)

سَلاٰمٌ عَلىٰ نُوحٍ فِي الْعٰالَمِينَ (٧٩) إِنّٰا كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبٰادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٨٢)

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٣٤٣

اللغة:

يهرعون يسرعون. و تركنا عليه أبقينا عليه ذكرا جميلا.

الإعراب:

فلنعم المجيبون اللام في جواب قسم محذوف و جملة نعم خبر لمبتدأ محذوف أي نحن. و أهله مفعول معه. و هم الباقين «هم» ضمير فصل لا محل له من الإعراب.

المعنى:

إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبٰاءَهُمْ ضٰالِّينَ فَهُمْ عَلىٰ آثٰارِهِمْ يُهْرَعُونَ. الضمير الغائب يعود إلى مشركي العرب الذين ساروا على طريقة الآباء من غير بحث و تدبر، و تومئ الآية إلى ان الضال و من ضل به سواء في المعصية و استحقاق العقاب، أما من قلد أهل الهداية و الصلاح فهو في أمن و أمان من عذاب اللّه، و يدل على ذلك قوله تعالى: قٰالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مٰا أَلْفَيْنٰا عَلَيْهِ آبٰاءَنٰا أَ وَ لَوْ كٰانَ آبٰاؤُهُمْ لاٰ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَ لاٰ يَهْتَدُونَ- ١٧٠ البقرة. و معنى هذا ان آباءهم لو كانوا مهتدين لجاز اتباعهم. أنظر ج ١ ص ٢٥٩ فقرة «التقليد و أصول العقائد».

وَ لَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ. ان كذّبك يا محمد مشركو العرب، و ضلوا عن الحق فقد ضل قبلهم أكثر الأمم، مع ان

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۳۴۴

اللّه بعث اليهم رسلا مبشرين و منذرين، و اتخذ عليهم الحجة و بيّن لهم محابّه و مكارهه من الأعمال، فاتبعوا هذه، و اجتنبوا تلك، فحقت عليهم كلمة العذاب فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ من الخزي و الدمار إِلَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ فقد أنجاهم سبحانه من عذابه، و كافأهم بأجره و ثوابه.

وَ لَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ. يشير سبحانه الى ما جاء في الآية ٢٦ من سورة نوح: وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً.

وَ نَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ. استنصر نوح باللّه على طغاة قومه، فأغرقهم اللّه و لم يبق منهم ديارا استجابة لدعاء نبيه نوح، و نجاه و من آمن معه من أذى الكفرة الفجرة و من كل كرب و سوء.

سام و يافث و حام:

وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ بعد الطوفان دون الناس أجمعين. و في تفسير الطبري: «ذرية نوح هم الباقون في الأرض بعد مهلك قومه، و الناس كلهم من بعده الى اليوم إنما هم من ذرية نوح، فالعجم و العرب أولاد سام بن نوح، و الترك و الصقالبة أولاد يافث، و السودان أولاد حام، و بذلك جاءت الآثار و قالت العلماء». و قد توفي الطبري سنة ٣١٠ هـ أي قبل أكثر من ألف سنة، و لسبقه و تقدمه يلقبونه بشيخ المفسرين.

و في «قاموس الكتاب المقدس»: «سام اسم عبراني و معناه «اسم» و هو أكبر أولاد نوح، و من نسله العرب و الآراميون و الآشوريون و اليهود، و لذلك تدعى اللغات التي يتكلمون بها السامية نسبة اليه، مثل اللغة العربية و اللغة العبرانية ..

و يافث اسم ساميّ ربما كان معناه جمال .. و من ذريته الذين سكنوا الجبال الغربية من النجاد جنوبي بحر قزوين و البحر الأسود حتى شواطئ و جزائر البحر المتوسط من أصل هندي أوروبي- و يدخل في هؤلاء الترك و الصقالبة الذين أشار اليهم الطبري- و حام اسم عبري، و معناه حام أي ساخن، و هو أصغر أبناء نوح».

وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. أبقينا له الذكر الجميل مدى الحياة سَلامٌ

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۳۴۵

عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ. هو في أمن و أمان من اللّه أن يذكره ذاكر بسوء، و قد كان الأنبياء يسألون اللّه سبحانه أن يجعل لهم ذكرا حسنا عند الناس من بعدهم:

قال ابراهيم (ع): وَ اجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ- ٨٤ الشعراء.

إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. أي يحسن اللّه اليهم لأنه لا يضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ لأنه أحسن في أعماله و جاهد في اللّه حق جهاده، و هذه هي سمات المؤمن و دلائله ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ في الدنيا، و لهم في الآخرة عذاب أليم جزاء بما كانوا يعملون.

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ٨٣ الى ٩٩]

وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ (٨٣) إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ ما ذا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَ إِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ (٨٧)

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ فَقالَ أَ لا تَأْكُلُونَ (٩١) ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ (٩٢)

فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قالَ أَ تَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ (٩٥) وَ اللهُ خَلَقَكُمْ وَ ما تَعْمَلُونَ (٩٦) قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧)

فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَ قالَ إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩)

اللغة:

شيعة الرجل الجماعة السائرون على دينه و طريقه، ثم صارت هذه الكلمة بمفردها

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٤٦

اسما لشيعة الإمام (ع) و من قام مقامه من أبنائه. أ إفكا أي زورا و باطلا. و راغ مال و حاد من جهة الى جهة. و يزفون يسرعون.

الإعراب:

إذ جاء «إذ» في محل نصب بفعل محذوف أي اذكر حين جاء. و إذ قال «إذ» هذه بدل من إذ الأولى. أ إفكا مفعول به لتريدون. و آلهة بدل من الافك.

فما ظنكم مبتدأ و خبر. و مدبرين حال. و ما لكم مبتدأ و خبر. و ضربا منصوب على المصدرية أي يضرب ضربا.

المعنى:

ذكر سبحانه مضمون هذه الآيات فيما تقدم، و لذا نفسرها تفسيرا سريعا مع الاشارة الى رقم الآية و السورة السابقة.

وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ. ضمير شيعته يعود الى نوح، و المعنى ان ابراهيم (ع) سار على نهج نوح عقيدة و عملا، و في بعض التفاسير القديمة: انه كان بين نوح و ابراهيم ٢٦٤٠ سنة، و صاحب هذا القول لم يسنده إلى مصدر موثوق.

إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ. و صاحب هذا القلب هو الذي أخلص للّه وحده في جميع أقواله و أفعاله. و في الحديث: لا يستقيم ايمان عبد حتى يستقيم قلبه.

و في نهج البلاغة: طوبى لقلب سليم أطاع من يهديه، و تجنب من يرديه **إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ ما ذا تَعْبُدُونَ أَ إِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ**. أنكر ابراهيم عبادة الأصنام على قومه، و جابههم بكلمة الحق قائلا: أ تطلبون الزور و الباطل بالرجوع إلى غير اللّه، و التقرب اليه بعبادة سواه؟ و تقدم مثله في الآية ٧٤ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢١٢.

فَما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ؟ أ تظنون به، و هو خالق الكون، انه حجر أو كوكب؟ ألا يردعكم عن هذا الجهل يقظة من عقل، أو لمحة من فهم. و في

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٤٧

ج ٤ ص ٣٩١ فقرة: عقول الناس لا تغنيهم عن دين اللّه بيّنا لما ذا عبد المشركون أحجارا تبول عليها الكلاب و الثعالب **فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ** يوهم قومه أنه يبحث عن خالق الكون لأنهم كانوا يعبدون آلهة كثيرة و بنوع خاص «نانار» إله القمر و زوجته «ننجال» (قاموس الكتاب المقدس). و في معنى هذه الآية ما جاء في الآية ٧٦ من سورة الانعام.

فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ. للمفسرين في معنى سقيم أقوال، أرجحها ان المراد به هنا الشاكّ، و عليه يكون المعنى ان ابراهيم قال لقومه: انا الآن في حيرة أبحث و أدقق لأهتدي الى معرفة الخالق، و قد نظرت في الأصنام فأيقنت انها ليست بآلهة، ثم

نظرت في النجوم فلم أهتد الى شيء بل بقيت على شكي و حيرتي. و السياق يعين إرادة هذا المعنى أو يرجحه- على الأقل- لأنه ربط بين قوله: اني سقيم و بين نظرته في النجوم .. و ليس في قوله: اني شاك أيّ كذب .. كلا، لأنه من باب المماشاة مع الخصم ليأخذه بالحجة، و يقطع عليه كل معذرة.

فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ. تركوه و شأنه و ذهبوا الى شأنهم **فَرٰاغَ إِلىٰ آلِهَتِهِمْ**.

أسرع الى الأصنام مغتنما فرصة غيابهم عنها، و كانوا قد وضعوا بين يديها طعاما لتباركه (فقال- للأصنام- ألا تأكلون ما لكم لا تنطقون)؟ و معلوم انه قال هذا ازدراء بها، و احتجاجا على من يعبدها و يتبرك بها **فَرٰاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ**. مال على الأصنام يحطمها بيمينه حتى جعلها قطعا قطعا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون **فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ**. أسرع القوم الى ابراهيم و قالوا له:

أ أنت فعلت هذا يا ابراهيم **قٰالَ أَ تَعْبُدُونَ مٰا تَنْحِتُونَ**؟ ويلكم لا تفتروا على اللّه كذبا .. ان الإله خالق غير مخلوق، و رازق غير مرزوق، و قد صنعتم هذه الأصنام بأيديكم و تقدمون لها الأطعمة و تحرسونها من الاعتداء، فكيف تكون آلهة؟

وَ اللّٰهُ خَلَقَكُمْ وَ مٰا تَعْمَلُونَ هو خالق كل شيء و اليه المصير.

قٰالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيٰاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ. عجزوا عن مقابلة الحجة بالحجة فلجئوا الى القوة كما هو شأن الطغاة، يضرمون النار، و يلقون فيها دعاة الحق و الخير كما كانت الحال في القديم، و لما تقدم العلم المدمّر ألقوا النار على الشعوب المستضعفة بنسائها و أطفالها **فَأَرٰادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنٰاهُمُ الْأَسْفَلِينَ** حيث جعل

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٤٨

سبحانه النار على ابراهيم بردا و سلاما **وَ قٰالَ إِنِّي ذٰاهِبٌ إِلىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ**.

بعد أن أنجاه اللّه من كيد قومه هاجر من بلده اور الكلدانيين- بابل- الى بلاد الشام. و في قاموس الكتاب المقدس: «اكتشفت آثار و نقوش ترجع الى حوالى ألفي سنة قبل الميلاد، و قد وجد عليها اسم ابراهيم بهذه الصيغ: ابرامو. إبرام. إبراما، و أظهرت الكشوف التاريخية الحديثة الحالة التي كانت عليها مدينة اور التي هاجر منها ابراهيم كما كانت حينذاك». و تقدم مضمون هذه الآيات بنحو من التفصيل في سورة الأنبياء الآية ٥١- ٧٠ ج ٥ ص ٢٨٣- ٢٨٨.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٤٩

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ١٠٠ الى ١١٣]

رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصّٰالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنٰاهُ بِغُلاٰمٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمّٰا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قٰالَ يٰا بُنَيَّ إِنِّي أَرىٰ فِي الْمَنٰامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مٰا ذٰا تَرىٰ قٰالَ يٰا أَبَتِ افْعَلْ مٰا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شٰاءَ اللّٰهُ مِنَ الصّٰابِرِينَ (١٠٢) فَلَمّٰا أَسْلَمٰا وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَ نٰادَيْنٰاهُ أَنْ يٰا إِبْرٰاهِيمُ (١٠٤)

قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيٰا إِنّٰا كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هٰذٰا لَهُوَ الْبَلاٰءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَ فَدَيْنٰاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَ تَرَكْنٰا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلاٰمٌ عَلىٰ إِبْرٰاهِيمَ (١٠٩)

كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبٰادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَ بَشَّرْنٰاهُ بِإِسْحٰاقَ نَبِيًّا مِنَ الصّٰالِحِينَ (١١٢) وَ بٰارَكْنٰا عَلَيْهِ وَ عَلىٰ إِسْحٰاقَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمٰا مُحْسِنٌ وَ ظٰالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣)

اللغة:

أسلما استسلما لأمر اللّه. و تله صرعه و ألقى به على الأرض. و الجبين عن يمين الجبهة و شمالها، و الجبهة مكان السجود أي ان ابراهيم ألقى ولده على شقه. و الذبح بكسر الذال المهيأ للذبح.

الإعراب:

و ناديناه الواو زائدة عند الكوفيين و ناديناه جواب لما، و عند غيرهم جواب لما محذوف أي فازا و ظفرا. و ان يا ابراهيم «ان» مفسرة. و نبيا حال من اسحق.

المعنى:

رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ. بلغ ابراهيم (ع) من الكبر عتيا، و لم يرزق ولدا، فسأل ربه أن يهبه ذرية مؤمنة و خلفا صالحا **فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ.**

و هو إسماعيل، ما في ذلك ريب، بشهادة القرآن الكريم، و يأتي البيان مفصلا بعد تفسير الآيات التي نحن بصددها.

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَا ذَا تَرَىٰ.

الضمير المستتر في بلغ يعود الى الغلام المذكور في الآية السابقة، و نعني به إسماعيل، و ضمير معه يعود الى ابراهيم. و قد رأى في منامه أنه يذبح أو يقدم على ذبح ولده، ففهم من هذه الرؤيا ان اللّه قد أمره بذبحه .. و فهم الأنبياء يقين، و من أجل هذا عزم من غير تردد على أن يحقق رؤياه بالفعل، و أخبر ولده بعزمه و طلب منه أن يبدي رأيه في ذلك بعد النظر و التأمل.

قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ. أجابه على الفور لا رأي لي و لا أمر مع أمر اللّه و أمرك .. يا أبت اذبحني فلا قيمة للحياة في جنب مرضاة اللّه و مرضاتك ..

افصل يا أبت رأسي عن جسدي و أنت عندي البر الرحيم ما دمت تبغي وجه اللّه و تستجيب لدعواه .. ثم أخذ إسماعيل يخفف عن أبيه و يهون عليه أمر الذبح و يقول:

سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ. أتلقى الذبح رابط الجأش قوي اليقين.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٥٠

فَلَمَّا أَسْلَمَا وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَ نَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. لما مدّ إسماعيل عنقه للذبح و هوى عليه ابراهيم بسكينة مفوضا كل منهما أمره لمن له الأمر- جاء النداء من الآمر الأعلى: هذا تأويل رؤياك ..

انه العزم و الاقدام منك على الذبح إخلاصا للّه، و الانقياد من إسماعيل لأمر اللّه طيب النفس، أما الذبح بالذات فما هو بمقصود.

و تسأل: إذا كان الذبح غير مقصود فما هو الغرض من الأمر به؟

الجواب: يرى البعض ان الغرض من ذلك ان يظهر اللّه سبحانه للملإ و الأجيال عظمة كل من ابراهيم و إسماعيل في تضحيته و إخلاصه للّه، فيكون موضع التقديس و التقدير الى يوم يبعثون. و قال آخر: الغرض ان تبدل سارة غيرتها من هاجر ام إسماعيل، و تكف قسوتها عن ابراهيم .. و نضيف نحن الى هذين القولين ان اللّه سبحانه أراد أيضا أن يضرب ذلك مثلا للمؤمن الحق و انه الذي يطيع اللّه في كل شيء حتى في ذبح ولده و فلذة كبده، و يومئ الى هذا قوله تعالى:

إِنَّ هٰذا لَهُوَ الْبَلاٰءُ الْمُبِينُ أي ان هذا العزم على التضحية بالنفس و الأهل امتثالا لأمر اللّه هو وحده المحكّ للمؤمن حقا و واقعا، و الحد الفاصل بينه و بين من يخيل اليه انه من المؤمنين و ما هو من الايمان في شيء.

وَ فَدَيْنٰاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ. المراد بالذبح المذبوح. و قيل كان كبشا، و قال آخر: بل كان وعلا .. و أيا كان الفداء فنحن غير مسؤولين عن معرفة نوعه، و لا تتصل هذه المعرفة بحياتنا من قريب أو بعيد. و طريف قول من قال انه كان كبشا أملح، و رعى في الجنة أربعين عاما، و ان ابراهيم (ع) أعطى طحاله و أنثييه لإبليس .. و إذا رعى في الجنة أربعين عاما فكم يكون وزنه يا ترى؟

وَ تَرَكْنٰا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلاٰمٌ عَلىٰ إِبْرٰاهِيمَ كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبٰادِنَا الْمُؤْمِنِينَ. تقدم هذا النص في الآية ٧٨ و ما بعدها من هذه السورة نفسها.

وَ بَشَّرْنٰاهُ بِإِسْحٰاقَ نَبِيًّا مِنَ الصّٰالِحِينَ وَ بٰارَكْنٰا عَلَيْهِ وَ عَلىٰ إِسْحٰاقَ. هذه البشارة من اللّه لإبراهيم بولد ثان انما هي جزاء على صبره و إقدامه على ذبح ولده طاعة للّه. و في قاموس الكتاب المقدس: ان سارة ولدت إسحاق و لها من العمر ٩٠ سنة، و لإبراهيم مائة سنة، و ان معنى إسحاق في العبرية يضحك. أما هاجر فقد ولدت

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٥١

إسماعيل و لإبراهيم من العمر ست و ثمانون سنة **وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمٰا مُحْسِنٌ وَ ظٰالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ**. و المحسن من هذه الذرية هو الذي اتبع ملة أبيه ابراهيم حنيفا، و الظالم من حاد عنها.

هل الذبيح إسماعيل أو اسحق؟

ذهب البعض الى ان الذبيح- أي الذي أمر ابراهيم بذبحه- هو اسحق و ليس إسماعيل .. و لا مصدر لهذا القول إلا اسرائيليات كعب الأحبار و حسد اليهود لأبناء إسماعيل، و ليس هذا بكثير على بني إسرائيل، أما الأدلة على ان الذبيح هو إسماعيل فهي:

أولا: قوله تعالى: **فَبَشَّرْنٰاهُ بِغُلاٰمٍ حَلِيمٍ فَلَمّٰا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قٰالَ يٰا بُنَيَّ إِنِّي أَرىٰ فِي الْمَنٰامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ** فإنه يدل بصراحة على ان المبشر به و الساعي و الذبيح صفات لموصوف واحد، و هو الولد البكر لإبراهيم، و بكر ابراهيم هو إسماعيل باتفاق المسلمين و النصارى و اليهود، فلقد جاء في التوراة الاصحاح ١٦ الآية ١٥ من سفر التكوين ما نصه بالحرف: «و كان إبرام ابن ست و ثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل لابرام» أي ابراهيم، و إذا عطفنا على هذا ما جاء في التوراة من السفر المذكور الاصحاح ١٧ الآية ١٧ و ما بعدها: ان اللّه لما بشّر ابراهيم باسحق من سارة سقط على وجهه و قال في قلبه: هل يولد لي و أنا ابن مائة سنة، و سارة بنت تسعين؟. إذا جمعنا بين الآيتين تكون حصيلتهما ان إسماعيل هو الولد البكر، و انه يكبر اسحق بأربعة عشر عاما، و بينا ان البكر هو الذبيح، فالذبيح- اذن- إسماعيل لا اسحق.

ثانيا: قوله تعالى: **وَ بَشَّرْنٰاهُ بِإِسْحٰاقَ نَبِيًّا مِنَ الصّٰالِحِينَ** حيث جاءت هذه البشارة لإبراهيم بإسحاق جزاء له على طاعته للّه في ذبح ولده البكر، كما قدمنا، فلا بد- و هذه هي الحال- أن يكون زمن إسحاق متأخرا عن زمن الذبيح، تماما كما يتأخر الثواب على العمل عن نفس العمل.

ثالثا: قوله تعالى في الآية ٧١ من سورة هود: فَبَشَّرْنٰاهٰا بِإِسْحٰاقَ وَ مِنْ

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٥٢

وَرٰاءِ إِسْحٰاقَ يَعْقُوبَ فإن اللّه بشّر سارة بإسحاق و بولده يعقوب في آن واحد، فكيف يأمر بذبح إسحاق بعد أن بشّر به و بنسله؟ و ما ذا تقول سارة عند ما تسمع الأمر بذبح وليدها بعد أن سمعت البشارة به و بولده؟.

رابعا: لو كان الذبيح إسحاق لوجب أن يكون النحر و السعي و رمي الجمار في أرض الشام حيث كانت سارة و ولدها إسحاق، و ليس بمكة حيث كانت هاجر و ولدها إسماعيل.

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ١١٤ الى ١٣٢]

وَ لَقَدْ مَنَنّٰا عَلىٰ مُوسىٰ وَ هٰارُونَ (١١٤) وَ نَجَّيْنٰاهُمٰا وَ قَوْمَهُمٰا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَ نَصَرْنٰاهُمْ فَكٰانُوا هُمُ الْغٰالِبِينَ (١١٦) وَ آتَيْنٰاهُمَا الْكِتٰابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَ هَدَيْنٰاهُمَا الصِّرٰاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨)

وَ تَرَكْنٰا عَلَيْهِمٰا فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلٰامٌ عَلىٰ مُوسىٰ وَ هٰارُونَ (١٢٠) إِنّٰا كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمٰا مِنْ عِبٰادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢) وَ إِنَّ إِلْيٰاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣)

إِذْ قٰالَ لِقَوْمِهِ أَ لٰا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَ تَدْعُونَ بَعْلاً وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخٰالِقِينَ (١٢٥) اللّٰهَ رَبَّكُمْ وَ رَبَّ آبٰائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلاّٰ عِبٰادَ اللّٰهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨)

وَ تَرَكْنٰا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلٰامٌ عَلىٰ إِلْيٰاسِينَ (١٣٠) إِنّٰا كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبٰادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢)

اللغة:

المستبين الواضح. و بعل اسم صنم.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٥٣

الإعراب:

اللّه و ربكم بدل من أحسن الخالقين.

المعنى:

وَ لَقَدْ مَنَنّٰا عَلىٰ مُوسىٰ وَ هٰارُونَ. منّ سبحانه على موسى و هرون بالنبوة و خلود الذكر و النصر على الأعداء، و لا تكون النبوة بالكسب و العمل، و إنما هي اختيار من اللّه تعالى: اللّٰهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسٰالَتَهُ- ١٢٤ الأنعام. و من أجل هذا لا يتعلق بها التكليف، فلا يقال: كن نبيا كما يقال: كن تقيا **وَ نَجَّيْنٰاهُمٰا وَ قَوْمَهُمٰا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ**. من طبيعة اليهود أن يتقبلوا كل شيء من أجل المال و جمعه حتى الذل و العار .. هذا ما نطق به تاريخهم، فلقد استعبدهم فرعون و لم يحركوا ساكنا حتى جعل اللّه لهم على يد موسى من الكرب و البلاء فرجا و مخرجا.

وَ نَصَرْنٰاهُمْ فَكٰانُوا هُمُ الْغٰالِبِينَ. أغرق سبحانه فرعون و جنوده، فتحرر بنو إسرائيل من المذلة و العبودية **وَ آتَيْنٰاهُمَا الْكِتٰابَ الْمُسْتَبِينَ**. أنزل سبحانه على موسى و هرون التوراة: و فيها أحكام اللّه الواضحات **وَ هَدَيْنٰاهُمَا الصِّرٰاطَ الْمُسْتَقِيمَ** طريق الحق و العدل **وَ تَرَكْنٰا عَلَيْهِمٰا فِي الْآخِرِينَ** ذكرا حسنا، و ثناء جميلا **سَلٰامٌ عَلىٰ مُوسىٰ وَ هٰارُونَ** أمن و أمان من اللّه عليهما و لهما دنيا و آخرة **إِنّٰا كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُمٰا مِنْ عِبٰادِنَا الْمُؤْمِنِينَ**. و في معناه: هل جزاء الإحسان إلا الإحسان. و تقدم الكلام عن موسى و هرون و بني إسرائيل في عشرات الآيات.

وَ إِنَّ إِلْيٰاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. قال المفسرون: الياس هو واحد من أنبياء بني إسرائيل، و ان نسبه ينتهي الى هرون. و في

أكثر من تفسير: أن الياس هذا هو النبي إدريس الذي جاء ذكره في الآية ٥٦ من سورة مريم و الآية ٨٥ من سورة الأنبياء، و في «قاموس الكتاب المقدس»: ان إيليا اسم عبري، و معناه إلهي يهوه و الصيغة اليونانية لهذا الاسم هي الياس، و تستعمل أحيانا في العربية.

إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ لا تَتَّقُونَ؟ ارشدهم الى التوحيد، و حذرهم من الشرك

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٥٤

تماما كما فعل غيره من الأنبياء **أَ تَدْعُونَ بَعْلاً وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخالِقِينَ اللهَ رَبَّكُمْ وَ رَبَّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ**. و بعل الذي يدعونه من دون اللّه اسم صنم كما دل سياق الآية. و في قاموس الكتاب المقدس: ان بعل بريث اسم كنعاني و معناه رب العهد .. عكف قوم الياس على عبادة بعل كما عكف من كان قبلهم على عبادة الأصنام فدعاهم الى التوحيد كما فعل نوح و ابراهيم و موسى و غيرهم من الأنبياء **فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ** أعرضوا عن دعوته، فيحضرهم اللّه يوم القيامة للحساب و العذاب.

إِلاَّ عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ و هم الذين استجابوا لدعوة الياس، فإنهم بمنجاة من العذاب و لهم أجر كريم **وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ** ذكرا طيبا **سَلامٌ عَلى إِلْ ياسِينَ**. قال جماعة من المفسرين: ان أبا الياس اسمه يس، فعليه يكون المراد بأل ياسين الياس بالذات لأن الابن من آل الأب، و مهما يكن فإن المقصود هنا بأل ياسين هو الياس بقرينة السياق، فلقد ذكر سبحانه في الآيات السابقة نوحا و قال: سلام على نوح، ثم ذكر ابراهيم و أتبعه بقوله: سلام على ابراهيم، ثم موسى و هرون و قال: سلام على موسى و هرون، ثم ذكر الياس و انه من المرسلين، و قال: سلام على إل ياسين، فتعين انه هو المقصود من آل يس.

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ١٣٣ الى ١٤٨]

وَ إِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦)
وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧)
وَ بِاللَّيْلِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) وَ إِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَ هُوَ مُلِيمٌ (١٤٢)
فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَ هُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَ أَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَ أَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧)
فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ (١٤٨)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٥٥

اللغة:

الغابرين أي الباقين مع الذين كفروا، و أيضا تأتي كلمة غبر بمعنى ذهب.

و مصبحين داخلين في الصباح. وابق فرّ. و ساهم أقرع من القرعة. و المدحضين المغلوبين. و مليم فعل ما يستحق عليه اللوم و العتاب. و العراء المكان الخالي.

الإعراب:

مصبحين حال من واو تمرون، و بالليل متعلق بمحذوف معطوفا على مصبحين أي و داخلين بالليل. و المصدر من إنه كان مبتدأ و خبره محذوف أي لولا تسبيحه ثابت. أو يزيدون «أو» هنا بمعنى بل، و يجوز أن تكون للإبهام على المخاطب.

المعنى:

وَ إِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ نَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ. تقدم في الآية ٨٠- ٨٤ من سورة الاعراف ج ٣ ص ٣٥٣- ٣٥٤ و في سورة هود الآية ٧٧- ٨٣ ج ٤ ص ٢٥٣- ٢٥٦ و في سورة العنكبوت الآية ٢٨- ٣٥. و في التوراة الاصحاح ١٩ من سفر التكوين الآية ٣٠- ٣٨: انه كان للوط بنتان، فأسقتا أباهما خمرا فواقعهما، و أولد كلا منهما ذكرا.

وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَ بِاللَّيْلِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ. كان العرب يسافرون من الحجاز الى الشام للتجارة و غيرها، و يمرون في طريقهم صباحا و مساء و ذهابا

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٣٥٦

و إيابا على أرض قوم لوط، و يرون آثار الهلاك و الدمار، فحذر سبحانه مشركي العرب الذين كذبوا محمدا (ص) قائلا لهم: ألا تعتبرون بما قد رأيتم من ديار قوم لوط كيف أصبحت خالية خاوية؟ ألا تخافون أن يصيبكم ما أصابهم؟

وَ إِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. يونس هذا هو ذو النون الذي جاء ذكره في الآية ٨٧ من سورة الأنبياء: وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً و أيضا هو صاحب الحوت الذي أشارت اليه الآية ٤٨ من سورة القلم: وَ لا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نادىٰ وَ هُوَ مَكْظُومٌ. و قال بعض المفسرين: ان يونس من أهل نينوى بكسر النون. و في قاموس الكتاب المقدس: «ان نينوى كانت عاصمة الأشوريين، و انها ازدهرت ازدهارا عظيما في بعض القرون للميلاد، و انها كانت على الضفة الشرقية من نهر دجلة، و ان أهلها كانوا يعبدون الإلهة عشتار أو عشتروت التي اشتركت في عبادتها معظم شعوب العالم القديم».

إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ. دعا يونس قومه الى عبادة اللّه، فلم يستجيبوا لدعوته، فضاق صدره بهم، و هاجر مغاضبا لهم حتى إذا انتهى الى ساحل البحر وجد سفينة مشحونة بالناس و الأحمال، فسأل أهلها أن يصحبوه ففعلوا، و لما توسط البحر أشرفت السفينة على الغرق، و كان لا بد من إلقاء واحد من ركابها في البحر لتنجو من الغرق، فاقترعوا فخرجت القرعة على يونس، فألقى نفسه في البحر **فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَ هُوَ مُلِيمٌ** لأنه لم يصبر على أذى قومه كما صبر غيره من الأنبياء.

فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ. و بيّن سبحانه نوع تسبيحه في الآية ٨٧ من سورة الأنبياء: فَنادىٰ فِي الظُّلُماتِ- أي في بطن الحوت- أَنْ لا إِلٰهَ إِلاّٰ أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظّالِمِينَ فاستجاب اللّه لندائه، و نجّاه من سجنه السيار في بطون البحار، و لولا لجوءه الى اللّه مخلصا لكان سجنه مؤبدا الى قيام الساعة.

فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَ هُوَ سَقِيمٌ وَ أَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ. قالوا: خرج من بطن الحوت كالفرخ الممتعط في فلاة لا أنيس فيها و لا حسيس، فأنبت اللّه عليه شجرة من يقطين يستظل بها **وَ أَرْسَلْناهُ إِلىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلىٰ حِينٍ.**

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٣٥٧

أرسله سبحانه الى هذا العدد، فأعرضوا في البداية، و لما تركهم مغاضبا خافوا من نقمة اللّه و عذابه، فآمنوا باللّه و طلبوا

منه العفو و الرحمة، فعفا و أنجاهم من الهلاك الى أن وافاهم الأجل، و عاد اليهم يونس ففرحوا بقدومه و فرح بإيمانهم. أنظر ج ٤ ص ١٩٣ فقرة «القصة» و ج ٥ ص ٢٦٩.

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ١٤٩ الى ١٦٠]

فَاسْتَفْتِهِمْ أَ لِرَبِّكَ الْبَناتُ وَ لَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَ هُمْ شاهِدُونَ (١٥٠) أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللهُ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣)

ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٥٧) وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَ لَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨)

سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلاَّ عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠)

الإعراب:

أصطفى أصلها أ اصطفى الهمزة الأولى استفهام و الثانية وصل، ثم حذفت هذه لمكان تلك. و كيف في محل نصب بتحكمون. عباد اللّه المخلصين استثناء من فاعل جعلوا.

المعنى:

فَاسْتَفْتِهِمْ أَ لِرَبِّكَ الْبَناتُ وَ لَهُمُ الْبَنُونَ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَ هُمْ شاهِدُونَ.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٣٥٨

الخطاب في استفتهم لرسول اللّه (ص)، و ضمير الغائب لمشركي العرب .. و القرآن حجة تاريخية عليهم لا تقبل الشك و الجدل، و قد سجل على بعض القبائل منهم انهم كانوا يقولون: اتخذ اللّه من الملائكة إناثا له، ثم رد سبحانه قولهم بأنه رجم بالغيب و عمى عن الحق لأنهم لا يعرفون عن الملائكة شيئا. و في معنى ذلك الآية ١٩ من سورة الزخرف: وَ جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ و الآية ٤٠ من سورة الاسراء ج ٥ ص ٤٦.

أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللهُ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ. يأتي الافك بمعنى الصرف، و منه الآية ٢٢ من سورة الأحقاف: قالُوا أَ جِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا أي لتصرفنا عنها، و هذا المعنى هو المراد من الإفك هنا أي انهم من أجل انصرافهم عن التوحيد الى الشرك قالوا: ان للّه ولدا .. و ليس من شك انهم كاذبون في هذا القول **أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ** أ يختار سبحانه الأدنى، و يخصكم بالأعلى- كما تزعمون- وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ سُبْحانَهُ وَ لَهُمْ ما يَشْتَهُونَ وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ- ٥٧ النحل ج ٤ ص ٥٢٣.

ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ على ما غاب عن عيونكم و عقولكم؟ **أَ فَلا تَذَكَّرُونَ)** و ترتدعون عن الشرك و قول الزور، و قد ذكركم اللّه و حذركم بلسان نبيه و أمين وحيه **أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ.** أروني حجة من عقل أو نقل ان اللّه اتخذ من الملائكة إناثا.

وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً. اختلف المفسرون في معنى هذه الآية، و الذي نفهمه من ظاهرها ان المشركين نسبوا للّه تعالى نسلا من الجن كما نسبوا اليه ذلك من الملائكة. و في بعض التفاسير نقلا عن مجاهد و مقاتل: ان كنانة و خزاعة قالوا: خطب اللّه الى سادات الجن، فزوجوه من سراة بناتهم، و ان الملائكة بناته من الجنيات.

وَ لَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ كيف يكون نسب بينه و بين الجن، و هم يعلمون ان اللّه خلقهم و انه يبعثهم و يسألهم عما كانوا يعملون **(سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ** و تعالى عما يقول المشبهون و الجاحدون علوا كبيرا **إِلاَّ عِبادَ اللهِ**

الْمُخْلَصِينَ فإنهم ينزهونه عن الشريك و الولد، و يخلصون له في الأقوال و الأفعال و هو سبحانه يثيبهم على ايمانهم و إخلاصهم بأحسن ما كانوا يعملون.

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۳۵۹

[سورة الصافات (۳۷): الآيات ١٦١ الى ١٧٠]

فَإِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ (١٦١) ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ (١٦٢) إِلاَّ مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) وَ ما مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤) وَ إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥)

وَ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) وَ إِنْ كانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠)

اللغة:

بفاتنين بمضلين و مفسدين .. وصال الجحيم معذّب فيها، و حذفت الياء من صالي للتخفيف و الكسرة دليل عليها، و مثله وَ لَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ أي الجواري. و المراد بالذكر هنا الكتاب.

الإعراب:

و ما تعبدون «ما» اسم موصول و محلها النصب عطفا على اسم ان. ما أنتم «ما» نافية و أنتم مبتدأ و فاتنون خبر و الباء زائدة إعرابا و ضمير عليه يعود الى ما تعبدون و على بمعنى باء السببية أي ما أنتم بسببه فاتنون، و مثله حقيق عليّ ان لا أقول إلا الحق أي حقيق و جدير بي. و من هو صال «من» مفعول فاتنين و هو مبتدأ وصال خبر و حذفت ياؤه تخفيفا كما أشرنا في فقرة «اللغة». و منا متعلق بمحذوف صفة لموصوف محذوف أي ما أحد كائن و أحد مبتدأ و خبره له مقام معلوم. و ان كانوا «ان» مخففة من الثقيلة و اسمها محذوف أي انهم، و اللام في ليقولون اللام الفارقة.

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۳۶۰

المعنى:

فَإِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ إِلاَّ مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ. الخطاب في انكم للمشركين، و المعنى لا يستجيب لتضليلكم و عبادة أصنامكم أيها المشركون الا من تنكب عن طريق الحق و الهداية التي تؤدي به الى مرضاة اللّه و ثوابه، و سلك طريق الضلالة و الغواية التي ينتهي معها الى غضب اللّه و عذابه.

وَ ما مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ. هذا من كلام الملائكة يردون به على المشركين الذين قالوا: ان اللّه اتخذ مما يخلق بنات و اصطفاهم بالبنين، و محصل الرد انّا جميعا عباد الرحمن نقدسه و نسبّح بحمده، و لكل واحد منا وظيفته في العبادة لا يتعداها إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ. منا الذين يقفون صفوفا للعبادة، و منا الذين لا يسأمون من الذكر و التسبيح، و في الحديث: فمنهم راكع لا يقيم صلبه، و منهم ساجد لا يرفع رأسه.

وَ إِنْ كانُوا لَيَقُولُونَ لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ لَكُنَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ.

واو الجماعة في كانوا و يقولون تعود لمشركي العرب الذين جعلوا للّه بنات من الملائكة و بينه و بين الجنة نسبا، و المعنى ان المشركين قالوا قبل أن يأتيهم محمد (ص) بالقرآن: لو جاءهم كتاب من عند اللّه بالحق لآمنوا به و عبدوا اللّه

مخلصين له الدين، فلما جاءهم ما كانوا يتمنون ازدادوا عتوا و نفورا، و الى هذا أشار سبحانه بقوله: **فَكَفَرُوا بِهِ** أما قوله: **فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** فهو تهديد و وعيد.

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ١٧١ الى ١٨٢]

وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَ إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٤) وَ أَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥)

أَ فَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذا نَزَلَ بِساحَتِهِمْ فَساءَ صَباحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧) وَ تَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٨) وَ أَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠)

وَ سَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (١٨٢)

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٣٦١

المعنى:

وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَ إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ في الدنيا بالحجة و الدليل، قال الإمام علي (ع): ما ظفر من ظفر الإثم به، و الغالب بالشر مغلوب، أما في الآخرة فلا حول للمبطلين و لا قوة. و قال الرازي: «قد تكون النصرة و الغلبة بقوة الحجة، و قد تكون بالدولة و الاستيلاء، و قد تكون بالدوام و الثبات على الحق، فالمؤمن و ان صار مغلوبا في بعض الأحيان بسبب ضعف أحوال الدنيا فهو الغالب، و لا يلزم على هذه الآية ان يقال: قد قتل بعض الأنبياء، و هزم كثير من المؤمنين. و قوله: قد تكون النصرة بالثبات ينطبق على صمود العرب- اليوم- و رفضهم الاستسلام و عزمهم على المقاومة مهما كانت «أحوال الدنيا» على الرغم من انتصار الاستعمار و الصهيونية عليهم عسكريا. و تقدم الكلام عن دفاعه تعالى عن الذين آمنوا عند تفسير الآية ٣٨ من سورة الحج ج ٥ ص ٣٣١.

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ وَ أَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ. الخطاب لمحمد (ص) يأمره اللّه سبحانه أن يدع المشركين و شأنهم، ثم ينتظر قليلا، و سيرى انهم يستسلمون لأمره أذلاء صاغرين .. و هذا ما حدث بالفعل على الرغم من حشد الجيوش و تكتل الأحزاب ضده **أَ فَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ**. هذا جواب عن قول المشركين: فأتنا بما تعدنا، و معنى الجواب كيف تستعجلون عذاب اللّه مع العلم انه إذا نزل بكم لا تستطيعون له صرفا، و لا منه مفرا **فَإِذا نَزَلَ بِساحَتِهِمْ فَساءَ صَباحُ الْمُنْذَرِينَ**. المراد بساحتهم ديارهم، و بالصباح يوم العذاب، و المعنى ان يوم ينتقم اللّه منهم بعد أن أنذرهم هو شر يوم عليهم و أسوأه.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٣٦٢

وَ تَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ وَ أَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ. كرر هذا سبحانه تأكيدا لإنجاز وعده و انه كائن لا محالة **سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَ سَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ**. ختم سبحانه هذه السورة بتنزيهه عما لا يليق بعظمته لأنه حكى فيها أقوال المشركين، و وصف نفسه بالعزة لأنه على كل شيء قدير، و حمدها لأنه المنعم المتفضل، و سلم على المرسلين لأنهم أدّوا الأمانة بإخلاص، و تحملوا في سبيلها الكثير .. و بعد، فلا عزة و لا حمد لمخلوق إلا لمن اعتز باللّه و أطاع اللّه.

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۳۶۳

سورة ص

و هي ٨٨ آية مكيّة.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

[سورة ص (٣٨): الآيات ١ الى ١١]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

ص وَ الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَ شِقاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنادَوْا وَ لاتَ حِينَ مَناصٍ (٣) وَ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَ قالَ الْكافِرُونَ هٰذا ساحِرٌ كَذّابٌ (٤)

أَ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلٰهاً واحِداً إِنَّ هٰذا لَشَيْءٌ عُجابٌ (٥) وَ انْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَ اصْبِرُوا عَلىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هٰذا لَشَيْءٌ يُرادُ (٦) ما سَمِعْنا بِهٰذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هٰذا إِلاَّ اخْتِلاقٌ (٧) أَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ (٨) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهّابِ (٩)

أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ (١٠) جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ (١١)

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۳۶۴

اللغة:

في عزة و شقاق أي في استكبار عن قبول الحق و عداء له و لأهله. و لات حين ليس الحين. و مناص مفر. و عجاب أمر مفرط في العجب. و الملأ جماعة الأشراف.

و الأسباب الطرق و الوسائل التي يمكن التوصل بها الى الغاية.

الإعراب:

و القرآن قسم و جوابه محذوف أي انه الحق أو لقد جاء الحق. و كم في محل نصب بأهلكنا. و لات حين مناص «لا» نافية تعمل عمل ليس و التاء زائدة مثلها في ربت و ثمت، و اسم لا محذوف و حين مناص خبرها أي لات الحين حين مناص، و لا تدخل لات إلا على زمان. و المصدر من أن جاءهم مجرور بمن محذوفة أي عجبوا من مجيئهم منذر. ان امشوا «ان» مفسرة لقول محذوف، و المعنى و انطلق الملأ منهم بقول هو امشوا. و لما أداة جزم. و عذاب أي عذابي.

و جند مبتدأ و خبره مهزوم. و هنالك ظرف مكان يشار به للبعيد و العامل به مهزوم.

المعنى:

(ص) تقدم الكلام عن مثله في أول سورة البقرة **وَ الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَ شِقاقٍ**. كذبت قريش بالقرآن الذي فيه خيرهم و عزهم، فأقسم سبحانه بالقرآن نفسه انه الحق من عند اللّه، و انه لا سبب لهذا التكذيب إلا تعاظم المكذبين و استنكافهم عن الحق و عداؤهم لمحمد (ص) .. و قسمه تعالى بالقرآن يومئ الى انه الدال ببلاغته على اعجازه، و بتعاليمه على صدقه، ثم حذر سبحانه قريشا و ذكرهم بهلاك الأولين لما كذبوا الرسل، و ذلك حيث يقول:

كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنادَوْا وَ لاتَ حِينَ مَناصٍ. استنكف الأولون عن الحق و خاصموا أهله تماما كما استنكفتم و خاصمتم يا عتاة قريش، و لما جاءهم العذاب

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٦٥

تراجعوا و خضعوا، و لكن بعد فوات الأوان، فخير لكم أن تؤمنوا الآن و قبل أن تضيع عليكم الفرصة فتستغيثوا و تندموا حيث لا يجدي صياح و لا ندم.

تقليد الموحد و تقليد المشرك:

وَ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ. محمد (ص) من قريش، ما في ذلك ريب، و لكنه ليس من عتاتهم و طغاتهم، فكيف يعده هؤلاء منهم؟ و لو انه استعبد الناس، و كان له كنز أو جنة من نخيل أو بيت من زخرف لكان منهم في الصميم، و ان لم يكن قرشيا. أنظر ج ٥ ص ٨٣ فقرة «التفكير من خلال المال و حب الذات» و فقرة «منطق أرباب المال بنك و عقار» ص ٤٥٣.

وَ قالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذّابٌ. و لما ذا هو ساحر كذاب؟ و هذا هو الجواب أَ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ. ليس العجب العجاب عند هؤلاء واقعا و حقيقة أن ينكر محمد (ص) الشرك و تعدد الآلهة، و ان خيّل ذلك اليهم، و شعروا به من أنفسهم .. كلا، انما العجب العجاب هو خروج محمد (ص) على تقاليدهم الموروثة و أوضاعهم المألوفة أبا عن جد ..

انهم في الواقع يدافعون عن تقاليد الآباء و الأجداد كدين و مبدأ، و ليس عن الأصنام من حيث هي، انهم يدافعون عن الأصنام لأنها من تركة الأولين و ميراثهم: إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ- ٢٣ الزخرف.

و ينطبق هذا على ايمان الجهلاء من الموحدين تماما كما ينطبق على ايمان المشركين لأن مصدر الايمانين واحد، و هو التقليد .. و الفرق ان تقليد الموحد صحيح و مقبول لأن له أساسا من الواقع تماما كقولي: ان صاحب نظرية الجاذبية اسمه نيوتن، و صاحب نظرية النسبية اسمه اينشتين، أما تقليد المشرك فضلال، و صاحبه مسؤول و معاقب إلا إذا كان قاصرا كالبهائم لأن الشرك باللّه لا أساس له من الواقع. و بكلمة ان الفكرة تكون صادقة إذا كانت من صلب الواقع سواء أ كانت عن علم أم عن تقليد. انظر ج ١ ص ٢٥٩ فقرة «التقليد و أصول العقائد».

وَ انْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَ اصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ ما

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٦٦

سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هذا إِلاَّ اخْتِلاقٌ. المراد بالملإ هنا عتاة قريش.

و اصبروا على آلهتكم أي اثبتوا على عبادتها. و هذا شيء يراد إشارة الى الثبات على عبادة الأصنام. و الملة الآخرة هي عقيدة التثليث في المسيحية، و وصفها المشركون بالآخرة لأنها آخر ديانة ظهرت في عهدهم. و في تفسير الطبري و غيره ان مشيخة قريش قالوا لأبي طالب: ليكف ابن أخيك عن آلهتنا، و ندعه و إلهه الذي يعبد. و لما ذكر أبو طالب ذلك للرسول الأعظم (ص) قال: أريدهم على كلمة واحدة يقولونها، فتدين لهم العرب و العجم. فقالوا: نعطيكها و عشرا فما هي؟ قال: «لا إله إلا اللّه». فانصرفوا، و هم يقولون: اجعل الآلهة إلها واحدا الخ. و هذه الرواية تتفق مع ظاهر الآية، و يساعد عليها واقع المشركين و مكانة شيخ الأبطح.

أَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا؟ أ يختار اللّه محمدا لرسالته، و لا جاه له و لا مال؟ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي. ضمير

«هم» يعود لبعض المشركين لأن منهم من أنكر نبوة محمد (ص) حسدا، و منهم من أنكرها حرصا على مصالحه **بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ**. فإذا ذاقوه زال عنهم الشك و الريب: وَ أَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ- ٥٤ يونس.

أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ. المراد بخزائن الرحمة هنا النبوة فقط، أو هي و غيرها من نعم اللّه و إحسانه، و المعنى لما ذا أنكر المشركون و استكثروا رحمة اللّه لمحمد في اختياره رسولا للعالمين؟ أ لأنهم يملكون هذا الاختيار من دون اللّه **أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما**. ان مالك الكون هو الذي يملك النبوة و يهبها و يعز بها من يشاء، و المشركون لا يملكون مع اللّه شيئا كي يمنحوا النبوة لرجل من القريتين عظيم .. أجل هناك شيء واحد يستطيعون به أن يملكوا السموات و الأرض، و هو **فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ**. المراد بالأسباب الطرق و الوسائل، و المعنى ان النبوة يتحكم بها من يملك الكون بما فيه، فإذا أراد عتاة قريش أن يختاروا للنبوة واحدا منهم فعليهم قبل كل شيء أن يملكوا الأسباب و الوسائل التي تصل بهم الى هذا الملك ان كانت متوافرة لديهم .. و في هذا من التعجيز ما هو في غنى عن البيان **جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ**. ان

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٦٧

الذين حاربوك و عارضوك يا محمد ليسوا بشيء، فهم مغلوبون مهزومون أمام دعوتك على الرغم من كثرة جنودهم و تكتل أحزابهم.

[سورة ص (٣٨): الآيات ١٢ الى ٢٠]

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عادٌ وَ فِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ (١٢) وَ ثَمُودُ وَ قَوْمُ لُوطٍ وَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ أُولئِكَ الْأَحْزابُ (١٣) إِنْ كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقابِ (١٤) وَ ما يَنْظُرُ هؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً ما لَها مِنْ فَواقٍ (١٥) وَ قالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ (١٦)

اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَ اذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْراقِ (١٨) وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩) وَ شَدَدْنا مُلْكَهُ وَ آتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَ فَصْلَ الْخِطابِ (٢٠)

اللغة:

أصحاب الأيكة قوم شعيب، و الأيكة الشجر الملتف. و المراد بالفواق هنا الزمان اليسير، قال أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط: الفواق بضم الفاء و فتحها الزمان الذي بين حلبتي الحالب و رضعتي الراضع. و القط النصيب المفروض من قط الشيء إذا قطعه و أفرزه عن غيره، و عليه يكون معنى عجّل لنا قطنا عجل لنا نصيبنا من العذاب. و ذا الأيد ذا القوة. و أوّاب تواب. و الاشراق الصباح.

و محشورة مجموعة. و شددنا قوينا.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٦٨

الإعراب:

أولئك مبتدأ و الأحزاب عطف بيان، و ان نافية و كل مبتدأ ثان و كذب خبر، و الجملة خبر المبتدأ الأول و العائد محذوف أي منهم. و عقاب أي عقابي. و داود بدل من عبدنا. و ذا الأيد صفة. و الطير عطف على الجبال. و محشورة حال من الطير.

المعنى:

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عادٌ وَ فِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ وَ ثَمُودُ وَ قَوْمُ لُوطٍ وَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ. كذبت هذه الأمم الرسل، فأهلك اللّه بعضهم بالطوفان كقوم نوح، و البعض الآخر بالغرق في البحر كفرعون. و ذو الأوتاد كناية عن استقامة ملكه كما تستقيم الخيمة إذا شدت أطنابها بالأوتاد الثابتة في الأرض: فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ وَ أَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ- ٦ الحاقة. أما قوم لوط فجعل أعلى ديارهم أسفلها. انظر تفسير الآية ٨٢ من سورة هود ج ٤ ص ٢٥٥.

و أخذ اللّه أصحاب الايكة- قوم شعيب- بعذاب أليم. انظر تفسير الآية ٧٨ من سورة الحجر ج ٤ ص ٤٨٧ و الآية ١٧٦ من الشعراء ج ٥ ص ٥١٥.

أُولئِكَ الْأَحْزابُ إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقابِ. أخذ سبحانه أحزاب الشيطان بذنوبهم و قطع دابرهم جزاء بما يكسبون من الشرك و تكذيب أنبياء اللّه و رسله، ألا يخشى الذين كذبوا محمدا (ص) أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك الأحزاب؟ **وَ ما يَنْظُرُ هؤُلاءِ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً ما لَها مِنْ فَواقٍ.**

هؤلاء إشارة الى الذين كذبوا محمدا (ص) و المعنى ما ذا ينتظرون من اللّه بعد ان كذبوك يا محمد؟ و هو القادر بكلمة واحدة أن يبعث عليهم عذاب النكال و الاستئصال في أمد لا يستطيعون معه توصية و لا الى أهلهم يرجعون.

وَ قالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ هددهم سبحانه على لسان نبيه الكريم بعذاب جهنم، فقالوا ساخرين: إذا كان هذا واقعا فلما ذا التأخير الى يوم القيامة؟ فليكن في الدنيا لا في الآخرة **اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ** يا محمد:

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٦٩

انك ساحر كذاب و ما الى ذلك من الافتراءات، فان عاقبة أمرهم الخسران و الاستسلام.

و قد صبر النبي (ص) على أذى المشركين ١٣ سنة في مكة، و على مكر المنافقين بضع سنوات في المدينة، صبر هذا الأمد الطويل، و هو واثق بالمستقبل، و ان أدبر الحاضر .. و لم تمض الأيام حتى نصر اللّه محمدا، و أظهر الإسلام على الدين كله و لو كره المشركون.

وَ اذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ هذا الاسم عبري، و معناه محبوب، و داود هو ثاني ملوك بني إسرائيل، و الأول اسمه طالوت: إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طالُوتَ مَلِكاً- ٢٤٧ البقرة ج ١ ص ٣٧٧. و التوراة تعبر عن طالوت هذا بشاول، فقد جاء في «قاموس الكتاب المقدس»: ان شاول أول ملوك إسرائيل، و ان داود حارب في جيشه.

و قال الرازي: ان اللّه وصف داود بأوصاف كثيرة .. ثم شرحها في أربع صفحات بالقطع الكبير، نلخصها بالأسطر التالية:

١- قال اللّه لمحمد (ص): **اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَ اذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ.**

و هذا إكرام لداود.

٢- (ذا الأيد) أي ذا القوة على طاعة اللّه.

٣- (انه أوّاب) أي يرجع في أموره كلها الى اللّه.

٤- **إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْراقِ وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ.** و مثله قوله تعالى في الآية ١٠ من سورة سبأ: يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَ الطَّيْرَ و الآية ٧٩ من سورة الأنبياء: وَ سَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَ الطَّيْرَ انظر ج ٥ ص ٢٩٢.

٥- (و شددنا ملكه) أي قويناه.

٦- (و آتيناه الحكمة) و هي وضع الأشياء في محلها، و بتعبير الرازي «هي العلم و العمل به، و انما سمي هذا بالحكمة لأن اشتقاق الحكمة من إحكام الأمور و تقويتها».

٧- (و فصل الخطاب) قال الرازي: فصل الخطاب هو القدرة على ضبط

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٧٠

المعنى و التعبير عنه إلى أقصى الغايات. و هذا أشمل مما نفهمه نحن من ان فصل الخطاب هو العلم بالقضاء و الفصل في الخصومات على أساس العدل.

بهذه الأوصاف الكاملة الفاضلة نعت القرآن الكريم داود، أما التوراة فقد وصفته بأقبح النعوت كالظلم و الفسق و الغدر و اغتصاب النساء من الأزواج حتى قال المسهمون في وضع قاموس الكتاب المقدس صفحة ٣٦٥ طبعة ١٥ آذار سنة ١٩٦٧ ما نصه بالحرف الواحد: «ارتكب داود في بعض الأحيان خطايا يندى لها الجبين خجلا».

[سورة ص (٣٨): الآيات ٢١ الى ٢٥]

وَ هَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلىٰ داوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قالُوا لا تَخَفْ خَصْمانِ بَغىٰ بَعْضُنا عَلىٰ بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَ لا تُشْطِطْ وَ اهْدِنا إِلىٰ سَواءِ الصِّراطِ (٢٢) إِنَّ هٰذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ نَعْجَةً وَ لِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ فَقالَ أَكْفِلْنِيها وَ عَزَّنِي فِي الْخِطابِ (٢٣) قالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلىٰ نِعاجِهِ وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ قَلِيلٌ ما هُمْ وَ ظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَ خَرَّ راكِعاً وَ أَنابَ (٢٤) فَغَفَرْنا لَهُ ذٰلِكَ وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفىٰ وَ حُسْنَ مَآبٍ (٢٥)

اللغة:

الخصم هو المدعي على غيره حقا من الحقوق، و يستعمل في الواحد و الاثنين

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٧١

و الجماعة و المذكر و المؤنث على السواء. و المحراب عند المسلمين المصلى و مكانه في جهة القبلة. و الشطط تجاوز الحد. و سواء الصراط وسط الطريق و المراد به هنا طريق الحق و النعجة أنثى الضأن. و أكفلنيها اعطنيها و اجعلني كافلها. و عزني بفتح العين غلبني، و في الخطاب أي في مخاطبة الكلام. و الخلطاء جمع خليط و هو الشريك الذي يمتزج ماله و يختلط بمال شريكه. و فتّناه ابتليناه. و الزلفى القرب من اللّه. و المآب المرجع.

الإعراب:

إذ دخلوا بدل من إذ تسوروا. خصمان خبر لمبتدأ محذوف أي نحن خصمان.

لقد ظلمك اللام في جواب قسم محذوف. الا الذين استثناء من بعضهم. و قليل خبر مقدم و «ما» زائدة و هم مبتدأ. و راكعا حال. و أنما فتناه الأصل أننا فتناه و «ما» كافة. و ذلك مفعول غفرنا.

التفسير و الاسرائيليات:

نسب جماعة من المفسرين الى داود- و هم يشرحون هذه الآيات- أشياء لا تليق بأهل المروءة و الحياء فضلا عن الأنبياء المعصومين، و ذكروا قصة طويلة جاءت في سفر صموئيل الثاني الاصحاح ١١ و ١٢ من العهد القديم المحرف بحكم القرآن، و شهادة التاريخ، و نصوص العهد نفسه التي ترفضها الفطرة، و لا يقبلها عقل عاقل .. و تتلخص تلك

القصة أو الفرية بأن داود عشق زوجة رجل من خدمه و جنوده، يدعى «أوريا»، فاحتال داود لقتله بالسيف، و استأثر بزوجته، و قالت التوراة: ان اللّه غضب لذلك غضبا شديدا، و هدد داود على هذا الفعل الشنيع و الجريمة النكراء، و قال له فيما قال: «قتلت أوريا بالسيف، و أخذت امرأته .. و الآن لا يفارق السيف بيتك الى الأبد لأنك احتقرتني .. ها إذا أقيم عليك الشر من بيتك، و آخذ نساءك أمام عينيك و أعطيهن لقريب من أقربائك، فيضطجع مع نسائك في عين هذه الشمس لأنك أنت فعلت بالسر، و أنا أفعل هذا

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٧٢

الأمر- أي الزنا- قدام جميع إسرائيل و قدام الشمس». و في الاصحاح الأول من سفر الملوك الأول: ان زوجة «أوريا» اسمها «بثشيع»، و انها هي أم سليمان ابن داود.

داود يزني سرا .. فيعاقبه اللّه و يؤدبه على فعلته النكراء، لا باقامة الحد، و لا باللوم و التأنيب .. بل بهتك نسائه و حرائره و تجريدهن و الفجور بهن علنا و في وضح النهار و على رؤوس الأشهاد.

هذه هي الاسفار «المقدسة» تصف خالق الكون بأوصاف أوحش الوحوش، و أخبث اللئام و الطغام .. تعالى اللّه علوا كبيرا عما يقول الظالمون. هذا مثال واحد من عشرات الأمثلة .. اقرأ مصارعة اللّه ليعقوب و عجز كل منهما أن يغلب صاحبه حتى اضطر يعقوب أن يضرب «حقّ فخذ اللّه». و اقرأ أيضا الاصحاح السابع من سفر التثنية من التوراة الذي جاء فيه: ان الرب التصق باليهود و أباح لهم أن يأكلوا جميع الشعوب من غير شفقة.

و على هذه الاسرائيليات اعتمد جماعة من أهل التأويل و فسروا بها آي الذكر البشير النذير، و منها الآيات التي نحن بصددها .. فعلى القارئ أن يواجه أقوالهم و تفاسيرهم باليقظة و الحذر.

المعنى:

(وَ هَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ إِذْ دَخَلُوا عَلى داوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ)؟

يقص سبحانه على نبيه الكريم حادثة وقعت لداود، و هي انه كان في ذات يوم منقطعا الى ربه في مصلاه فإذا باثنين «١» أمامه وجها لوجه، فراعته هذه المفاجأة في غير أوانها .. و فوق ذلك دخولهما من أعلى الحائط، لا من المدخل المعتاد.

و تجدر الاشارة إلى أن دخولهما كذلك على داود لا دلالة فيه من قريب أو بعيد على انهما من الملائكة كما استنتج بعض المفسرين .. فإن الإنسان قد يدخل البيوت

---

(١). ذهب البعض الى ان اقل الجمع اثنان مستدلا بقوله تعالى: **تَسَوَّرُوا. و دَخَلُوا. و قالوا.**

و منهم مع انهما اثنان بدليل **قالُوا لا تَخَفْ خَصْمانِ. [.....]**

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٧٣

من غير أبوابها لسبب من الأسباب، و ليس في الآيات أي ذكر للملائكة، و المفهوم من كلمة الخصمين اثنان من الناس، فتأويلهما بملكين لا مبرر له.

قالُوا لا تَخَفْ خَصْمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَ لا تُشْطِطْ وَ اهْدِنا إِلى سَواءِ الصِّراطِ.

حين رأيا ما حل به من الخوف أسرعا الى طمأنته و قالا: جئنا للتقاضي عندك، فاحكم بالعدل و أرشدنا الى الحق و لا تنحرف عنه، ثم قال أحدهما: **إِنَّ هٰذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ نَعْجَةً وَ لِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ فَقالَ أَكْفِلْنِيها وَ عَزَّنِي فِي الْخِطابِ** أكفلنيها أعطنيها، و عزّني في الخطاب غلبني في القول، و النعجة أنثى الضأن، و لا داعي للتأويل، فظاهر الآية ان حادثة من هذا النوع وقعت في عهد داود، و لها أمثال في كل زمان و مكان بخاصة في زماننا، فيجب الأخذ بالظاهر و العمل به.

قالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ. قال هذا داود قبل أن يطلب من المدعي البينة، و يستوجب المدعى عليه **وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ.** قال المفسرون: المراد بالخلطاء الشركاء، و لكن لا شراكة بين المتخاصمين، و السياق يومئ الى أن المراد بهم الأقوياء و لو من باب المجاز **إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ قَلِيلٌ ما هُمْ.** القوة للحق إذا كانت في يد الأخيار أما إذا ملكها الأشرار فهي على الحق من غير شك، و أهل الخير قلة في عددهم، و لكنهم أقوياء في أخلاقهم و صفاتهم.

وَ ظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَ خَرَّ راكِعاً وَ أَنابَ. بعد ان حكم داود لأحد الخصمين تنبه الى أنه حكم له قبل أن يدلي الخصم الآخر بحجته، فندم و طلب من اللّه العفو و المغفرة **فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَ حُسْنَ مَآبٍ.** غفر اللّه لداود لأنه من السابقين الأولين الى طاعة اللّه و مرضاته.

و في كتاب «عيون الأخبار» للشيخ الصدوق: ان سائلا سأل الإمام الرضا (ع) عن قصة داود مع أوريا و زوجته؟ فنفى الإمام ما ينسبه الناس الى داود. فقال السائل: ما كانت خطيئته يا ابن رسول اللّه؟ فأجاب بجواب طويل جاء فيه:

عجّل داود على المدعى عليه، فقال: **لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ** و لم يسأل المدعي البينة، و لم يقبل على المدعى عليه، فيقول له: ما تقول،

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٧٤

فكان هذا خطيئة رسم الحكم، لا ما ذهب اليه الناس، ألا تسمع اللّه عز و جل يقول: يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَ لا تَتَّبِعِ الْهَوى.

و تسأل: كيف حكم داود للمدعي من غير بينة مع ان الأنبياء معصومون عن الخطأ و الخطيئة؟

الجواب: ليس معنى العصمة ان للمعصوم طبيعة غير طبيعة الناس بخصائصها و غرائزها .. كلا، ان هو إلا بشر، و انما معنى العصمة ان اللّه سبحانه يلطف بالمعصوم، و لا يتخلى عنه إطلاقا، فإذا حاول- مثلا- أن يخدعه انسان بحسن مظهره أرشده اللّه إلى حقيقته قبل أن يقع في الشباك، و هذا ما حدث بالفعل لداود ..

خدعه صاحب النعجة الواحدة بأسلوبه الذي يثير الإشفاق و الرحمة فحكم له، و لكن اللّه ألهمه الحقيقة قبل تنفيذ الحكم فاستدرك و أناب.

و قريب من هذا ما حدث لرسول اللّه (ص) مع سارق ادعى براءته، و كاد الرسول الأعظم ينخدع لولا أن ثبته اللّه بقوله: إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللهُ وَ لا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً- أي لا تخاصم عن الخائنين- وَ اسْتَغْفِرِ اللهَ إِنَّ اللهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً. وَ لا تُجادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتانُونَ أَنْفُسَهُمْ- ١٠٦ النساء ج ٢ ص ٤٢٩. و قال تعالى مخاطبا نبيه الكريم محمدا (ص): وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً- ٧٤ الإسراء. و في الحديث الشريف: إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ، و أنتم تختصمون إليّ و لعل بعضكم ألحن بحجته من بعض فأقضي له على

نحو ما أسمع، فمن قضيت له شيئا من حق أخيه فإنما أقضي له قطعة من نار. و هذا الحديث لا ينطبق تماما على ما نحن فيه، و لكن يمكن الاستئناس به. أما توبة الأنبياء و استغفارهم من الذنوب فهي ضرب من العبادة و التواضع للّه سبحانه. و قد أشرنا إلى ذلك أكثر من مرة.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٧٥

[سورة ص (٣٨): الآيات ٢٦ الى ٢٩]

يٰا دٰاوُدُ إِنّٰا جَعَلْنٰاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّٰاسِ بِالْحَقِّ وَ لاٰ تَتَّبِعِ الْهَوىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِيدٌ بِمٰا نَسُوا يَوْمَ الْحِسٰابِ (٢٦) وَ مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا بٰاطِلاً ذٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النّٰارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجّٰارِ (٢٨) كِتٰابٌ أَنْزَلْنٰاهُ إِلَيْكَ مُبٰارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيٰاتِهِ وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبٰابِ (٢٩)

الإعراب:

فيضلك منصوب بأن مضمرة على جواب النهي، و المصدر المنسبك مبتدأ و خبره محذوف أي فإضلالك كائن. و باطلا صفة لمفعول مطلق محذوف أي خلقا باطلا و كتاب أي هذا كتاب. و ليدبروا أصلها ليتدبروا مثل ليتذكر ثم أدغمت التاء بالدال.

المعنى:

يٰا دٰاوُدُ إِنّٰا جَعَلْنٰاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ. كل انسان وجد أو يوجد فهو خليفة اللّه في أرضه بمعنى انه مسؤول أمام اللّه عن العمل في هذه الحياة لخير الدنيا و الآخرة. هذا معنى خلافة الإنسان في الأرض أيا كان، و الفرق بين الأفراد إنما هو في نوع العمل المسئول عنه، حيث يطلب من كل حسب طاقته و مهنته،

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٧٦

و بما ان وظيفة الأنبياء هي التبشير و التحذير كيلا يكون للناس على اللّه الحجة- وجب عليهم الحكم بين الناس بالحق، و على غيرهم السمع و الطاعة.

فَاحْكُمْ بَيْنَ النّٰاسِ بِالْحَقِّ وَ لاٰ تَتَّبِعِ الْهَوىٰ لأن منصب النبوة يستدعي ذلك بطبعه، و بكلام آخر ان اللّه سبحانه يختار لوحيه من يؤمن بالحق و يعمل به، و يستحيل في حقه الخطأ و الخطيئة **فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِيدٌ بِمٰا نَسُوا يَوْمَ الْحِسٰابِ**. أشقى الناس من خالف مولاه و اتبع هواه .. و في الحديث: ان أخوف ما أخافه عليكم الهوى و طول الأمل، أما الهوى فإنه يصد عن الحق، و اما طول الأمل فينسي الآخرة. و من نسي هذا اليوم فهو من المعذبين بناره و جحيمه.

وَ مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا بٰاطِلاً. و لو كان في خلق الكون شائبة للعبث و الباطل لما ثبت و استمر على نظامه المحكم ملايين السنين. و تقدم مثله في الآية ١٩١ من سورة ال عمران ج ٢ ص ٢٣١ **ذٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النّٰارِ**. و يومئ هذا الى أنه لا فرق بين من أنكر وجود اللّه من الأساس، و من اعترف به و أنكر الحكمة في خلقه .. لأن دلائلها ظاهرة، و أعلامها واضحة. قال الإمام علي (ع): قدر ما خلق فأحكم تقديره، و دبره فألطف تدبيره، و وجهه لوجهته فلم يتعدّ حدود منزلته، و لم يقصر دون الانتهاء الى غايته.

أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ. الفرق بين الصالح و المفسد و بين التقي و الفاجر تماما كالفرق بين الطيب و الخبيث و بين الأعمى و البصير. و تقدم مثله في الآية ١٠٠ من سورة المائدة ج ٣ ص ١٣١ و الآية ٥٠ من سورة الأنعام ص ١٩٣ من المجلد المذكور. و في «أحكام القرآن» للقاضي أبي بكر المعروف بابن العربي: ان هذه الآية نزلت في بني هاشم، و ان الذين آمنوا و عملوا الصالحات و المتقين هم علي بن أبي طالب و أخوه جعفر و عبيدة بن الحرث و الطفيل بن الحارث و زيد بن حارثة و أم أيمن و غيرهم، و ان المفسدين و الفجار هم من بني عبد شمس. كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ. الخطاب لرسول اللّه (ص)،

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٣٧٧

و الكتاب القرآن، و هو بركة على من آمن به، و شفاء له من الكفر و مساوئ الأخلاق، و نجاة من الشرك و الهلاك. و في نهج البلاغة: استنصحوه على أنفسكم، و اتهموا عليه آراءكم، و استغشوا فيه أهواءكم.

[سورة ص (٣٨): الآيات ٣٠ الى ٤٠]

وَ وَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِناتُ الْجِيادُ (٣١) فَقالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ (٣٢) رُدُّوها عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَ الْأَعْناقِ (٣٣) وَ لَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَ أَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنابَ (٣٤)

قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ هَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ (٣٦) وَ الشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَ غَوَّاصٍ (٣٧) وَ آخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ (٣٨) هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ (٣٩)

وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَ حُسْنَ مَآبٍ (٤٠)

اللغة:

الصافنات جمع الصافنة من الخيل، و هي الفرس تقوم على ثلاث قوائم، و ترفع إحدى يديها. و الجياد جمع جواد و هو من الخيل السريع و من الناس الكريم.

و توارت غابت أو استترت. و طفق شرع. و السوق جمع ساق. و رخاء سهلة طيعة.

و أصاب قصد و أراد. و الأصفاد السلاسل و الأغلال. فامنن أعط. و أمسك امنع.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٣٧٨

الإعراب:

جملة نعم العبد خبر لمبتدأ محذوف أي هو. و إذ في محل نصب بفعل محذوف أي اذكر إذ عرض. و قيل: أحببت هنا بمعنى آثرت و عليه يكون حب الخير مفعولا به لأحببت. و طفق من أفعال المقاربة و اسمها ضمير مستتر و خبرها محذوف دل عليه «مسحا» أي و طفق يمسح مسحا. و رخاء حال من الضمير المستتر بتجري.

و الشياطين عطف على الريح. و كل بناء و غواص و آخرين بدل مفصل من مجمل، و المبدل منه الشياطين. و مقرنين صفة لآخرين. و بغير حساب حال من الضمير في امنن أي غير محاسب.

المعنى:

وَ وَهَبْنٰا لِدٰاوُدَ سُلَيْمٰانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوّٰابٌ. جاء في قاموس الكتاب المقدس عند الكلام عن سليمان ما نصه بالحرف: سليمان اسم عبري معناه رجل سلام، و هو ابن الملك داود الذي خلفه على العرش .. مع انه كان له ستة اخوة من أمهات مختلفات .. و سليمان هو ابن بثشيع التي كانت زوجة لأوريا، و قد أحب داود سليمان لأنه كان ابن زوجته المفضلة .. و كان داود قد وعد بثشيع ان يملك ابنها على الشعب بعده.

و قد لخص هذا المساهمون في وضع القاموس، لخصوه من التوراة سفر الملوك الأول و سفر صموئيل الثاني. و معناه ان التوراة تقول عن داود: انه لا يأتمر بأمر اللّه، و لا يعمل بوحي منه، بل بوحي امرأة اغتصبها من زوجها الذي قتله بحد السيف .. و انها هي الآمرة الناهية عليه و على شعبه .. و إذا كانت المرأة في عصرنا تطالب بالمساواة مع الرجل فإن التوراة تجعل الملوك و الأنبياء طوع أهواء المرأة و شهواتها .. و لا بدع فلقد كان الجنس اللطيف و ما زال عند اليهود أفضل الوسائل للربح و بلوغ المآرب.

(إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد فقال اني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ردوها عليّ فطفق مسحا بالسوق و الأعناق).

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٣٧٩

للمفسرين هنا أقوال، أرجحها ان سليمان قد بدا له في مساء يوم من الأيام أن يستعرض ما أعده للحرب و العزو من رباط الخيل، و قد كانت آنذاك السلاح الذي يرهب الأعداء، و بكلمة أراد أن يجري استعراضا عسكريا، فأمر بإحضار الخيل، و ان يجريها الفرسان أمام عينيه، و قال: أفعل هذا عن أمر ربي، لا عن هوى في نفسي .. حتى إذا أجريت أعجب بها و اطمأن اليها، و لما غابت عن بصره في ركضها أمر بردها، و شرع يمسح سوقها و أعناقها مسرورا بها و راضيا عنها ..

و على هذا يكون المراد بـ«حب الخير» استعراض الخيل و جريها أمام عينيه، أما قوله: **عَنْ ذِكْرِ رَبِّي** فمعناه اني فعلت هذا عن أمر اللّه لا عن أمري.

وَ لَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمٰانَ وَ أَلْقَيْنٰا عَلىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَداً. ابتلى سبحانه سليمان بمرض عضال، و ألقى به على سريره كجسد بلا روح، تماما كما ابتلى غيره من الأنبياء بأنواع البلاء، و تومئ الآية الى ان الابتلاء كان جزاء على شيء صدر من سليمان، و لكن اللّه سبحانه لم يبين هذا الشيء، و ما ذكره المفسرون في بيانه و تحديده لا يقوم على أساس، و مهما يكن فقد تاب سليمان مما حدث منه كما تاب غيره من الأنبياء، و قبل اللّه من سليمان كما قبل من الأنبياء **ثُمَّ أَنٰابَ قٰالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي.**

و تجدر الاشارة الى أن الأنبياء يتوبون لتركهم الأولى و الأفضل، لا لاقترافهم المعصية، و بيّنا ذلك في ج ١ ص ٨٨.

وَ هَبْ لِي مُلْكاً لاٰ يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهّٰابُ. طلب ملكا لا نظير له من بعده في الكيف لا في الكم، و من نوع الخوارق و المعجزات كتسخير الرياح و الطير و الجن، فاستجاب اللّه دعوته بشهادة قوله تعالى: **فَسَخَّرْنٰا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخٰاءً حَيْثُ أَصٰابَ.** رخاء أي طيعة، و حيث أصاب أي إلى أية جهة يشاء **وَ الشَّيٰاطِينَ كُلَّ بَنّٰاءٍ** لما يريده سليمان من محاريب و تماثيل و غيرها (و غواص) في البحر على اللآلئ و الجواهر (و آخرين) من الشياطين أيضا **مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفٰادِ** لأنهم خرجوا عن أمره و طاعته. و تقدم مثله في الآية ١٢ و ١٣ من سورة سبأ.

هٰذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ. و عطاء اللّه لا يثلمه الإنفاق و لا ينقصه البذل، و لذا أمر اللّه سليمان ان ينفق بالجملة و من غير وزن وكيل ان شاء.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٣٨٠

و في نهج البلاغة: من أيقن بالخلف جاد بالعطية. و مع هذا فإن سليمان ضعيف كأي انسان «تؤلمه البقة، و تقتله الشرقة، و تنتنه العرقة».

[سورة ص (٣٨): الآيات ٤١ الى ٤٨]

وَ اذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ إِذْ نادىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَ عَذابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هٰذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَ شَرابٌ (٤٢) وَ وَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَ ذِكْرىٰ لِأُولِي الْأَلْبابِ (٤٣) وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَ لا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤) وَ اذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَ الْأَبْصارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَ إِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ (٤٧) وَ اذْكُرْ إِسْماعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ ذَا الْكِفْلِ وَ كُلٌّ مِنَ الْأَخْيارِ (٤٨)

اللغة:

النصب التعب و المشقة. و المغتسل موضع الغسل و المراد به هنا الماء. و الضغث القبضة من العيدان و نحوها. و الحنث في اليمين ترك المحلوف عليه. و الأيدي القوة.

و خالصة أي صفة خالصة من كل شائبة. و المصطفين المختارين.

الإعراب:

أيوب بدل من عبدنا. و المصدر من أني مسّني مجرور بباء محذوفة. و رحمة

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٣٨١

مفعول من أجله لوهبنا. و ابراهيم و ما بعده بدل مفصل من مجمل و المبدل منه عبادنا. و ذكرى الدار خبر لمبتدأ محذوف أي هي ذكرى. و لمن المصطفين متعلق بمحذوف خبرا لأنهم.

المعنى:

وَ اذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ. لأيوب سفر خاص في العهد القديم، و قد استغرق حوالى ٤٠ صفحة، و في قاموس الكتاب المقدس: ان هذا السفر كتب شعرا في الأصل، و ان بعض الناس يظنون انه كتب في القرن الرابع قبل الميلاد، و ان من المحتمل أن يكون أيوب عاش في الألف الثانية قبل الميلاد. ثم قال المساهمون في وضع القاموس، في مادة عوص بضم العين: ان أيوب أقام في أرض عوص، و يعتقد ان هذه الأرض في الصحراء السورية، و هناك من يعتقد انها حوران.

إِذْ نادىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَ عَذابٍ. مضت مئات القرون، و الناس تضرب الأمثال بمصائب أيوب، و ينسجون حولها الأساطير .. و تدل هذه الآية و الآية ٨٣ من سورة الأنبياء ان أيوب قد أصيب في نفسه و ماله، و انه نسب ما حل به الى الشيطان، و هذا ما دعا جماعة من المفسرين أن يؤلفوا رواية «أيوب و الشيطان» .. و من قارن بين روايتهم و بين ما جاء في سفر أيوب من التوراة يجد أنهم يفسرون القرآن الكريم بالاسرائيليات .. و تتلخص رواية العهد القديم و المفسرين أيضا بأن اللّه سلط الشيطان على أيوب ليختبر إيمانه، فأتلف أمواله و أهلك أسرته، و لما فشل أصابه في جسده، ففشل أيضا.

و الآية صريحة في ان الشيطان قد مس أيوب بالأتعاب و الصعاب، و لكنها سكتت عن تحديدها و بيان نوعها، و نحن نسكت عما سكت اللّه عنه، و لا نتكلف البحث و التنقيب، و لو كلفنا اللّه لبين، و حيث لا بيان منه فلا تكليف. و قد أشرنا إلى قصة أيوب في ج ٥ ص ٢٩٥.

ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هٰذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَ شَرابٌ. لجأ أيوب الى اللّه شاكيا اليه مما قاساه، فاستجاب له، و أمره أن يضرب الأرض برجله فيخرج ماء بارد،

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٣٨٢

يغتسل به و يشرب منه، فيبرأ بإذن اللّه تعالى. و هكذا كان **وَ وَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَ ذِكْرىٰ لِأُولِي الْأَلْبابِ.** شفاه اللّه و رزقه من الأولاد و الأحفاد ضعف ما فقد منهم. و تقدم مثله في الآية ٨٤ من سورة الأنبياء ج ٥ ص ٢٩٥.

وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَ لا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ. قال المفسرون: ان أيوب غضب على زوجته حين كان طريح الفراش، غضب عليها لأمر يحدث بين المرء و زوجه .. فحلف ليضربنها كذا ضربة ان شفاه اللّه، و بعد ان كتب اللّه له الشفاء أمره أن يضرب زوجته بمجموعة من الأغصان و نحوها دفعة واحدة، و بذلك يتحلل من يمينه.

و الآية لا تشير الى امرأة أيوب و لا الى غيرها من قريب أو بعيد، و مع هذا فلا ننكر قول المفسرين، حيث جاء في الآية ذكر الحنث و الضرب، و ليس من شك ان الحنث فرع اليمين و الضرب يستدعي وجود المضروب .. و طريح الفراش يضيق بأدنى الأمور، و بالخصوص إذا حدث من أهله .. فمن الجائز- اذن- أن يحلف أيوب على ضرب زوجته لأدنى شيء يبدر منها .. و بالتالي فإن قول المفسرين غير بعيد.

و تسأل: ان قوله تعالى: و خذ بيدك ضغثا الخ يدل على ان الاحتيال على الدين جائز في شريعة القرآن مع انه أنكر على بني إسرائيل احتيالهم لصيد الحيتان، كما صرحت الآية ١٦٣ من سورة الأعراف: إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَ يَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ. أنظر ج ٣ ص ٤١٠.

الجواب أولا: ان الضرب على هذا النحو مختص بأيوب وحده و لا يعم جميع الحالفين، و الا صرحت السنّة النبوية بذلك، و أفتى به جميع العلماء.

ثانيا: ان هذا احتيال من أجل الرحمة و الانسانية، و ليس احتيالا على الحق و الانسانية.

وَ اذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَ الْأَبْصارِ. أولي الأيدي أصحاب القوة على الصالحات، و الأبصار كناية عن العلم باللّه و دينه،

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٣٨٣

و المعنى أذكر يا محمد هؤلاء الأنبياء الذين علموا دين اللّه و عملوا به مخلصين، و جاهدوا في سبيله صابرين، أذكرهم و اصبر على المكذبين من قومك كما صبر هؤلاء الرسل من قبلك.

إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ أي دار الآخرة، و خالصة صفة لا يشوبها شيء، و هي انهم يعملون للآخرة، و يؤثرونها على كل شيء **وَ إِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ.** أخلصوا للّه فاختصهم برسالته، و جعلهم من خيرة خلقه **وَ اذْكُرْ إِسْماعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ ذَا الْكِفْلِ وَ كُلٌّ مِنَ الْأَخْيارِ.** لم أجد في فهرس الكتاب المقدس و قاموسه ذكرا

لليسع و ذي الكفل، و الذي وجدته يشوع ابن نون خليفة موسى، و يقال: انه اليسع، و مهما كان فإنه هو و ذو الكفل تماما كإسماعيل و إسحاق و يعقوب من الأنبياء الأصفياء. و تقدم مثله في الآية ٨٥ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢١٨ و الآية ٨٤ من سورة الأنبياء ج ٥ ص ٢٩٥.

[سورة ص (٣٨): الآيات ٤٩ الى ٦٤]

هٰذا ذِكْرٌ وَ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ (٥٠) مُتَّكِئِينَ فِيها يَدْعُونَ فِيها بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَ شَرابٍ (٥١) وَ عِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أَتْرابٌ (٥٢) هٰذا ما تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسابِ (٥٣)

إِنَّ هٰذا لَرِزْقُنا ما لَهُ مِنْ نَفادٍ (٥٤) هٰذا وَ إِنَّ لِلطّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمِهادُ (٥٦) هٰذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَ غَسّاقٌ (٥٧) وَ آخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْواجٌ (٥٨)

هٰذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صالُوا النّارِ (٥٩) قالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنا فَبِئْسَ الْقَرارُ (٦٠) قالُوا رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هٰذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً فِي النّارِ (٦١) وَ قالُوا ما لَنا لا نَرىٰ رِجالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ (٦٢)

أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ (٦٣)

إِنَّ ذٰلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النّارِ (٦٤)

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٣٨٤

اللغة:

مآب مرجع. و عدن اقامة. و قاصرات الطرف، على أزواجهن. و أتراب متساويات في السن. و المهاد الفراش. و الحميم شديد الحرارة. و الغساق قيح شديد النتن.

و أزواج ألوان. و فوج جمع كثير.

الإعراب:

جنات عدن بدل من حسن مآب. و مفتحة حال من جنات عدن. و الأبواب نائب فاعل. و متكئين حال من ضمير لهم. و قاصرات و أتراب صفة لمبتدأ محذوف أي عندهم حور قاصرات الخ. و من زائدة اعرابا و نفاد مبتدأ و له خبر. و هذا مبتدأ و خبره محذوف أي هذا شأنهم. و ان للطاغين كلام مستأنف. و جهنم بدل من شر مآب. و هذا مبتدأ و حميم خبر و غساق عطف عليه. و آخر مبتدأ و من شكله صفة و أزواج خبر، و قيل: أزواج مبتدأ ثان و من شكله خبره و الجملة خبر المبتدأ الأول. لا مرحبا دعاء عليهم، و هو منصوب بفعل محذوف يجب إضماره على حد تعبير أبي حيان الأندلسي أي لا تأتون رحبا وسعة. و سخريا مفعول ثان لاتخذناهم. و لحق خبر ان. و تخاصم خبر لمبتدأ محذوف أي هو تخاصم أهل النار.

المعنى:

(هذا ذكر). هذا إشارة الى الثناء على من ذكر سبحانه في الآيات السابقة كإبراهيم و إسماعيل و داود و سليمان و غيرهم. و ذكر أي شرف تذكرهم به الأجيال

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٣٨٥

(وَ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ). لمن اتقى حسن الأحدوثة في الدنيا، و ثواب اللّه و مرضاته في الآخرة، و هي **(جَنّاتِ**

عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ) يدخلونها بسلام لا يسألهم سائل، و لا يمنعهم حاجب **(مُتَّكِئِينَ فِيها يَدْعُونَ فِيها بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَ شَرابٍ)**. متعة في الطعام و الشراب و الفراش، و فوق ذلك كله حور عين لا يمددن بطرفهن إلا لبعولتهن. و تقدم مثله في الآية ٤١ و ما بعدها من سورة الصافات.

(هٰذا ما تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسابِ). و ليس لما وعد اللّه من الخير مترك **(إِنَّ هٰذا لَرِزْقُنا ما لَهُ مِنْ نَفادٍ)** بل هو قائم الى الأبد، حياة خالدة، و نعمة دائمة **هٰذا وَ إِنَّ لِلطّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ** تماما عكس ما للمتقين، لهؤلاء مقام أمين، و لأولئك سواء الجحيم **جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمِهادُ)** فهم حطب لها، و هي لهم غطاء و وطاء **هٰذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَ غَسَّاقٌ**. في تفسير الرازي ان في الكلام تقديما و تأخيرا، و الأصل: هذا حميم و غساق فليذوقوه، و الحميم يحرق بحرّه، و الغساق صديد أهل النار **وَ آخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْواجٌ**. لا يقف عذاب أهل النار عند الحميم و الغساق، بل هناك أشكال أخرى من العذاب، تتشابه في شدتها و قسوتها، و تختلف في لونها و مظهرها كالزقوم و السموم، و ما إلى ذلك مما لا عين رأت و لا اذن سمعت.

هٰذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ. يدخل المجرمون الى جهنم أفواجا، فإذا دخل القوم اللاحقون قال لهم السابقون: لا مرحبا بكم ..

انكم في النار معذبون **قالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنا فَبِئْسَ الْقَرارُ قالُوا رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هٰذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ**. هذا بكامله من كلام اللاحقين، و فيه جواب للسابقين، استقبلهم هؤلاء بالشر، فردوه عليهم مضاعفا ..

و قولهم: **أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنا** يومئ الى ان الرؤساء المتبوعين يتقدمون التابعين الى جهنم تماما كما تقدموا عليهم في الحياة الدنيا .. و الهاء في «قدمتموه» تعود إلى العذاب المفهوم من السياق .. ثم طلب التابعون من اللّه سبحانه أن يضاعف العذاب لمن خدعهم و غرر بهم .. و تكرر هذا المعنى في العديد من الآيات، منها الآية ١٦٦ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٥٥ و الآية ٣٧ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٢٦ و الآية ٣١ من سورة سبأ.

وَ قالُوا ما لَنا لا نَرى رِجالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ. ضمير قالوا للطغاة

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٣٨٦

المترفين، و المراد بالرجال هنا الضعفاء .. كان الأقوياء في الحياة الدنيا يسلبون أقوات المستضعفين في الأرض، ثم يتيهون بها عليهم، لأنهم من وجهة نظرهم مجرد حيوانات و أداة لما يبتغون و يشتهون.

الكادحون حيوانات و أشرار .. و لما ذا؟ لأنهم يأكلون من عرق الجبين، و لا يقضون الليالي الحمراء في الكازينوهات و مواخير الدعارة .. أما الطغاة المترفون فنبلاء و أخيار لأنهم يفسدون و يتنعمون على حساب البؤساء و المناضلين .. الفقراء أنذال لأنهم لا يمشون في الخفاء .. أما المترفون فسادة أشراف لأنهم يتلونون بكل لون، و يسلكون كل سبيل تدر عليهم الأرباح و المكاسب .. و في يوم الفصل تزول الأقنعة، و يرى الخائنون مكانهم في نار جهنم، و لا يرون فيها أحدا ممن أسموهم بالأشرار، فيعجبون و يتساءلون عنهم، و عن مقرهم؟ و سرعان ما يعلمون انهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر، فتذهب أنفسهم حسرات و يزدادون ألما على ألم.

أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ؟ هذا من كلام الطغاة يسخرون به يوم القيامة من أنفسهم لأنهم كانوا من الذين آمنوا يسخرون **إِنَّ ذٰلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ**. ذلك إشارة الى تلاعن أهل النار، و قول بعضهم لبعض **لا**

مَرْحَباً بِكُمْ و هو كائن لا محالة.

[سورة ص (٣٨): الآيات ٦٥ الى ٨٨]

قُلْ إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلاَّ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) ما كانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩)

إِنْ يُوحى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٧٠) إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ (٧٤)

قالَ يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ (٧٥) قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦) قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَ إِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩)

قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قالَ فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ أَقُولُ (٨٤)

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَ ما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (٨٧) وَ لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٣٨٧

اللغة:

المراد بالملإ الأعلى الملائكة. و خلقت بيديّ أي من غير أب و أم بل بأسباب أخرى أنا أوجدتها. و من العالين أي من أهل الرفعة و العلو.

الإعراب:

رب السموات بدل من اللّه الواحد. ان يوحى «ان» نافية. و انما «ما» زائدة، و الأصل اني نذير مبين، و المصدر من ان و اسمها و خبرها نائب فاعل ليوحى أي ما يوحى إليّ إلا الانذار. و ساجدين حال. و أجمعون تأكيد. و المصدر

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٣٨٨

من أن تسجد مجرور بمن محذوفة. و استكبرت الأصل أستكبرت الهمزة الأولى للاستفهام و الثانية همزة الوصل، و حذفت هذه لمكان تلك.

المعنى:

قُلْ إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلاَّ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ. قل يا محمد للمشركين: أنا بشيركم ان توحدوا اللّه، و نذيركم أن تشركوا بعبادته أحدا، فله وحده الملك و الخلق و العزة و المغفرة لمن تاب و أناب قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ. ضمير هو يعود إلى القرآن، و أعرض عنه المشركون جهلا أو عنادا و حرصا على مصالحهم .. و نعت سبحانه القرآن بالنبإ العظيم لأنه يرتكز بعقيدته و شريعته و جميع مبادئه و تعاليمه على أساس الخير للجميع و التعاون مع الجميع.

الإسلام و فتاة انكليزية:

في شهر كانون الثاني ١٩٧٠ قرأت محاضرتين ل «روجيه جارودي» ألقاهما في دار «الأهرام» بالقاهرة في تشرين الثاني ١٩٦٩، و جارودي من قادة الفكر التقدمي الفرنسيين، و حائز على لقب بروفسور في الفلسفة و دكتور في الآداب، و قد نشرت المحاضرتين مجلة «الطليعة» المصرية عدد ١- ١٩٧٠.

و مما قاله في المحاضرة الأولى: «ان الفتح العربي لم يكن غزوا و لا استعمارا، و إنما هو في كل بلد فرصة لخلق حضارة من صنع الإسلام و الحضارة المحلية ..

ان الفتح العربي قد سبب انتعاشا حقيقيا للاقتصاد العالمي رغم سيطرة الاقطاعيين في السنوات الأولى من الفتح». و قال في المحاضرة الثانية: «نحن أمام تراث سام عظيم من القيم الاسلامية التي تستطيع أن تسهم مساهمة كبيرة في التقدم الاسلامي»- و قال- نرى «بيكون» المفكر الغربي الكبير يقول: ان الفلسفة كلها نابعة من الإسلام».

و أيضا قرأت في جريدة «الجمهورية» المصرية عدد ٢١- ١- ١٩٧٠:

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٨٩

ان فتاة انكليزية مثقفة اسمها «برجت هوني» دخلت الإسلام حديثا، و روت قصتها لجريدة «الجمهورية»، و تتلخص بأن هذه الفتاة كانت كبقية الناس في الغرب تحمل أحقادا و شكوكا و شبهات حول الإسلام، و بعد أن قرأت بوعي و تجرد ترجمة معاني القرآن و بعض الكتب عن الإسلام و تشبعت بتعاليمه وجدت نفسها مسلمة تلقائيا و من حيث لا تشعر، ثم قالت للجريدة: من العسير أن أبيّن حقيقة الإسلام بكلام سريع لأنه كنموذج هندسي بديع كامل يكمل كل جزء من أجزائه بقية الأجزاء الأخرى، و سر جماله يكمن بانسجام هذه الأجزاء و تلاؤمها، و هذه الصفة للإسلام هي التي تمارس تأثيرا عميقا على البشرية .. ان الانسجام اللطيف في الإسلام بين متطلبات الجسد و الروح له جاذبية قوية لدى الغرب اليوم، و يستطيع أن يؤثر في الحضارة الحديثة، و يبين الطريق للغربيين المؤدية إلى النجاح و الخلاص الحقيقيين.

و حبذا لو سلك شبابنا- و منهم صاحب «نقد الفكر الديني»- مسلك هذه الفتاة، فقرءوا القرآن و تدبروا معانيه، و اطلعوا على بعض ما كتبه أهل الاختصاص عن الإسلام، كما فعلت هذه الفتاة الانكليزية، ثم حكموا على الإسلام في ضوء ما قرأوا و ما فهموا .. ان أقل أثر يتركه تدبر القرآن و آياته في قلب الإنسان هو الايمان بعدالة قادر قاهر، و انه يجزي الذين أحسنوا بالحسنى و الذين أساءوا بما عملوا .. و ما ذا يبقى للإنسان ان حرم من هذا الايمان؟.

مٰا كٰانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ إِنْ يُوحىٰ إِلَيَّ إِلاّٰ أَنَّمٰا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ.

المراد بالملإ الأعلى الملائكة، و ضمير يختصمون يعود اليهم، و هذا الكلام كله مفعول للقول، و المعنى قل يا محمد للمشركين: لقد أخبرتكم بحديث الملائكة حين قال لهم: إِنِّي جٰاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً و انهم قالوا له: أَ تَجْعَلُ فِيهٰا مَنْ يُفْسِدُ فِيهٰا و ما علمي بهذا لولا ان علمني ربي و أوحى به إلي، أم ترون أني أكذب على اللّه؟ و ما أدعي أية منقبة لنفسي إلا الانذار لتعبدوا اللّه وحده رغبة في ثوابه و رهبة من عذابه.

إِذْ قٰالَ رَبُّكَ لِلْمَلاٰئِكَةِ إِنِّي خٰالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ فَإِذٰا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سٰاجِدِينَ. المراد بروح اللّه هنا الحياة، و قال أديب معاصر:

بل المراد ضمير الإنسان بالخصوص، و ان اللّه انما أمر الملائكة بالسجود لآدم لأنه علم كم سيعذب الضمير ذلك المخلوق الذي له جسم الطين و روح اللّه: لَقَدْ خَلَقْنَا

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٩٠

الإنْسانَ فِي كَبَدٍ- ٤ البلد أي في مكابدة مستمرة و شقاء دائم **فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ**. قال صاحب «نقد الفكر الديني» في صفحة ٩٠: «ان رفض السجود لآدم من إبليس ينسجم كل الانسجام مع مشيئة اللّه». و هذا القول من صاحب النقد ينسجم مع مذهب السنة القائلين: لا تلازم بين ما يأمر به اللّه و ما يريد، و لا بين ما ينهى عنه و ما يكره، فقد يأمر بما يكره، و ينهى عما يحب (المواقف ٨: ١٧٦) و استدلوا على ذلك بأدلة منها ان اللّه أمر إبليس بالسجود لآدم مع انه تعالى لم يرد ذلك منه و لو أراده لسجد إبليس لأن اللّه فعال لما يريد .. و لا ينسجم قول صاحب النقد مع مذهب الشيعة الذين قالوا: ان للّه إرادتين: ارادة الخلق و التكوين التي يعبر عنها سبحانه بقوله: «كن فيكون» و ارادة الطلب و التشريع التي يعبر عنها بالأمر و النهي (انظر ج ١ ص ٧٢ فقرة التكوين و التشريع). و اللّه سبحانه أراد السجود من آدم بإرادة الطلب و التشريع، لا بإرادة التكوين و الإيجاد.

(قالَ يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ. و اللّه سبحانه يعبر عن الأسباب الطبيعية بيده لأنها تنتهي اليه، قال تعالى: أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً- ٧١ يس. و المعنى لما ذا امتنعت يا إبليس عن السجود لآدم؟ هل غلبت عليك شقوتك و أخذتك العزة بالإثم، فاستكبرت و وضعت نفسك فوق قدرها، أم لأنك في حقيقتك و واقعك أجلّ و أعظم من آدم؟ **قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**. أجاب إبليس بالشق الثاني و انه في حقيقته و واقعه أجل و أعظم من آدم لأنه من نار، و بها تدار المصانع و منها الأسلحة الجهنمية أما آدم فهو «فلاح» لأنه من ماء و تراب ..

و نسي الخبيث أو تناسى ان الماء أصل الحياة و ان الحضارة فرع.

قالَ فَاخْرُجْ مِنْها الخ. و تقدمت قصة خلق آدم و سجود الملائكة و امتناع إبليس في سورة البقرة الآية ٣٠- ٣٤ ج ١ ص ٧٩- ٨٣، و الآية ١١- ١٨ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٠٥- ٣١٠ و الآية ٢٦- ٤٤ من سورة الحجر ج ٤ ص ٤٧٣- ٤٧٩ و الآية ٦١- ٦٥ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٦١- ٦٣ و الآية ٥٠ من سورة الكهف ج ٥ ص ١٣٦.

قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَ ما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ. ضمير عليه يعود الى

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٩١

التبليغ و التذكير، و التكلف التصنع، و المراد به هنا الكذب، و المعنى قل يا محمد للذين كذبوك: انما أنصحكم لوجه اللّه لا أريد منكم جزاء و لا شكورا، و ما أنا بمفتر على اللّه، كيف ولديّ كتاب ينطق بالحق و يعجز العقول و الألسن أن يأتوا بسورة من مثله **إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ** ممن له قلب أو ألقي عليه السمع و هو شهيد **وَ لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ**. سيتبين لكم عما قليل أيها المكذبون بالقرآن أنه الحق الذي لا ريب فيه، يتبين لكم ذلك في الحياة الدنيا حيث يدخل الناس في دين اللّه أفواجا، و أيضا يتبين الحق في الآخرة حيث تثبت الحقائق، و تضمحلّ الأباطيل.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٩٢

سورة الزّمر

٧٥ آية مكية. و قيل: إلا ٣ آيات.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ١ الى ٤]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتٰابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنٰا إِلَيْكَ الْكِتٰابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (٢) أَلاٰ لِلَّهِ الدِّينُ الْخٰالِصُ وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيٰاءَ مٰا نَعْبُدُهُمْ إِلاّٰ لِيُقَرِّبُونٰا إِلَى اللهِ زُلْفىٰ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مٰا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لاٰ يَهْدِي مَنْ هُوَ كٰاذِبٌ كَفّٰارٌ (٣) لَوْ أَرٰادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاَصْطَفىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ سُبْحٰانَهُ هُوَ اللهُ الْوٰاحِدُ الْقَهّٰارُ (٤)

اللغة:

الزلفى القربى.

الإعراب:

تنزيل مبتدأ، و خبره «من اللّه» و يجوز أن يكون تنزيل خبرا لمبتدأ محذوف

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٣٩٣

و من اللّه متعلق بتنزيل أي هذا تنزيل الكتاب. و بالحق متعلق بأنزلناه. و مخلصا حال من ضمير فاعبد. و ألا أداة تنبيه. و الذين مبتدأ و الخبر محذوف أي يقولون ما نعبدهم. و زلفى مفعول مطلق مثل قمت وقوفا.

المعنى:

تَنْزِيلُ الْكِتٰابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ. القرآن من عند اللّه الذي خلق الخلائق بقدرته، و دبرها بحكمته **إِنّٰا أَنْزَلْنٰا إِلَيْكَ الْكِتٰابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ**. قد يقال: ان النبي (ص) على يقين بأن القرآن من لدن عزيز حكيم، و انه يعبد اللّه مخلصا له الدين، اذن، فما الغرض من هذا الأمر، و ذاك الإخبار؟.

الجواب: لقد أوذي النبي (ص)، و تحمل الكثير، فقال له سبحانه: انك تدعو إلى الحق، و من دعا اليه في محيط مثل بلدك لا بد أن يدفع الثمن من نفسه أو أهله أو ماله .. و أيضا أنت مخلص للّه في جميع أقوالك و أفعالك، و من أخلص للّه لاقى الكثير من أعدائه. و بتعبير ثان ليس قوله تعالى: **أَنْزَلْنٰا إِلَيْكَ الْكِتٰابَ** مجرد إخبار، و لا قوله: **فَاعْبُدِ اللهَ** مجرد أمر، بل هما شهادة للنبي بالعظمة و تسلية عما يقاسي من أعداء اللّه و الحق.

أَلاٰ لِلَّهِ الدِّينُ الْخٰالِصُ من كل شائبة، أما الدين المشوب بالرياء و الأهواء فهو للشيطان، لا للرحمن .. و لا يكون هذا الدين الخالص إلا لمن يجعل منه مثله الأعلى، و يضحي من أجله بنفسه و جميع منافعه، و لا يضحي به لأجل منفعته و مصلحته **وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيٰاءَ مٰا نَعْبُدُهُمْ إِلاّٰ لِيُقَرِّبُونٰا إِلَى اللهِ زُلْفىٰ**.

عاد سبحانه الى المشركين و أخبر أنهم يتخذون من دون اللّه أربابا ليشفعوا لهم عنده. و تقدم مثله في الآية ١٨ من سورة يونس ج ٤ ص ١٤٤.

إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مٰا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ. لا يختلف المشركون فيما بينهم على الشرك، و انما يختلف المشركون و الموحدون، و اللّه سبحانه يفصل بين الفريقين فينعم على من وحّد و اتقى، و ينتقم ممن أشرك و بغى **إِنَّ اللهَ لاٰ يَهْدِي مَنْ هُوَ كٰاذِبٌ كَفّٰارٌ**. انه تعالى يهدي من سلك سبيل الهداية، و يضل من اختار طريق الضلال، و يهلك من ألقى بيديه الى التهلكة، و ينجي من احتاط و تجنب المهالك.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٣٩٤

لَوْ أَرٰادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاَصْطَفىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ. هذا من فرض المحال، و فرض المحال ليس بمحال، و

الوجه في امتناعه ان اتخاذ الولد يستدعي بطبعه الحاجة و الافتقار اليه، و اللّه غني عن كل شيء .. هذا، الى ان كل والد فهو موروث، و كل موروث فهو هالك، فكل والد هالك، فكيف يكون اللّه والدا **سُبْحانَهُ هُوَ اللهُ الْواحِدُ الْقَهّارُ** لا شريك له و لا كفؤ و لا صاحبة و لا ولد. لا شيء إلا هو.

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٥ الى ٨]

خَلَقَ السَّماواتِ وَ الأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَ يُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفّارُ (٥) خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ فَأَنّى تُصْرَفُونَ (٦) إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَ لا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ وَ إِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٧) وَ إِذا مَسَّ الإِنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَ جَعَلَ لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النّارِ (٨)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٩٥

اللغة:

التكوير اللف، و منه كور العمامة التي يلتوي بعضها على بعض، و المراد بتكوير الليل و النهار تكوير الأرض بالأصل و الليل و النهار بالتبع، و يأتي المزيد من البيان في الشرح. و الظلمات الثلاث هي ظلمة البطن و ظلمة الرحم و ظلمة المشيمة.

و تصرفون أي عن الصدق إلى الكذب و عن الحق إلى الباطل. و الوزر الذنب.

و منيبا راجعا. و خوّله أعطاه.

الإعراب:

ذلكم مبتدأ و اللّه عطف بيان و ربكم خبر، و له الملك مبتدأ و خبر و الجملة خبر ثان لذلكم. و انّى تصرفون أي إلى أين تصرفون. و منيبا حال من ضمير دعا.

و قليلا أي زمنا أو تمتعا قليلا.

المعنى:

خَلَقَ السَّماواتِ وَ الأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَ يُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ.

قلنا فيما سبق: ان للّه كتابين: كتاب ناطق مسطور، و هو القرآن، و كتاب صامت منظور، و هو الكون، و ان هذا الكتاب بما فيه من وحدة التصميم و حكمة التنظيم يدل دلالة قاطعة على وحدة المصمم و حكمة المنظم .. أما الصدفة فإنها ان صدقت في شيء فإنها لا تصدق في كل شيء، و لا تتكرر مرات في الشيء الواحد.

و قال صاحب الظلال و هو يتكلم عن هذه الآية: ان التعبير بيكوّر يقسرني قسرا على النظر في موضوع كروية الأرض .. انها تدور حول نفسها في مواجهة الشمس، فالجزء الذي يواجه الشمس من سطحها المكور يغمره الضوء و يكون نهارا، و لكن هذا الجزء لا يثبت لأن الأرض تدور، و كلما تحركت بدأ الليل يغمر سطح الأرض الذي كان عليه النهار، و هذا

السطح مكور فالنهار عليه يكون مكوّرا، و الليل يتبعه مكورا، و هكذا في حركة دائبة».

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٣٩٦

و كلمة التكوير غير بعيدة في دلالتها عن كروية الأرض، و من أجل هذا فنحن مع صاحب الظلال في قوله: ان التعبير بيكور يستدعي النظر في كروية الأرض.

و قال مصطفى محمود في مجلة «صباح الخير» كما قال صاحب الظلال دون أن يشير اليه، و لا أدري ان كان هذا من باب توارد الخاطر. و تقدم نظيره في سورة يس الآية ٣٧، و لم ترد فيها كلمة التكوير، و عند شرحها أشرنا إلى دوران الأرض حول نفسها، و ان جانبها الذي يحاذي الشمس حين الدوران يكون نهارا، و غير المحاذي يكون ليلا.

وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ تقدم في الآية ٢ من سورة الرعد ج ٤ ص ٣٧٣ و الآية ٢٩ من سورة لقمان و ١٣ من سورة فاطر **خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها**. تقدم في الآية ١ من سورة النساء ج ٢ ص ٢٤٢ و الآية ١٨٩ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٤٣٤ **وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ**. تقدم في الآية ١٤٣ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٧٤.

يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ. خلقا من بعد خلق إشارة إلى ما جاء في الآية ٥ من سورة الحج: فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ ج ٥ ص ٣١٠، و الظلمات الثلاث هي ظلمة البطن و الرحم و المشيمة، و هذا الارتقاء من طور لآخر داخل هذه الظلمات دليل قاطع على وجود الباري المصور .. و إذا كان هذا الارتقاء من صنع الطبيعة مباشرة فإن الطبيعة من صنع من يقول للشيء «كن فيكون» و لا يعمى عن هذا إلا أعمى، قال الإمام علي (ع):

أيها المخلوق السوي و المنشأ المرعي في ظلمات الأرحام، و مضاعفات الأستار، بدئت من سلالة من طين، و وضعت في قرار مكين الى قدر معلوم، تمور «١» في بطن أمك جنينا لا تحير دعاء و لا تسمع نداء، ثم أخرجك من مقرك الى دار

---

(١). تمور تتحرك، و لا تحير لا تستطيع.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٣٩٧

لم تشهدها، و لم تعرف سبل منافعها، فمن هداك لاجترار الغذاء من ثدي أمك، و عرفك عند الحاجة مواضع طلبك و ارادتك؟

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ. فلا تضره معصية من عصى، و لا تنفعه طاعة من أطاع، **وَ لكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ** أي الرضا عنكم ان كنتم متقين **وَ لا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ**. قال الأشاعرة: ان اللّه مريد لجميع الكائنات حتى كفر الكافر و زنا الزاني و قتل القاتل ظلما و عدوانا لأنه خالق كل شيء، و مع ذلك فهو ينهى عن الكفر و الزنا و القتل (المواقف ج ٨ ص ١٧٣) أما التكليف بما لا يطاق فجائز عند الأشاعرة لأن اللّه لا يجب عليه شيء، و لا يقبح منه شيء (نفس المصدر ص ٢٠٠). و لا شيء أوضح في الدلالة على بطلان هذا المذهب من قوله تعالى: **وَ لا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ**.

وَ إِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ. و ما يرضاه لنا فهو أمان و رحمة وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ أي لا تجزي نفس عن نفس شيئا. و تقدم بالنص الحرفي في الآية ١٦٤ من سورة الانعام ج ٣ ص ٢٩٣ و الآية ٥ من سورة الإسراء و الآية ١٨ من سورة فاطر ثُمَّ إِلىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ. اليه تعالى مصائر الخلق، و بيده جزاء الأعمال، و هو العليم بسرائر أصحابها و ما يهدفون من ورائها.

وَ إِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَ جَعَلَ لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ. مسه أصابه، و الضر ما يؤذي و يسوء، و الإنابة الرجوع الى اللّه، و خوله أعطاه، و الأنداد الأشباه، و المعنى ان الإنسان إذا أصيب بنفسه أو أهله أو ماله التجأ الى خالقه خاشعا متضرعا، فإذا كشف كربه و ضره، و أسبغ عليه من جوده و كرمه نسي تضرعه إلى خالقه، و اتجه الى غيره بالعبادة و الطاعة .. و في الآية إيماء الى ان الإنسان حين الضراء يعود الى فطرته التي فطره اللّه عليها. و تقدم مثله في الآية ١٢ من سورة يونس ج ٤ ص ١٣٩ و الآية ٥٤ من سورة النحل ص ٥٢١ من المجلد المذكور و الآية ٦٧ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٦٥.

قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ. هذا تهديد و وعيد لمن

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٩٨

يؤمن عند الشدة، و يكفر عند الرخاء، و ما من شك ان متاع الدنيا مع الكفر وخيم العاقبة.

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٩ الى ١٦]

أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَ قائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَ يَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ (٩) قُلْ يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هٰذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَ أَرْضُ اللهِ واسِعَةٌ إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ (١٠) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (١١) وَ أُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣)

قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا ذٰلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذٰلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبادَهُ يا عِبادِ فَاتَّقُونِ (١٦)

اللغة:

قانت قائم بالطاعة. و آناء جمع آن أي ساعة من الزمن. و ظلل جمع ظلة أي ما يستظل به من حر أو برد.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٣٩٩

الإعراب:

أم للاستفهام. و من مبتدأ و خبره محذوف أي كمن ليس بقانت. و هو قانت مبتدأ و خبر و الجملة صلة لمن. و ساجدا حال من ضمير قانت. و للذين أحسنوا خبر مقدم و حسنة مبتدأ مؤخر. و ان أعبد أي بأن أعبد. و لأن أكون أي من أجل أن أكون و قيل: اللام زائدة. اللّه أعبد، اللّه مفعول مقدم. و مخلصا حال.

و ظلل مبتدأ و لهم خبر و من النار صفة. ذلك يخوف مبتدأ و خبر. يا عباد فاتقون أي يا عبادي فاتقوني.

حتى الأنبياء يفعلون رغبة و رهبة:

أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَ قائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَ يَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ.

بعد أن ذكر سبحانه من يؤمن عند الضراء، و يكفر عند السراء عقبه بقوله:

ليس سواء عند اللّه هذا الذي يؤمن في الشدة دون الرخاء، و من يعبد اللّه في جميع حالاته، و لا تزيده النعمة إلا ايمانا و شكرا و سجودا و ركوعا في ظلمة الليل و الناس نيام، و لا يفعل شيئا إلا رغبة في ثواب اللّه و رهبة من عذابه.

و في الآية إيماء إلى ان الإنسان لا ينقاد إلا بدافع الرغبة و الرهبة تقيا كان أم شقيا، و الفرق ان الشقي يفعل و يترك رغبة في زينة الدنيا و حلاوتها أو رهبة من همها و مرارتها، أما التقي فإنه يفعل و يترك رغبة في حرث الآخرة و نعيمها، و رهبة من عذابها و جحيمها، و هذا ينطبق حتى على الأنبياء المعصومين الذين وصفهم اللّه بقوله: وَ يَدْعُونَنا رَغَباً وَ رَهَباً- ٩٠ الأنبياء ج ٥ ص ٢٩٦.

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ.

ليس المراد بالعلماء هنا الذين حفظوا الشروح و المتون، و لا الذين اكتشفوا قوى الطبيعة، و اخترعوا العقول الألكترونية و الصواريخ عابرة القارات، و غزوا الفضاء و صعدوا إلى القمر أو المريخ .. كلا، انما المراد بهم العاملون لخير الانسانية جمعاء، و تحرير المعذبين في الأرض و خلاص الناس من البؤس و الشقاء، أما العلماء اللامبالون أو الذين باعوا دينهم و أنفسهم للأبالسة و الشياطين، لجلادي الشعوب،

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٠٠

فاخترعوا لهم الأسلحة الجهنمية، أما هؤلاء فهم كالأنعام بل أضل سبيلا .. و لا يدرك هذه الحقيقة إلا أولو العقول و الأبصار.

قُلْ يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ. لأن الايمان بلا تقوى و العمل الصالح لا يجدي نفعا، و من أجل هذا ذهب جمع من العلماء إلى ان العمل الصالح جزء من الايمان الحق **لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ.** هذا كلام مستأنف و منقطع عن سابقه، و معناه من يعمل مثقال ذرة خيرا يره **وَ أَرْضُ اللهِ واسِعَةٌ.**

فمن ضاق عليه بلده و عجز عن القيام فيه بواجبه الديني أو الدنيوي فليهاجر الى غيره، و تقدم مثله في الآية ٩٧ من سورة النساء ج ٢ ص ٤١٩.

إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ أي الصابرون على الشدائد صبر الأحرار الذين يرتفعون فوق الأحداث، و يرفضون الاستسلام للفقر و الذل، أما الذين يخضعون للاقوياء و يجبنون أمام الطغاة فهم الذين خسروا الدنيا و الآخرة ذلك هو الخسران المبين **قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ.** أبدا لا فرق بين النبي و غيره .. انه عبد مأمور بالإخلاص للّه في جميع أقواله و أفعاله كأي انسان **وَ أُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ** دعا الرسول الأعظم (ص) الى الإسلام بعد ان سبق الناس اليه لأنه منسجم مع نفسه يفعل ما يقول و لا يقول ما لا يفعل.

قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. محمد (ص) يخاف اللّه لأنه لا براءة معه من اللّه، و لا حجة له عليه، بل للّه الحجة على محمد (ص) و على جميع خلقه .. و أعظم ما في محمد انه مطيع للّه مخلص له في العبودية سابق الى الخيرات يتلقى الوحي من ربه و يؤديه على وجهه: قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَ ما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَ لا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى إِلَيَّ وَ ما أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ- ٩ الأحقاف.

قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي مرة ثانية يؤكد محمد (ص) بأمر اللّه انه عبد مأمور. قال المستشرق الانكليزي «هاملتون

جب» الأستاذ في جامعة اكسفورد في كتاب «دراسات في حضارة الإسلام»، قال: «يرفض القرآن فكرة الوساطة بين اللّه و الإنسان .. و يضع الإنسان أمام خالقه دون عناصر وسائطية روحية أو شخصية». و هذه هي الميزة الكبرى للإسلام على جميع الأديان.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٤٠١

فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ. هذا أبلغ أسلوب يعبر عن غضب اللّه و تهديد من اتخذ معبودا من دونه **قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ**. خسروا أنفسهم لأنهم الى جهنم و بئس المصير، و خسروا أهليهم لأن المشرك منهم هالك، و المؤمن عدو لمن أشرك في الدنيا و الآخرة **لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ**. أي ان عذاب الحريق أطبق عليهم من كل جانب.

ذلِكَ يُخَوِّفُ اللّهُ بِهِ عِبادَهُ يا عِبادِ فَاتَّقُونِ. بيّن لهم سبحانه عذاب الآخرة و شدته ليبتعدوا في الدنيا عن أسبابه بالطاعة و الإخلاص، و إلا فإنهم ذائقوه لا محالة.

و قال قائل: ان الجنة هي اللذة الروحية: و النار الألم النفسي، و ان كل ما جاء في القرآن من أوصافهما الحسية فإنما هو ألوان من ضرب الأمثال و التقريب الى الأذهان حيث لا أمنية للبدوي إلا أن يحظى بالعسل و اللبن و الخمر و الحور العين، و استدل هذا القائل بقوله تعالى: **ذلِكَ يُخَوِّفُ اللّهُ بِهِ عِبادَهُ** لأن معناه في مفهومه ان اللّه ذكر ألفاظ العذاب لمجرد التخويف و لا حقيقة لدلالة هذه الألفاظ و لا واقع لمداليها «١».

و نجيب بأن كل لفظ ورد في كتاب اللّه و سنّة نبيه يجب العمل بظاهره إلا أن يرفضه العقل، و عندئذ نصرفه إلى معنى مجازي يتحمله اللفظ، و لا يأباه العقل، و لا شيء من أوصاف الجنة و النار التي ذكرها القرآن يتنافى مع العقل، و عليه يجب إبقاء اللفظ على ظاهره، و لا مبرر للتأويل، أما قوله تعالى: **ذلِكَ يُخَوِّفُ اللّهُ بِهِ عِبادَهُ** فمعناه انه يبين لهم الحقيقة و الواقع ليحتاطوا منه و يبتعدوا عن الأسباب المؤدية اليه و الذي يفرض ارادة هذا المعنى نفس الآيات التي ذكرت أوصاف النار و شدائدها إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ- ٦٤ ص.

أما القول بأن رحمة اللّه لا تتفق مع عذاب هذا الإنسان المسكين الذي لا يساوي

---

(١). هذا القول قديم جدا، و هو متروك، و لكن مصطفى محمود أراد أن يحييه بمقال نشره في مجلة «صباح الخير» عدد ٢٢- ١- ١٩٧٠.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٤٠٢

ذرة أو هباء، عذاب هذا الضعيف بنار لها كلب و لجب، أما هذا القول فجوابه ان اللّه سبحانه أعد العذاب الشديد الأليم للذين يفسدون في الأرض، و يسفكون الدماء، و يستعبدون الشعوب، و يدمرون الحياة بالأسلحة الجهنمية، و يقتلون الألوف في دقائق معدودات .. و جهنم بجميع أوصافها القرآنية هي أقل و أدنى جزاء لهؤلاء، و هي عين العدل بل و الرحمة أيضا، و سلام على من قال: «لا يشغله تعالى غضب عن رحمة، و لا تلهيه رحمة عن عقاب». أنظر ج ٥ ص ٤٥٩ فقرة «جهنم و الأسلحة الجهنمية».

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ١٧ الى ٣١]

وَ الَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَ أَنابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرى فَبَشِّرْ عِبادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللهُ وَ أُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ (١٨) أَ فَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ أَ فَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (١٩) لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعادَ (٢٠) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (٢١)

اللغة:

الطاغوت مصدر بمعنى الطغيان مثل ملكوت و رحموت و المراد به هنا ما تكون

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٠٣

عبادته سببا للطغيان. و يهيج يجف و يبلغ نهايته في اليبوسة. و الحطام ما تكسر من الشيء اليبس، و المراد به هنا التبن.

الإعراب:

المصدر من ان يعبدوها بدل اشتمال من الطاغوت. و الذين يستمعون مبتدأ و أولئك الذين هداهم اللّه خبر. و أولئك هم أولو الألباب مبتدأ و خبر و هم ضمير الفصل.

أ فمن «من» مبتدأ و خبره محذوف أي كمن نجا من العذاب. و ألوانه فاعل مختلفا.

و حطاما مفعول ثان ليجعله.

المعنى:

وَ الَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَ أَنابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرى فَبَشِّرْ عِبادِ.

المراد بالطاغوت هنا الأصنام، و لذا عاد الضمير عليها مؤنثا .. بشّر سبحانه بالنجاة من نبذ الشرك و أطاع اللّه، و ان بدرت منه بادرة تاب إلى خالقه و أناب **الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللهُ وَ أُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ.** ليس المراد بحسن القول حسن الكلمات و فصاحة الأسلوب، و انما المراد به ما نفع دنيا و آخرة، فإن كان مضرا فهو قبيح، أما القول الذي لا يضر و لا ينفع فإنه لا يوصف بحسن و لا بقبح، أما الوصف بالأحسن فهو نسبي- مثلا- رد التحية بمثلها حسن، و كذا القصاص بالمثل ممن اعتدى عليك، و لكن العفو أحسن من القصاص، ورد التحية بخير منها أحسن من ردها بمثلها.

و قول اللّه تعالى أحسن من كل قول أيا كان قائله، و لا شيء منه تعالى أحسن من شيء قولا كان أو فعلا لأن الأشياء بالنسبة اليه سواء، و الذين يستمعون قول اللّه، و يعملون به هم المهتدون عند اللّه إلى معرفة الأحسن و الآخذون باللباب دون القشور. و في نهج البلاغة: «أفيضوا في ذكر اللّه فإنه أحسن الذكر، و ارغبوا فيما وعد المتقين فإن وعده أصدق الوعد، و اقتدوا بهدي نبيكم فإنه أفضل الهدي، و استنوا بسنته فإنها أهدى السنن، و تعلموا القرآن فإنه

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٠٤

أحسن الحديث، و تفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب».

أَ فَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ كمن أنجاه اللّه منه (أ فأنت- يا محمد- تنقذ من في النار). كلا، لا وسيلة للانقاذ و الخلاص من عذاب اللّه إلا العمل الصالح و عفو اللّه و كرمه، جلت حكمته، و ليس من شك ان من لج و تمادى في الغي و الضلال فلا ينظر اللّه اليه: أُولئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَ لا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لا يُزَكِّيهِمْ

وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ- ٧٧ آل عمران **لٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعٰادَ**. هذا على طريقة القرآن يقرن البشارة بالإنذار، و الوعد بالوعيد، و ذكر المتقين و ثوابهم بذكر الطاغين و عقابهم، فلهؤلاء من فوقهم ظلل من النار و من تحتهم ظلل، و لأولئك غرف في الجنة فوقها غرف .. هذا وعده تعالى و وعيده، و من أصدق من اللّه حديثا؟.

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنٰابِيعَ فِي الْأَرْضِ. ينزل المطر من السماء، فيجري على سطح الأرض، ثم ينفذ في جوفها، فيكوّن عيونا و ينابيع تنفع الناس .. فهل هذا صدفة، أو من تدبير عليم حكيم؟ **ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوٰانُهُ**. فهل هذا النبات المختلف لونا و طعما من صنع الطبيعة بما هي أو بعناية خالق الطبيعة بما فيها؟ و إذا كانت الحياة بشتى ألوانها من نتاج الطبيعة و خصائصها فلما ذا ظهرت الحياة في بعض أطراف الطبيعة و أجزائها دون بعض؟

ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرٰاهُ مُصْفَرًّا ثم يجف النبات الأخضر و يصفّر في أوانه و عند بلوغه (**ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطٰاماً** فتاتا متكسرا **إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَذِكْرىٰ لِأُولِي الْأَلْبٰابِ**.

ان في انزال المطر، و إنبات النبات و اخضراره ثم اصفراره ثم فتاته على وفق الحكمة و المصلحة، ان في ذلك كله تذكيرا بالبارئ المبدع .. و إذا كان هذا من الماء و التراب فمن الذي أوجد الماء و التراب و الكون بما فيه. انظر ج ٣ ص ٢٣١ فقرة «من أين جاءت الحياة» و ج ٥ ص ٧٩ فقرة «الروح من أمر ربي، و اللّه و علم الخلايا».

تفسير الكاشف، ج‌٦، ص ٤٠٥

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٢٢ الى ٢٤]

أَ فَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلٰامِ فَهُوَ عَلىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقٰاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولٰئِكَ فِي ضَلٰالٍ مُبِينٍ (٢٢) اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتٰاباً مُتَشٰابِهاً مَثٰانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلىٰ ذِكْرِ اللهِ ذٰلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشٰاءُ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمٰا لَهُ مِنْ هٰادٍ (٢٣) أَ فَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذٰابِ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ وَ قِيلَ لِلظّٰالِمِينَ ذُوقُوا مٰا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤)

اللغة:

شرح صدره لكذا اتسع له و اطمأن اليه. و أحسن الحديث القرآن. و المراد بالمتشابه هنا ان القرآن بكامله على نسق واحد أسلوبا و محتوى: وَ لَوْ كٰانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلٰافاً كَثِيراً- ٨٢ النساء. و مثاني جمع مثنى، و هو عبارة عن الأمر و النهي و الوعد و الوعيد و ما إلى هذا، و قيل: المراد بالمثاني هنا إيراد المعنى بأكثر من أسلوب، و مهما يكن فإن معنى مثاني غير المعنى المراد منه في الآية ٨٧ من سورة الحجر. و تقشعر كناية عن الخوف عند ذكر الوعيد بالجحيم. و تلين كناية عن الاطمئنان عند ذكر الوعد بالنعيم.

الإعراب:

أ فمن شرح «من» مبتدأ و خبره محذوف أي كمن قسا قلبه، و مثله أ فمن يتقي.

تفسير الكاشف، ج‌٦، ص ٤٠٦

و كتابا بدل من أحسن الحديث. و متشابها صفة كتاب. و مثاني صفة ثانية. و جملة تقشعر صفة ثالثة.

المعنى:

أَ فَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ. من توكل على اللّه كفاه، و من طلب الهداية هداه، فإذا علم الخير من عبده و انه يطلب معرفة الحق للعمل به أخذ سبحانه بيده و أرشده إلى بغيته و جعله على بينة من أمره:

وَ مَنْ يُرِدْ ثَوابَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَ مَنْ يُرِدْ ثَوابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْها- ١٤٥ آل عمران.

فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ. قست و لم تمل لهداية على الرغم من العظات و العبر و التحذير و التبشير **أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ** و عذاب مهين. قال الحافظ محمد بن أحمد الكلبي في كتاب التسهيل لعلوم التنزيل: «روي ان الذي شرح اللّه صدره للإسلام علي بن أبي طالب و حمزة، و المراد بالقاسية قلوبهم أبو لهب و أولاده».

ثم وصف سبحانه القرآن بالأوصاف التالية:

١- **اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ** في عقيدته و شريعته و مواعظه و حكمه و جميع مبادئه و تعاليمه.

٢- **كِتاباً مُتَشابِهاً** أسلوبا و محتوى، و لا تهافت بين معانيه لأنها من إله عليم حكيم.

٣- (مثاني) أي تثنى أحكامه و مواعظه، فهو يجمع بين الأمر و النهي، و بين الوعد و الوعيد و ما إلى ذلك، و في كتاب «النواة في حقل الحياة» للشيخ العبيدي: «في القرآن صور الكائنات أمثالا و أضدادا، ثم يهيب بك فيما يخص الفضائل بصوت الآمر المشفق، و فيما يخص الرذائل بصوت الزاجر الجبار، و فيه طمأنينة العابد و زمجرة القائد».

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٤٠٧

٤- **تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ** هذا كناية عن خوف المؤمنين حين يسمعون وعيد اللّه و تهديده بالجحيم، و مثله قول الإمام علي في وصف المتقين:

و هم و النار كمن قد رآها فهم فيها معذبون.

٥- **ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللهِ** كناية عن اطمئنانهم حين يسمعون وعد اللّه و بشارته بالنعيم، و نحوه قول الإمام علي (ع): و هم و الجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون.

ذلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ. يدع اللّه سبحانه الإنسان و ما يختار، فمن اختار لنفسه الموت و الانتحار بأحد أسبابه أماته اللّه، و من اختار لها الحياة بأسبابها أحياه لأجل مسمى، و كذلك من اختار لنفسه الهدى و سلك سبيله هداه اللّه و شمله بعنايته، و ما له من مضلّ، و من اختار لها الضلال و سلك مسلكه أضله اللّه، و ما له من هاد، و كفى دليلا على ذلك قوله تعالى: فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَ اللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ- ٥ الصف أي لا يهدي الذين اختاروا لأنفسهم بأنفسهم الفسق و الفساد، و قوله: وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى- ١٧ فصلت و قوله: وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ- ١٧ محمد أي طلبوا الهدى و التقوى بإخلاص فأرشدهم اللّه اليه.

أَ فَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ. ليس سواء من يغمره العذاب من فرع إلى قدم، و من هو في أمان منه .. و انما ذكر سبحانه الوجه بالخصوص لأنه أعز الأعضاء على الإنسان و أشرفه، و به يتميز عن غيره **وَ قِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ**. تماما كما تدين تدان، و كما تزرع تحصد، و ما قدمت اليوم تقدم عليه غدا، كما قال الإمام علي (ع).

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٢٥ الى ٣١]

كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذاقَهُمُ اللهُ الْخِزْيَ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَ لَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ وَ رَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩)

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١)

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۴۰۸

اللغة:

غير ذي عوج مستقيم على الحق و العدل في جميع معانيه. و متشاكسون مختلفون.

و سلما أي خالصا.

الإعراب:

قرآنا حال مؤكدا من القرآن. و عربيا صفة. و غير ذي عوج صفة بعد صفة. و ضرب هنا بمعنى جعل و مثلا مفعول أول و رجلا مفعول ثان و قيل:

ان رجلا بدل من «مثلا». و فيه خبر مقدم و شركاء مبتدأ مؤخر و متشاكسون صفة لشركاء. و يستويان مثلا، «مثلا» تمييز.

المعنى:

كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ فَأَذاقَهُمُ اللهُ الْخِزْيَ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ. ضمير

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۴۰۹

قبلهم يعود الى مشركي مكة الذين كذبوا رسول اللّه (ص)، و تقول لهم الآية:

أ تكذّبون نبيكم محمدا، و لا تعتبرون بما أصاب الأمم الماضية من الهلاك لأنهم كذبوا أنبياءهم؟ و تكرر هذا المعنى في العديد من الآيات، منها الآية ١٤٨ من سورة الانعام ج ٣ ص ٢٧٨ **وَ لَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ.** حوى القرآن من التعاليم ما يكفل للناس حياة طيبة آمنة في كل عصر و قطر، فقد بيّن لهم ما فيه الخير و الصلاح و أمرهم به، و ما فيه الشر و الفساد و نهاهم عنه بأساليب متنوعة، و أمثال واضحة ليتعظوا و يستقيموا. و تقدم مثله في الآية ٥٤ من سورة الكهف ج ٥ ص ١٣٩ و الآية ٥٨ من سورة الروم.

ترجمة القرآن:

قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ. القرآن عربي لغة، و انساني دينا و مبدأ لا يحده زمان و مكان، و لا قومية و عنصرية: وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ كافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَ نَذِيراً- ٢٨ سبأ، و هو مستقيم في مبناه و محتواه، لا لبس فيه و لا انحراف لأنه من لدن عليم حكيم يهدف الى هداية الناس و إرشادهم الى جادة الحق و صراطه القويم. و تقدم مثله في الآية ٢ من سورة يوسف ج ٤ ص ٢٨٦ و الآية ٣٧ من سورة الرعد و الآية ٢٠ من سورة طه.

و تسأل: هل تجوز ترجمة القرآن الى اللغات الأجنبية؟ و مع الجواز هل تجري احكام القرآن على ترجمته فلا يمسها إلا المطهرون؟

الجواب: لا شبهة و لا ريب في جواز ترجمة القرآن الى كل اللغات، بل و رجحانها أيضا لأن القرآن هو رسالة اللّه و الإسلام الى الانسانية كلها، و الترجمة عامل أساسي على بث هذه الرسالة الإلهية المحمدية و انتشارها .. و قد أسلم جماعة أو عرفوا حقيقة الإسلام عن طريق ترجمة القران، و بالأمس القريب أسلمت فتاة انكليزية مثقفة بعد أن قرأت ترجمة معاني القرآن الى لغتها. انظر فقرة «الإسلام و فتاة انكليزية» عند تفسير الآية ٦٨ من سورة ص.

و تجدر الاشارة الى ان القرآن مترجم الى ٢٧ لغة، و أول ترجمة له كانت

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤١٠

سنة ١١٤٣ ميلادية (مجلة اللسان العربي. «الرباط» عدد كانون الثاني ١٩٦٩).

و أيضا لا شك ان ترجمة القرآن لا تجري عليها أحكام القرآن. أولا لأن العربية من خصائص القرآن و مقوماته: إِنَّا أَنْزَلْنٰاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا- ٢ يوسف.

فإذا زالت عنه هذه الصفة تبعتها الصفة القرآنية حتما. ثانيا ان الترجمة في واقعها انما هي لمعاني القرآن، لا للقرآن بالذات. و بكلام أوضح ان القرآن عبارة عن الفصاحة العربية و معانيه الحقيقية، و كل منهما جزء متمم للآخر بالنسبة الى القرآن، فإذا زال أحد الجزئين ذهبت جنسية القرآن، و أصبح الجزء الباقي شيئا غير القرآن ..

و عليه يكون حكم ترجمته تماما كحكم تفسيره .. أجل، ان حكم اسم اللّه تعالى و صفاته هو حكم القرآن بالذات يحرم مسه و مسها على غير المطهرين مهما كانت اللغة.

ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكٰاءُ مُتَشٰاكِسُونَ وَ رَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيٰانِ مَثَلاً؟ هذا المثل ضربه سبحانه للمشركين المكذبين برسالة محمد (ص)، و توضيحه ان المشرك الذي يعبد أكثر من واحد هو أشبه بعبد مملوك لجماعة مختلفين في الرأي و الأخلاق، و لا يتفقون على شيء، و كل واحد منهم يطلب من العبد ما يناقض طلب الآخر، و لا يستطيع العبد تلبية الجميع و ارضاءهم، و في الوقت نفسه لا يريد أن يغضب واحدا منهم، فهو معهم أبدا و دائما تائه في فكره و حائر في أمره لا يدري ما ذا يصنع؟

أما المؤمن الموحد فهو أشبه بعبد يمتلكه رجل واحد و لا يطلب منه إرضاء أحد سوى مولاه الحكيم فيما يأمر و ينهى، و قد استراح كل منهما للآخر، فالسيد لا يكلف العبد ما لا يطيق، و العبد يسمع و يطيع، و هو طيب النفس لأنه على يقين من مرضاة مولاه .. فهل هذا الرجل الذي هو سلم لمولاه الواحد الحكيم و لا يخضع إلا له وحده، و ذاك الرجل الذي يطلب منه أن يخضع و يطيع الرعناء المتشاكسين هل هما سواء؟ كلا: أَ أَرْبٰابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّٰهُ الْوٰاحِدُ الْقَهّٰارُ- ٣٩ يوسف.

(الحمد للّه) الذي عزز دينه و رسوله بالحجج الدامغة و البينات الواضحة، و خذل أعداءه المبطلين وردهم على أعقابهم خاسئين **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ** ان المشرك كالعبد المملوك الرعناء متشاكسين (انك ميت- يا محمد- و انهم

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤١١

ميتون) لأن الموت نهاية كل حي نبيا كان أو غير نبي، و لا يبقى إلا وجهه الكريم، جلت عظمته، و لكن أعداء محمد (ص) يموتون موت الكفر و الجهل، و لا يبقى لهم من أثر إلا الذم و اللعن، أما رسالة محمد (ص) فخالدة مدى الحياة، و يبقى اسمه مقرونا بالصلوات و التحيات إلى آخر يوم **ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ**. المراد بالخصومة هنا ان النبي (ص) يشهد عليهم أمام اللّه يوم القيامة بأنه قد بلغهم رسالات ربهم: وَ جِئْنٰا بِكَ شَهِيداً عَلىٰ هٰؤُلاٰءِ- ٨٩

النحل.

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۴۱۳

الجزء الرّابع و العشرون

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۴۱۵

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٣٢ الى ٣٧]

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ وَ كَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ (٣٢) وَ الَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِهِ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَ يَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥) أَ لَيْسَ اللهُ بِكافٍ عَبْدَهُ وَ يُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (٣٦)

وَ مَنْ يَهْدِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَ لَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقامٍ (٣٧)

اللغة:

المثوى المكان الذي يثوي فيه الإنسان إذا أقام فيه.

الإعراب:

فمن استفهام انكاري و محلها الرفع بالابتداء و أظلم خبر. و الذي جاء مبتدأ، و المراد به الجنس حيث أخبر عنه بالجمع، و هو أولئك هم المتقون. و المصدر من ليكفروا متعلق بيشاءون. و بكاف الباء زائدة إعرابا و كاف خبر ليس و مثله بعزيز. و عبده مفعول كاف لأنه بمعنى يكفي.

المعنى:

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ؟ فجعل له شريكا أو ولدا .. و شر القول

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۴۱۶

الكذب، و أعظم الكذب شرا الكذب على اللّه و رسوله **وَ كَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ** من اللّه على لسان رسله .. و هكذا أرباب المصالح و المنافع في كل مكان و زمان يكذّبون الصدق و يصدّقون الكذب لأن مصالحهم تقوم على الزور و الباطل، و مما قرأته في هذا الباب: ان من أعظم الكذب أن يقول الكاذب: اللّه يعلم أني لصادق **أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ** بلى، انها مثوى و مأوى لهم و لكل طاغ و باغ.

وَ الَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِهِ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ. رسول اللّه (ص) جاء بالصدق من عند اللّه، و المسلمون صدقوا ما جاء به، و هم عند اللّه من الأبرار إذا اتقوه في محارمه، و إلا فإن التصديق بلا عمل لا يجديهم عند اللّه نفعا **لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ** أي المتقين محارم اللّه لأن الحديث عنهم، و لم يحدد سبحانه في هذه الآية جزاءهم بشيء معين، بل ترك الخيار لمشيئتهم.

لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَ يَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ. ان اللّه يغفر الذنوب جميعا كبيرها و صغيرها لمن تاب و آمن و عمل صالحا، و يجزي سبحانه العاملين بطاعته و الشاكرين لنعمته بأحسن من

طاعتهم و شكرهم **أَ لَيْسَ اللهُ بِكافٍ عَبْدَهُ وَ يُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ**. المراد بعبده محمد (ص)، و هو سبحانه كافيه شر من يريد به الشر، و المراد بالذين من دونه الأصنام لأن ضمير دون يعود إليه تعالى. و قال جماعة من المفسرين: ان رسول اللّه (ص) لما ذكر الأصنام بسوء قالت قريش: لئن لم ينته محمد عن ذكر آلهتنا لنسلطنها عليه، فتصيبه بخبل أو تعتريه بسوء .. فأنزل اللّه سبحانه هذه الآية .. و ليس هذا ببعيد عن عقول أهل السفه و الجهل. و ليس من شك ان اللّه كاف عبده و رسوله.

وَ مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ وَ مَنْ يَهْدِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍّ. قلنا عند تفسير الآية ٢٣ من هذه السورة و غيرها من الآيات: ان اللّه يضل من سلك مسلك الضلال بسوء اختياره، و يهدي من اختار الهداية لنفسه و سلك بها سبيلها **أَ لَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقامٍ** ممن كفر و ظلم بمشيئته و بعد إلقاء الحجة عليه؟

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤١٧

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٣٨ الى ٤٥]

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ أَ فَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ (٤٠) إِنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدى فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٤١) اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ الْأُخْرى إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢)

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعاءَ قُلْ أَ وَ لَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَ لا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَ إِذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ إِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥)

اللغة:

حسبي كافيني. و مكانتكم الحال التي أنتم عليها. و أصل التوفي الإيفاء و هو أخذ الشيء كاملا وافيا، و من مات فقد استوفى عمره. و اشمأزت انقبضت و نفرت.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤١٨

الإعراب:

اللّه فاعل لفعل محذوف أي خلقهن اللّه. و حسبي مبتدأ و اللّه فاعل سادّ مسد الخبر. فلنفسه متعلق محذوف خبر لمبتدأ محذوف أي فاهتداؤه كائن لنفسه. أو لو كانوا الهمزة للإنكار و الواو للحال أي تتخذونهم شفعاء و هم لا يعقلون. و جميعا حال من الشفاعة.

المعنى:

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ. جوابهم هذا من وحي الفطرة التي فطر اللّه الناس عليها،

لأنها لا تجد تفسيرا للكون إلا بوجود اللّه، و لكن الجاحدين يقولون: نحن لا نؤمن إلا بالتجربة، أما الفطرة فكلام فارغ، و نحن بدورنا نقول لهم: إذا كنتم لا تؤمنون إلا بالتجربة فأرونا التجربة التي دلتكم على ان اللّه غير موجود .. و نحن لا نشك في ان من أنكر هذه الفطرة أو أنكر منطقها فقد أنكر إنسانية الإنسان و أغلى ما فيه من طاقات و غرائز. و تقدم مثله في الآية ٦١ من سورة العنكبوت و الآية ٢٥ من سورة لقمان.

قُلْ أَ فَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ- أي الأصنام- **كاشِفاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ**؟ هدد المشركون الرسول الأعظم (ص) بالأصنام، فأمره الجليل الأعلى أن يقول لهم: أي سلطان للأصنام علي أو على غيري؟ فهل تدفع عني ما أراده اللّه بي من الضر، أو تمنع ما أراده لي من الخير؟ بل هل تستطيع الأصنام أن تدفع عن نفسها إذا أراد إنسان أن يحطمها بفأسه، أو يدوسها بنعله؟ و تقدم مثله في الآية ١٧ من سورة الانعام ج ٣ ص ١٦٩ و الآية ١٠٧ من سورة يونس ج ٤ ص ١٩٩.

قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ. قل يا محمد لمن كذّب برسالتك:

أستعين باللّه و استرشده، و هو يكفيني ما أهمني، و من ضاقت عليه الأمور فليلجأ اليه وحده، و كفى به وليا و نصيرا.

قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤١٩

يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ. على مكانتكم أي على حالتكم، و مقيم دائم مدى الأبد، و المعنى ليبق كل منا على ما هو عليه، ثم ينتظر المصير، و هو عليكم خسران و جحيم، و علينا بركة و نعيم. و تقدم مثله في الآية ١٣٥ من سورة الانعام ج ٣ ص ٢٦٧ و الآية ٩٣ من سورة هود ج ٤ ص ٢٦٤ **إِنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ**. فبلغه عن ربك مبشرا و منذرا بآياته، و لا تدع لأحد عذرا يتعلل به **فَمَنِ اهْتَدى فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ** فكل إنسان مسؤول عن عمله، و حسابه على خالقه، و لا سلطان لك عليه بعد ان بلغت و نصحت. و تقدم مثله في الآية ١٠٤ من سورة الانعام ج ٣ ص ١٣٨ و الآية ١٠٧ من سورة يونس ج ٤ ص ١٩٩.

اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها. قال الماديون: الإنسان هو هذا الجسم و لا شيء وراءه. انظر «الماديون و الحياة بعد الموت» ج ٤ ص ٣٧٩ و مع الماديين ص ٥٣٦ من المجلد المذكور. و قال المؤمنون: ان الإنسان روح و بدن، و ان الروح هي التي تسيّر البدن و تدبره بأمر اللّه تعالى، و الموت عبارة عن قطع العلاقة بين الروح و البدن، و انها بعد ذلك تذهب الى خالقها: يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ- ٢٧ الفجر. و على هذا يكون معنى قوله تعالى: **اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها** انه تعالى يقبضها اليه حين موت الأبدان.

وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها. النوم نوع من الموت و الوفاة أو هو وفاة مجازا، قال تعالى: هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ- ٦٠ الأنعام. و قال صاحب مجمع البيان: «التي تتوفى عند النوم هي النفس التي يكون بها العقل و التمييز، و هي التي تفارق النائم فلا يعقل، أما التي تتوفى عند الموت فهي نفس الحياة التي إذا زالت زال معها النفس، و النائم يتنفس، فالفرق بين قبض النوم و قبض الموت ان قبض النوم يضاد اليقظة، و قبض الموت يضاد الحياة، و قبض النوم تكون الروح معه- أي مع القبض- في البدن، و قبض الموت تخرج الروح من البدن».

فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ الْأُخْرى إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. يقبض سبحانه النفس عند موت الجسد، و عند منامه، و تبقى التي قضى عليها الموت عند خالقها و لا يردها إلى الجسد، أما

الثانية فيردها

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۴۲۰

اليه إلى أمدها المعين. قال عمر بن الخطاب: «العجب ان الرجل يرى رؤيا فتكون كالأخذ باليد، و يرى رؤيا فلا تكون شيئا .. فقال له الإمام علي بن أبي طالب: ان اللّه يتوفى الأنفس كلها، فما رأته و هي عنده فهي صادقة، و ما تراه بعد إرسالها فهي كاذبة، فعجب عمر من قول الإمام». نقل هذا الشيخ المراغي في تفسيره عن أبي حاتم و ابن مردويه.

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعاءَ قُلْ أَ وَ لَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَ لا يَعْقِلُونَ.

الأصنام لا تعقل شيئا، و لا تدفع عن نفسها ضرا، و مع ذلك يرجو المشركون أن تشفع لهم و تنفعهم عند اللّه .. و هكذا يفعل الجهل بنفسه .. ان خير شفيع عند اللّه تعالى للمذنبين التوبة و الانابة **قُلْ لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً** أي لا أحد يملك من الشفاعة شيئا إلا ما ملكه اللّه منها: إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ- ١٥٤ آل عمران.

لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. و مثله: وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ- ١٨ المائدة ج ٣ ص ٤٠.

وَ إِذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ إِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ- أي من دون اللّه و هي الأصنام- **إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ.** كان المشركون إذا سمعوا قول لا إله إلا اللّه نفروا، و إذا سمعوا مدح الأصنام فرحوا.

و هذا شأن المبطلين قديما و حديثا، لا يؤنسهم إلا الباطل، و لا يوحشهم إلا الحق ..

و في نهج البلاغة: من استثقل الحق أن يقال له أو العدل أن يعرض عليه كان العمل بهما أثقل عليه.

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٤٦ الى ٥٣]

قُلِ اللَّهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ عالِمَ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِي ما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَ لَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ بَدا لَهُمْ مِنَ اللهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَ بَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٤٨) فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠)

فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَ ما هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَ وَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢)

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۴۲۱

اللغة:

حاق بهم نزل بهم. و خولناه أعطيناه. و فتنة بلية.

الإعراب:

اللهم فاطر السموات أي يا اللّه يا فاطر السموات يا عالم الغيب. و المصدر من أن للذين ظلموا فاعل لفعل محذوف أي لو ثبت ملك الذين ظلموا. و جميعا حال من مال في الأرض. و بل هي أي النعمة.

المعنى:

قُلِ اللَّهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَ الأَرْضِ عالِمَ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِي ما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.

ترتبط هذه الآية بقوله تعالى في الآية السابقة: وَ ما

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٢٢

أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ و المعنى واضح، و ملخصه قل يا محمد بعد أن بلغت و نصحت:

اللهمّ أنت خالق الخلق و مالك الملك، و عالم بما كان مني و من المكذبين، و لك وحدك الحكم و القول الفصل في كل اختلاف و صراع بين عبادك في هذه الحياة.

وَ لَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ما فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ بَدا لَهُمْ مِنَ اللهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ. كانوا يتكالبون على حطام الدنيا، و يجمعون المال على المال غافلين عن لقاء اللّه و حسابه، و حين وقفوا بين يديه لنقاش الحساب و تكشف لهم ما كانوا يأمنون عضوا يد الندامة، و تمنّوا لو ملكوا أضعاف ما في الأرض و قبل منهم فدية عن عذاب الحريق، و لكن هيهات أن يفدى لجهنم أسير .. و تقدم مثله في الآية ٩١ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١٠٦ و الآية ٥٤ من سورة يونس ج ٤ ص ١٦٩ و الآية ١٨ من سورة الرعد.

وَ بَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ. كانوا إذا قيل لهم: اتقوا يوما ترجعون فيه الى اللّه سخروا من هذا القول و قائله، و لما أحضروا في اليوم الموعود بدت لهم الحقيقة، و نزل بهم العذاب جزاء وفاقا على موقفهم الساخر منه و ممن أنذر به.

عذر أقبح من ذنب:

فَإِذا مَسَّ الإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ.

المراد بالإنسان هنا كل من ينطبق عليه هذا الوصف، يستغيث باللّه عند الشدة، و ينساه عند الرخاء، و يقول في جهل و غرور: ان نعمتي من صنع تدبيري و فطنتي.

تذكرت و أنا أكتب هذه الكلمات سياسة الولايات المتحدة التي أعلنها «راسك» حين كان وزيرا للخارجية، أعلنها بقوله: «لا بد للولايات المتحدة أن تظهر اهتمامها بالكرة الأرضية كلها بجميع أراضيها و مياهها و جوّها و فضائها الخارجي المحيط بها».

أي ان للولايات المتحدة أن تسيطر على الأرض بمن فيها و ما فيها، و كان هذا الإعلان سنة ١٩٦٦، أي قبل أن ترسل الولايات المتحدة روادها ليطئوا أرض القمر، أما اليوم فينبغي أن تعطف القمر و غيره من الكواكب على الأرض.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٢٣

و بعد أن نشرت الصحف العالمية هذه السياسة الاستعمارية التي أعلنها وزير خارجية الولايات المتحدة كتب مأجور في إحدى الصحف العميلة مقالا يبرر فيه هذه السياسة و يدافع عنها بقوله: ان الولايات المتحدة أقوى دولة علما و ثراء، و قد حققت انتصارات ضخمة في ميدان العلم و الصناعة، فلها- اذن- كل الحق أن تتدخل في شئون العالم بمختلف الصور، و ان تستولي على كل ما تريد الاستيلاء عليه، و ان تغير ما شاءت من قوانين الدول و الشعوب، و توجه اقتصادها، و تضع هي ميزانتها، و تحدد ما تصدره و تستورده .. و أيضا للولايات المتحدة كل الحق أن تستعمل سياسة العصا الغليظة مع كل بلد يدافع عن حريته و استقلاله، فتقتل و تدمر بكل أسلوب، بالانقلابات العسكرية، و تدعيم الحركات الانفصالية و القضاء على الانتفاضات الوطنية، بل لها الحق أيضا أن تتدخل تدخلا مباشرا و مسلحا ان اقتضى

الأمر .. لها الحق في ذلك و أكثر من ذلك لأن هذا الحق في واقعه للعلم أولا، و ثانيا للولايات المتحدة التي خرج العلم من مصانعها العسكرية، و تمثّل في أسلحتها الجهنمية .. و كل من ملك هذا السلاح كان له الحق في السيطرة على الكرة الأرضية بمن فيها و ما فيها. و كل ما جاء على لسان كاتب المقال هو بيان للسياسة الامريكية كما هي في واقعها .. و من أراد التثبت من هذه الحقيقة فليدرس سياسة أمريكا في فيتنام و آسيا و افريقيا و أمريكا اللاتينية، و موقفها العدائي من العرب، و انتصارها غير المحدود لعدوان إسرائيل و معارضتها الحل السلمي البنّاء لمشكلة فلسطين و لكل مشكلة قائمة في الشرق و الغرب.

و نسأل ذاك الأفاك الأثيم الذي تطوع للدفاع عن أمريكا و بارك سياستها، و قال ان لها كل الحق في أن تشبع شهوتها العدوانية إلى أقصى ما تصل إليه الشهوات و النزوات .. بارك و برر لا لشيء إلا لأن أمريكا تمتلك مصانع الخراب و الدمار، نسأل هذا الأفاك: إذا كان العلم يبرر التقتيل و التدمير و السلب و النهب فمعنى هذا ان العلم للشر لا للخير، و للفساد لا للصلاح، و ان للعالم أن يستخدم علمه للقرصنة و اللصوصية و الكذب و التزوير، و ان المجرم الحاذق مشكور و مأجور .. و انه كلما تفوق في الإجرام و كثر منه الضلال و الفساد استحق الاحترام و التقدير .. و أيضا إذا كان العلم يبرر العدوان فلما ذا ترفع الولايات المتحدة شعارات العدل و الانسانية،

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٢٤

و تحاول جاهدة أن تقنع الناس بأنها العابدة الزاهدة و تحارب الشيوعية باسم الإيمان باللّه و اليوم الآخر؟

و بعد، فقد ذهل ذاك الكاتب الأثيم انه يكشف عن ضلاله و خيانته، و هو يدافع بمنطقه المفضوح عن شهوة الولايات المتحدة و شقوتها، و يعتذر عنها بما هو أقبح من ذنبها.

بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ المراد بالفتنة هنا النعمة، و المعنى ان اللّه سبحانه ينعم على العبد من فضله ليبلوه أ يشكر أم يكفر؟ فإن شكر زاده اللّه نعمة في الدنيا و أجرا في الآخرة، و ان كفر فإن جهنم أعدت للكافرين **وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ** ان اللّه يختبر عباده لتظهر الأفعال التي يستحقون بها الثواب و العقاب.

قَدْ قٰالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمٰا أَغْنىٰ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ. ضمير قالها يعود إلى مقالة القائل: «أوتيته على علم» و المعنى ان لهذا القائل الجهول أمثالا في التاريخ، و لكن المال لم يرد عنهم غضب اللّه و نقمته، و لم يدفع عنهم العذاب الموعود حين نزوله بهم. أنظر تفسير الآية ٧٨ و ما بعدها من سورة القصص.

(فأصابهم سيئات ما كسبوا و الذين ظلموا من هؤلاء- أي الذين كذّبوا محمدا- سيصيبهم سيئات ما كسبوا). من يعمل سوءا يجز به و لا يجد من دون اللّه وليا و لا نصيرا، و هذا الحكم ثابت في حق الجميع لا يقبل الاستثناء و التخصيص بالأمم السابقة أو اللاحقة، سنّة اللّه في خلقه و لن تجد لسنّة اللّه تبديلا **وَ مٰا هُمْ بِمُعْجِزِينَ**. و هل يعجز المخلوق خالقه؟.

أَ وَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. تقدم مثله في الآية ٢٦ من سورة الرعد و ٣٠ من سورة الإسراء و ٨٢ من سورة القصص و ٦٢ من سورة العنكبوت و ٣٧ من سورة الروم و ٣٦ و ٣٩ من سورة سبأ. و تكلمنا عن هذا الموضوع مفصلا في المجلد الثالث ص ٩٤ فقرة «الرزق و فساد الأوضاع»، و ص ١٣١ فقرة «هل الرزق صدفة أو قدر»، و في المجلد الرابع ص ٤٠١ فقرة «الإنسان و الرزق»، و عند تفسير الآية ٦٠ من سورة العنكبوت فقرة «الرزق و الثقة بالمخلوق دون الخالق».

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۴۲۵

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٥٣ الى ٥٩]

قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَ أَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَ أَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (٥٤) وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ وَ إِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧)

أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتِي فَكَذَّبْتَ بِها وَ اسْتَكْبَرْتَ وَ كُنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ (٥٩)

اللغة:

أسرفوا تجاوزوا الحد. لا تقنطوا لا تيأسوا. أنيبوا ارجعوا. أسلموا له أخلصوا له. فرطت أهملت و قصرت. في جنب اللّه في حقه و طاعته. و كرة رجعة.

الإعراب:

جميعا حال من الذنوب. و بغتة مصدر في موضع الحال من العذاب أي باغتا.

و المصدر من أن تقول نفس مفعول من أجله لاتبعوا. يا حسرتا الأصل يا حسرتي ثم قلبت الياء ألفا، و ان كنت «ان» مخففة من الثقيلة و اسمها محذوف

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۴۲۶

أي و اني كنت و اللام في «من» هي الفارقة بين ان النافية و المخففة. فأكون مضارع منصوب بأن مضمرة في جواب لو التي تفيد التمني. و بلى واقعة في جواب لو ان اللّه هداني لأن لو تتضمن معنى النفي.

المعنى:

قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. هذه دعوة صريحة من اللّه للذين جاروا على أنفسهم بارتكاب الذنوب و المعاصي، دعوة منه تعالى الى التوبة، و وعد بالعفو و الصفح عن كل ذنب مهما كبر و عظم، و بهذا ترك سبحانه الباب مفتوحا أمام من يريد أن يكفّر عن سيئاته، و يصلح ما أفسد من نفسه، و في الحديث: ان اللّه لا يمل حتى تملوا، فإذا تركتم ترك، أي إذا تركتم التوبة ترك المغفرة. و فيه أيضا ان رسول اللّه (ص) قال: ما أحب ان لي الدنيا بما فيها بهذه الآية.

و اشتهر انها أرجى آية في القرآن، و من الذنوب الكبار أن ييأس الإنسان من رحمة اللّه وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ- ٥٦ الحجر. و تكلمنا عن ذلك مفصلا عند تفسير الآية ٤٨ من سورة النساء ج ٢ ص ٣٤٢، و أيضا عقدنا فصلا خاصا للتوبة في المجلد المذكور ص ٢٧٥.

وَ أَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَ أَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ.

اغتنموا الفرصة و لا تضيعوها أيها المذنبون، توبوا اليه تعالى و أخلصوا له في الأقوال و الأفعال **وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ.** لا شيء مما أنزل اللّه أحسن من شيء

بالنسبة اليه تعالى، فكل ما قال حسن و عظيم، أما بالنسبة الى المذنبين فأحسن ما نزل في حقهم هو دعوتهم إلى التوبة، و قبولها منهم و ان عظم الذنب، و ما عدا ذلك وعيد و تهديد.

ثم بيّن سبحانه ان عاقبة من أهمل التوبة من العصاة هي:

١- **أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ** أي في طاعته، و الحسرة من أشد العذاب على النفس، و بالخصوص مع عدم المهرب و المخرج.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٢٧

٢- **وَ إِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ**. غدا يقول المذنب ندامة و أسفا: لم أكتف بمعصية اللّه و إهمال التوبة حتى سخرت من أهل طاعته و الخائفين من عذابه و نقمته.

٣- **أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**. و نحوه قوله تعالى:

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللهُ ما أَشْرَكْنا- ١٤٨ الأنعام ج ٣ ص ٢٧٨.

٤- **أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**.

و مثله الآية ١٠٠ من سورة المؤمنون: قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ ج ٥ ص ٣٨٨.

(بلى) ليس الأمر كما زعمت و قلت: «لو ان اللّه هداني». **قَدْ جاءَتْكَ آياتِي فَكَذَّبْتَ بِها وَ اسْتَكْبَرْتَ وَ كُنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ**. جاءته آيات اللّه فأنكرها، و قال ما هي من عند اللّه، و استكبر عن الايمان، و كفر باللّه و الرسول، ثم كذب و قال: ما جاءني من اللّه شيء على لسان نبيه، فجمع بين مساوئ الكفر و الكذب و الاستكبار، و لو بادر الفرصة إلى التوبة لكان في غنى عن ذلك و راحة من عذاب الخزي و الهون.

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٦٠ الى ٦٧]

وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَ يُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١) اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَ فَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ (٦٤) وَ لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) وَ ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ السَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٢٨

اللغة:

المثوى المقام. و المفازة المنجاة. و مقاليد جمع مقليد و مقلاد، و المراد به هنا المفتاح. بيمينه بقدرته تعالى.

الإعراب:

ترى هنا بصرية لا قلبية و لها مفعول واحد و هو الذين كذبوا. و وجوههم مسودة مبتدأ و خبر و الجملة حال من الذين كذبوا. و جملة لا يمسهم حال من الذين اتقوا. و غير اللّه مفعول اعبد، و جملة تأمروني معترضة، و تقدير الكلام أ فغير اللّه أعبد تأمروني. بل اللّه فاعبد «اللّه» مفعول مقدم. و حق قدره مفعول مطلق. و جميعا حال من الأرض، و اختلف

النحاة في العامل بالحال، و الذي نراه ان هذه الحال لا تحتاج الى عامل لأنها حال إعرابا و تأكيد واقعا، و المعنى الأرض كلها. و قبضته خبر للأرض. و السموات مطويات مبتدأ و خبر، و بيمينه متعلق بمطويات.

المعنى:

(وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ. كل من نسب الى اللّه ما ليس له به علم فقد كذب على اللّه سواء أ كان المنسوب اليه تعالى شريكا و صاحبة و ولدا، أم حلالا و حراما، أم منصبا

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٢٩

إلهيا كمن ينتحل النبوة أو الخلافة أو القضاء أو الإفتاء باسم دين اللّه و شريعته ..

و سئل الإمام أبو جعفر الصادق (ع) عن معنى الآية؟ فقال: «كل من انتحل إمامة ليست من اللّه فقد كذب عليه. قال السائل: و ان كان علويا. قال الإمام:

و ان كان علويا. قال السائل: و ان كان فاطميا. قال الامام: و ان كان فاطميا».

و جزاء من كذب على اللّه و رسوله أن يحشر أسود الوجه في زمرة من أعد اللّه لهم جهنم و ساءت مصيرا. و قوله تعالى: «للمتكبرين» بعد قوله: الذين كذبوا على اللّه يومئ الى ان كل من كذب على اللّه فهو متكبر و مكابر أيضا.

وَ يُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ. بمفازتهم أي بسبب فوزهم. بعد أن هدد سبحانه الكاذبين بنار جهنم بشّر أهل الصدق و التقوى بالنجاة من كل سوء، و فوق ذلك انهم لا يستشعرون الحزن و الندامة على شيء فاتهم في الحياة الدنيا **اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ.** كل ما في الوجود من انسان و حيوان و نبات و جماد يدل عليه تعالى دلالة الصورة الفنية على مصورها، و البناية العظيمة على عظمة بانيها **وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ** أي قائم عليه لأن كل شيء وجد بقدرة اللّه، و يبقى بعناية اللّه إلى ما شاء اللّه، و لو تخلى عنه لصار هباء.

لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ. المراد بالمقاليد هنا المفاتيح، و هي كناية عن تدبيره تعالى للكون و علمه بكل ما يجري فيه من الذرة إلى أعظم الكواكب:

وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ- ٥٩ الأنعام.

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ. المراد بآيات اللّه الكون و نظامه العجيب الذي لو حاد عنه قيد شعرة لآل إلى الخراب و الدمار، و معنى الكفر بآيات اللّه عدم الاعتراف بدلالة هذا النظام على المنظم، و هذه الهندسة على المهندس.

و قد خسر المكذبون بهذه الدلالة عقولهم في الدنيا لأنها عميت عن المحسوس، و أيضا خسروا أنفسهم في الآخرة لأنهم اختاروا لها الكفر و العناد .. و جهنم مثوى و مأوى لكل كفار عنيد.

قُلْ أَ فَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ. جاء في بعض الروايات:

ان المشركين قالوا لرسول اللّه (ص): نعطيك من المال ما تكون به أغنى رجل

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٣٠

في مكة، و نزوجك من نسائنا ما تريد شريطة أن تكف عن دعوتك، فنزلت هذه الآية، و سواء أصحت الرواية أم لم تصح فإنها أوضح تفسير للآية. و من المفيد أن نقتطف الجمل التالية من مقال للمرحوم مصطفى صادق الرافعي بعنوان

«الدرهم و الدينار»:

«رأيت فقهاء يعظون و يتكلمون على الناس في الحلال و الحرام .. و تسخر منهم الحقيقة بذات الأسلوب الذي تسخر به من لص يعظ لصا آخر، و يقول له:

لا تسرق» .. و أيضا ينطبق هذا على كثير من الصحفيين و السياسيين و غيرهم من الأحزاب التي تحمل شعارات وطنية و انسانية .. ثم قال الرافعي: «من يعظم الدرهم و الدينار فإنما يعظم النفاق و الطمع و الكذب .. ان هيبة الإسلام في بذل الحياة لا في الحرص عليها، و في تعاون المؤمنين لا في تعاديهم، أما الغنى فإنه يقاس بما يعمل بالمال لا بما يجمع منه».

وَ لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ. المراد بالإحباط عدم الثواب. و الشرك محال على الأنبياء، و لكن فرض المحال ليس بمحال، هذا الى أن التحذير من الفعل لا يدل على أنه محتمل الوقوع ممن حذّر و أنذر، و المعنى ان اللّه لا يقبل العبادة من أحد إلا إذا كانت خالصة لوجهه الكريم من كل شائبة، و من عبد مع اللّه إلها آخر فلا يستحق الثواب على عبادته حتى و لو كان كالنبي في عبادته. و تكلّمنا عن الإحباط مفصلا في ج ١ ص ٣٢٦.

بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ. هذا أمر في الظاهر، و إخبار في الواقع عن ان الرسول الأعظم (ص) لا يعبد إلا اللّه، و لا يشكر أحدا سواه، و إنما جاء بصيغة الأمر للتنبيه على ان العبادة و الشكر يجب أن يكونا للّه الواحد الأحد .. هذا، الى ان اللّه سبحانه كثيرا ما يخاطب العموم بشخص نبيه الكريم:

وَ أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً .. فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ .. وَ أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ الخ.

وَ ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ لأنهم كفروا به، و آمنوا بالأصنام و بالدرهم و الدينار **وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ السَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ**. هذا

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٤٣١

كناية عن عظمة اللّه و قدرته و ان السموات و الأرض و ما فيهن و بينهن خاضعات لأمره مذعنات **سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ**. تنزه سبحانه عن الشريك، و عن مقالة من قال: ان له يدا و يمينا، و عن كل شبه يتوهمه الواصفون الجاهلون.

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٦٨ الى ٧٢]

وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ (٦٨) وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها وَ وُضِعَ الْكِتابُ وَ جِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَ الشُّهَداءِ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ (٧٠) وَ سِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا بَلى وَ لكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢)

اللغة:

الصور القرن ينفخ فيه. و بنور ربها بعدله تعالى. و وضع الكتاب أي كتاب أعمال العباد. و السّوق الحث على السير. و زمر جمع زمرة و هي الجماعة. و المثوى المقام.

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۴۳۲

الإعراب:

زمرا حال من الذين كفروا. و خالدين حال من واو ادخلوا.

المعنى:

وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شاءَ اللهُ.

النفخ في الصور كناية عن الصيحة، قال تعالى: يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ- ٤٢ ق. و في بعض التفاسير ان هذه الصيحة أو هذا النفخ يتكرر ثلاث مرات: الأولى نفخة الفزع التي ذكرت في الآية ٨٧ من سورة النمل: وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شاءَ اللهُ و هم المتقون الذين سبقت لهم من اللّه الحسنى.

النفخة الثانية نفخة الموت، و اليها أشار سبحانه بقوله: **وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شاءَ اللهُ** أي ان أهل الأرض يموتون و أهل السماء لا يبقون إلا من استثناه سبحانه بقوله: **إِلاَّ مَنْ شاءَ اللهُ** و اختلف المفسرون في المستثنى من هو؟ فقيل: هو جبريل و معه إسرافيل. و قال آخر: المراد به الشهداء. و قال ثالث: هو اللّه- نستغفره و نتوب اليه- و غير بعيد أن لا يكون هذا استثناء حقيقيا بل لمجرد البيان ان الأمر للّه وحده و ان كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ وَ يَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ- ٢٦ الرحمن.

النفخة الثالثة للبعث، و اليها أشار تعالى بقوله: **ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ** أي ينتظرون حكم اللّه فيهم. و في نهج البلاغة: و ينفخ في الصور فتزهق كل مهجة، و تبكم كل لهجة، و لا شفيع يشفع، و لا حميم يدفع، و لا معذرة تنفع.

وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها). المراد بالأرض هنا أرض المحشر، و هي مشرقة بنور اللّه تعالى لأنها طاهرة مطهرة من شتى أنواع الضلال و الفساد .. و لا شيء فيها إلا الحق و العدل (و وضع الكتاب) أي صحائف الأعمال: وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً- ١٣ الإسراء. و قال الملا صدرا في كتاب الأسفار: «من فعل فعلا أو قال قولا ظهر أثره في نفسه و قلبه- ثم قال-

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۴۳۳

و هذا الأثر الحاصل في القلب و الروح هو بمنزلة النقش و الكتابة الحاصلة في الكتب و الألواح، و تلك القلوب و الأرواح التي فيها آثار الأفعال و الأقوال يقال لها في لسان الشريعة صحائف الأعمال».

وَ جِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَ الشُّهَداءِ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ. المراد بالشهداء هنا النواب عن الأنبياء في تبليغ رسالتهم و سنتهم الى الناس، و المعنى أن اللّه يحشر العباد غدا لنقاش الحساب، و يأتي بالنبيين، فيشهدون على نوابهم انهم قد أخذوا عليهم أن يعلّموا و يبلغوا الناس، ثم يشهد هؤلاء النواب على الناس انهم علموهم و بلغوهم على أكمل وجه، و بعد قيام الحجة على النواب بشهادة الأنبياء، و على الناس بشهادة النواب يحكم اللّه بالعدل بين الجميع لا ينقص من ثواب من أطاع، و لا يزيد في عقاب من عصى، و هو أعلم بهما من أنفسهما و من النبيين و الشهداء، و انما دعاهم للشهادة لإلزام الحجة و قطع المعذرة. انظر تفسير الآية

١٤٣ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٢٥.

وَ سِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها. ذكر سبحانه في كتابه ألوانا من عذاب المجرمين، منها الذل و الهوان، و منها العمى و سواد الوجوه، و منها الأغلال و الأصفاد و سرابيل القطران و طعام الزقوم و شراب الحميم، و منها أن تسوقهم بعنف ملائكة العذاب فوجا بعد فوج ليكونوا لجهنم حطبا، و انها معهم على ميعاد، و لذا يجدونها مفتحة الأبواب **وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا؟** القصد من هذا السؤال التقريع و التوبيخ: و انهم هم الذين اختاروا لأنفسهم سوء المصير.

قالُوا بَلى وَ لكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ. و مثله: وَ قالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ- ١١ الملك. **قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ** على الحق و الخارجين على العدل، و لو لم يكن من دليل على جهنم إلا أنها أعدت للمتكبرين و الطاغين و أهل الفساد و الضلال- لو لم يكن إلا هذا الدليل لكفى، قال تعالى: إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ- ١٤٥

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٤٣٤

النساء و قال: إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً لِلطَّاغِينَ مَآباً لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً- ٢٣ النبأ. و قلنا فيما سبق لو لم يكن للّه محكمة في اليوم الآخر تقتص من الظالم للمظلوم لكان المقتول ظلما أسوأ حالا من قاتله. انظر تفسير الآية ٤ من سورة يونس ج ٤ ص ١٣٢ فقرة «الحساب و الجزاء حتم».

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٧٣ الى ٧٥]

وَ سِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها وَ فُتِحَتْ أَبْوابُها وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ (٧٣) وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (٧٤) وَ تَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ قِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (٧٥)

اللغة:

زمرا جماعات. و حافين محدقين به دائرين حوله.

الإعراب:

زمرا حال. و جواب إذا محذوف أي إذا جاءوها اطمأنوا. و فتحت الواو للحال أي و قد فتحت. و سلام عليكم مبتدأ و خبر و الجملة مفعول قال. و خالدين حال. و الملائكة مفعول ترى البصرية. و حافين حال من الملائكة.

المعنى:

وَ سِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها وَ فُتِحَتْ أَبْوابُها وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٤٣٥

المجرمون إلى جهنم، و ملائكة العذاب يسوقونهم اليها عنفا، و يسومونهم خسفا، و المتقون إلى الجنة يحف بهم ملائكة الرحمة تعظيما، و يحيونهم تكريما **وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ.** ضمير قالوا يعود إلى المؤمنين، و المراد بالأرض هنا أرض الجنة، و انهم يتصرفون فيها تصرّف الوارث فيما ورثه .. و كانوا قد عملوا للجنة في الدنيا ثقة و ايمانا بما وعد اللّه به المتقين و الصابرين، فلما

رأوها فرحوا و حمدوا اللّه حمد العارفين بأن وعده حق و صدق. و في نهج البلاغة: حفت الملائكة بأهل الجنة، و تنزلت عليهم السكينة، و فتحت لهم أبواب السماء، و أعدت مقامات الكرامات في مقام اطلع اللّه عليهم فيه فرضي سعيهم و حمد مقامهم.

(وَ تَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ). عند تفسير الآية ٥٤ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٣٩ بيّنا ان المراد من العرش- بشهادة القرآن- ان الأمر كله للّه، و المعنى المراد هنا ان الملائكة لا يصدرون إلا عن أمر اللّه، كما جاء وصفهم في الآية ٢٦ من سورة الأنبياء: بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ. وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ ضمير بينهم يعود إلى أهل الجنة و النار، و بالحق أي لا يزيد في عقاب من عصى، و لا ينقص من ثواب من أطاع. و في بعض التفاسير: ان اللّه قال في ابتداء الخلق: الحمد للّه الذي خلق السموات و الأرض، و بعد فناء الخلق ثم بعثهم و استقرار أهل الجنة في الجنة، قال: الحمد للّه رب العالمين، ليعلّم عباده الأخذ بأدبه في ابتداء كل أمر بالحمد و الختم به.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٤٣٦

سورة غافر

٨٥ آية مكية، و قيل: ما عدا آيتين، و تسمى أيضا المؤمن.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

[سورة غافر (٤٠): الآيات ١ الى ٦]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غافِرِ الذَّنْبِ وَ قابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ (٤)

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ الْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ هَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَ جادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ (٥) وَ كَذٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ (٦)

اللغة:

التوب و التوبة كلاهما مصدر تاب. و ذي الطول ذي الفضل. و تقلبهم في البلاد تصرفهم فيها بالذهاب و الإياب للتجارة و نحوها. ليدحضوا ليبطلوا. و حقت وجبت.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٤٣٧

الإعراب:

تنزيل خبر لمبتدأ محذوف أي هذا تنزيل. و العزيز و ما بعده صفات للّه تعالى.

و المصدر من ليأخذوه متعلق بهمت. و من ليدحضوا بجادلوا. و من انهم أصحاب النار بدل من كلمة، و يجوز جره بلام محذوفة أي لأنهم من أصحاب النار.

المعنى:

(حم) تقدم الكلام على مثله في أول سورة البقرة **تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ** لأنه ميزان الحق و العدل، و نور يهدي من ظلمة الضلال و الجهل **الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غافِرِ الذَّنْبِ وَ قابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ ذِي الطَّوْلِ**. كل وصف من هذه الصفات له صلة و تأثير في الكون و الإنسان و مصيره، فخلق الكون لا بد له من علم الخالق و قدرته، و من هنا جاء الوصف بالعزيز العليم، و العزيز هو القادر الغالب ..

و الذنب و التوبة من فعل الإنسان، أما قبول هذه و الغفران عن ذاك فمن اللّه، و هو سبحانه يغفر بالتوبة أو بطاعة جلّى تمحو الذنب لأن الحسنات يذهبن السيئات و أيضا هو شديد العقاب لمن أصر على التمرد و العصيان، و هو صاحب الفضل لأنه يعطي من سأله و من لم يسأله، و يضاعف لمن أحسن أضعافا كثيرة.

لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ تفرد بوصف التوحيد و علم الغيب، و القدرة على كل شيء .. و جميع المذنبين في فاقة إلى عفوه و رحمته (اليه المصير) لا مفر من لقائه و حسابه و جزائه، و طوبى لمن لا يرى مستحقا لهذه الصفات إلا اللّه و لا يخاف أحدا سواه.

ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بالحق و العدل، و لا يؤمنون إلا بأهوائهم و مصالحهم، و مع هذا ينتحلون لأنفسهم الأعذار، و يدّعون انهم المحقون، فيجادلون في القرآن، و يقولون: انه أساطير، و ان التوحيد تضليل، و البعث حديث خرافة .. و دليلهم الأول و الأخير تقاليد الآباء و وحي المصالح و الأهواء.

(فلا يغررك- يا محمد- تقلبهم في البلاد) للتجارة و ذهابهم إلى الشام في رحلة الصيف، و لا إلى اليمن في رحلة الشتاء، لا يغررك هذا و ما اليه فإن نهايتهم

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٤٣٨

الويل و الثبور: إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ- ١٧٨ آل عمران ج ٢ ص ٢٠٨.

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ الْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ هَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَ جادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ. المراد بالأحزاب هنا كل قوم تحزبوا ضد الحق و أهله، و المعنى ان معركتك يا محمد مع المشركين ليست معركة شخصية، و انما هي صراع بين الحق و الباطل، و الكفر و الايمان، سنّة اللّه في السلف و الخلف، فقد كذبت الأمم الأنبياء و المصلحين، و جادلتهم بالجهل و العناد، و حاولت كل أمة أن تقتل نبيها و منذرها، تماما كما تآمرت قريش على قتلك، و أنت نائم في فراشك. أنظر ج ٣ ص ٤٧٢.

فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ؟ كان شديدا و مدمرا **وَ كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ**. هذا تحذير و إنذار لقريش إن أصروا على الكفر و الضلال أن يصيبهم ما أصاب قوم نوح و عاد و ثمود .. و تخويف من لا يخاف اللّه لا يجدي نفعا إلا قيام الحجة و قطع المعذرة.

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٧ الى ١٠]

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَ قِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَ قِهِمُ السَّيِّئاتِ وَ مَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنادَوْنَ لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠)

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۴۳۹

الإعراب:

و من حوله عطف على الذين يحملون. رحمة و علما تمييز محول عن فاعل أي وسعت رحمته و علمه. و من صلح «من» مفعول لفعل محذوف أي و ادخل من صلح. و اللام في لمقت في جواب قسم محذوف أي و اللّه لمقت. و أنفسكم مفعول مقتكم. و إذ في محل نصب بفعل محذوف أي مقتكم اللّه إذ تدعون.

المعنى:

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ. عند تفسير قوله تعالى: ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى الْعَرْشِ- ٥٤ الأعراف قلنا: ان المراد بالعرش الملك و الاستيلاء و التدبير، و عند تفسير: وَ تَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ- ٧٥ الزمر قلنا هذا كناية عن ان الملائكة لا يسبقون اللّه بالقول و بأمره يعملون، و نحن على ثقة ان اللفظ- بقرينة السياق- يتحمل هذا التفسير، أما سياق الآية التي نحن بصددها و الآية ١٧ من سورة الحاقة: وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ أما سياق هاتين الآيتين فيحتم علينا أن نبحث للعرش عن معنى آخر لمكان يحمل و يحملون مع العلم بأن حمل الملائكة لعرشه تعالى لا يستدعي ان يكون جالسا عليه، و إلا كان جسما يفتقر إلى حيز، و اللّه غني عن كل شيء .. هذا، إلى ان جلوسه تعالى على العرش معناه انه في مكان دون مكان.

و تسأل: إذا لم يكن اللّه جالسا على العرش فلما ذا نسب اليه في قوله: «عرش ربك»؟

الجواب: ان مسألة النسبة سهلة جدا حيث تصح لأدنى ملابسة كما هي الحال في تسمية الشوارع بأسماء أشخاص لا يعرفون عنها شيئا، فكيف بخالق الكون؟

و كل المعابد في شرق الأرض و غربها فضلا عن الكعبة المشرفة- تنسب اليه تعالى، و يقال لها بيوت اللّه، فهل معنى هذا انه يقيم فيها؟ و عليه من الجائز أن يكون سبحانه خلق في السماء عرشا يحمله ثمانية من الكائنات السماوية، و قد أمر سائر الملائكة أن تطوف من حوله تماما كما أمر خليله ابراهيم أن يبني البيت العتيق و أوجب

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۴۴۰

زيارته و الطواف من حوله على من استطاع اليه سبيلا.

و مهما يكن فإن الملائكة يؤمنون باللّه، و يسبحون بحمده **وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَ قِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ.** للمؤمنين المخلصين ألوان من الثواب عند اللّه، منها جنة تجري من تحتها الأنهار، و منها انهم رفقاء النبيين و الصديقين، و منها ان ملائكة السماء تثني عليهم أحسن الثناء، و تدعو اللّه لهم بعلو الدرجات عنده، و الوقاية من غضبه و عذابه.

رَبَّنا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

دعا الملائكة اللّه سبحانه أن يجمع غدا في جنانه بين أفراد الأسرة المؤمنة تماما كما كانوا في الدنيا ليزدادوا سرورا على سرور ..

و قوله: «و من صلح» يشير إلى انقطاع الصلة بين المؤمن و الكافر حتى و لو كان أحدهما أبا للآخر: فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ- ١٠١ المؤمنون.

الأخلاّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ- ٦٧ الزخرف.

وَ قِهِمُ السَّيِّئاتِ وَ مَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. ادفع عنهم يوم القيامة كل سوء .. و ما من شك ان من نال هذه المنزلة عند اللّه فقد فاز بفضله و رحمته **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنادَوْنَ لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ**. يمقت أهل النار، و هم فيها، يمقتون أنفسهم و يزرون عليها حيث أدت بهم إلى هذا المصير، و كانوا في الدنيا أطوع الناس لها و أكثرهم رضى عنها .. و يأتيهم النداء و هم يلعنون أنفسهم: ان مقت اللّه لكم في الدنيا على كفركم أشد و أعظم من مقتكم الآن لأنفسهم، فقد دعاكم سبحانه بلسان رسله إلى الايمان فأبيتم إلا كفورا، فذوقوا و ما للظالمين من نصير.

[سورة غافر (٤٠): الآيات ١١ الى ١٧]

قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (١١) ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَ إِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آياتِهِ وَ يُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً وَ ما يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَنْ يُنِيبُ (١٣) فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (١٤) رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ (١٥)

يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (١٧)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٤١

الإعراب:

اثنتين صفة لمفعول مطلق محذوف أي إماتتين اثنتين و إحياءتين اثنتين. و ذلكم مبتدأ، و بأنه متعلق بمحذوف خبرا. وحده مصدر في موضع الحال من اللّه.

و مخلصين حال من فاعل فادعوا، و رفيع الدرجات خبر ثان لهو الذي يريكم.

و المصدر من لينذر متعلق بيلقي. و يوم هم «يوم» بدل من يوم التلاق و هم مبتدأ و بارزون خبر. و الملك فاعل فعل محذوف أي ثبت الملك. و للّه متعلق بمحذوف أي ثبت للّه. اليوم تجزى اليوم ظرف لتجزى. لا ظلم اليوم ظلم اسم لا و اليوم خبرها.

المعنى:

قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ. ضمير قالوا يعود إلى أهل النار، و الموتة الأولى قبل خروجهم من

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٤٢

بطون أمهاتهم، و الثانية الموت المعهود، أما حياتهم الأولى فهي حياتهم في الدنيا، و الثانية البعث بعد الموت، و المعنى ان أهل جهنم يتضرعون الى اللّه، و هم في قعرها معذبون، يتضرعون إليه تعالى و يقولون: إلهنا أنت القادر على كل شيء.

أوجدتنا في الدنيا، ثم أخرجتنا منها بالموت، ثم بعثتنا بعده، و نحن الآن بين يديك نادمين معترفين بالخطايا و الذنوب،

فهل من سبيل إلى منك و كرمك بالخروج من النار، و لك عهد الطاعة و الامتثال؟

ذٰلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذٰا دُعِيَ اللّٰهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَ إِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا هذا جواب اللّه سبحانه على قولهم: **فَهَلْ إِلىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ** و يتلخص الجواب بأن داعي اللّه دعاكم الى الحق، و أنتم في الحياة الدنيا، فكذبتموه، و دعاكم داعي الشيطان الى الباطل فأجبتموه .. و الآن تدعون فلا تجابون، واحدة بواحدة، و قوله تعالى: **فَالْحُكْمُ لِلّٰهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ** يومئ الى أنه لا حكم غدا إلا للّه وحده فلا عالي و لا كبير إلا هو: وَ عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَ قَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً- ١١١ طه.

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيٰاتِهِ وَ يُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمٰاءِ رِزْقاً وَ مٰا يَتَذَكَّرُ إِلاّٰ مَنْ يُنِيبُ.

أرانا سبحانه الكثير من الشواهد على وجوده و عظمته، و الدلائل على تدبيره و حكمته.

في السماء و الأرض، و في الإنسان و الحيوان، و في المطر و الزرع .. الى ما لا نهاية، و بديهة ان هذه الدلائل و الشواهد- على الرغم من كثرتها- لا تظهر إلا لمن أبصر و تدبر، أما تائه القلب فإنه في عمى عنها، قال طاغور:

ان اللّه أبرز وجوده في قالب حي من صور الخليقة، أبرزه في هذا التنسيق و الانسجام بين قوى الطبيعة المتصارعة في وحدة شاملة تخضع جميعها لقانون رتيب لا تحيد عنه، و في الوقت نفسه تهدف الى تحقيق غاية بعينها .. ان كل شيء في الطبيعة له وظيفة خاصة، و عمل معين، و هدف محدد يسعى اليه، فما الحبة إلا عامل يكد ليبرز الشجرة الكامنة في أعماقها، و الشجرة بدورها تكد لتصل الى الزهرة، و الزهرة تجاهد في سبيل الثمرة، و لا يدرك هذا إلا صاحب القلب السليم». و المراد بصاحب القلب السليم هو المراد بالذات من قوله تعالى: **وَ مٰا يَتَذَكَّرُ إِلاّٰ مَنْ يُنِيبُ فَادْعُوا اللّٰهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَ لَوْ كَرِهَ الْكٰافِرُونَ.**

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٤٣

الخطاب للمؤمنين، و المراد بالدعاء هنا العبادة، و بالدين الطاعة، و المعنى اعبدوا اللّه وحده، و أطيعوه في أمره و نهيه، و لا تأخذكم في ذلك لومة لائم، و قد سهل سبحانه لعباده سبل طاعته، حيث أرشدهم محذرا، و كلفهم يسيرا، و ما ترك عذرا لمتعلل (رفيع الدرجات). هذا كناية عن علوه تعالى و عظمته، و قيل: ان المراد بالدرجات هنا تفاوت العارفين باللّه في معرفتهم به قوة و ضعفا، ابتداء من معرفة الرجل العادي الى معرفة الفلاسفة و الأنبياء (ذو العرش) كناية عن الملك و الاستيلاء.

يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلىٰ مَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاٰقِ. المراد بالروح هنا الوحي، و بيوم التلاق يوم القيامة حيث يلتقي فيه كل انسان بجزاء عمله، و المراد بإنذار هذا اليوم الانذار بعذابه، و جاء التعبير بأنه هو المنذر للإشارة إلى شدة وقعه و هو له، و المعنى ان اللّه سبحانه ينزل الوحي على من يشاء من عباده لينذر الناس بأنهم يحشرون بعد الموت في شر يوم على الطغاة العصاة، و يسألون عما كانوا يعملون **يَوْمَ هُمْ بٰارِزُونَ** أي ظهروا للّه على حقيقتهم **لاٰ يَخْفىٰ عَلَى اللّٰهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ.** هذا بيان و تفسير لقوله تعالى: **يَوْمَ هُمْ بٰارِزُونَ.**

لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ يسألون يوم القيامة، و هم بارزون لفصل القضاء: لمن الأمر و الحكم؟ فيجيب سبحانه عنهم لأن الجواب متعين واقعا و حقيقة، أو هم يجيبونه بلسان الحال و المقال: **لِلّٰهِ الْوٰاحِدِ الْقَهّٰارِ** فوق عباده **الْيَوْمَ تُجْزىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمٰا كَسَبَتْ لاٰ ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللّٰهَ سَرِيعُ الْحِسٰابِ** واضح. و تقدم مثله بالنص في الآية ٥١ من سورة ابراهيم ج ٤ ص ٤٦٠.

[سورة غافر (٤٠): الآيات ١٨ الى ٢٢]

وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كاظِمِينَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَ لا شَفِيعٍ يُطاعُ (١٨) يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَ ما تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) وَ اللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠) أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ آثاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ ما كانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ (٢١) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ (٢٢)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٤٤

اللغة:

الآزفة القريبة الدانية لأن يوم القيامة آت، و كل آت قريب. و كاظمين محزونين. و حميم صديق. و خائنة الأعين هي التي تنظر ما لا يحل. و واق حافظ.

الإعراب:

يوم الآزفة مفعول به لأنذرهم. و إذ القلوب بدل من الآزفة. و كاظمين حال من القلوب. و ما للظالمين خبر مقدم. و من حميم «من» زائدة إعرابا و حميم مبتدأ، و جملة يطاع صفة لشفيع. هم ضمير فصل. و أشدّ خبر كانوا. و قوة تمييز.

المعنى:

وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كاظِمِينَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَ لا شَفِيعٍ يُطاعُ. الخطاب في أنذرهم لرسول اللّه (ص). و ضمير الغائب لمشركي العرب، و المعنى ما عليك يا محمد إلا أن تنذر المشركين عذاب يوم تذوب فيه القلوب و الأبصار هلعا و جزعا، حيث لا صديق يتوجع، و لا الشفاعة تنفع .. و هذا اليوم آت لا محالة.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٤٥

يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَ ما تُخْفِي الصُّدُورُ وَ اللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ. ما أضمر الإنسان شيئا، أو نظر اليه بخيانة و ريبة إلا و كان اللّه عليما بما أضمر و أبصر، و هو يقضي غدا بعلمه و عدله على كل خائن و مجرم قضاء لازما لا مرد له و لا اعتراض عليه **وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ.** المراد بالذين يدعون الخ .. كل ما عدا اللّه مما تعبده الناس صنما كان أو مالا أو جاها أو غير ذلك .. و بديهة انه لا قضاء في الآخرة إلا للّه. **إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ.** هذا تعبير ثان عن قوله تعالى: وَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً- ١٢ الطلاق.

أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ آثاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ ما كانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ. هذا تحذير من اللّه للمجرمين أن يكون مصيرهم مصير الذين من قبلهم، فقد كانوا أكثر منهم مالا و عددا، و لما نزل بهم العذاب لم يجدوا وليا و لا نصيرا. و تقدم مثله في الآية ١٠٩ من سورة يوسف و ٤٦ من سورة الحج و ٩ من سورة الروم و ٤٤ من سورة فاطر.

ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ. تقدم مرارا ان عاقبة الذين كذبوا بالرسل الخراب و الدمار. و لا فرق غدا في حكم اللّه و قضائه بين من كفر بالنبيين و بين من آمن بهم و خالف تعاليمهم و أطفأ سننهم و ان عوملوا في الحياة الدنيا معاملة المسلمين.

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٢٣ الى ٢٩]

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ (٢٣) إِلى فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ قارُونَ فَقالُوا ساحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ اسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ وَ ما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (٢٥) وَ قالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى وَ لْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ (٢٦) وَ قالَ مُوسى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ (٢٧)

وَ قالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَ تَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَ قَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَ إِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَ إِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جاءَنا قالَ فِرْعَوْنُ ما أُرِيكُمْ إِلاَّ ما أَرى وَ ما أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشادِ (٢٩)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٤٦

اللغة:

سلطان مبين حجة واضحة. و هامان وزير فرعون. و قارون أغنى الأغنياء في زمانه. و عذت لذت و تحصنت. و المسرف هنا من تجاوز الحد في معاصي اللّه.

و ظاهرين غالبين. و ما أريكم إلا ما أرى: ما أشير عليكم إلا بما أراه حقا و صوابا.

الإعراب:

و ليدع اللام للأمر. و المصدر من أن يبدل مفعول أخاف، و من أن يظهر معطوف على ان يبدل. ما أريكم «ما» نافية. و إلا ما أرى «ما» اسم موصول مفعولا ثانيا لأريكم.

المعنى:

تقدم الكلام عن موسى مرات و مرات، و كنا نشير عند الآية اللاحقة الى الآية

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٤٧

السابقة و اسم السورة و رقم الآية، و الآن عاد الحديث الى قصة موسى، و سيأتي أيضا .. و عند تفسير الآية ٩ من سورة طه ج ٥ ص ٢٠٦ فقرة «تكرار قصة موسى» بيّنا السبب الموجب لهذا التكرار، و الآن نعطف على ما بيّناه هناك انه من غير البعيد ان كل آية، و ان تكررت، فإنها تلقي أضواء جديدة قد خفيت علينا لأننا لم نتصدّ للبحث عنها، أو لأننا لا نملك الموهبة التي تؤهلنا لإدراكها، و مهما يكن فإن الجديد في هذه الآيات التي نحن الآن بصددها و التي بعدها هو الحديث عن مؤمن آل فرعون.

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ إِلى فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ قارُونَ. هامان وزير فرعون، و قارون أغنى رجل في عصره، و قيل: انه كان وزير المالية عند فرعون .. و اللّه سبحانه أرسل موسى لأهل زمانه كافة، و خص بالذكر هؤلاء الثلاثة لأنهم أصل الفساد و مصدر الضلال، و لو آمنوا لآمن الجميع **فَقالُوا ساحِرٌ كَذَّابٌ** تماما كما قال الذين من قبلهم و من بعدهم لمن جاءهم بالآيات و البينات.

فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ اسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ. أمر بقتل الذكور خوفا

منهم، و إبقاء الإناث للخدمة .. و تسأل:

لقد أصدر فرعون هذا الأمر من قبل أن يأتي موسى، فما هو القصد من هذا التكرار؟.

و أجاب بعض المفسرين بأن فرعون كان قد أمسك عن قتل الولدان بعد ولادة موسى، فلما بعث اللّه موسى رسولا عاد فرعون إلى ما كان .. و هذا يحتاج إلى اثبات. و غير بعيد أن يكون الأمر الثاني بالقتل استمرارا للأول، و انه لا يصح العدول عنه بحال.

وَ ما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ أي وَ لا يَحيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ- ٤٣ فاطر. **وَ قالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى وَ لْيَدْعُ رَبَّهُ**. يومئ هذا إلى ان بعض رجال فرعون أشاروا عليه أن لا يقتل موسى مخافة أن يثأر رب موسى من قاتله. قال فرعون: **إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ**. فرعون مصلح لأنه يقول: أنا ربكم الأعلى.

و ما علمت لكم من إله غيري .. و موسى مفسد لأنه يدعو الى تحرير الإنسان من

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٤٤٨

عبادة الإنسان .. و لا بدع فهذا هو بالذات منطق الجبابرة الطغاة في كل زمان و مكان.

وَ قالَ مُوسى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ.

تعوّذ موسى باللّه ممن جمع بين التكبر و عدم الخوف من اللّه و حسابه و عقابه لأن أرذل الخلق على الإطلاق من جمع بين هاتين الرذيلتين.

قالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَ تَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللّهُ وَ قَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ. ان الحق لا يخلو من ناصر، و لو بكلمة الإخلاص يجابه بها أهل الباطل و الضلال .. هذا رجل من قوم فرعون آمن باللّه عن صدق و يقين، و لكنه كتم إيمانه خوفا على نفسه من القتل، و لما أراد فرعون الشر بموسى دفعت به حرارة الايمان الخالص الى ان يحذر و يستنكر و لكن بأسلوب العالم العاقل و الناصح المشفق، و قال فيما قال: ما ذا جنى هذا الرجل حتى استحق منكم القتل؟ أ لأنه قال: ربي اللّه و معه الحجة القاطعة التي أفحمتكم و أعجزتكم كاليد البيضاء و العصا التي تلقف ما تأفكون؟.

و قال الشيخ المراغي في تفسيره ما نصه بالحرف: «الرجل المؤمن هو ابن عم فرعون و ولي عهده و صاحب شرطته، و هو الذي نجا مع موسى، و هو المراد بقوله تعالى: وَ جاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى- ٢٠ يس. و يلاحظ بأنه قد سبق من الشيخ المراغي ان قال و هو يفسر سورة يس: ان هذا الرجل الذي جاء من أقصى المدينة كان في عهد عيسى تماما كما قال غيره من المفسرين.

فمن الذي أحياه و جاء به إلى زمن عيسى و بينه و بين زمن موسى أكثر من ١٢٠٠ سنة على أقل التقادير التي ذهب اليها المؤرخون؟ .. و لكن العصمة لأهلها.

وَ إِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ. و ما عليكم من تبعته شيء **وَ إِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ** سواء أ قتلتموه أم تركتموه لشأنه. و قال المؤمن «بعض» الذي يعدكم و لم يقل «كل» لأن البعض كاف واف في الإهلاك **إِنَّ اللّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ**. زعمتم انه كاذب، فدعوه يلاقي من اللّه جزاء الكاذبين، و فيه إيماء الى ان هذا الوصف ينطبق على فرعون، و انه سيلاقي جزاء كذبه و إسرافه لا محالة.

يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٤٩

جاءَنا. ما زال الخطاب من المؤمن الصالح لقومه آل فرعون، و معناه:

أنتم الآن في أمن و أمان، و لكم الملك و الغلبة، و هذه نعمة امتن بها اللّه عليكم، فلا تعرضوها للزوال بقتلكم من قال: اللّه ربي .. و من الذي ينجينا من بأسه تعالى إذا جاءنا بياتا أو نهارا؟.

و الخلاصة ان مؤمن آل فرعون دافع عن موسى بالتي هي أحسن، و جادل أعداء اللّه بالحكمة و الموعظة الحسنة، فبرّأ أولا موسى من الذنب، ثم أمّن ثانيا أعداءه من خطره و ضرره، ثم ذكّرهم ثالثا بنعمة اللّه عليهم، و حذرهم أن يبدلوها كفرا .. و قد استطاع هذا الأسلوب الحكيم أن يثني الطاغية عن عزمه و تصميمه على قتل موسى حتى **قالَ فِرْعَوْنُ ما أُرِيكُمْ إِلاَّ ما أَرى وَ ما أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشادِ**. و هذا القول من فرعون يشبه الاعتذار مما كان قد عزم عليه من قتل موسى و الفضل في ذلك للمؤمن الناصح، و المعنى اني ما أشرت بقتل موسى إلا بعد التدبر و إمعان النظر، و ما أردت بذلك إلا خيركم و صلاحكم.

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٣٠ الى ٣٥]

وَ قالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ مَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ (٣١) وَ يا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ما لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عاصِمٍ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (٣٣) وَ لَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّناتِ فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ (٣٤)

الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ وَ عِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٥٠

اللغة:

دأب عادة. و يوم التناد هو يوم القيامة حيث ينادى فيه الناس كما في الآية ٤١ من سورة ق: يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ. و عاصم مانع. و المراد بالمرتاب الشاك في الحق. و الجبار يطلق على من يصلح الأمور و على الطاغية، و إذا وصف به ذو الجلال فمعناه العالي.

الإعراب:

مثل يوم الأحزاب «مثل» صفة لمفعول محذوف أي أخاف عليكم يوما مثل يوم الأحزاب. و مثل دأب بدل من مثل يوم الأحزاب. و يوم تولون بدل من يوم التناد. و مدبرين حال. و الذين يجادلون بدل من «من هو مسرف» لأن «من» هنا اسم موصول بمعنى الجمع. و كذلك يطبع أي مثل ذلك الطبع يطبع.

المعنى:

وَ قالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزابِ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ. المراد بالأحزاب الجماعات التي تكتلت و تحزبت ضد أنبيائها بدليل قوله: **مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ**

.. لما قال فرعون:

وَ ما أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشادِ قال المؤمن الناصح: و أنا أيضا ما قلت لكم الذي قلته إلا خوفا أن يصيبكم ما أصاب الأولين من الهلاك حين كذبوا أنبياءهم وَ مَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ و لكن كانوا أنفسهم يظلمون بتكذيب الرسل و التمرد على أمر اللّه و نهيه.

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۴۵۱

و بعد أن حذرهم المؤمن عذاب الدنيا حذرهم عذاب الآخرة بقوله: وَ يا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ أي عذاب يوم القيامة حيث تسمعون الصيحة بالحق، فتخرجون من القبور الى الحساب و الجزاء يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ تحاولون الهرب من عذاب الحريق، و لكن هيهات ما لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عاصِمٍ كيف و هو الغالب على أمره لا يرده شيء، و لا ينازعه شيء وَ مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ أي من يسلك طريق الضلال فإن اللّه يضله، و لا يجد من يهديه تماما كمن يشرب السم فإن اللّه يميته و لا يجد من يحييه أو يشفيه.

وَ لَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّناتِ فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ. هذا على حذف مضاف أي جاء آباءكم أيها المصريون، فشكوا في نبوة يوسف، فكذلك أنتم شككتم في نبوة موسى. و في قاموس الكتاب المقدس ان يوسف معناه في العبرية يزيد، و ان امه أسمته بهذا الاسم ليزيدها ابنا آخر، و انه مات و هو ابن ١١٠ سنين حَتَّى إِذا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً. و يومئ هذا الى انهم فرحوا بموت يوسف لأنهم تحرروا من التكاليف الإلهية، و قالوا من غير علم بل بدافع من الشهوات و الأهواء: ان اللّه لن يرسل رسولا بعد يوسف الى يوم يبعثون.

كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ في اللّه و الحق .. و أضل اللّه المسرف المرتاب لأنه خرج من الهدى و ارتكس بسوء اختياره في الضلالة و العمى الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ. المراد بالذين يجادلون الخ المسرفون المرتابون، و آيات اللّه دلائله على وحدانيته و نبوة أنبيائه، و السلطان الحجة، و المعنى ان المجرمين يردون حجج اللّه القاطعة بالرغبات و الأهواء و تقليد الآباء.

كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ وَ عِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا أن يجادل المجرمون بغير علم و لا هدى و لا كتاب منير. كَذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ. كل من التكبر و التجبر هو بالذات سبب من أسباب الختم على القلب، و انما أسند ذلك اليه تعالى لأنه هو الذي جعل التكبر سببا لعمى القلب تماما كما جعل الجهل سببا للحيرة و البعد عن الحق، و جعل الدرس و البحث سببا للعلم و الوعي.

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۴۵۲

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٣٦ الى ٤٠]

وَ قالَ فِرْعَوْنُ يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ (٣٦) أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً وَ كَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَ صُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَ ما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبابٍ (٣٧) وَ قالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ (٣٨) يا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وَ إِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى إِلاَّ مِثْلَها وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ (٤٠)

اللغة:

الصرح البناء العالي. و الأسباب جمع سبب و هو الذي يكون وسيلة إلى غيره.

و تباب خسران و هلاك.

الإعراب:

أسباب السموات بدل من الأسباب. فاطلع بالنصب جوابا للترجي الذي يشبه الطلب. و الحياة الدنيا عطف بيان من هذه. و هي ضمير الفصل، و جملة و هو مؤمن حال من «من عمل صالحا».

المعنى:

وَ قالَ فِرْعَوْنُ يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ أَسْبابَ السَّماواتِ

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٥٣

فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً. طلب فرعون من وزيره هامان أن يبني له برجا عاليا يصعد به إلى السماء ليبحث فيها عن اللّه، و يتأكد من قول موسى .. طلب هذا، و هو على يقين انه أعجز و أحقر، و لكنه أيضا على يقين ان في مملكته قاصري العقل و الوعي يصدقونه فيما يقول، و لذا موّه و دلّس، و ليس قوله هذا بأعظم من قوله: أنا ربكم الأعلى .. و ما كان ليجرأ على مثله لولا أن يجد من يقول له: أجل، إنك أنت العلي الكبير! .. و نحن الآن في القرن العشرين و عصر الفضاء و القمر، و مع هذا وجد الدالاي لاما من يقول له:

أنت إله .. و وجد آغا خان من يقول له: أنت نصف إله، «و في كل قطر كعبة و إمام».

وَ كَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَ صُدَّ عَنِ السَّبِيلِ. أمران يزينان للإنسان سوء أعماله: اتباع الهوى، و الإصرار على الجهل، و قد زيّن الهوى لفرعون أن يدّعي الربوبية فادّعاها، و زيّن الجهل طاعة فرعون فأطاعوه **وَ ما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبابٍ** أي في خسران .. و كل من حاول أو يحاول أن يخدع الناس و يمكر بهم و يكيد لهم فهو خاسر و ان كان له ملك فرعون و مال قارون.

وَ قالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ. حذر المؤمن الناصح قومه أولا و ثانيا، و هذه هي المرة الثالثة، و فيها يرغب إلى قومه أن يقبلوا منه النصيحة لأنه يريد لهم النجاة و الخير، أما غيره فيقودهم الى الشر و الهلاك **يا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وَ إِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ**. متاع الحياة الدنيا زائل بائد، ما في ذلك ريب، أما الحياة الآخرة فباقية دائمة، فأي الحياتين أولى بالعمل لها؟ و في نهج البلاغة: ما يصنع بالدنيا من خلق للآخرة؟ و ما يصنع بالمال من عما قليل يسلبه، و تبقى عليه تبعته و حسابه؟ و فيه أيضا: مرارة الدنيا حلاوة الآخرة، و حلاوة الآخرة مرارة الدنيا.

مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى إِلاَّ مِثْلَها وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ. اللّه عادل و كريم، و يتجلى عدله في عقوبة المسيء، فإنها عند اللّه تساوي سيئته جزاء وفاقا. و قد

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٥٤

تنقص العقوبة رأفة منه تعالى و رحمة، أما المحسن فيضاعف له الجزاء أضعافا كثيرة و بغير حساب ذكرا كان أو أنثى، و كفى بالجنة ثوابا و نوالا، و تدل الآية بوضوح على ان الجنة وقف خاص على من آمن باللّه و اليوم الآخر إيمانا لا يشوبه ريب، أما من يفعل الخير لوجه الخير، و هو كافر باللّه و اليوم الآخر، أما هذا فجزاؤه في غير الجنة لأنها محرمة

على الكافرين. انظر ج ٢ ص ٢١١ فقرة «الكافر و عمل الخير». و في بعض الروايات ان رسول اللّه (ص) قال: ما أحسن محسن مسلم أو كافر إلا أثابه اللّه. فقيل يا رسول اللّه ما إثابة الكافر؟ قال:

المال و الولد و الصحة و أشباه ذلك. قيل: فما اثابته في الآخرة؟ قال: يعذب عذابا دون عذاب.

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٤١ الى ٤٦]

وَ يا قَوْمِ ما لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجاةِ وَ تَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَ أُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَ أَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لا جَرَمَ أَنَّما تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيا وَ لا فِي الْآخِرَةِ وَ أَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللهِ وَ أَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ وَ أُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (٤٤) فَوَقاهُ اللهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا وَ حاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ (٤٥)

النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَ عَشِيًّا وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ (٤٦)

اللغة:

مردنا مرجعنا. و حاق به أحاط و نزل به. غدوا و عشيا صباحا و مساء.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٤٥٥

الإعراب:

جرم اسم لا مبني معها على الفتح، و المعنى لا محالة، و المصدر من ان ما تدعونني مجرور بحرف جر محذوف متعلق بمحذوف و هو خبر لا. و هم أصحاب النار «هم» ضمير فصل. و النار بدل من سوء العذاب. و أدخلوا ان كان أمرا للملائكة فآل فرعون مفعول ادخلوا، و ان كان أمرا لآل فرعون فآل فرعون منادى، و في الحالين أشد العذاب منصوب بنزع الخافض أي في أشد العذاب مثل دخلت الدار أي في الدار.

المعنى:

وَ يا قَوْمِ ما لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجاةِ وَ تَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَ أُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَ أَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ. هذا الكلام و ما بعده الى آخر **إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ** يحكيه سبحانه عن المؤمن الناصح، و المعنى أخبروني أيها المشركون عن حالي معكم: أنا أدعوكم الى الخير الذي فيه خلاصكم من العذاب و الهلاك، و هو الايمان باللّه العزيز الذي ليس كمثله شيء، و الغفار لمن تاب اليه و أناب، و أنتم تدعونني الى عذاب الحريق، الى الشرك الذي لا يغفره اللّه، و لا يقره العقل، و لا يدين به إلا من ضل عن سواء السبيل.

لا جَرَمَ أَنَّما تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيا وَ لا فِي الْآخِرَةِ. ليس من شك ان الذي تدعونني الى عبادته كفرعون أو غيره لا شأن له و لا فائدة منه في الدنيا و لا في الآخرة: إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا ما اسْتَجابُوا لَكُمْ وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ- ١٤ فاطر .. **وَ أَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللهِ.**

كل الخلائق ترجع غدا الى اللّه تعالى، لا الى فرعون و لا الى سواه، و يقفون بين يديه تعالى للحساب و الجزاء **وَ أَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ.** نقل الطبري و الرازي عن مجاهد ان المراد بالمسرفين هنا سفاكو الدماء بغير حقها.

فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ من الصدق و النصح حين ترون العذاب و تنزل بكم الأهوال **وَ أُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ.** قال محيي الدين بن عربي

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۴۵۶

في الفتوحات المكية ما توضيحه: ان أفوّض هنا مأخوذة من فاض الإناء إذا امتلأ، و لم يتسع للمزيد .. و إذا حمّل المؤمن أكثر مما في وسعه رجع في الزائد الفائض الى اللّه تعالى، فيتلقى سبحانه الزائد من المؤمن و يخفف عنه، و هو جل و عز العليم البصير بمن آمن به و توكل عليه، و من يلتجئ في المهمات الى غيره.

فَوَقاهُ اللهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا وَ حاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ. أضمر فرعون السوء لموسى و المؤمن الناصح، فأنجاهما اللّه من كيده، و أغرق فرعون و ملأه في اليم .. و هكذا يصرف سبحانه السوء عن المخلصين، و تدور دائرته على رؤوس المجرمين. هذا قبل الموت، أما بعد الموت فلهم **النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَ عَشِيًّا**. و في رواية عن الإمام جعفر الصادق: ان ذلك بعد الموت و قبل يوم القيامة لأن هذا اليوم لا غدو فيه و لا عشي، و لو عذب المجرمون في الغدو و العشي فقط لكانوا بين ذلك من السعداء.

وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ. كل مجرم يقال له يوم القيامة: ادخل جهنم و ساءت مصيرا، سواء أ كان من آل فرعون أم من غيرهم: و إنما خص سبحانه آل فرعون بالذكر لأن الحديث عنهم.

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٤٧ الى ٥٥]

وَ إِذْ يَتَحاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ (٤٧) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيها إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ (٤٨) وَ قالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذابِ (٤٩) قالُوا أَ وَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا بَلى قالُوا فَادْعُوا وَ ما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (٥٠) إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ (٥١)

يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢) وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْهُدى وَ أَوْرَثْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ (٥٣) هُدىً وَ ذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (٥٤) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكارِ (٥٥)

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۴۵۷

اللغة:

المراد بالضعفاء هنا الأتباع المرءوسون. و بالذين استكبروا الرؤساء المتبوعون.

و مغنون دافعون. و نصيبا قسطا. و الاشهاد جمع شاهد، و يوم الاشهاد هو يوم القيامة حيث يؤتى بشهود الحق لمن أطاع و على من عصى.

الإعراب:

تبعا خبر كنّا و هو مصدر في موضع اسم الفاعل أي تابعين. و نصيبا مفعول مطلق ل «مغنون» لأنه بمعنى شيء فيعرب اعرابه، و نحوه قوله تعالى: فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً- ٢٥ التوبة. و كل مبتدأ و فيها خبر. و الجملة خبر انّا. و مفعول يخفف محذوف و يوما منصوب على الظرفية أي يخفف عنا شيئا من العذاب في يوم من الأيام. و اسم تك ضمير مستتر يعود الى القصة، و تأتيكم رسلكم تفسير للقصة.

و يوم لا ينفع بدل من يوم الاشهاد. و هدى و ذكرى مفعول من أجله لأورثنا أي أورثناهم الكتاب لأجل الهداية و

التذكير، أو هما مصدران في موضع الحال من الكتاب أي هاديا و مذكرا.

المعنى:

تقدمت هذه الآيات باللفظ أو بالمعنى، لذا نفسرها تفسيرا سريعا، و نشير الى سورة الآية و رقمها.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٤٥٨

(و إذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء- أي التابعون- للذين استكبروا- أي المتبوعون- انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار)؟

الإنسان في الآخرة مع من أحب في الدنيا و أطاع، فمن تبع الهداة في هذه الدار فهو معهم في نعيم الجنان، و يشكرهم على هدايته الى سبيل السلامة و النجاة، أما من أسلس قياده للطغاة فإنه يلعنهم غدا، و يقول لهم: أنتم السبب في شقائي، فهل تخففون عني بعض ما أقاسيه من العذاب؟. و تقدم مثله في الآية ٢١ من سورة ابراهيم ج ٤ ص ٤٣٤.

قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيها إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ. و يجيب المتبوعون من سمع لهم و أطاع: لا جدال اليوم و لا كلام، فقد حكم اللّه على كل نفس بما كسبت، و قضى علينا و على من اتبعنا بعذاب الجحيم **وَ قالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذابِ**. قاسوا عذاب جهنم على سجن الدنيا، حيث يسمح للمسجونين فيه أن يستروحوا ساعة خارج السجن، و من ثم طلبوا ان يعاملوا في النار كما يعامل المسجون في الدنيا.

قالُوا أَ وَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا بَلى قالُوا فَادْعُوا وَ ما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ. أجابهم الخزنة: ان اللّه قد أعذر إليكم على لسان رسله باعترافكم، اذن، فلا لوم إذا لم يستجب لدعائكم، و لوموا أنفسكم ان كنتم تعقلون. و تقدم مثله في الآية ٧١ من سورة الزمر، و بصورة أوسع في الآية ٥٠ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٣٥.

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ. يوم الاشهاد هو يوم القيامة حيث يشهد على المجرمين الكرام الكاتبون و العلماء المبلغون و أعضاء المجرم و جوارحه: حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ- ٢٠ فصلت. و تدل الآية بوضوح ان اللّه ينصر الأنبياء و المؤمنين المخلصين في الدنيا و الآخرة، و النصر في الآخرة واضح، أما النصر في الدنيا فله صور و مظاهر، فقد يكون بالقهر و الغلبة على الأعداء، و قد يكون بانتشار العقيدة و المبدأ، و علو الشأن و جميل الذكر مدى الأجيال، فإن بعض شهداء الفضيلة صارت قبورهم كعبة يحج اليها الملايين، و التاريخ متخم

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٤٥٩

بالشواهد على ذلك، و تقدم مثله في الآية ٣٨ من سورة الحج ج ٥ ص ٣٣١ فقرة لا يخلو المؤمن من ناصر.

يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ حيث لا حميم يدفع و لا معذرة تنفع العصاة لأن اللّه سبحانه قطع عليهم جميع الأعذار، و السعيد من استغنى عن الاعتذار بصالح الأعمال **وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْهُدى وَ أَوْرَثْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ هُدىً وَ ذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ**. المراد هنا بالهدى المعجزات الدالة على نبوة موسى، و ما أوحى اللّه به اليه من حلاله و حرامه، و المراد بالكتاب التوراة الصادقة .. بعد أن ذكر سبحانه انه ينصر الرسل و المؤمنين أشار الى موسى و من أخلص من بني إسرائيل لأنه نصرهم على فرعون و قومه.

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ. الخطاب لمحمد (ص) يأمره اللّه فيه أن يصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، و يشير الى وعده تعالى الذي صرحت به الآية ٣٣ من سورة التوبة: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ

كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ. و ليس لما وعد اللّه مترك (و استغفر لذنبك).

و الأمر بالاستغفار من الذنب لا يستدعي وجوده، فقد سأل النبي ربه أن يحكم بالحق مع العلم انه لا يحكم إلا به: قالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ- ١١٢ الأنبياء.

و تسأل: اذن، ما الفائدة من الأمر بالاستغفار من الذنب؟

الجواب: لا شيء سوى العبادة تماما كالأمر بالتهليل و التكبير و التسبيح وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكارِ. العشي من الزوال الى الليل، و الأبكار من الفجر الى الضحى .. هذا، الى أن أمر النبي بالاستغفار من الذنب مع عدم صدوره منه يدل على أمر المذنبين بالتوبة بطريق أولى، و تسمى هذه الدلالة بفحوى الخطاب و لحنه أيضا لأن السامع يدرك ان الحكم الثابت للمنطوق ثابت للمسكوت عنه بمجرد سماع اللفظ.

اللّه و إسرائيل:

و لمناسبة قوله تعالى: وَ أَوْرَثْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ هُدىً وَ ذِكْرىٰ نشير إلى أنه في المجلد الأول قلنا: ان معنى إسرائيل عبد اللّه، لأن كلمة «اسرا»

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٦٠

معناها في العبرية عبد، و «ايل» اللّه، قلنا هذا تبعا لكثير من المفسرين، منهم الطبري و الرازي و صاحب مجمع البيان، و بعد أن باشرنا بالمجلد السادس تبين لنا ان هذا القول يفتقر الى الإثبات، و كان علينا أن لا نثق بأقوال المفسرين، أو ننسب هذا القول الى قائله- على الأقل- كما يقتضيه منطق العلم، و لكن الثقة بالمخبرين و بخاصة القدامى كانت و ما زالت آفة المؤلفين و المحدثين.

منذ أمد بحثت في مكتبات بيروت التجارية عن كتاب «التلمود» فلم أجده و وجدت الكنز المرصود في قواعد التلمود و قاموس الكتاب المقدس. فاشتريتهما، و قد ساهم في وضع القاموس ٣٧ مثقفا مسيحيا، منهم ١٧ قسا، و الباقون بين دكتور و شماس و أستاذ و اشمندريت، و جاء فيه بالنص: «إسرائيل: معنى هذا الاسم العبري «يجاهد اللّه» أو «يصارع اللّه» و هو اسم يعقوب إذ أطلقه عليه الملاك الذي صارعه حتى مطلع الفجر. التوراة سفر التكوين الاصحاح ٣٢ الآية ٢٨».

فمعنى إسرائيل- إذن- يصارع اللّه و يجاهده بنص التوراة، و الفرق كبير جدا بين العبد و المصارع، لأن المصارع و المبارز نظير و مثيل، أما العبد فرقيق و ضعيف، و بهذا يتبين معنا ان التوراة الحالية غير الكتاب الذي أشار اليه سبحانه بقوله: وَ أَوْرَثْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ هُدىً وَ ذِكْرىٰ لأن هذا الكتاب كما وصفه سبحانه هدى و ذكرى، أما التوراة الموجودة فهوى و عمى لأنها تقول:

يعقوب صارع الرب حتى مطلع الفجر، و لوط ضاجع ابنتيه و حملتا منه، و داود اغتصب الزوجات و قتل أزواجهن، و قد أجمع الباحثون ان التوراة الحالية كتبت بعد موسى بأمد غير قصير (انظر قاموس الكتاب المقدس ص ٧٦٣ و ١١٢٠ المطبعة الانجيلية ببيروت سنة ١٩٦٤، و كتاب «الأسفار المقدسة» لعبد الواحد وافي ص ١٦ و ما بعدها، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٤.

و أيضا يتبين معنا أن بني إسرائيل الأوائل الذين أورثهم اللّه الكتاب هم أبعد الناس نسبا و شبها بدولة إسرائيل قاعدة الاستعمار الجديد في الشرق الأوسط.

و نشرت مجلة «المجلة» المصرية في عدد كانون الثاني سنة ١٩٧٠ بحثا استغرق حوالى ٢٠ صفحة بعنوان «توراة اليهود» لحسين ذي الفقار صبري نقل فيه عن الصهيوني «نيهر» ان إله إسرائيل كما يراه الفكر اليهودي مرتبط ارتباطا عضويا

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٦١

بالواقع المتسلسل لتاريخ بني إسرائيل، فإذا تلاشى الوجود الاسرائيلي فكأن الدلائل الدالة على وجود الإله قد زالت، فهو اذن عدم، و ان على كل يهودي أن يصارع الذات المجهولة- أي اللّه- حتى مطلع الفجر تماما كما صارعها يعقوب، سواء أ كانت هذه المصارعة مميتة أم ظافرة. و أيضا نقل الكاتب عن «بوبر» الصهيوني ان المعنى الذي تتجه اليه تلقائيا أذهان جمهرة اليهود هو ان يعقوب كان قويا ضد اللّه.

ثم خرج الكاتب من بحثه الطويل العميق الى نتيجة استنتجها من التوراة و غيرها من الكتب اليهودية الدينية و من أقوال المفكرين الصهاينة، خرج بهذه النتيجة، و هي ان لب العقيدة الصهيونية أن تفرض إسرائيل وجودها بالتصدي لما يهدد كيانها، حتى و لو كان الرب مصدر هذا التهديد، و ان التوراة الحالية ليست إلا تحليلا دقيقا لنفسية اليهود، و تناقضا لعلاقتهم مع اللّه، فهم معه و عليه في آن واحد، و هو صاحب شخصية مزدوجة في توراتهم فهو الرجيم، و أيضا هو الرحيم.

هذه هي الصهيونية، انها في عقيدة أصحابها أقوى و أعظم من اللّه، و ان وجوده مرتبط بوجود إسرائيل، فإذا ما تلاشت فقد زال اللّه من الوجود، و من هنا التقت الصهيونية مع الاستعمار العالمي، و تحالفا معا ضد الشعوب و الأديان و الانسانية، و كان من نتيجة هذا التحالف وجود إسرائيل في أرض فلسطين، و لكن روح النقمة و العداء للاستعمار و الصهيونية قد انتشرت في كل بلد عربي، و للّه الحمد، و لا شيء أدل على ذلك من المقاومة الفلسطينية، و إجماع العرب كلمة واحدة على دعمها و تأييدها، و سنجني ثمارها بحول اللّه ان عاجلا أو آجلا.

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٥٦ الى ٦٣]

إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦) لَخَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَ ما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ لا الْمُسِيءُ قَلِيلاً ما تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (٥٩) وَ قالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ (٦٠)
اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٦١) ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كانُوا بِآياتِ اللهِ يَجْحَدُونَ (٦٣)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٦٢

اللغة:

بغير سلطان أي بغير حجة و دليل. و داخرين صاغرين. و مبصرا مضيئا تبصرون فيه. و تؤفكون تصرفون عن الصدق الى الكذب و عن الحق الى الباطل.

الإعراب:

ان نافية و في صدورهم خبر مقدم و كبر مبتدأ مؤخر، و الجملة خبر ان الذين يجادلون. و ببالغيه الباء زائدة و بالغوه خبر

«هم». و قليلا ما «ما» زائدة و قليلا صفة لمفعول مطلق محذوف أي تذكرا قليلا. داخرين حال من فاعل سيدخلون. و المصدر من لتسكنوا متعلق بجعل. و مبصرا مفعول ثان لجعل محذوفة أي و جعل النهار مبصرا. و أنّى ان كانت بمعنى أين فهي مجرورة بإلى أي إلى أين تصرفون و ان كانت بمعنى كيف فهي في محل نصب على الحال.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٦٣

المعنى:

إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِيهِ. المراد بالذين يجادلون هنا المترفون فإنهم ينكرون كل شيء إذا لم يعترف بتعاظمهم، و يخضع لكبريائهم، و الشاهد على ان المترفين المتكبرين هم المقصودون بالذات قوله تعالى: **إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ** أي انهم لتكبرهم و تعاظمهم لا يذعنون للحق، و يجادلون فيه بالباطل .. و من أفضل الفضائل التوبة من الخطيئة، و الاعتراف بالخطإ و الرجوع الى الصواب (فاستعذ باللّه) من التكبر و سوء عاقبته **إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** بتعصب المتكبرين لجاههم و ثرائهم، و في نهج البلاغة استعيذوا باللّه من لواقح الكبر- أي أثره في النفوس- كما تستعيذون من طوارق الدهر.

لَخَلْقُ السَّماواتِ وَ الأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ.

كلما تقدمت العلوم ازدادت معاني القرآن قوة و وضوحا في الأذهان .. قال العلماء القدامى: الإنسان أعجب الكائنات الأرضية و العلوية، و ان الأرض هي مركز الكون .. ثم جاءت العقول الألكترونية و غيرها من أدوات العلم الحديث لتقول:

كلا، ليس الإنسان أعجب الكائنات، و لا الأرض مركزا للكون، فإن في الكون ملايين الملايين من المجرّات، و ان في كل مجرة ملايين الملايين من الكواكب، و ان في كل كوكب ملايين الملايين من عجائب الكائنات، و انه لا أحد غير اللّه يعلم أو يستطيع أن يعلم عدد المجرات أو عدد الكواكب في كل مجرة، أو ما فيها من الكائنات و ان نسبة الأرض الى الكون كنسبة الذرة أو دونها الى الأرض ..

و بهذا نجد تفسير قوله تعالى: **لَخَلْقُ السَّماواتِ وَ الأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ**.

أجل، و لكن في داخل الإنسان أيضا كونا عجيبا في كنهه و حقيقته، و ميوله و شعوره، و طموحه و جميع غرائزه.

وَ ما يَسْتَوِي الأَعْمى وَ الْبَصِيرُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ لا الْمُسِيءُ قَلِيلاً ما تَتَذَكَّرُونَ. الفرق بعيد جدا بين العالم و الجاهل، و بين الصالح و الفاسد، و بين المحسن و المسيء .. كلا، لا يستويان عند اللّه، و لا عند الناس من أهل

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٦٤

الوعي و الانصاف. و تقدم مثله في الآية ٥٠ من سورة الأنعام و ١٦ من سورة الرعد و ١٩ من سورة فاطر **أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها** و هي تسوقنا للوقوف بين يدي قدير عليم، تزاح عنده الأباطيل، و تستحق الحقائق، و تضمحل العلل **وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ** بأنهم مبعوثون ليوم عظيم، و مسؤولون عما كانوا يعملون.

وَ قالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ. قال بعض المفسرين: معناه اعبدوني أثبكم، و استدل بأن القرآن يستعمل كلمة الدعاء في العبادة، و من ذلك قوله تعالى في الآية ١١٧ من سورة النساء: **إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ إِناثاً**. و نحن مع هذا

القائل في هذه الآية بالذات، لأن السياق يرجح هذا المعنى على غيره حيث قال تعالى بلا فاصل: **إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ**.

فقوله: يستكبرون عن عبادتي بيان و تفسير لادعوني. و مهما يكن فإن الإسلام دين الأعمال لا دين الأقوال، و اللّه يرزق من جاهد و صبر: هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَناكِبِها وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَيْهِ النُّشُورُ- ١٥ الملك.

و تكلمنا عن الدعاء مفصلا عند تفسير الآية ١٨٦ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٨٦.

اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ. مبصرا أي مضيئا تبصرون فيه. و تقدم مثله في الآية ٦٧ من سورة يونس ج ٤ ص ١٧٧ **ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ**؟ كيف تصرفون عن طاعة اللّه و عبادته، و هو وحده الخالق الرازق؟ و القصد من قوله تعالى: **جَعَلَ لَكُمُ .. لَذُو فَضْلٍ** و **خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** الخ؟ القصد ان يبين سبحانه و نعلم نحن بأنه الجامع لجميع صفات الجلال و الكمال، و ان دلائل هذه الصفات ظاهرة لمقل العيون و قرائح العقول، و لكن أكثر الناس في غفلة عنها و عما يراد بهم أيضا **كَذلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كانُوا بِآياتِ اللهِ يَجْحَدُونَ** كل من غفل و ذهل عن الدلائل الدالة على عظمة اللّه لا بد أن ينصرف عن طاعته و عبادته لأن الناس أعداء ما جهلوا.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٤٦٥

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٦٤ الى ٦٨]

اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَراراً وَ السَّماءَ بِناءً وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (٦٥) قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَمَّا جاءَنِيَ الْبَيِّناتُ مِنْ رَبِّي وَ أُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (٦٦) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَ لِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ فَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٦٨)

اللغة:

قرارا مستقرا. و تبارك تقدس و تعالى. و طفلا اسم جنس يشمل جميع الأطفال، و يكون المعنى يخرج كل واحد منكم طفلا.

الإعراب:

مخلصين حال. و المصدر من أن أعبد مجرور بعن محذوفة أي عن عبادة الخ.

و المصدر من أن أسلم مجرور بباء محذوفة. و طفلا حال. ثم لتبلغوا متعلق بمحذوف أي يبقيكم لتبلغوا. ثم لتكونوا أيضا متعلق بمحذوف أي فعل ذلك لتكونوا.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٤٦٦

المعنى:

اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَراراً وَ السَّماءَ بِناءً. وصف سبحانه الأرض في هذه الآية بكلمة قرار، و في غيرها بكلمة

مستقر و فراش و مهد و مهاد، و المعنى واحد. و وصف السماء في هذه الآية بالبناء، و في غيرها بالسقف و ذات البروج و ذات الحبك، و المراد بالسقف التشبيه به لأنها تظهر للعيان مثله، و قال جماعة من المفسرين: ان المراد بالبروج النجوم، و الحبك الطرق. أما البناء فالمراد به انه تعالى احكم خلقها و زينها بزينة الكواكب، كما في الآية ٦ من سورة الصافات.

وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ ذٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ. خلق اللّه الإنسان في أحسن خلقة و أحكمها و أدقها شكلا و قواما و أعضاء، بالاضافة الى البيان و الإدراك و غيره من الغرائز .. و لعل أروع ما في خلق الإنسان هذا التلاؤم العجيب بينه و بين الكون أرضا و سماء بحيث جاء تصميمه على نحو يستطيع أن يستغل و يكيف ما في الكون من طاقات و خيرات حسب مصالحه و حاجاته .. و لو لم يكن من دليل على وجود اللّه و عظمته إلا هذا الكائن العجيب- الإنسان- لكفى. و بهذا نجد تفسير قوله تعالى: وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَ فَلا تُبْصِرُونَ ٢١ الذاريات. و تكلمنا عن ذلك مفصلا عند تفسير الآية ٧٠ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٦٦ فقرة بما ذا كرّم اللّه بني آدم؟

هُوَ الْحَيُّ لا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ.

هو الحي لأنه وهب الحياة، و هو الواحد الأحد لأنه إله، و الألوهية في واقعها تستدعي التفرد و الوحدانية، و معنى الإخلاص للّه في الدين ان تؤمن به وحده، و تتجه إليه دون سواه في جميع أقوالك و أفعالك. و تقدم مثله في الآية ٢٩ من سورة الأعراف و الآية ١٤ من السورة التي نحن بصددها. و قوله تعالى: **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ** بعد قوله: و صوركم .. و رزقكم يشير الى أن على الإنسان أن يحمد اللّه و يشكره على نعمة الخلق و الرزق.

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَمَّا جاءَنِيَ الْبَيِّناتُ مِنْ رَبِّي وَ أُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ.

هذا هو الأسلوب الحكيم في الجدال و النقاش.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٦٧

قال المشركون لرسول اللّه (ص): اعبد ما نعبد من الأصنام .. فقال سبحانه لنبيه الكريم: قل لهم: كيف أعبد الأصنام و قد نهاني ربي عن عبادتها، و أمرني أن أسلّم جميع أموري له وحده، و ألهمني الأدلة الكافية الشافية على ان معبودكم ليس أهلا للعبادة لأنه حجر لا ينفع و لا يضر. و تقدم مثله في الآية ٤١ من هذه السورة.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَ لِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. تقدم مثله في الآية ٧٠ من سورة النحل و ٥ من سورة الحج و ١٤ من سورة المؤمنون و ١١ من سورة فاطر.

الفيلسوف «راسل» و الأجل المسمى:

هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ فَإِذا قَضىٰ أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. اللّه سبحانه يوجد الموت و الحياة في الأشياء الطبيعية، و يوجد الطبيعة بجميع كواكبها بكلمة «كن» يوجدها من لا شيء، فلا سديم، و هو على ما قيل يشبه الدخان، و لا غيره من قبل، و إذا قال قائل: و من الذي خلق اللّه؟ قلنا في جوابه:

ان معنى «اللّه» انه خالق غير مخلوق، و ان ذاته بما هي تستدعي الوجود و لا تحتاج إلى موجد، فإذا قال ثانية: هذه مجرد دعوى، و يحق لنا أن نأتي بمثلها و نقول: ان ذات السديم مقتضية للوجود و لا تحتاج الى موجد، و إذا طالبنا من يؤمن باللّه- ما زال الكلام للقائل- إذا طالبنا بالدليل على دعوانا طالبناه بدورنا بالدليل على دعواه، إذا قال هذا قائل قلنا في

جوابه: ان هذه الحياة و هذا النظام في الطبيعة لا يفسرهما الأثير، و لا أي شيء لا حياة فيه و لا إدراك لأن فاقد الشيء لا يعطيه .. إذن، لم يبق أمام العقل في تفسير الحياة و النظام في الطبيعة الا التسليم بوجود قادر حكيم خالق كل شيء، و لا يفتقر إلى شيء، و كل فرض غير هذا فإن العقل يأباه، و من أنكر صحته فليأت بخير منه و يدع من يشاء و نحن معه.

و الخلاصة ان اللّه سبحانه خلق الإنسان في أحسن تقويم، و نقله من طور إلى

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٤٦٨

طور حتى بلغ أجله المحتوم .. و إذا لم نر الخالق بالذات فقد رأينا آثاره و الدلائل الدالة عليه في عظيم خلقه .. و ما أحقر ما رأينا في جنب ما غاب عنا من قدرته و ملكوته.

و بمناسبة قوله تعالى: **وَ لِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** نذكر حادثة حصلت للفيلسوف الكبير «برتراند راسل» حين كان في السادسة و السبعين من عمره.

في سنة ١٩٤٨ سافر راسل في الطائرة من أوسلو الى لندن، و لما قربت الطائرة من شاطئ النرويج سألته المضيفة ان كان من الضروري أن يدخن؟ فقال لها:

ان لم أدخن فسوف أموت. و كان يجلس في مقدمة الطائرة، فأشارت عليه أن يجلس في المؤخرة إذا أراد التدخين ففعل، و ما أن استقر به الجلوس حتى سقطت الطائرة في البحر، فغرق كل من في مقدمتها، و نجا من في المؤخرة .. و لا نجد تفسيرا لهذا إلا قوله تعالى: **وَ لِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** و انما قرن سبحانه الأجل المسمى بقوله: و لعلكم تعقلون، ليشير الى الملحدين الذين يفسرون هذه الحادثة و أمثالها بالصدفة.

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٦٩ الى ٧٨]

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتابِ وَ بِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَ السَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣)

مِنْ دُونِ اللهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكافِرِينَ (٧٤) ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ (٧٧) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَ ما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨)

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٤٦٩

اللغة:

السّحب الجر. و الحميم الماء الحار. و السجر الإحراق. و الفرح السرور.

و المرح شدة الفرح.

الإعراب:

الذين كذبوا بدل من الذين يجادلون. و إذ في محل نصب بيعلمون. أين ما كنتم تشركون «أين» خبر مقدم و «ما»

موصول بمعنى الذين مبتدأ. و ذلكم مبتدأ و بما كنتم خبر. و أبواب منصوبة بنزع الخافض أي ادخلوا في أبواب.

فبئس مثوى المتكبرين المخصوص بالذم محذوف أي مثوى لكم و هو مبتدأ و خبره جملة بئس مثوى المتكبرين. فإما كلمتان «ان» الشرطية و «ما» الزائدة و جواب الشرط محذوف أي فتقر عيناك. و منهم خبر مقدم. و من قصصنا مبتدأ مؤخر.

و هنالك إشارة إلى المكان و استعير هنا للزمان.

المعنى:

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ؟ يقول سبحانه لنبيه

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٧٠

الكريم منكرا جدال المشركين بالباطل: أ رأيت و شاهدت يا محمد الى المشركين و المترفين كيف يعمون عن الحجج القاطعة و البينات الواضحة على عظمة اللّه و نبوتك و ينصرفون عن الحق و دلائله الى الجهل و الضلال و عبادة الأحجار؟ و أوضح تفسير لهذه الآية و أخصره قول الإمام علي (ع): من كثر نزاعه بالجهل دام عماه عن الحق.

الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتابِ- أي القرآن- **وَ بِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**.

و ذلك يوم تسفر الحقيقة عن وجهها، و يرى المجرمون ما يحل بهم من العذاب **إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَ السَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ**.

يجرّون بالسلاسل الى حريق الجحيم و شراب الحميم، و الأيدي مغلولة الى الأعناق، و النواصي مقرونة بالأقدام: يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَ الْأَقْدامِ- ٤١ الرحمن.

ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللهِ و تدخرونهم للشدائد؟

فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين **قالُوا ضَلُّوا عَنَّا** غابوا عن أعيننا و لم نر لهم عينا و لا أثرا **بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً** يعتد به، و تبين لنا الآن أنه كان سرابا **كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكافِرِينَ** لأنهم سلكوا طريق الضلال بسوء اختيارهم بعد أن نهوا عنه، و ماتوا على البغي و الكفر، و قد أمروا بالتوبة منه و الانابة الى اللّه الغفور الرحيم .. و من دخل مداخل السوء فلا يلومن إلا نفسه.

نطلب الدنيا باسم الدين:

ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ. يفرحون بالحقير الزائل يدركونه من الدنيا، و لا يهتمون بالنعيم الدائم يفوتهم من الآخرة.

و هذا الوصف يشملنا نحن أيضا، و لا يختص بالمشركين، و الفرق انهم يقبلون على الدنيا، و هم كافرون باليوم الآخر ظاهرا و باطنا، أما نحن فنقبل على الدنيا و نطلبها متكالبين، و لكن باسم الايمان باللّه و اليوم الآخر .. فأي الفريقين أحق بغضب اللّه و عذابه؟. **ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ**.

يقال هذا غدا للمتكبرين، و لكل من استغل الدين، و تاجر بالوطنية، و عبث

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٧١

بعقول البسطاء و الأبرياء سواء أفعل ذلك عن عمد أم عن جهل بحقيقته و واقعه، قال تعالى: هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً- ١٠٤ الكهف. و اتفقت كلمة العلماء على

ان الجاهل المقصر لا عذر له عند اللّه.

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ. تقدم بالحرف الواحد في الآية ٥٥ من هذه السورة **فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ**. الخطاب في نرينك لمحمد (ص)، و ضمير نعدهم للمشركين، و المعنى قد نعاقب في الدنيا الذين كذبوك يا محمد و آذوك و على مرأى منك، و قد نختارك إلينا قبل ذلك ..

و في سائر الأحوال فإن الأمر و المرجع الى اللّه وحده، و ليس لك من الأمر شيء.

و تومئ الآية الى أن المؤمن الحق ينبغي أن يفرح بمرضاة اللّه، و بأنه على يقين من دينه، و أن يجاهد أهل الباطل و الضلال بما استطاع من قوة، ثم يدع الجزاء الى اللّه: وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ- ١٣٢ الأنعام.

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ. تقدم مثله في الآية ١٦٤ من سورة النساء ج ٢ ص ٤٩٢. انظر أيضا فقرة هل الأنبياء كلهم شرقيون؟

وَ ما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ. المراد بالآية هنا المعجزة، و المعنى ان اللّه سبحانه يظهر المعجزة على يد الرسول كما تقتضيه الحكمة و المصلحة لا كما يشاء المكابرون و المعاندون **فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ**. هنالك إشارة الى يوم القيامة، و هو أسوأ يوم على المبطلين و أسعده على المحقين.

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٧٩ الى ٨٥]

اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعامَ لِتَرْكَبُوا مِنْها وَ مِنْها تَأْكُلُونَ (٧٩) وَ لَكُمْ فِيها مَنافِعُ وَ لِتَبْلُغُوا عَلَيْها حاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَ عَلَيْها وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠) وَ يُرِيكُمْ آياتِهِ فَأَيَّ آياتِ اللهِ تُنْكِرُونَ (٨١) أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَ أَشَدَّ قُوَّةً وَ آثاراً فِي الْأَرْضِ فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٨٣)

فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَ خَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ (٨٥)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٧٢

الإعراب:

فأي آيات اللّه مفعول تنكرون، و يجوز فأية بالتاء، و قيل: ان التذكير أشهر و أكثر. و قوة و آثارا تمييز. وحده حال من اللّه. و سنّة منصوبة على المصدر أي سننّا بهم سنّة اللّه.

المعنى:

اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعامَ لِتَرْكَبُوا مِنْها وَ مِنْها تَأْكُلُونَ. الأنعام هي الإبل و البقر و الغنم، و قد سخرها سبحانه لمنافع عباده كالأكل و الركوب، و انما خصها بالذكر مع ان نعمه لا يبلغها الإحصاء لصلتها الوثيقة بحياة العرب آنذاك على انها ما زالت تسد الكثير من حاجات الحياة بخاصة في بعض الأقطار **وَ لَكُمْ فِيها مَنافِعُ** أخر كالانتفاع بأوبارها و جلودها **وَ لِتَبْلُغُوا عَلَيْها حاجَةً فِي صُدُورِكُمْ** كحمل الأثقال و السلع من بلد إلى بلد **وَ عَلَيْها وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ**. تقدم مثله في الآية ١٤٢ من سورة الأنعام و ٦٥ من سورة النحل و غيرهما **وَ يُرِيكُمْ آياتِهِ فَأَيَّ آياتِ اللهِ تُنْكِرُونَ** أي مع الحجة و الدليل، و إلا فقد أنكروا بالفعل آيات اللّه و أحكامه لأن المعروف عندهم هو المنكر، و المنكر

هو المعروف.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٤٧٣

(أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَ أَشَدَّ قُوَّةً وَ آثاراً فِي الْأَرْضِ). ان تاريخ أهل الأرض متخم بالعبر و العظات لمن يعتبر و يتعظ، فكم من أمة بلغت الغاية من الترف و الحضارة، و لما طغت و بغت أخذها اللّه بظلمها أخذ عزيز مقتدر **(فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ)** من سلطان و أموال، و ما يبنون من قصور و قلاع. و تقدم مثله في الآية ١٠٩ من سورة يوسف و ٤٦ من سورة الحج و ٩ من سورة الروم.

(فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ). المراد بفرحوا هنا اغتروا، و بالعلم أسباب الثراء أي العلم العملي الذي ينتج الغذاء و الكساء، و يشير إلى ذلك قوله تعالى: «**وَ أَشَدَّ قُوَّةً وَ آثاراً فِي الْأَرْضِ**». و قال قارون: «إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي» لمن قال له: «وَ ابْتَغِ فِيما آتاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ» و المعنى ان اللّه أرسل فيما مضى رسله بالحجج القاطعة لأمم تملك أسباب الثراء كالمصانع و نحوها، فاغتروا بهذه الأسباب أو بهذا العلم، و سخروا من أنبياء اللّه و كتبه تماما كما هي حال الشركات الاحتكارية اليوم التي تكفر بالحق و الانسانية و تسخر من قيمها و من أماني الشعوب **(وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ)** أخذهم اللّه بطغيانهم و أصابهم وبال استهزائهم .. و هذه نهاية كل من طغى و بغى و ان طال الزمن.

(فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ). حين كانوا في أمان من سطوة اللّه كفروا به، و لما رأوا العذاب قالوا آمنا **(فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا)** لأن هذا ليس من الايمان في شيء، و انما هو محاولة للفرار من عذاب الحريق، و لكن أين المفر و الإله الطالب؟ **(سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ)** و هي ان اللّه يسمع التوبة و يقبلها في دار التكليف و العمل، لا في دار الحساب و الجزاء **(وَ خَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ)** و كل مجرم فهو خاسر و خائب.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٤٧٤

سورة فصّلت السّجدة

٥٤ آية مكية.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة فصلت (٤١): الآيات ١ الى ٨]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيراً وَ نَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (٤)

وَ قالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَ فِي آذانِنا وَقْرٌ وَ مِنْ بَيْنِنا وَ بَيْنِكَ حِجابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ (٥) قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَ اسْتَغْفِرُوهُ وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨)

اللغة:

فصلت بينت. و أكنة جمع كنان و هو الغطاء. و الوقر الصمم. و غير ممنون أي لا يمن به عليهم. و قيل: غير مقطوع.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٤٧٥

الإعراب:

تنزيل خبر لمبتدأ محذوف أي هذا تنزيل. و كتاب بدل من تنزيل أو خبر ثان. و قرآنا حال من كتاب. و عربيا صفة لقرآن و بشيرا و نذيرا صفة أخرى.

هم كافرون «هم» تأكيد ل «هم» الأولى.

المعنى:

(حم) تقدم الكلام على مثله في أول سورة البقرة. و قد ابتدأ سبحانه هذه السورة بذكر القرآن الكريم و وصفه بالأوصاف التالية:

١- **تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ**. القرآن من أرحم الراحمين، و هو رحمة للعالمين، و أيضا الذي نزل به على قلب محمد (ص) هو رحمة لأنه الروح الأمين، و قد شهد اللّه لنبيه الكريم بأنه حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ- ١٢٩ التوبة.

فالقرآن رحمة، و الذي بلغه للرسول رحمة، و الرسول أيضا رحمة، أما الذي أنزل القرآن فهو أساس الرحمة و مصدرها، و النتيجة الحتمية لهذه الرحمات الأربع ان من تمسك بالقرآن، و عمل بتعاليمه نزلت عليه شآبيب الرحمة، و من أعرض عنه فقد ظلم نفسه و رضي لها الهلاك و الوبال.

٢- **كِتٰابٌ فُصِّلَتْ آيٰاتُهُ** بيّنت حلال اللّه و حرامه، و نصائحه و مواعظه، و لم تدع عذرا لمعتذر، و علة لمتعلل.

٣- **قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**. أنزل سبحانه القرآن عربيا لأنه لا يرسل رسولا إلا بلغة قومه ليفهموا منه. و كذا كانت الحال في صحف ابراهيم، و توراة موسى، و إنجيل عيسى .. و قد كتب النبي محمد (ص) باللغة العربية إلى كسرى و قيصر و غيرهما من الرؤساء و الملوك غير العرب يدعوهم الى الإسلام.

و تقدم الكلام عن ذلك عند تفسير الآية ٣ من سورة يوسف ج ٤ ص ٢٨٦ و ٤ من سورة يس فقرة «الموسيقى في القرآن». و مهما يكن فإن سر العظمة في القرآن لا يكمن في اللغة وحدها، و الأسلوب وحده، بل يكمن في معانيه و مراميه الانسانية الخالدة التي لا تحدها قومية، و لا بيئة و لا زمان.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٤٧٦

٤- **بَشِيراً وَ نَذِيراً**. بشر القرآن من أطاع برحمة اللّه و جنته، و أنذر من عصى بعذابه و نقمته.

فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاٰ يَسْمَعُونَ. أعرضوا عن الحق جهلا و تعصبا لتقاليد الآباء أو إيثارا و طمعا بنفع عاجل، و لو كان وهما و خيالا **وَ قٰالُوا قُلُوبُنٰا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونٰا إِلَيْهِ وَ فِي آذٰانِنٰا وَقْرٌ وَ مِنْ بَيْنِنٰا وَ بَيْنِكَ حِجٰابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنٰا عٰامِلُونَ**.

دعا الرسول الأعظم (ص) مترفي المشركين الى الايمان باللّه وحده، و العمل بكتابه، فما كان جوابهم إلا أن قالوا: أفئدتنا موصدة دون دعوتك، و آذاننا غير سميعة لأقوالك، و بيننا و بينك ما يحجبنا عنك، و يبعدك عنا، فاجتهد ما استطعت، و هدّد بما شئت، فنحن في موقفنا لا نحيد عنه مهما كانت العواقب .. و هكذا تفعل الأهواء .. تميت القلوب و تعمي

العيون، و تطلق العنان للجهل و الضلال.

قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَ اسْتَغْفِرُوهُ. قال الطغاة للرسول (ص): بيننا و بينك حجاب .. فأمر اللّه نبيه الكريم أن يقول لهم: من أين جاء هذا الحجاب؟ أ لست بشرا مثلكم روحا و جسدا، أفعل ما تفعلون؟ و هل الوحي إليّ من السماء بأن نؤمن جميعا أنا و أنتم بإله واحد لا نشرك به شيئا، و نتوب اليه من الذنوب و الموبقات، و نستقيم على سبيل الحق و العدل- هل الوحي إليّ بهذا يبعدني عنكم، أو هو أجدى وسيلة تجمعنا على الخير و التقوى؟ و لكن أبيتم الا العمى و الضلال.

وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ. جاء في تفسير البحر المحيط ان هذه السورة مكية، و زكاة المال نزلت بالمدينة، و عليه فلا بد من تفسير الزكاة هنا بمطلق البذل في سبيل الخير، أو تفسيرها بتطهير النفس من الشرك .. و نرجح نحن التفسير الأول لأن الكلام عن المشركين الذين لم تطهر نفوسهم من الشرك، فإن فسرنا الزكاة بذلك يكون تفسيرنا أشبه بمن فسر الماء بالماء. و على ارادة البذل من الزكاة يكون معنى الآية ان المشركين جمعوا بين ثلاث رذائل: رذيلة الشرك، و رذيلة الجحود باليوم الآخر، و رذيلة البخل **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ.** أي ان اللّه سبحانه يؤجرهم و يثيبهم، و لا يمنّ عليهم بالأجر و الثواب لأنهم أهل لكل كرامة ..

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٤٧٧

و يستعمل المن أيضا بمعنى القطع، و منه قول العرب: قد منّه السفر أي قطعه، و تفسير الآية بكل من المعنيين جائز، و لكن الأول أقرب.

[سورة فصلت (٤١): الآيات ٩ الى ١٢]

قُلْ أَ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ (٩) وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها وَ بارَكَ فِيها وَ قَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ (١١) فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ حِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢)

اللغة:

رواسي جبال. و أقواتها أقوات أهل الأرض. و استوى قصد. و المراد بالمصابيح الكواكب.

الإعراب:

سواء منصوب على المصدر أي استوت سواء و استواء. طوعا أو كرها مصدر في موضع الحال أي طائعين أو كارهين. و سبع سموات حال من ضمير قضاهن.

و حفظا منصوب على المصدر.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٤٧٨

المعنى:

قُلْ أَ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ. لا وقت و لا مكان

قبل خلق الكون، لا شيء على الإطلاق إلا الواحد القهار، و عليه يكون المراد باليومين الدفعتان أو الطوران- كما قيل- و تقدم الكلام عن ذلك عند تفسير الآية ٥٣ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٣٨ .. و بالمناسبة نذكر ما قاله بعض الأدباء حول بعض الآيات: «ان أسلوب القرآن يختلف عن كل الأساليب، فهو حين يشير إلى مسألة علمية لا يعرضها كما يعرضها علماء الطبيعة بالمعادلات و التفاصيل، بل يقدمها بالاشارة و الرمز و اللمحة الخاطفة بكلمة قد يفوت فهمها على معاصريها، و لكنه يعلم ان التاريخ و المستقبل سوف يشرح هذه الكلمة و يثبتها تفصيلا». و قد جاءت هذه الحقيقة على لسان ابن عباس منذ حوالى ١٤ قرنا حيث قال: لا تفسروا القرآن الزمان يفسره. أي لا تتعمقوا في تفسير الآيات الكونية فإن تقدم العلم كفيل بالكشف عن أسرارها.

وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها أي جبالا فوق الأرض و نحوه الآية ١٥ من سورة النحل: وَ أَلْقىٰ فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ. **وَ بارَكَ فِيها وَ قَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ**. بارك سبحانه بما حوته من نبات و معادن و بترول و غيره، و المراد بقدر أقواتها ان ما في الأرض من خيرات هي على قدر ما فيها من الأحياء الذين يحتاجون الى القوت مهما بلغ عددهم.

و قال جماعة من المفسرين: ان اليومين الأولين هما من جملة الأيام الأربعة أي ان خلق الأرض و تقدير الأقوات فيها، كل ذلك تم في أربعة أيام من أيام اللّه، و المراد بالسائلين هنا كل من يحتاج الى القوت، و سواء تومئ الى أن اللّه ما جعل خير الأرض لجنس دون جنس أو فئة دون فئة، بل الخلائق بكاملها سواء في رزقه و فضله، و إذا وجد جائع فإنما هو من ظلم القوي للضعيف. انظر تفسير الآية ٥٦ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٤٠ فقرة اللّه أصلح الأرض و الإنسان أفسدها.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٧٩

ما هو الحل لمشكلة الجوع؟

و لمناسبة قوله تعالى عن الأرض: **وَ بارَكَ فِيها وَ قَدَّرَ فِيها أَقْواتَها** نشير إلى الذين قالوا: ان السبب الأول لوجود الجوع في العالم هو تضخم سكان الأرض و تزايدهم يوما بعد يوم بينا أقوات الأرض و خيراتها لا تفي بحاجة السكان، و لا تتناسب مع زيادة انتاج الأطفال، ثم اختلف هؤلاء فيما بينهم على وجه الحل لهذه المشكلة، فمن قائل: ان الحل هو حتمية الحروب الطاحنة، و تقتيل الناس بالملايين حتى يحصل التوازن بين عدد السكان و انتاج الغذاء .. و قد روّج لهذا الرأي الذين يملكون الصناعة العسكرية و معهم الذين يحتكرون موارد الأرض و مقدراتها، و يكدسون الثروات على حساب الملايين و بؤسهم و شقائهم.

و قال آخرون: إذا لم تكن الحرب فلتكن الأمراض و الأوبئة المهلكة، و شاع رأي ثالث، و هو تحديد النسل و تخطيطه. و لا ضرر في هذا الرأي فإن تحديد النسل حق طبيعي و شرعي لكل انسان، شريطة أن يكون التحديد قبل وجود النسل، بل و قبل استقرار النطفة في الرحم و استعدادها لتكوين الجنين، أما الرأي القائل بضرورة انتشار الأوبئة فهو موبوء. و كفى القول الأول و هنا ان القائلين به هم تجار الحروب الاستعمارية، و أصحاب الشركات الاحتكارية و السيطرة الاقتصادية على البلاد الفقيرة النامية.

ان السبب الأول لمشكلة الجوع يكمن في صراع قوى الشر على خيرات الأرض و احتكار مقدراتها، و في رفاهية الفئة

القليلة على حساب شقاء الفئة الكثيرة، و في إحراق المحاصيل الزراعية للمحافظة على الغلاء و ارتفاع الأسعار، و في إلقاء ألوف الأطنان من المواد الكيماوية السامة على القرى و المزارع في مناطق واسعة شاسعة بفيتنام و غيرها، و في توجيه العلم إلى الانتاج الحربي و الصناعة العسكرية.

و لو اتجه العلم إلى الانتاج السلمي فقط لزادت خيرات الأرض عن حاجة أهلها و كانت الأرزاق كالتراب. فقد نشرت «مجلة اليونسكو» بحثا جاء فيه: ان تكاليف قذيفة كبيرة واحدة تكفي لبناء ٧٥ مستشفى، بكل واحد منها مائة سرير بكامل المعدات، أو شراء خمسين ألفا من الجرارات الزراعية التي يمكن أن تحرث ملايين الأفدنة بدلا من حرثها بمن عليها بقنابل الدمار .. و قد أنفقت الولايات المتحدة

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٨٠

على حرب فيتنام وحدها ٤٠٠ بليون دولار دون أن تنهي الحرب .. أ ليست هذه البلايين من بعض خيرات الأرض و بركاتها؟ و لو أنفقت في سبيل الزراعة لكانت كافية وافية بزرع جميع الصحاري و البحار و بعض الكواكب أيضا، و لعاش أهل الأرض و معهم أمثالهم في هناء و رخاء.

و أيضا لو صح الرأي القائل: ان خيرات الأرض و أقواتها لا تفي بحاجة أهلها لكان معنى هذا ان اللّه لم يحسن التقدير و التدبير، و انه أخطأ في إحصاء سكان الأرض على مدى الأزمان، أو انه أخطأ في تقدير ما يحتاجونه من الأقوات ..

تعالى اللّه عما يقول الجاهلون .. ان الحل لمشكلة الجوع لا يكون بالحروب، و لا بانتشار الأوبئة، و لا بتحديد النسل، و أية جدوى من هذا التحديد ما دام في الناس ظالم و مظلوم، و آكل و مأكول، و إنما الحل لهذه المشكلة هو إزالة الموانع التي تحول بين الإنسان و أسباب معيشته، هو استغلال خيرات الأرض لإنتاج الغذاء و الكساء، و لسد كل ما يحتاجه الإنسان الحاضر و الآتي.

ثُمَّ اسْتَوىٰ إِلَى السَّمٰاءِ وَ هِيَ دُخٰانٌ فَقٰالَ لَهٰا وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيٰا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قٰالَتٰا أَتَيْنٰا طٰائِعِينَ. استوى قصد، و قالتا أتينا طائعين كناية عن قدرة اللّه و انقياد الكون لأمره، و تومئ الآية الى ان الفضاء قبل خلق الكواكب كان فيه شيء كالدخان **فَقَضٰاهُنَّ سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ فِي يَوْمَيْنِ**. و السموات السبع هي الأكوان الفضائية العلوية السبعة، و ليس الكواكب السبعة. انظر تفسير الآية ١٧ من سورة المؤمنون ج ٥ ص ٣٦٢ فقرة «معنى السموات السبع» أما اليومان فهما الدفعتان أو الطوارن كما قيل.

وَ أَوْحىٰ فِي كُلِّ سَمٰاءٍ أَمْرَهٰا أي خلق في كل سماء ما فيها من الكواكب و غيرها مما علمه عند ربي **وَ زَيَّنَّا السَّمٰاءَ الدُّنْيٰا بِمَصٰابِيحَ** و هي الكواكب التي تضيء كالمصابيح (و حفظا) يحفظ اللّه الكواكب في استمرارها على نهج واحد **ذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**. ذلك إشارة إلى كل ما تقدم من خلق الأرض و أقواتها، و خلق السماء و زينتها و حفظها، و لا يكون ذلك إلا من قادر حكيم، و مدبر عليم.

هذا كل ما نملك من الفهم و العلم في تفسير هذه الآيات، نذكره بتحفظ

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٨١

مؤمنين باللّه و قدرته، و بكل غيب أشار اليه في كتابه بكلمة لا نعرف معناها على وجهه و لا ندرك سرها على حقيقته .. و لو ألححنا في طلب المزيد من المعرفة لا نجد أمامنا إلا النقل من كتب أهل الاختصاص، على انهم لا يقيمون البراهين القاطعة على ما يثبتون و ينفون إلا قليلا. و من أراد الاطلاع على أقوالهم فليرجع إلى كتاب «الكون العجيب» لقدري

حافظ طوقان و كتاب «مع اللّه في السماء» لأحمد زكي و غيره.

[سورة فصلت (٤١): الآيات ١٣ الى ١٨]

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ (١٣) إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (١٤) فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ قالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى وَ هُمْ لا يُنْصَرُونَ (١٦) وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (١٧)

وَ نَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ (١٨)

اللغة:

صاعقة عذاب من السماء. و ريحا صرصرا باردة مهلكة. و نحسات نكدات. و الهون الذل.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٨٢

الإعراب:

المصدر من ألا تعبدوا مجرور بباء الجر المحذوفة أي جاءتهم بعدم العبادة لغير اللّه. و عاد مبتدأ و استكبروا خبر. و قوة تمييز.

المعنى:

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ. ضمير أعرضوا لمشركي العرب و المخاطب بقل رسول اللّه (ص)، و من بين أيديهم و من خلفهم كناية عن مبالغة الرسل و اجتهادهم في التبشير و الانذار، و انهم سلكوا من أجل هدايتهم كل سبيل، و لكن استحوذ عليهم الشيطان، و صدق فيهم ظنه حيث قال: **لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ**- ١٧ الأعراف. و المعنى قل يا محمد لمن كفر بك و برسالتك: لقد كذبت عاد و ثمود بالرسل الذين دعوهم الى ما دعوتكم اليه من التوحيد، و بذلوا كل جهد لهدايتهم، و لما أصروا على الضلال أخذهم اللّه بعذاب الدنيا و الآخرة، و اني نذير لكم أن يصيبكم ما أصابهم **قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ.** أجاب عاد و ثمود الرسل بالتكذيب لأن اللّه بزعمهم لا يبعث للناس رسولا منهم، بل يبعثه من الملائكة .. و دحضنا هذا القول عند تفسير الآية ٨ من سورة الانعام ج ٣ ص ١٦٤.

فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ قالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً. قوله بغير حق هو من باب الإيضاح و التأكيد، لأن الاستكبار لا يكون من المخلوق إلا بالباطل بخاصة إذا كان عن عبادة اللّه، و قد استكبر عنها عاد و احتقروا الضعفاء، و قالوا: نحن أقوى و أعظم من أن ينالنا أحد بسوء **أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً.** و هذه بديهة لا تحتاج الى دليل. قال الإمام علي (ع):

كل عزيز غير اللّه ذليل، و كل قوي غيره ضعيف، و كل مالك غيره مملوك، و كل عالم غيره متعلم، و كل قادر غيره يقدر و يعجز **وَ كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ.**

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٤٨٣

كفروا بالأدلة الكونية الدالة على وحدانية اللّه و عظمته، و قالوا: كل ما في الكون من حياة و إحكام و نظام هو من عمل الطبيعة.

فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى وَ هُمْ لا يُنْصَرُونَ. أخذهم سبحانه في الدنيا بريح هو جاء باردة في أيام هي نحس و خزي عليهم، ثم استكملوا العذاب في الآخرة بما هو أشد و أخزى من عذاب الدنيا.

وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ. هذه الآية واضحة الدلالة على ان الإنسان مخيّر غير مسيّر لأنها تقول: ان اللّه أرشد ثمودا إلى طريق النجاة، و أمرهم بسلوكه، و حذرهم من المعصية، و بيّن لهم طريق الهلاك و نهاهم عنه، و أنذرهم سوء العاقبة ان سلكوه و لكنهم آثروه على طريق النجاة، فكان جزاؤهم الوبال و الخسران **وَ نَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ** نجاهم سبحانه لأنهم سلكوا طريق النجاة. و تقدم الكلام عن عاد في الآية ٥٠ و ما بعدها من سورة هود ج ٤ ص ٢٣٩، و عن ثمود في الآية ٦١ ص ٢٤٤ من نفس السورة و المجلد.

[سورة فصلت (٤١): الآيات ١٩ الى ٢٤]

وَ يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَ قالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَ لا أَبْصارُكُمْ وَ لا جُلُودُكُمْ وَ لكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَ ذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ (٢٣)

فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ وَ إِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤)

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٤٨٤

اللغة:

الوازع الزاجر و المانع و يوزعون أي ان الملائكة تزجر أهل النار و تمنعهم من الفوضى. و مثوى مقام. و ان يستعتبوا ان يعتذروا و يطلبوا الرضا.

الإعراب:

و يوم منصوب بفعل محذوف أي و اذكر يوم يحشر. و حتى للغاية. و إذا ما «ما» زائدة. و ذلكم مبتدأ، و ظنكم بدل أو عطف بيان من ذلكم، و الذي صفة لظنكم، و أرداكم خبر ذلكم.

المعنى:

وَ يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ. هذه الآيات التي نحن بصددها تتصل بالآية السابقة، و هي: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ .. و أيضا قل لهم يا محمد: ان ملائكة العذاب تسوق غدا المجرمين الى جهنم بانتظام، فمن تأخر زجروه، و من حاول الهرب صدّوه، و القصد انه لا مفر لهم من عذاب الحريق.

حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ.

لا شيء في اليوم الآخر إلا الحساب و الجزاء .. و تدل بعض الآيات، و منها هذه الآية التي نفسرها ان اللّه لا يعاقب المجرم في ذاك اليوم إلا بعد أن يقتنع هو بأنه مذنب يستحق العقاب، و هذا بعض الفروق بين حكم الحاكم في الدنيا حيث ينفذه

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٤٨٥

الحاكم على كل حال سواء اقتنع به المحكوم عليه أم لم يقتنع، و بين حكم اللّه في الآخرة فإنه تعالى لا ينفذه حتى يقنع المحكوم عليه بأنه يستحق العقاب .. و من أجل هذا تتراكم الشهود على المجرم، فحملة الدين يشهدون عليه بأنهم قد بلغوه حلال اللّه و حرامه، و الملائكة يشهدون بأنه عصى و تمرد، و صحيفة أعماله تسجل عليه كل قول و فعل، فإذا أظهر المجرم عدم الاقتناع بكلّ هذه الشواهد أقام اللّه عليه شاهدا من نفسه، فيشهد عليه جلده بأنه لامس الحرام كالزنا و مقدماته، و يشهد عليه سمعه بأنه سمع الحق فأعرض عنه، و يشهد بصره بأنه رأى دلائل الوحدانية فجحدها، و ما الى ذلك من الرذائل و الموبقات.

و تومئ الآية الى معنى دقيق، و هو ان الشرط في الشاهد أن لا يتحيز، و ربما توهم المجرم ان المبلغين و الملائكة قد مالوا بشهادتهم إلى اللّه لأنهم لا يعصونه و يأمره يعملون، فأقام سبحانه شهودا على نفس المجرم من نفسه دفعا لهذا التوهم و ان كان باطلا. و في بعض الروايات ان العبد غدا يخاطب ربه و يقول: ألم تجرني من الظلم؟ فيأتيه الجواب بلى. فيقول العبد: انّي لا أجيز على نفسي إلا شاهدا من نفسي، و عندئذ يأمر تعالى أعضاءه أن تشهد عليه. فيقول العبد المذنب لأعضائه: بعدا لكنّ و سحقا، فكم ناضلت عنكنّ.

وَ قالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا؟ و في قولهم هذا اشعار بأن بعض المجرمين لم يقبلوا شهادة المبلغين و الملائكة، و انهم توهموا ان هذا الرفض يجديهم نفعا لولا ان يقيم اللّه عليهم شهودا من أنفسهم (قالوا- أي الجلود- أنطقنا اللّه الذي أنطق كل شيء و هو خلقكم أول مرة و اليه ترجعون). أعضاؤهم تنطق في الدنيا بلسان الحال، و يشهد ما فيها من حكمة و إتقان بأن اللّه هو المبدئ و المعيد، و تنطق بذلك صراحة في الآخرة أيضا. و اختلف المفسرون في كيفية شهادة الأعضاء على أصحابها غدا، فمن قائل: ان اللّه يظهر عليها علامات تشير الى الجرائم التي ارتكبوها. و قائل: ان اللّه ينطقها حقيقة. و هذا هو الصحيح لأن ظاهر الآية يدل عليه، و العقل لا يأباه.

وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَ لا أَبْصارُكُمْ وَ لا جُلُودُكُمْ وَ لكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً- أي ما تخفون- **مِمَّا تَعْمَلُونَ**. ظننتم أي اعتقدتم،

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٤٨٦

انكم أيها المجرمون ارتكبتم الذنوب و الجرائم وراء الستار خوفا من الناس، لا خوفا من اللّه حيث اعتقدتم ان اللّه لا يعلم ما تفعلون في الخفاء، و ان أعضاءكم لن تشهد عليكم يوم الحساب لأنكم لا تؤمنون به **وَ ذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ**. ان هذا الاعتقاد الباطل هو الذي قادكم الى جهنم و بئس المصير .. و هذا ينطبق أيضا على الذين يؤمنون باليوم الآخر نظريا، و يكفرون به عمليا حيث يستخفون من الناس و لا يستخفون من اللّه، بل هو أسوأ حالا ممن أنكر البعث و قدرة اللّه لأنهم عصوا و هم على يقين بأن اللّه معهم يسمع و يرى، و أنه لا تخفى عليه خافية في الأرض و لا في السماء.

فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ وَ إِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ. ان يصبر المجرمون على النار فهي نصيبهم و

مسكنهم، و لا خلاص لهم منها، و ان يطلبوا الرضا من اللّه فلن يرضى عنهم: وَ إِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وَ ساءَتْ مُرْتَفَقاً- ٢٩ الكهف.

[سورة فصلت (٤١): الآيات ٢٥ الى ٣٩]

وَ قَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ (٢٥) وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَدِيداً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذلِكَ جَزاءُ أَعْداءِ اللهِ النَّارُ لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانا مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا لِيَكُونا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩)

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٤٨٧

اللغة:

قيضنا هيأنا. و القرناء جمع قرين. و كل كلام لا معنى له أو لا فائدة منه فهو لغو.

الإعراب:

ذلك مبتدأ و جزاء أعداء اللّه خبر. و النار بدل من جزاء. و جزاء منصوب على المصدر أي يجزي بالنار جزاء.

المعنى:

(وَ قَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ). المراد بما بين أيديهم الدنيا و حطامها، و بما خلفهم الآخرة و هي مجرد خرافة عند الجاحدين، و المعنى ان اللّه سبحانه هيأ للطغاة المجرمين قرناء سوء يغرونهم بالسيئات، و يزهدونهم بالحسنات.

و تسأل: إذا كان اللّه هو الذي قيض لهم من يغريهم بالضلالة و المعصية فمن الظلم و الجور أن يعاقبهم و يقول: «حق عليهم القول» أي العذاب؟

الجواب: اللّه سبحانه فعل بهم ذلك بعد أن سلكوا طريق الضلال و الغواية بسوء اختيارهم .. و قد أوضح سبحانه ذلك في الآية ٣٦ من سورة الزخرف حيث قال: «وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ». و قال: «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَ اللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ- ٥ الصف». و تقدم ذلك مرات و مرات.

(وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ). طغوا و بغوا فاستحقوا العذاب تماما كما استحق أمثالهم من الأمم الماضية، و تدل الآية على ان الجن أمم و أجيال، و ان فيهم رسلا و أنبياء، و ان منهم الصالحين و منهم دون ذلك تماما كالإنس **(وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا**

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٤٨٨

الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ. دهش الطغاة حين رأوا أثر القرآن و سلطانه على النفوس، و ماجوا في حيرة: ما ذا يصنعون بعد أن عجزوا عن مقارعته بالبرهان، و مقابلة الحجة بالحجة .. ثم اتفقوا أن يحاربوه بالباطل، و يصفوه بالسحر و الأساطير، و يقابلوا تلاوته بالتشويش و الهذيان .. بهذا السخف و الجهل ينتصرون لباطلهم، و يريدون أن يطفئوا نور القرآن .. و إذا دل قولهم: «**وَ الْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ**» إذا دل على شيء فإنما يدل على اعترافهم بالعجز الا

عن اللغو و الهذيان، و ان القرآن هو حصن اللّه الحصين الذي أعجز و يعجز الفكر الانساني على مدى العصور و الأزمان.

(فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَدِيداً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ ينقسم عمل المجرمين الى قسمين: سيئ و أسوأ، و كذلك الجزاء، لأن مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى إِلاَّ مِثْلَها- ٤٠ غافر و انما ذكر سبحانه أسوأ أعمالهم ليبين ان جزاءهم غدا أسوأ الجزاء تماما كأعمالهم (ذلِكَ جَزاءُ أَعْداءِ اللهِ النَّارُ لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ. ذلك اشارة إلى الجزاء على أسوأ الأعمال، و هو الخلود في نار جهنم، و هذا الخلود قد جعله اللّه جزاء كل جاحد و معاند لما أقامه اللّه من الدلائل الواضحة على وحدانيته و عظمته .. و في الآية إيماء الى ان الجاحد و المشرك لا عذر لهما على الإطلاق، و ان الجهل إنما يكون عذرا في غير الجحود و الشرك لأن دلائل الوحدانية لا غموض فيها و لا خفاء، و لا تحتاج معرفتها و الايمان بها إلا الى النظر المجرد عن الهوى و التقليد.

(وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا من الضعفاء التابعين: (رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنا مِنَ الْجِنِّ وَ الإِنْسِ المتبوعين (نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا لِيَكُونا مِنَ الأَسْفَلِينَ. سألوا اللّه سبحانه أن يسلطهم على من أضلهم من شياطين الإنس و الجن ليدوسوهم بالأقدام و يكونوا في مكان أعمق من مكانهم في الجحيم .. و لكن اللّه سبحانه قد كفاهم ذلك حيث أخذ كلا بذنبه السيء و الأسوأ.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٨٩

[سورة فصلت (٤١): الآيات ٣٠ الى ٣٦]

إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخافُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ وَ لَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَ لَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢) وَ مَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اللهِ وَ عَمِلَ صالِحاً وَ قالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَ لا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَ لا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)

وَ ما يُلَقَّاها إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَ ما يُلَقَّاها إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦)

اللغة:

النزل ما يعد للنازل، و المراد به هنا الرزق و العطاء. و النزغ في اللغة النغز و الوكز و نزغ الشيطان اغراؤه بالشر.

الإعراب:

نزلا منصوب على المصدر أي أنزلكم ربكم نزلا، و يجوز أن يكون حالا من «ما تدعون» أي من اسم الموصول. و إمّا كلمتان «ان» الشرطية و «ما»

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٩٠

الزائدة، و لذا دخلت نون التوكيد على ينزغنك لأنها لا تدخل على فعل الشرط إلا إذا كان مع الشرط «ما» الزائدة.

اللّه و الإنسان و العمل:

من تتبع آي الذكر الحكيم يجد انها تدل بمنطوقها و مفهومها على ان العمل مع الايمان هو كل شيء بالنسبة الى الإنسان. و اليك الدليل.

١- الآيات الناطقة بأن الغاية الأولى و الحكمة الكبرى من وجود الإنسان هي العمل الصالح. و من هذه الآيات قوله تعالى: الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَياٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً- ٢ تبارك و قوله: وَ مٰا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّٰ لِيَعْبُدُونِ. أي ليعملوا. أنظر فقرة لما ذا خلق اللّه الإنسان عند تفسير الآية ٣٣ من سورة لقمان.

٢- الآيات التي دلت على ان العمل هو الميزان الذي يقيّم الإنسان على أساسه، مثل قوله تعالى: كُلُّ امْرِئٍ بِمٰا كَسَبَ رَهِينٌ- ٢١ الطور و قوله:

وَ مٰا تُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ- ٣٩ الصافات و قوله: وَ لِكُلٍّ دَرَجٰاتٌ مِمّٰا عَمِلُوا- ١٣٢ الأنعام إلى غير ذلك.

٣- أما قوله تعالى: **(إِنَّ الَّذِينَ قٰالُوا رَبُّنَا اللّٰهُ ثُمَّ اسْتَقٰامُوا** فهو دليل واضح و قاطع على ان العمل هو الظاهرة الوحيدة التي تعكس الايمان باللّه حقا و واقعا، و ان أي انسان يقول: أنا مؤمن دون أن يترجم إيمانه بالسلوك و العمل في علاقته مع خالقه و مع نفسه و مع مجتمعه فهو مفتر كذاب. و من نافلة الكلام أن نقول: ان مقصود القرآن من العمل هو البنّاء المثمر، و ان كل قول ينتج هذا العمل فهو في حكمه. و تكلمنا عن الاستقامة مفصلا في ج ١ ص ٢٦ و ج ٥ ص ٢٧٣.

٤- و فوق ذلك كله فإن اللّه سبحانه استدل على وجوده و عظمته بالعمل، قال عز من قائل: سَنُرِيهِمْ آيٰاتِنٰا فِي الْآفٰاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتّٰى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ- ٥٣ فصلت. ثم ذكر سبحانه في كتابه العديد من هذه الآيات، نكتفي

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٤٩١

بواحدة منها: خَلَقَ الْإِنْسٰانَ عَلَّمَهُ الْبَيٰانَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ بِحُسْبٰانٍ- ٤ الرحمن.

(تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاٰئِكَةُ أَلاّٰ تَخٰافُوا وَ لاٰ تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ. لكل شيء أجل معلوم، و إذا جاء أجل الذين استقاموا على الطريقة الإلهية تنزلت عليهم ملائكة الرحمة بالسكينة و البشرى بأن اللّه قد اطّلع على عملهم، و رضي سعيهم، و أعد لهم مقاعد الكرامات التي وعدهم بها على لسان أنبيائه و رسله **(نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياٰةِ الدُّنْيٰا وَ فِي الْآخِرَةِ وَ لَكُمْ فِيهٰا مٰا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَ لَكُمْ فِيهٰا مٰا تَدَّعُونَ نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ**. ما زال الكلام لملائكة الرحمة مع الذين استقاموا.

و ما تدعون أي ما تتمنون، و النزل العطاء، و يتلخص المعنى بأن أهل الطاعة و الاستقامة هم عند رب رحيم، و لهم ما يشاءون من الرزق الكريم. و قال ابن عربي في الفتوحات المكية حول هذه الآية كلاما نلخصه بأن الملائكة تقول للمخلصين قبل أن ينتقلوا من دار الفناء الى دار البقاء، تقول لهم: نحن أولياؤكم في الدنيا لأن الشيطان كان يغريكم بالعدول عن صراط اللّه المستقيم، و نحن ننهاكم عنه و كنتم تسمعون لنا من دونه .. و أيضا نحن أولياؤكم في الآخرة لأننا نشهد لكم عند اللّه بالايمان و الاستقامة.

(وَ مَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعٰا إِلَى اللّٰهِ وَ عَمِلَ صٰالِحاً وَ قٰالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

إذا عطفنا هذه الآية على قوله تعالى: **قٰالُوا رَبُّنَا اللّٰهُ ثُمَّ اسْتَقٰامُوا** و جمعناهما في كلام واحد- ينتج معنا ان الايمان الحق على ثلاث شعب: الأولى إعلان الايمان باللّه. الثانية العمل بشريعة اللّه، و أهمه و أعظمه الأسهام في خدمة الإنسان.

الثالثة الدعوة الى اللّه. و يدل على الأولى **قٰالُوا رَبُّنَا اللّٰهُ** أي أعلنوا ذلك على الملأ، و يدل على الثانية «ثم استقاموا» و على الثالثة **دَعٰا إِلَى اللّٰهِ**. و من جمع بين هذه الصفات الثلاث فله ان يدعي الإسلام، و يقول: «انني من المسلمين» و من

قالها دون أن يؤمن باللّه أو آمن و لم يسهم في خدمة الإنسان و لم يدع الى اللّه فما هو من الإسلام و لا المسلمين في شيء و ان عومل معاملتهم في الدنيا.

(وَ لاٰ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَ لاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ.

الخطاب في ادفع و في بينك لمحمد (ص). و يدل السياق

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٩٢

على ان المراد بالحسنة هنا حسنة الرسول الداعي الى اللّه، و هي جهاده و صبره على الأذى في سبيل هذه الدعوة، و المراد بالسيئة سيئة السفيه الجاهل من الدين دعاهم الرسول إلى اللّه، و المعنى: فرق بعيد بين عملك يا محمد و أنت تدعو الى اللّه و تتحمل الأذى في سبيله صابرا محتسبا و بين عمل الذين أجابوا دعوتك الى اللّه بالإعراض و الأذى و الافتراء .. ان عملك صلوات و حسنات، و عملهم سيئات و لعنات .. و على الرغم من ذلك فعليك أن ترفق بهم و تتسامح معهم و تصبر على سفاهتهم، فإن منهم من لو قابلته بهذه السماحة لعاد إلى ربه و عقله و انقلبت عداوته لك إلى محبة، و بغضه إلى مودة.

و الإنسان أي انسان، يستطيع أن يكسب أصدقاء يقاتلون معه بكلمة طيبة، و ان يخلق له أعداء يقاتلون ضده بكلمة خبيثة، و قد استطاعت كلمات الأبرار ان تهدي الكثير من الفجار، و تنهي العديد من المشاكل بين البشر، و لولاها لجرت الدماء أنهرا.

(وَ ما يُلَقَّاهاٰ إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَ ما يُلَقَّاهاٰ إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ. ضمير يلقاها يعود إلى هذه الصفة، و هي دفع السيئة بالحسنة، و ذو الحظ العظيم من كان مرضيا عند اللّه، و المعنى ان دفع السيئة بالحسنة منقبة عظمى لا يتحلى بها إلا من صبر عند الشدائد، و كان وجيها عند اللّه. و في نهج البلاغة: الصبر من الايمان كالرأس من الجسد، و لا خير في جسد لا رأس معه، و لا في ايمان لا صبر معه. و فيه أيضا: احصد الشر من صدر غيرك بقلعه من صدرك.

(وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطاٰنِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. الخطاب لمحمد (ص)، و تدل الآية بالفحوى على ان الإنسان معرّض للخطأ، و ان عليه أن يحتاط لنفسه، و لا يزكيها بالغا ما بلغ من الدين و العلم و العقل.

و تقدمت هذه الآية بالحرف الواحد في الآية ٢٠٠ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٤٣٩.

[سورة فصلت (٤١): الآيات ٣٧ الى ٤٦]

وَ مِنْ آياٰتِهِ اللَّيْلُ وَ النَّهاٰرُ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ لاٰ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لاٰ لِلْقَمَرِ وَ اسْجُدُوا لِلّٰهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ النَّهاٰرِ وَ هُمْ لاٰ يَسْأَمُونَ (٣٨) وَ مِنْ آياٰتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاٰشِعَةً فَإِذاٰ أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماٰءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْياٰهاٰ لَمُحْيِ الْمَوْتىٰ إِنَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياٰتِنا لاٰ يَخْفَوْنَ عَلَيْنا أَ فَمَنْ يُلْقىٰ فِي النّاٰرِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمّٰا جاٰءَهُمْ وَ إِنَّهُ لَكِتاٰبٌ عَزِيزٌ (٤١)

لاٰ يَأْتِيهِ الْباٰطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لاٰ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) ما يُقاٰلُ لَكَ إِلاّٰ ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَ ذُو عِقاٰبٍ أَلِيمٍ (٤٣) وَ لَوْ جَعَلْناٰهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقاٰلُوا لَوْ لاٰ فُصِّلَتْ آياٰتُهُ ءَ أَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَ شِفاٰءٌ وَ الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ فِي آذاٰنِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولٰئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكاٰنٍ بَعِيدٍ (٤٤) وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتاٰبَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَ لَوْ لاٰ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) مَنْ عَمِلَ صاٰلِحاً

فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسٰاءَ فَعَلَيْهٰا وَ مٰا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦)

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٤٩٣

اللغة:

خاشعة هامدة لا حياة فيها. و ربت زادت. و الإلحاد الانحراف عن الحق و المراد به هنا الطعن في القرآن. و حميد محمود. و الفرق بين الأعجم و العجمي ان الأعجم من لا يفصح و ان كان عربيا، و العجمي المنسوب الى العجم. و قد يطلق أحدهما على الآخر. و الوقر الصمم.

الإعراب:

المصدر من انك ترى مبتدأ و خبره من آياته. و ترى هنا بصرية تحتاج الى مفعول واحد و هو الأرض. و خاشعة حال. و آمنا حال من ضمير يأتي. و ان الذين كفروا بدل من ان الذين يلحدون، و خبر ان محذوف أي معذبون أو لا يخفون علينا، و قد حذف من الثاني لدلالة الأول عليه. و عزيز صفة لكتاب، و جملة لا يأتيه صفة ثانية، و تنزيل صفة ثالثة. و لولا أداة تحضيض بمعنى هلا.

و أعجمي خبر لمبتدأ محذوف و كذلك عربي أي أ كتاب اعجمي و نبي عربي.

فلنفسه متعلق بمحذوف خبرا لمبتدأ محذوف أي فعمله لنفسه.

الرحلة الى القمر:

(وَ مِنْ آيٰاتِهِ اللَّيْلُ وَ النَّهٰارُ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ. ذكر سبحانه في كتابه العزيز العديد من الآيات الكونية و دلالتها على الخالق و صفاته، و من تلك الآيات اختلاف الليل و النهار، و خلق الشمس و القمر. انظر تفسير الآية ٢٧ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٣٧ و تفسير الآية ٣٧ و ما بعدها من سورة يس و الآية ٥ من سورة الزمر و غيرها من الآيات التي فيها ذكر الليل و النهار و الشمس و القمر.

و لمناسبة ذكر القمر في هذه الآية نشير الى الحدث العالمي الهام، و هو رحلة رائدي الفضاء: «ونج» و «ادوين» الأمريكيين الى القمر في صيف سنة ١٩٦٩، و قد تكلم الناس عنها كثيرا، و سألني أكثر من واحد عن رأي الدين في هذه

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٤٩٥

الرحلة، و أجبت بكلمة نشرتها الصحف، ثم أدرجتها في المجلد الخامس من التفسير الكاشف بمناسبة بعض الآيات، و لما وصل اليها عامل المطبعة شعرت من أعماقي بناصح يأمرني بالعدول عنها فاستنصحته دون ان أعرف السبب.

و بعد الانتهاء من طبع المجلد الخامس بقليل ظهر لي ان الخير فيما وقع، ذلك اني قرأت في جريدة الأخبار المصرية عدد ٦- ٢- ١٩٧٠ مقالا مترجما عن جريدة برافدا السوفيتية لعالمين بارزين في العلوم الطبيعية، و هما «م فاسين» و «اشر باكوف» السوفياتيان .. اطلع هذان العالمان على النتائج التي أعلنها العلماء الامريكيون لدراسة تربة القمر و المعادن الموجودة في أرضه، و قالا: «ان هذه الدراسة ترفض كل النظريات الشائعة عن أصل القمر، و لا تقبل إلا تفسيرا واحدا، و هو ان القمر مصنوع صنعا دقيقا و محكما، و ان الذي صنعه قوة خارقة مذهلة تملك من الطاقات ما لا يملكه كائن من الكائنات»، و ينتج من هذا ان ما يعتقده الماديون عن الكون هو مجرد أوهام، و نقتطف من هذا المقال الكلمات التالية:

«ان الدراسات العلمية الحديثة ترفض كل ما قيل من النظريات و الافتراضات عن نشأة القمر، و تبدأ بفكرة جديدة لحل

هذا اللغز .. و تقول هذه الفكرة الجديدة:

ان صناعة القمر تمت بأيدي «كائنات» متقدمة في علومها و آلاتها الفنية .. ثم «فرملت» حركته بواسطة الأجهزة البالغة التقدم بداخله .. ان في القمر ظواهر غريبة يستحيل أن توجد بالصدفة، و قد اجتهد صانعو القمر كثيرا حتى توصلوا إليها».

«ان الغلاف الخارجي للقمر يتكوّن من طبقتين أساسيتين: الأولى طبقة عازلة للحرارة، سمكها حوالي ٤ كيلومترات، و الثانية سمكها ٣٠٠ كيلومتر، و فوقها أجهزة و آلات مختلفة تم تصميمها لحماية المحركات. فالقمر- اذن- مذهل الصنع يستطيع تحمّل السفر الطويل و التواجد في مكانه ملايين الملايين من السنين. و لكن يبقى هذا السؤال قائما، و هو إذا كان القمر قد صنعته «كائنات عاقلة متقدمة» فمن أين جاءت هذه الكائنات؟ و لما ذا تكبدت هذا المجهود لصنع هذا الكوكب؟

أ لمجرد ان يدور حول كوكبنا بالذات؟. و هنا لا تقدم النظرية الجديدة إجابات ..

و لكنها تعتقد ان أقرب الافتراضات إلى العقل من أي شيء آخر هو ان القمر مصنوع، و قد أحكمت صنعه قوة مذهلة».

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٩٦

هذا هو بيت القصيد و شاهدنا من المقال، أعني قول العالمين الشيوعيين:

«ان العقل يرفض كل افتراض و تفسير لوجود القمر إلا افتراضا واحدا، و هو ان القمر مصنوع، و ان الذي صنعه قوة مذهلة». أجل، هو مصنوع و صانعه لا شريك له و لا مثيل، و هندسته هي التي أرشدتنا إلى ذلك. أما قول العالمين:

صنعته كائنات متقدمة .. و فرملته أجهزة خارقة بالغة الدقة .. و ان صانعيه بذلوا جهدا كبيرا في صنعه لأجل إخراجه، أما هذا القول فإنه اعتراف صريح بأن ما في القمر من دقة و إحكام لا يكون و محال أن يكون إلا من لدن قدير حكيم ليس كمثله شيء، و هو الخلاق العليم .. و نحن على يقين بأننا سنقرأ في المستقبل القريب اعترافات أوضح تهدم أقوال الماديين و نظريات الملحدين، و تثبت بالحس و التجربة ان وراء هذا الكون قوة قاهرة تقول للشيء كن فيكون .. و هذه نتيجة لا مفر منها لتقدم العلوم و انطلاق العقل نحو الكون العجيب .. و هنا يكمن السر لقوله تعالى: أَ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ- ١٨٥ الأعراف. و قوله: هذا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ- ١١ لقمان. و قوله: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ- ٤ الرعد.

(لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لا لِلْقَمَرِ وَ اسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ.

ضمير الإناث في خلقهن يعود الى الليل و النهار و الشمس و القمر، أو إلى جميع الكواكب، و عبّر سبحانه عنها بالشمس و القمر لأنهما أظهر الأفراد .. و قد اتفق الفقهاء قولا واحدا على أنه يجب أن يسجد قارئ هذه الآية و من استمع اليها، و قال بعضهم: بل و من سمعها من غير قصد. و هي تخاطب الصابئة الذين عبدوا الكواكب لما فيها من المنافع، تخاطبهم و تقول لهم: ان اللّه هو الذي خلق الكواكب و سخرها لمنافع العباد، و ما هي إلا مخلوقات مثلنا تتوجه اليه تعالى بالسجود و تعترف له بالعبودية.

(فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ هُمْ لا يَسْأَمُونَ.

ضمير استكبروا يعود لعبدة الكواكب، و المعنى ان أصر هؤلاء على الشرك فإن اللّه غني عنهم و عن عبادتهم لأن له عبادا- الملائكة- لا يفترون عن التسبيح له ليلا و نهارا **(وَ مِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا**

الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. تكرر هذا المعنى

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٩٧

في العديد من الآيات و بأساليب شتى، منها الآية ٥ من سورة الحج ج ٥ ص ٣١١.

(إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا. طعن المشركون بالقرآن فقالوا: هو سحر، و قالوا: انه أساطير .. و اللّه عليم بأقوالهم، و سائلهم عنها، و آخذهم بها (أَ فَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ؟ و هذا السؤال يحمل جوابه معه، و أي عاقل يقول: النار خير من الجنة، و الخوف أحسن من الأمن؟ و لكن المجرمين ذهلوا عن هذه البديهة و انهم في واقعهم قد آثروا الجحيم على النعيم، و الخوف على الأمن (اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

هذا تهديد و وعيد بأنهم سيلاقون العذاب بعد أن ركبوا اليه طريق الكفر و الضلال (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ. المراد بالذكر القرآن، و خبر ان محذوف أي معذبون.

إسرائيل و القرآن:

(وَ إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ. وصف سبحانه القرآن بأنه عزيز و انه لا يأتيه الباطل، و معنى عزيز انه القاهر الغالب بحججه الواضحة و براهينه القاطعة، أما حفظه من الباطل فقد ذكر له المفسرون خمسة معاني، و أقربها ان كل ما فيه من عقيدة و شريعة و أنباء و غيرها فهو حق لا ريب فيه. و تقدم الكلام عن ذلك مفصلا عند تفسير الآية ٩ من سورة الحجر ج ٤ ص ٤٦٨. و ذكرنا هناك ان إسرائيل طبعت ألوف النسخ من القرآن، و شوهت بعض الآيات، منها الآية ٨٥ من سورة آل عمران التي صارت في قرآن إسرائيل: و من يبتغ غير الإسلام دينا يقبل منه. و قد حدث هذا سنة ١٩٦٨. فجمع الأزهر هذه النسخ و منعها من الانتشار، و لكن إسرائيل عادت ثانية و زوّرت سنة ١٩٦٩ آيات أخرى منها: وَ قالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِما قالُوا- ٦٤ المائدة فغيرت إسرائيل كلمة لعنوا الى كلمة «آمنوا» و غمرت بهذه النسخ أسواق لبنان و معظم البلاد العربية و ماليزيا و باكستان و الهند و أندونيسيا و غينيا و ساحل العاج و ايران .. و في هذا اليوم بالذات ٢٥- ٢- ٧٠ نشرت جريدة «النهار» البيروتية ان المحامي فاروق سعد أقام بوكالته عن مكتبة و مطبعة المشهد الحسيني بالقاهرة دعوى على مجهول بجرم تزوير طبعة القرآن الكريم

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٤٩٨

و تقليدها و تحريفها و تعديلها، و ان النسخ المحرفة طبعت في ألمانيا الغربية في مطبعة «كولونيا- دويتس».

و لم تقف إسرائيل في حربها للإسلام و المسلمين عند هذا الحد .. فأذاعت القرآن من اذاعتها محرفا، و قد ظلت اذاعة القاهرة شهرا كاملا تسجل القرآن من اذاعة إسرائيل .. و أيضا صممت إسرائيل «راديوهات» لا تلتقط إلا اذاعتها التي تحرف القرآن و باعتها بأبخس الأثمان .. فعلت إسرائيل هذا و أكثر من هذا تطبيقا للمبدإ الصهيوني الذي أعلنه أحد زعماء الصهاينة بقوله: «يجب أن نتخذ القرآن سلاحا مشهرا ضد الإسلام لنقضي عليه».

نذكر هذا كمثل للحرب التي تشنها إسرائيل على الإسلام .. عسى أن يعتبر به بعض الملوك و الرؤساء بل و بعض الشيوخ أيضا الذين يتسمون باسم الإسلام، و يعملون في الخفاء لصالح إسرائيل و من يساندها .. و طريف قول بعض الشيوخ المزيفين: ان إسرائيل أحسن من غيرها لأنها تذيع القرآن من اذاعتها .. أجل، يا شيخ انها تذيعه بل و تطبعه و

تنشره أيضا، و لكن مزيفا و محرفا لتقضي على الإسلام تماما كبعض المعمّمين المزيفين.

(ما يُقالُ لَكَ إِلاَّ ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ. قال مشركو الأمم السابقة لرسلهم و أنبيائهم: «قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه .. ما هذا إلا سحر مفترى ..

ان هذا إلا أساطير الأولين .. ان رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون الخ ..» و هكذا قال لك يا محمد طغاة قومك لأن الإله الذي أرسلك و أرسل من كان قبلك واحد، و رسالته واحدة، و مصلحة الطغاة التي تحول بينهم و بين اتباع الحق هي هي في كل زمان و مكان **(إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَ ذُو عِقابٍ أَلِيمٍ**. جمعت الآية بين ذكر الضدين: العفو عن الذنب إذا تاب صاحبه، و الأخذ به إذا أصر عليه .. و هكذا سبحانه في الكثير من الآيات يقرن الوعد بالوعيد و الترغيب بالترهيب كي يخشى العبد من عذاب اللّه فيتقيه، و لا يقنط من رحمته فيتوب و يؤوب.

(وَ لَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ ءَ أَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ. نزل القرآن على العرب بلغتهم التي يحبونها و يعتزون بها، فقال بعض طغاتهم لبعض:

«لا تسمعوا لهذا القرآن و الغوا فيه». و لو نزل بغير لغتهم لاعترضوا و قالوا:

أ نبي عربي و كتاب أعجمي؟ هكذا يعدون لكل باب مفتاحا، و لكل ليل مصباحا،

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٤٩٩

و لا هدف إلا الهروب من الحق.

(قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَ شِفاءٌ القرآن هدى لمن طلب الهدى و الحق لوجه الحق، و شفاء لمن طلب الشفاء من الكفر و النفاق. قال الإمام علي (ع): «ان في القرآن شفاء من أكبر الداء، و هو الكفر و النفاق و البغي». **(وَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى** القرآن هدى و نور للمخلصين، و عمى لعيون المنافقين، و صمم لأسماعهم، و مرض لقلوبهم **(أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ**.

ناداهم القرآن في الدنيا بدعوة اللّه فلم يستجيبوا له، حتى كأنه لا نداء، أو ان النداء بعيد لا تسمعه الآذان .. و أيضا سوف يناديهم المنادي يوم القيامة: ألا كل حارث مبتلى في حرثه و عاقبة عمله غير حرث القرآن كما في نهج البلاغة.

و قال المفسرون: ان قوله تعالى: **مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ** إشارة إلى أنهم لا يسمعون و لا يفهمون تماما كالذي يدعى بصوت بعيد عنه لا يسمعه و لا يفهمه .. و يلاحظ بأن هذا المعنى يناقض الغرض المطلوب من النداء لأنه غير مسموع. و الأرجح أن يكون قوله تعالى: من مكان بعيد إشارة الى أن الصيحة تأتي من السماء و لكن يسمعها الجميع، و يدل على ذلك قوله تعالى: يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ- ٤٢ ق.

(وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ. المراد بالكتاب التوراة، و قد اختلفوا فيها عند نزولها، فمن مصدق و مكذب، و كذلك اختلفوا في القرآن عند نزوله، فمن مؤمن به و كافر **(وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ**. لقد شاءت حكمته تعالى أن يؤخر عذاب المجرمين الى يوم يبعثون، و لولا ذلك ما ترك على ظهرها من طاغ و لا أثيم **(وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ**. ضمير انهم يعود لمشركي العرب، و ضمير منه للقرآن، و المراد بالشك هنا الجدل بغير العلم و الحق، و المعنى انهم يجادلون في القرآن، و لكن بالجهل و الباطل و تقدمت هذه الآية بنصها الحرفي في سورة هود الآية ١١٠ ج ٤ ص ٢٧٢ **(مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَساءَ فَعَلَيْها وَ ما رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ**. تكرر هذا المعنى في العديد من الآيات، منها الآية ٥٤ من سورة يس: فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ لا تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

و الآية ١٧ من سورة غافر: الْيَوْمَ تُجْزىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمٰا كَسَبَتْ لاٰ ظُلْمَ الْيَوْمَ و كثير غيرها من الآيات التي تنطق بأن الإنسان مخير غير مسير.

تفسير الكاشف، ج‌٦، ص ٥٠١

الجزء الخامس و العشرون

تفسير الكاشف، ج‌٦، ص ٥٠٣

[سورة فصلت (٤١): الآيات ٤٧ الى ٥٠]

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السّٰاعَةِ وَ مٰا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرٰاتٍ مِنْ أَكْمٰامِهٰا وَ مٰا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثىٰ وَ لاٰ تَضَعُ إِلاّٰ بِعِلْمِهِ وَ يَوْمَ يُنٰادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكٰائِي قٰالُوا آذَنّٰاكَ مٰا مِنّٰا مِنْ شَهِيدٍ (٤٧) وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَ ظَنُّوا مٰا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٤٨) لاٰ يَسْأَمُ الْإِنْسٰانُ مِنْ دُعٰاءِ الْخَيْرِ وَ إِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ (٤٩) وَ لَئِنْ أَذَقْنٰاهُ رَحْمَةً مِنّٰا مِنْ بَعْدِ ضَرّٰاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هٰذٰا لِي وَ مٰا أَظُنُّ السّٰاعَةَ قٰائِمَةً وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمٰا عَمِلُوا وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذٰابٍ غَلِيظٍ (٥٠)

اللغة:

المراد بالساعة هنا يوم القيامة. و الأكمام جمع كم بكسر الكاف، و هو غلاف الثمرة قبل ظهورها. و آذناك أعلمناك. و محيص مهرب. و لا يسأم لا يمل، و المراد بالخير هنا المال و الجاه و الصحة و الولد. و المراد بالرحمة كل ما يسرّ به الإنسان، و ضدها الضراء.

الإعراب:

و ما تخرج و ما تحمل «ما» نافية. من ثمرات «من» زائدة و ثمرات فاعل تخرج. و من أكمامها متعلق بمحذوف صفة لثمرات. و بعلمه متعلق بمحذوف حالا أي إلا كائنا بعلمه. و ما لهم من محيص «من» زائدة و محيص مبتدأ و خبره لهم.

تفسير الكاشف، ج‌٦، ص ٥٠٤

و من دعاء الخير أي من دعائه الخير. فيؤوس خبر مبتدأ محذوف أي فهو يؤوس.

و لئن اللام للقسم و ان شرطية. و ليقولن جواب القسم سادا مسدّ جواب الشرط.

المعنى:

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السّٰاعَةِ. لا أحد يعلم متى تقوم الساعة الا اللّه وحده. و في نهج البلاغة: أنتم و الساعة في قرن. و القرن الحبل أي ان الإنسان مقرون بها. و من مات فقد قامت قيامته **وَ مٰا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرٰاتٍ مِنْ أَكْمٰامِهٰا وَ مٰا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثىٰ** «١» **وَ لاٰ تَضَعُ إِلاّٰ بِعِلْمِهِ**. تقدم مثله في الآية ٥٩ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٠٠ **وَ يَوْمَ يُنٰادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكٰائِي قٰالُوا آذَنّٰاكَ مٰا مِنّٰا مِنْ شَهِيدٍ**. يسأل سبحانه غدا المشركين موبخا: أين ما كنتم تعبدون من دون اللّه؟ هل ينصرونكم أو ينتصرون؟

فيقولون للّه سبحانه: أخبرناك انه لا أحد منا يشهد في هذا اليوم ان لك شريكا **وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ**. لا يجد الإنسان يوم القيامة صنما و لا مالا و لا ولدا، و لا حيلة أو وسيلة، لا شيء إلا الحساب و الجزاء على الأعمال **وَ**

ظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ. ينكشف الغطاء غدا للمجرمين و يوقنون انه لا مفر من العذاب.

لا يَسْأَمُ الْإِنْسانُ مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ وَ إِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ. يلح الإنسان في طلب المال و الجاه و الصحة و الأمان، و يبالغ في ذلك بلا ملل و انقطاع، فإن أصيب بشيء من دنياه خارت قواه، و قنط من رحمة اللّه **وَ لَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي**. يطلب الدنيا بإلحاح، و ييأس ان فاته شيء منها، و ان أنجاه اللّه من محنة يقاسيها قال: نجوت بحولي و قوتي و لا فضل لأحد عليّ .. و لا يسلم من هذا الغرور القاتل إلا أهل الحق و العقل السليم.

---

(١). آخر ما توصلت اليه الأبحاث الطبية انه يمكن معرفة نوع الجنين: هل هو ذكر او أنثى ابتداء من الشهر الثالث. انظر تفسير الآية ٣٤ من سورة لقمان.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٥٠٥

وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى. ما زال الكلام للجاهل المغرور، و معناه- على لسانه- أنا الذي فعلت و فعلت في الحياة الدنيا، أما البعث بعد الموت الذي يخوفني منه المؤمنون به فهو وهم .. و ان صح فإن لي في الآخرة من الرزق و المكانة خيرا و أفضل لأني أهل لكل مكرمة ..

و إذا لم يكن لهذا الجهول من ذنب إلا هذه الغطرسة لكفى بها ذنبا. و تقدم هذا بصورة أوسع في الآيات ٣٢- ٤٤ من سورة الكهف ص ١٢٦- ١٣١.

فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِما عَمِلُوا وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ. ما من سيئة يقترفها الإنسان في هذه الحياة إلا و يجد علمها غدا عند اللّه، و هو سائله عنها و معاقبه عليها بما يستحق، فإن كانت من نوع الذنوب الكبار كالكفر و الشرك و الظلم أذاق اللّه صاحبها العذاب الأكبر، و ان كانت دون ذلك كان العذاب أخف مع العلم بأن كل بلاء دون النار عافية.

[سورة فصلت (٤١): الآيات ٥١ الى ٥٤]

وَ إِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَ نَأى بِجانِبِهِ وَ إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ (٥١) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (٥٤)

اللغة:

جانب الإنسان أحد شقيه، و نأى بجانبه كناية عن تعاظمه. و عريض كثير.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٥٠٦

أرأيتم اخبروني. و الشقاق البعيد، الخلاف مكابرة و عنادا. و الآفاق أقطار السموات و الأرض.

الإعراب:

فذو دعاء خبر لمبتدأ محذوف أي فهو ذو دعاء. و المصدر من انه الحق فاعل يتبين. و الباء في «بربك» زائدة و ربك فاعل يكف. و المصدر من أنه على كل شيء بدل من ربك. و ألا أداة تنبيه.

المعنى:

وَ إِذٰا أَنْعَمْنٰا عَلَى الْإِنْسٰانِ أَعْرَضَ وَ نَأىٰ بِجٰانِبِهِ وَ إِذٰا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعٰاءٍ عَرِيضٍ.

ان استغنى بطر و فتن، و ان افتقر قنط و وهن كما قال الإمام علي (ع). و تقدم مثله في سورة يونس الآية ١٢ ج ٤ ص ١٣٩ و سورة هود الآية ٩ ج ٤ ص ٢١٢ و سورة الإسراء الآية ٨٣ ج ٥ ص ٧٨.

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كٰانَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقٰاقٍ بَعِيدٍ. الخطاب في أرأيتم لمن كذّب بالقرآن، و الشقاق البعيد الخلاف مكابرة و عنادا .. أمر سبحانه نبيه الكريم أن يقول لهم: أ تزعمون ان القرآن أساطير؟ اخبروني ما ذا يكون حالكم و مآلكم ان كان القرآن حقا من عند اللّه، و أنتم تخالفونه مكابرة و عنادا .. ألا ترحمون أنفسكم، و تحتاطون لها من عذاب النار؟

الكون هو قرآن اللّه الكبير:

سَنُرِيهِمْ آيٰاتِنٰا فِي الْآفٰاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتّٰى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ. يقيم سبحانه الدليل لعباده كي يقنعهم بوجوده و صحة دينه و صدق كتبه و رسله، يقيم لهم الدليل على ذلك من الحس و المشاهدة من أنفسهم و من الكون الظاهر للعيان، و يكشف عما فيهما من الدلائل، فينبه العقول الى خلق السموات و الأرض، و اختلاف الليل

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٥٠٧

و النهار، و تصريف الرياح و السحاب، و إحياء الأرض بعد موتها، و حركة الكواكب و منافعها، و خلق الإنسان في أحسن تقويم، و ما إلى ذلك مما يدركه الإنسان بحواسه و يدل دلالة قاطعة على وجود اللّه، و انه هو وحده الخالق المهيمن على كل شيء.

و إذا كان اللّه سبحانه يعتمد على الدليل الحسي لاقناع عباده و يخاطبهم بقوله:

فَاعْتَبِرُوا يٰا أُولِي الْأَبْصٰارِ- ٢ الحشر أي العيون، و قوله أَ فَلٰا تُبْصِرُونَ ٢٧ السجدة إذا كان كذلك فكيف يقال: ان الدين غيب في غيب لا يعتمد على الحس و التجربة؟ كلا، انه يثبت بالحس و المشاهدة ما غاب عن العين تماما كما نثبت عقل العاقل من أقواله و أفعاله، و يثبت علماء الطبيعة بالحس الكثير من من الحقائق التي لا تدرك بالحس و العيان، و بهذا يتبين خطأ بعض الأدباء في قوله: «ان اللّه دائما يتقبل من الذين يؤمنون بالغيب دون حاجة الى برهان و دون حاجة الى عيان- مجلة صباح الخير ٢٦- ٢- ١٩٧٠» .. هذا، الى أن علماء المسلمين أجمعوا على وجوب النظر لمعرفة اللّه تعالى و الايمان به مستندين في ذلك الى حكم العقل و الآيات القرآنية، و لكن أديبا ما يقول العكس ..

و مع ذلك يتصدى لتفسير القرآن.

قال ابن عربي في الفتوحات المكية: انك لا تقدر أن تنكر ما ترى، كما انك لا تقدر أن تجهل ما تعلم، و أنت ترى الوجود، و تعلم به علم اليقين، و هو حروف و كلمات و سور و آيات تنطق بوجود كاتبها و هو اللّه و ان لم تره، فالوجود قرآن اللّه الكبير الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه. انظر تفسير الآية ٤ من سورة الأنعام ج ٣ ص ١٦١ فقرة «لا دكتاتورية في الأرض و لا في السماء».

أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ. بعد ان قال سبحانه أنه يقيم الدليل لعباده في آفاق السموات و الأرض و في أنفسهم على ان اللّه حق، و القرآن حق، و نبوة محمد حق، بعد هذا قال: و كفى بأدلته تعالى شاهد عدل و صدق على ذلك. و قال الصوفية في معنى الآية: ان اللّه هو الذي يشهد و يدل على وجود غيره، أما هو فلا يحتاج شاهدا من

غيره يدل عليه.

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۵۰۸

أَلٰا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقٰاءِ رَبِّهِمْ. إنما كذبوا بالقرآن لأنهم لا يؤمنون بالغيب و الجزاء .. و في هذا إشعار بأن من لا يؤمن بلقاء اللّه فلن يهتدي الى خير أَلٰا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ يعلم ظاهر العباد و باطنهم، و يجازي كلا بما كسبت يداه، ان خير فخير، و ان شرا فشر، و من أجل هذا يعذب الذين كفروا بلقائه، و كذبوا بكتابه جزاء بما كانوا يكسبون.

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۵۰۹

سورة الشّورى

۵۳ آية مكية. و قيل: إلا بضع آيات.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

[سورة الشورى (۴۲): الآيات ۱ الى ۸]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

حم (۱) عسق (۲) كَذٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۳) لَهُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (۴)

تَكٰادُ السَّمٰاوٰاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَ الْمَلٰائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلٰا إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (۵) وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيٰاءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَ مٰا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (۶) وَ كَذٰلِكَ أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرىٰ وَ مَنْ حَوْلَهٰا وَ تُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لٰا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (۷) وَ لَوْ شٰاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وٰاحِدَةً وَ لٰكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشٰاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظّٰالِمُونَ مٰا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَ لٰا نَصِيرٍ (۸)

اللغة:

حفيظ رقيب. و ما أنت عليهم بوكيل أي لست موكلا بهم. و أم القرى مكة.

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۵۱۰

الإعراب:

كذلك الكاف بمعنى مثل و محلها النصب صفة لمفعول مطلق محذوف أي ايحاء مثل ذلك. و اللّه فاعل يوحي. و الذين اتخذوا مبتدأ أول و اللّه مبتدأ ثان و حفيظ خبر المبتدأ الثاني و الجملة خبر المبتدأ الأول. و قرآنا مفعول أوحينا. و جملة لا ريب فيه صفة ليوم الجمع. و فريق مبتدأ و خبره محذوف أي منهم فريق. و من ولي «من» زائدة إعرابا و ولي مبتدأ و ما لهم خبر مقدم، و الجملة خبر الظالمون.

المعنى:

حم عسق. تقدم الكلام عن هذه الأحرف أو الكلمات في أول سورة البقرة، و قال بعض المفسرين: ان حم عسق هما اسمان لهذه السورة لبيان فضلها على سائر الحواميم. و قال الرازي: ان الكلام في أمثال هذه الفواتح يضيق، و فتح باب المجازفات مما لا سبيل اليه، فالأولى أن يفوض علمها إلى اللّه.

كَذٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. ان القوي القادر الذي يدبر الأمور وفق تقديره و حكمته قد أوحى اليك يا محمد و الى الأنبياء من قبلك ان لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الأَرْضِ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ. هو وحده مالك الكون بما فيه لا يملك معه أحد شيئا إلا ملكه تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ. المراد بالسماوات الكواكب العلوية، و ضمير فوقهن يعود اليها، و المعنى ان الكواكب التي يعلو بعضها بعضا تكاد تنشق من قول من قال: ان للّه أندادا. و مثله قوله تعالى: تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَداً- ٩٢ مريم ج ٥ ص ٢٠٠.

وَ الْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ. و لو كان للّه أنداد لما سبّحت الملائكة بحمد اللّه الذي لا إله سواه. قال الإمام علي (ع): لو كان للّه شريك لأتتك رسله، و لرأيت آثار ملكه و سلطانه، و لعرفت أفعاله و صفاته (و يستغفرون) أي الملائكة (لمن في الأرض) من المؤمنين و التائبين كما في الآية ٨ من سورة غافر:

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٥١١

يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ. إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ لا يمنع سائلا يسأله الرحمة و المغفرة أيا كان شريطة أن يسلك طريقهما، و هو التوبة و صدق النية.

وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ.

يقول سبحانه لنبيه: أنت مبلّغ تبشّر و تنذر فقط، و اللّه هو الذي يحصي على العباد أعمالهم و أقوالهم و مقاصدهم و يحاسبهم عليها. و تكرر هذا المعنى في العديد من الآيات. و ليس من شك انه لا قسر و لا جبر على الايمان، و لكن من يعتدي على حرمة الناس يجب تأديبه و ردعه لأنه هو الذي انتهك حرمة نفسه، و أيضا من يولد على الإسلام ثم يرتد عنه يجب قتله، و كذا المسلم إذا ترك الصلاة أو الصوم تهاونا فإنه ينبه و يعزر، فإن أصر يقتل بعد التنبيه الرابع.

و على هذا يتحتم تفسير الآيات التي قالت للنبي: ما أنت عليهم بوكيل، يتحتم تفسيرها و تخصيصها بغير هذه الموارد و ما اليها من المستثنيات، أو نقول: انها نزلت في زمان ما كان النبي يملك فيه القوة الرادعة المؤدبة.

وَ كَذٰلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرىٰ وَ مَنْ حَوْلَها أي لتبدأ يا محمد أول ما تبدأ بالدعوة الى الإسلام في بلدك مكة و البلدان التي حولها، ثم تنتشر في أرجاء العالم، كأية دعوة عامة تبتدئ حيث تولد، ثم تنطلق الى سائر الأقطار. انظر تفسير الآية ٩٢ من سورة الانعام ج ٣ ص ٢٢٥ وَ تُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ. يوم الجمع هو يوم القيامة الذي نفى سبحانه الريب عن وقوعه، و ميّز فيه أهل الجنة عن أهل النار، و انما سمي يوم الجمع لأن الخلائق تجتمع فيه للحساب و الجزاء: ذٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ- ١٠٤ هود.

وَ لَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً لو ان اللّه حمل الناس على دين واحد بالقسر و الجبر لزالت صفة الانسانية عن الإنسان حيث يكون، و هذه هي الحال، بلا ارادة و اختيار تماما كريشة في مهب الريح. و تقدم ذلك في الآية ٤٨ من سورة المائدة و الآية ٩٣ من سورة النحل و الآية ١١٨ من سورة هود، و تكلمنا عنه مفصلا عند تفسير الآية الأخيرة ج ٤ ص ٢٧٨ وَ لٰكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٥١٢

رَحْمَتِهِ و هم المؤمنون بدليل قوله تعالى: وَ أَطِيعُوا اللهَ وَ الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ- ١٣٢ آل عمران. وَ الظَّالِمُونَ ما لَهُمْ

مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ لأنهم استحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون.

[سورة الشورى (٤٢): الآيات ٩ الى ١٤]

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَ هُوَ يُحْيِ الْمَوْتى وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩) وَ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فاطِرُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَ مِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢) شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (١٣)

وَ ما تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١٤)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٥١٣

اللغة:

أنيب ارجع. و فاطر خالق و مبدع. و أزواجا الأولى الإناث، و الثانية الذكور و الإناث. و يذروكم يبرزكم الى الوجود نسلا بعد نسل. و مقاليد مفاتيح. و يقدر يضيق. و يجتبي يصطفي.

الإعراب:

أم اتخذوا «أم» بمعنى بل للانتقال من كلام الى كلام، و قيل هي بمعنى الهمزة فقط. و ما اختلفتم «ما» اسم متضمن معنى ان الشرطية، و يحتاج الى فعل الشرط و جوابه. و من شيء «من» بيان لما، أي كل شيء تختلفون فيه.

و ذلكم مبتدأ و اللّه خبر و ربي بدل و فاطر خبر آخر. و يذروكم فيه ضمير فيه يعود الى الجعل المفهوم من قوله تعالى جعل لكم. و كمثله الكاف زائدة اعرابا أي ليس مثله. و ان أقيموا «ان» مفسرة لشرع لكم. و بغيا مفعول من أجله لتفرقوا.

المعنى:

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَ هُوَ يُحْيِ الْمَوْتى وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. بعد أن قال سبحانه في الآية ٦: وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ أعاد هنا هذا القول و زاد عليه بأنه تعالى وحده الناصر و المعين و المحيي و المميت و القادر على كل شيء، أعاد مع هذه الزيادة بقصد الاستنكار على من اتخذ من دونه أولياء مع ان غير اللّه لا يحيي و لا يميت و لا ينصر و يعين لأنه لا يقدر على شيء.

وَ ما اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ. هذا حكاية لكلام الرسول الأعظم (ص) يخاطب به جميع الناس، و يقول لهم، ان كل شيء يختلف الناس في أنه حق أو باطل فالمرجع فيه إلى القرآن،

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٥١٤

فقوله الفصل، و حكمه العدل، و مثل هذه الآية قوله تعالى: فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ذلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلاً- ٥٩ النساء ج ٢ ص ٣٦٢.

فاطِرُ السَّماواتِ وَ الأَرْضِ خالقهما و مدبرهما، و لا فرق عند اللّه بين خلق السموات و الأرض و بين خلق النملة، فقد أحكم خلق هذه تماما كما أحكم خلق الكون **جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً** لتسكنوا اليها وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ- ٢١ الروم. **وَ مِنَ الأَنْعامِ أَزْواجاً** ذكورا و إناثا (يذروكم فيه) أي في هذا الجعل، و يذروكم هنا تتضمن معنى التكثير، أي ان اللّه جعل الناس ذكورا و إناثا و كذلك الأنعام ليتكاثر الناس و الأنعام، و هذا التكاثر نعمة من اللّه تعالى.

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لا في ذاته، و لا في صفاته لأنه فوق كل شيء و خالق كل شيء، لا إله إلا اللّه الواحد القهار **وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** يسمع الأقوال، و يبصر النوايا و الأفعال **لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَ الأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**. أرزاق السموات و الأرض بيد اللّه يبسطها لهذا، و يقبضها عن ذاك، و هو عليم بما تستدعيه الحكمة، و ليس من شك ان البلغة من المال مع الصحة و الأمان و الدين و الصلاح خير الف مرة من الكثرة مع الخوف و السقم و الكفر و الفساد. و تكلمنا عن الرزق بعنوان «الرزق و فساد الأوضاع» عند تفسير الآية ٦٦ من سورة المائدة ج ٣ ص ٩٤، و بعنوان «هل الرزق صدفة أو قدر» عند تفسير الآية ١٠٠ ص ١٣١ من نفس السورة و المجلد، و بعنوان «الإنسان و الرزق» عند تفسير الآية ٢٦ من سورة الرعد ج ٤ ص ٤٠١.

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ. أرسل سبحانه جميع الأنبياء بكلمة التوحيد و الايمان باليوم الآخر، و اقامة الصلاة و إيتاء الزكاة، و تحريم الظلم و الغش و الزنا و الكذب، و الأمهات و البنات و الأخوات، و ما إلى ذلك من أصول الدين و الشريعة دون فروعها التي تختلف و تتفاوت بحسب الظروف و المصالح، و أشار سبحانه إلى ذلك بقوله: لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً- ٤٨ المائدة

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٥١٥

ج ٣ ص ٦٨، و انما خص سبحانه بالذكر نوحا و ابراهيم و موسى و عيسى و محمد لأنهم من أولي العزم، و إلا فإن هذا الموصى به واحد الى جميع الأنبياء.

و إذا كان الإله واحدا، و الدين واحدا، و الدعوة واحدة فلما ذا التناحر و العداء في الدين؟ و ما هو المبرر لتلك الحروب الدينية التي سجلها التاريخ بأحرف الخزي و العار؟ و تكلمنا مفصلا عن دعوة الأنبياء و انهم على دين واحد بعنوان: «الدين عند اللّه الإسلام» ج ٢ ص ٢٦، و تكلمنا عن الاختلاف بين أهل الأديان و المذاهب في المجلد المذكور ص ٢٩ بعنوان: «تفترق أمتي ٧٣ فرقة» و في المجلد الأول ص ١٧٨ فقرة «احتكار الجنة»، و ص ١٨١ فقرة «كل يعزز دينه».

كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ يا محمد أولا لأنك لا تملك سلطانا و لا مالا. ثانيا انك تدعو الى الحق، و لا شيء أثقل منه على أهل الأهواء و الباطل. ثالثا و صمت آباءهم بالجهل و الضلال. **اللّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ**.

و قد اختار محمدا لأنه أهل لرسالته، و ختم به جميع الرسل حيث لا يقاس به أحد من الأولين و الآخرين **وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ**. كل من يلجأ الى اللّه بصدق و اخلاص يستجيب له و يهديه: وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ- ١١ التغابن.

وَ ما تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ. تقدم مثله في الآية ٢١٣ من سورة البقرة ج ١ ص ٣١٧ و الآية ١٩ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٢٨ **وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ**. تقدم في الآية ١٩ من سورة يونس ج ٤ ص ١٤٤ و الآية ١١٠ من سورة هود ج ٤ ص ٢٧٢ و الآية ١٢٩ من سورة طه ج ٥ ص ٢٥٣ و

الآية ٤٥ من سورة فصلت.

وَ إِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ. المراد بالذين أورثوا الكتاب اليهود و النصارى، و ضمير من بعدهم يعود إلى الأنبياء أو إلى الأمم السابقة، و ضمير منه يعود الى محمد المفهوم من قوله تعالى: **اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ** و المعنى ان أهل الكتاب جحدوا ما جاء به محمد (ص) على الرغم من شواهد البينات على نبوته و صدق رسالته.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٥١٦

[سورة الشورى (٤٢): الآيات ١٥ الى ١٨]

فَلِذلِكَ فَادْعُ وَ اسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَ قُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتابٍ وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنا وَ رَبُّكُمْ لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥) وَ الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ عَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ (١٦) اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَ الْمِيزانَ وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها وَ الَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها وَ يَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (١٨)

اللغة:

لا حجة بيننا أي لا خصومة و لا جدال. و يحاجون في اللّه يخاصمون في دينه.

استجيب له دخل الناس في الإسلام. حجتهم داحضة خصومتهم باطلة. و الميزان العدل. و الساعة القيامة. و مشفقون خائفون. و يمارون يجادلون.

الإعراب:

و الذين يحاجون مبتدأ أول، و حجتهم مبتدأ ثان، و داحضة خبره، و الجملة خبر المبتدأ الأول. و الميزان عطف على الكتاب. و لعل الساعة على حذف مضاف أي لعل مجيء الساعة.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٥١٧

المعنى:

فَلِذلِكَ فَادْعُ وَ اسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ. ذلك إشارة إلى دين اللّه و إقامته، و المعنى ادع يا محمد الى الدين الحنيف الذي وصى به سبحانه جميع الأنبياء، و اثبت عليه و على الدعوة اليه، و قال تعالى في الآية ١١٣ من سورة هود: فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ ج ٤ ص ٢٧٢ تماما كما في الآية التي نحن بصددها، و تكلمنا هناك عن الاستقامة و أقسامها.

وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ. النبي معصوم يتبع ما يوحى اليه، و لا يتبع هواه و لا هوى غيره .. و قلنا أكثر من مرة: ان النهي عن الشيء لا يدل على جواز وقوعه من المخاطب، و ان للأعلى أن ينهى غيره بما شاء. و تقدمت هذه الجملة بالحرف في الآية ٤٨ من سورة المائدة ج ٣ ص ٦٧ **وَ قُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتابٍ وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنا وَ رَبُّكُمْ لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ**. أعلن يا محمد على الملأ إيمانك بكل كتاب أنزله اللّه كائنا ما كان، و ان اللّه هو رب الجميع، و انك تحكم بين الناس بالعدل، فتنتصف للمظلوم

من الظالم، و تقتص للضعيف من القوي، و ان كان ذا قربى، و أعلن أيضا ان كل امرئ هو وحده المسئول عن عمله أمام اللّه، و انه لا خصومة بينك و بين أي انسان، و ان اليه تعالى مصير العباد، فيجازي كل نفس بما كسبت، و بهذا النهج القويم و المنطق السليم تقيم الحجة على أعدائك، و لا تبقي علة لمتعلل.

وَ الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ عَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ. كان أهل الكتاب يجادلون المسلمين و يحاولون أن يردوهم عن دينهم بعد أن هداهم اللّه الى الإسلام. و روى الطبري في تفسيره ان اليهود و النصارى قالوا للمسلمين: «كتابنا قبل كتابكم، و نبيّنا قبل نبيكم، فنحن خير منكم» .. و ليس هذا ببعيد عن جدال أعداء الحق و الدين، بل هو أقل ما ينتظر منهم .. و لكن حجتهم باطلة لأن الفضل يكون بالعمل لا بالوقت و تقدمه، و إلا كان إبليس أفضل من آدم، لأنه أقدم منه. و على أية حال فإن عاقبة من جادل بالباطل الى الوبال و الخسران دنيا و آخرة.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٥١٨

(اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَ الْمِيزانَ). المراد بالكتاب هنا القرآن، و معنى نزوله بالحق ان كل ما فيه حق، و أيضا يقر و يعترف بكل ما هو حق، و معنى نزوله بالعدل انه يفصل بين الناس بالعدل، فالعدل يحتاج الى طرفين دون الحق أي ان الحق أعم، فكل عدل يقال له حق، و ليس كل حق يقال له عدل ..

تقول: الشمس حق لأنها موجودة، و لا تقول: الشمس عدل **(وَ مَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ)**. هذا جواب قول المستهزئين: متى قيام الساعة؟ أما قربها فلأن كل آت قريب. و من مات فقد قامت قيامته.

(يَسْتَعْجِلُ بِهَا) استهزاء **(الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا)**. و كم من مستعجل امرا ودّ حين يدركه ان بينه و بينه بعد المشرقين **(وَ الَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَ يَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ)**. أجل، انهم يعرفون حقيقتها تماما كمن قد رآها، لذا خافوا منها، و مما قاله الإمام علي (ع) في وصفهم: «قد براهم الخوف بري القداح- أي السهام- ينظر اليهم الناظر فيحسبهم مرضى، و ما بالقوم من مرض، و يقول:

قد خولطوا، و لقد خالطهم أمر عظيم» و نظم هذا المعنى بعض الشعراء فقال:

يقال مرضى و ما بالقوم من مرض أو خولطوا خبلا حاشاهم الخبل

تعادل الخوف و الرجاء فلم يفرط بهم طمع يوما و لا وجل

(أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ)

. يمارون يجادلون، و في ضلال بعيد أي أوغلوا في الضلال لأنهم أنكروا النشأة الأخرى، و هم يرون النشأة الأولى.

[سورة الشورى (٤٢): الآيات ١٩ الى ٣٣]

اللهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩) مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَ مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (٢٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ وَ لَوْ لا

كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَ هُوَ واقِعٌ بِهِمْ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٥١٩

اللغة:

الحرث الكسب، يقال: فلان يحترث لعياله أي يكتسب لهم، و حرث الآخرة و الدنيا العمل لهما. و شرعوا بيّنوا و زيّنوا. و مشفقين خائفين.

الإعراب:

من نصيب «من» زائدة إعرابا و نصيب مبتدأ، و ما قبله خبر. و ضمير لهم للكفار، و ضمير شرعوا للشركاء. و كلمة مبتدأ و الخبر محذوف أي لولا كلمة الفصل موجودة أو سابقة.

المعنى:

(اللهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ). ذكر سبحانه في هذه الآية انه اللطيف الرزاق، و القوي العزيز، و المراد باللطيف البر، قال تعالى:

«إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ- ٢٨ الطور» و البر هو المحسن، و معنى الرزاق ان اللّه يهب الإنسان القوة و جميع الطاقات التي تؤهله للعمل من أجل الرزق، و يرشده إلى طريقه و سبيله، بالاضافة الى ان ما في الأرض و السماء من الخيرات هو من صنعه تعالى و فضله، أما القوي العزيز فهو الذي لا يقهر و لا يغلب، و لا يعجزه شيء في الأرض و لا في السماء.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٥٢٠

(مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَ مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ). من عمل للآخرة فله أجر ما عمل، و يزيده اللّه من فضله أضعافا، و لا ينقص من دنياه شيئا، و ليس من شك ان الكد في سبيل العيش من عمل الآخرة أيضا، و من أعرض عن الآخرة و عمل للدنيا وحدها تمتع فيها أياما قلائل، ثم يرتحل عنها الى عذاب مقيم .. و أسوأ حالا و مآلا من هذا الذين يتاجرون بالدين، و يطلبون الدنيا بعمل الآخرة نفاقا و رياء.

و تقدم مثله في الآية ١٤٥ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١٧٢ و الآية ١٨ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٣٢.

(أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ). أم استفهام توبيخ و انكار، و المراد بالشركاء هنا شياطين الانس و الجن، و شرعوا أي أغروا و زينوا، و المعنى لما ذا يعمل المجرمون للدنيا، و ينسون الآخرة؟ ألأن لهم شياطين يصدونهم عنها، و يوسوسون لهم بأشياء ما هي من دين اللّه في شيء؟ ثم هددهم سبحانه و توعدهم بقوله: **(وَ لَوْ لا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ)**. لقد شاءت حكمته تعالى أن يؤخر عذاب المجرمين إلى يوم يبعثون، و لولا ذلك لأخذ بنقمته كل معتد أثيم **وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ** في الآخرة، و القليل منه كثير بالنسبة إلى عذاب الدنيا.

تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَ هُوَ واقِعٌ بِهِمْ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ). تجري غدا عملية الإحصاء و الفرز لجميع الأعمال، فمن عمل صالحا فهو في أمن و جنان، له فيها ما أحب و أراد **ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ** و من عمل السيئات فهو في خوف من غضب اللّه و عذابه ..

و هذا العذاب محيط به لا محالة جزاء لما كسبت يداه.

أطعني تكن مثلي:

كنت من قبل في شك من حديثين ترددا كثيرا على سمعي، أولهما هذا الحديث القدسي: يا عبدي أطعني تكن مثلي تقل للشيء كن فيكون. و ثانيهما هذا الحديث

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٥٢١

النبوي: ان للّه عبادا إذا أرادوا أراد. شككت في سند هذين الحديثين لأني لم أجد لهما أي أثر في هذه الحياة .. ثم أدركت، و أنا أفسر آي الذكر الحكيم ان موضوع الحديثين الآخرة لا الدنيا، فزال الشك، و أيقنت ان كلا من الحديث القدسي و النبوي هو تفسير و بيان لقوله تعالى: **وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ** و نحوه من الآيات.

[سورة الشورى (٤٢): الآيات ٢٣ الى ٢٦]

ذلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى وَ مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ وَ يَمْحُ اللهُ الْباطِلَ وَ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٢٤) وَ هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَ يَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ وَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ (٢٥) وَ يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ الْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ (٢٦)

اللغة:

القربى القرابة. و يقترف يفعل أو يكتسب. و محو الباطل إزالته. و ذات الصدور الضمائر.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٥٢٢

الإعراب:

ذلك الذي مبتدأ و خبر. يبشر اللّه عباده صلة الموصول و العائد محذوف أي يبشر اللّه به عباده. إلا المودة في القربى استثناء منقطع أي لكن أسألكم المودة في القربى. و كذبا مفعول مطلق لافترى لأن الكذب و الافتراء بمعنى واحد. و يمح مستأنف و غير معطوف على جواب الشرط و هو يختم لأن محو الباطل مطلق لا يجوز تعليقه على شيء، و حذفت الواو من يمحو للاختصار مثل قوله تعالى: يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلى شَيْءٍ نُكُرٍ- ٦ القمر.

المعنى:

ذلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ. ذلك إشارة إلى الفضل الكبير الذي أعده اللّه في الآخرة للمتقين، و قد أنزله في كتابه بشرى لهم و لتطمئن قلوبهم.

قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى. جاء في تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي و روح البيان لإسماعيل حقي: «لما نزلت هذه الآية قيل: يا رسول اللّه من هم قرابتك الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال: علي و فاطمة و الحسن و الحسين». و قال ابن عربي في الجزء الرابع من الفتوحات بعنوان «لا تخونوا اللّه و الرسول»: سألنا رسول اللّه المودة في قرابته و أهل بيته، و هو واحد منهم، و حب أهل البيت لا يتبعض، فمن خان أهل البيت فقد خان رسول اللّه (ص). و بالملازمة من خان رسول اللّه فقد خان اللّه.

و نقل بعض المفسرين رواية، في سندها معاوية، و مؤدى هذه الرواية ان معنى الآية قل يا محمد لقريش: ناشدتكم الرحم أن لا تؤذونني.

و في تفسير غرائب القرآن و رغائب الفرقان لنظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري:

«عن سعد بن جبير: لما نزلت هذه الآية قالوا: يا رسول اللّه من هؤلاء الذين أوجب اللّه علينا مودتهم؟ فقال علي و فاطمة و ابناهما. و لا ريب ان هذا فخر عظيم و شرف تام: و يؤيده ما روي ان عليا شكا الى الرسول حسد الناس له.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٥٢٣

فقال النبي: أما ترضى أن تكون رابع أربعة أول من يدخل الجنة أنا و أنت و الحسن و الحسين، و أزواجنا عن أيماننا و شمائلنا و ذرياتنا خلف أزواجنا، و عن النبي (ص) حرمت الجنة على من ظلم أهل بيتي و آذوني في عترتي، و كان يقول فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها، و ثبت بالنقل المتواتر انه كان يحب عليا و حسنا و حسينا فوجب علينا محبتهم، و شرفا لآل الرسول ختم التشهد بهم، و الصلاة عليهم في كل صلاة، و قال الرسول (ص): مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركب فيها نجا، و من تخلف عنها غرق».

وَ مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً و مثله: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها- ١٦٠ الأنعام. **إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ** أي يثيب الشاكرين.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرىٰ عَلَى اللّهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَإِ اللّهُ يَخْتِمْ عَلىٰ قَلْبِكَ. قال المفترون: انك يا محمد تفتري على اللّه بدعوى النبوة .. و جهلوا ان اللّه قد عصمك عن الخطأ و الخطيئة، و انه لو حاولت الافتراء عليه- و فرض المحال غير محال- لطبع على قلبك و منعك عن ذلك بالقهر و الجبر **وَ يَمْحُ اللّهُ الْباطِلَ وَ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ.**

أنت يا محمد على حق، و أعداؤك على باطل، و يزهق اللّه الباطل و يحق الحق بالدلائل و البينات الواضحة الواقعة، و قد أيدك اللّه بها، و جعل كلمتك العليا و كلمة أعدائك السفلى على الرغم من كثرتهم و تظاهرهم عليك و على الإسلام **إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ** عليم بما تخفيه القلوب التي في الصدور، فيجري على أربابها ما يستحقونه من ثواب و عقاب.

وَ هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَ يَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ. من أذنب ثم تاب قبل اللّه توبته و صفح عن ذنبه ما عدا حق الناس، و أيضا إذا كان له حسنات و سيئات لا تتصل بحقوق الناس، و كانت بمقدار حسناته- عفا اللّه عنها جميعا، و أصبح كأنه لم يسيء و لم يحسن، و إذا كانت الحسنات أكثر بقي له منها ما زاد عن السيئات، و في الحالين يصدق عليه قوله تعالى: إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذٰلِكَ ذِكْرىٰ لِلذّاكِرِينَ- ١١٤ هود ج ٤ ص ٢٧٥ و قوله: خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ- ١٠٢ التوبة ج ٤ ص ٩٦ **وَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ** من الحسنات و السيئات، فمن ثقلت موازين سيئاته فهو من الخاسرين، و من ثقلت موازين حسناته فهو من المفلحين.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٥٢٤

وَ يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ الْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ. الذين آمنوا فاعل يستجيب، و المعنى ان المؤمنين يسمعون دعوة اللّه و يستجيبون لها، فيثيبهم على الاستجابة و الطاعة، و يزيدهم من فضله أضعافا ..

و المجرمون يعرضون عن دعوة اللّه، فيعذبهم على الإعراض و المعصية العذاب الأكبر.

[سورة الشورى (٤٢): الآيات ٢٧ الى ٣٥]

وَ لَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَ لكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) وَ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وَ يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَ هُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨) وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الأَرْضِ وَ ما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَ هُوَ عَلىٰ جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (٣٠) وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (٣١)

وَ مِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٣٢) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسَبُوا وَ يَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (٣٤) وَ يَعْلَمَ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِنا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٥)

اللغة:

بقدر بتقدير. و المراد بالدابة هنا كل ما فيه حياة فيشمل الملائكة و الطيور

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۵۲۵

و نحوها. و بمعجزين بجاعلين اللّه عاجزا عنكم. و الجوار السفن الجارية. و المراد بالأعلام الجبال «كأنه علم في رأسه نار» أي كأنه جبل. فيظللن يقمن.

و الرواكد الثوابت. و يوبقهن يهلكهن. و المحيص المهرب.

الإعراب:

الجوار مبتدأ و أصلها الجواري و حذفت الياء تخفيفا و في البحر متعلق بها.

و كالأعلام الكاف بمعنى مثل حالا من الجواري. فيظللن محلها الجزم جوابا للشرط.

و رواكد حال. و الضمير في ظهره إلى البحر. أو يوبقهن و يعف عطف على يظللن.

و يعلم بالنصب على حذف اللام أي ليعلم، و قيل بالعطف على محذوف أي لينتقم منه و يعلم الذين الخ.

المعنى:

وَ لَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ. لقد أناط سبحانه أرزاق العباد بكسبهم و عملهم، لا بإرادتهم و أهوائهم، و إلا عمت الفوضى و تفرغوا للفساد في الأرض **وَ لكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ** أي يرزقه على قدر عمله، و قد يرزق سبحانه الكثير من العمل القليل، أو القليل من العمل الكثير لحكمة هو بها أعلم، أما الثراء عن طريق الحرام كالغش و السلب و النهب فهو من رزق الشيطان، لا من عطاء الرحمن، كيف و قد توعد صاحبه بعذاب أليم **إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ.**

يعلم من يعيش على حساب المعدمين، و من يعيش بكد اليمين، و أعد للأول الخزي و العذاب، و للثاني الكرامة و الثواب.

وَ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وَ يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ بعد ان ذكر سبحانه الرزق قال: ان أسبابه كالمطر و غيره بيده تعالى يرسلها لمنافع الناس و مصالحهم، و يقبضها عنهم متى شاء، فإن تأخرت قليلا يئسوا و قنطوا، فيتداركهم برحمته التي وسعت كل شيء **وَ هُوَ الْوَلِيُّ** يتولى عباده بالإحسان (الحميد) المستحق للحمد و الشكر.

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۵۲۶

وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الأَرْضِ وَ ما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ. المراد بالسماء الشيء العالي كوكبا كان أو فضاء، و المراد بالدابة هنا كل ما فيه حياة طيرا كان أو ملكا أو أي حي من الأحياء التي تعيش في البر أو البحر أو الفضاء أو في

كوكب من الكواكب .. و كلها تنطق بوجود باريها و مصورها **وَ هُوَ عَلىٰ جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ** تماما كما قدر على خلقهم و بثهم في السموات و الأرض.

وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ. هذه الآية تدل بصراحة لا تقبل التأويل على ان الظلم و الفقر من صنع الناس لا من صنع اللّه، و من فساد الأنظمة و الأوضاع لا من حكم اللّه و شريعته حتى القحط و حبس الغيث سببه البغي و الفساد كما في الحديث .. و في كتاب اللّه: وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَ الإِنْجِيلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ- ٦٦ المائدة ج ٣ ص ٩٤ فقرة «الرزق و فساد الأوضاع» (و يعفو عن كثير) من الذنوب ما عدا الشرك و الظلم لأنه هو القائل: «لا يغفر ان يشرك به» و القائل: يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ- ٥٢ غافر.

وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ.

هذا تهديد و وعيد. و تقدم مثله بالحرف في الآية ٢٢ من سورة العنكبوت **وَ مِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ** جمع علم و هو الجبل، و إذا كانت السفينة من صنع الإنسان فإن الماء الذي تجري عليه، و الهواء الذي يدفعها هما من صنع اللّه تعالى، و كذا أخشابها و سائر أجزائها، و مثلها الطائرة التي تطير في فضاء اللّه، و السيارة التي تسير على أرض اللّه و غيرها و غيرها من الأدوات حتى الإنسان الذي صنعها و اخترعها، ذلك و غيره مظهر لقدرته تعالى و فيض من رحمته.

إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلىٰ ظَهْرِهِ. إذا أمسك الهواء أو جمد الماء وقفت السفينة عن الجري **إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**.

من صبر على التفكير و النظر الى الكون، و ما فيه من عجائب و أسرار- لا بد أن ينتهي الى الايمان باللّه و عظمته، و يشكره على فضله و هدايته.

أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسَبُوا وَ يَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ. أو يهلك أصحاب السفن بذنوبهم، و لكنه يعفو عن كثير أي لا يعاجلهم بالكثير من ذنوبهم **وَ يَعْلَمَ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِنا**

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٥٢٧

ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ. يعلم أي ليعلم على حذف اللام، و الذين يجادلون في آيات اللّه هم الذين يقولون: لا شيء يدل على ان اللّه موجود، و المعنى ان الكافرين لا يؤمنون باللّه، و يجحدون كل دليل ينطق بوجوده .. أجل، هناك سبيل واحد لايمانهم و اعترافهم، و هو أن يروا الهلاك عيانا و يعلموا انه لا مهرب لهم منه، مثل أن تقف بهم السفينة أو تعصف به الريح. و بكلمة لا يؤمنون حتى يروا العذاب.

[سورة الشورى (٤٢): الآيات ٣٦ الى ٤٣]

فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ ما عِنْدَ اللّٰهِ خَيْرٌ وَ أَبْقىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ وَ إِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَ الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ أَمْرُهُمْ شُورىٰ بَيْنَهُمْ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٨) وَ الَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) وَ جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها فَمَنْ عَفا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللّٰهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠)

وَ لَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولٰئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ

الْحَقِّ أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)

اللغة:

كبائر الإثم المعاصي العظيمة. و كل ما تجاوز في القبح فهو فحش. و المشاورة المفاوضة في الكلام لإظهار الحق. و المراد بالسبيل هنا العقاب. و عزم الأمور أحسنها.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٥٢٨

الإعراب:

فما أوتيتم من شيء «ما» شرطية و محلها النصب بأوتيتم لأن الفعل هنا بمعنى أعطيتم. فمتاع الحياة خبر لمبتدأ محذوف أي هو متاع. و الذين يجتنبون عطف على الذين آمنوا. و هم تأكيد لفاعل غضبوا. و الذين إذا أصابهم البغي ينتصرون، فيه تقديم و تأخير، و الأصل و الذين هم ينتصرون إذا أصابهم البغي. و لمن صبر بفتح اللام و هي للابتداء و من موصول في محل رفع بالابتداء، و الجملة من ان ذلك الخ خبر.

المعنى:

فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا. متاع الحياة كل ما تتمتع به في هذه الحياة من صحة و جاه و مال و نساء و أولاد و بناء و أثاث و غيره، و ملذات الدنيا و ان كثرت فهي الى زوال و نفاد، أما نعيم الآخرة فهو باق ببقاء اللّه: ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَ ما عِنْدَ اللهِ باقٍ- ٩٦ النحل. و قال تعالى: **وَ ما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَ أَبْقى**. و كل عمل يسد حاجة من حاجات الحياة فهو ذخيرة عند اللّه بالشروط التالية:

١- **لِلَّذِينَ آمَنُوا** باللّه، أما الذين كفروا به فلا شيء لهم عند اللّه إلا العذاب لأنهم لا يعترفون بوجوده. و في الحديث: من عمل لغير اللّه أوكله سبحانه لمن عمل، و يقال له غدا: خذ أجرك ممن عملت له.

٢- **وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** في جميع أمورهم، و لا يعتزون إلا بتقوى اللّه و مرضاته.

٣- **وَ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ**. و منها الظلم و الكذب و الزنا و الفساد. أنظر تفسير: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ- ٣١ النساء ج ٢ ص ٣٠٦ و تفسير: وَ لا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ- ١٥١ الأنعام ج ٣ ص ٢٨٣.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٥٢٩

٤- **وَ إِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ**. يكظمون الغيظ، و لا يغضبون إلا للّه.

٥- **وَ الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ** و لم يعصوه في أمر و لا نهي.

٦- **وَ أَقامُوا الصَّلاةَ**. و خصها سبحانه بالذكر لأنها عمود الدين، و كان النبي (ص) يعبر عنها بقرّة العين، و سماها بعض العارفين حقيقة المسلم.

٧- **وَ أَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ**. و كلمة أمرهم تومئ الى الصالح العام، و انهم يتعاونون يدا واحدة على العمل من أجله .. و لا صلة لهذا التشاور في حلال اللّه و حرامه لأنهما للّه وحده. انظر تفسير وَ شاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ- ١٥٩ آل عمران ج ٢ ص ١٨٩. و في نهج البلاغة: الاستشارة عين الهداية، و قد خاطر من استغنى برأيه.

٨- **وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ** في الخيرات و المبرات.

٩- وَ الَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ. و تسأل: ما هو وجه الجمع بين هذه الآية و قوله تعالى: وَ إِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ؟

الجواب: ان العفو عن السيئة يحسن حيث يكون سببا لاصلاح المسيء و انابته أو تفاديا لوقوع شقاق أو فتنة، و لا يحسن حيث يكون سببا لتمادي الطغاة و السفهاء.

قال الإمام علي (ع): الوفاء لأهل الغدر غدر عند اللّه، و الغدر بأهل الغدر وفاء عند اللّه. و تكلمنا عن ذلك مفصلا عند تفسير قوله تعالى: ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ- ٣٤ فصلت.

وَ جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها. و نحوه: فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ- ١٩٤ البقرة ج ١ ص ٣٠١ فَمَنْ عَفا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللّه. و مثله: وَ أَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى- ٢٣٧ البقرة. و أيضا: فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ- ٤٥ المائدة. إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. و المراد بالظالمين هنا الذين يتجاوزون الحد في القصاص و الانتقام.

وَ لَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إطلاقا، لا عتاب و لا عقاب لأن البادي هو الظالم، و للمظلوم كل الحق أن ينتصف لنفسه ممن ظلمه، بل إذا سكت عنه مع قدرته عليه فهو شريكه في الظلم، لأن سكوت المظلوم عن

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٥٣٠

الظالم تشجيع له، و لو علم الظالم ان المظلوم يستميت من أجل كرامته لتحاماه.

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ. قلنا فيما تقدم: ان الظالم بحكم الكافر عند اللّه، و ان نطق بالشهادتين .. أجل، انه يعامل في الحياة الدنيا معاملة المسلمين، أما في الآخرة فهو مع القوم الكافرين بشهادة العديد من آيات اللّه التي عبرت عن الكافر بالظالم، و عن الظالم بالكافر. أنظر ج ١ ص ٣٩٠ و ج ٥ ص ٤٧٨ وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ حيث يحسن الصبر و المغفرة إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ أي مما يحسن العزم و التصميم على فعله، و أفضل أنواع الصبر تحمّل الأذى في سبيل إحقاق الحق و إعلانه، و أفضل أنواع العفو ما كان سببا للقضاء على الفتن و الفساد.

[سورة الشورى (٤٢): الآيات ٤٤ الى ٥٠]

وَ مَنْ يُضْلِلِ اللّهُ فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَ تَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (٤٤) وَ تَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَ قالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ (٤٥) وَ ما كانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِياءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللّهُ فَما لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (٤٦) اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللّهِ ما لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَ ما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ وَ إِنَّا إِذا أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ (٤٨)

لِلّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَخْلُقُ ما يَشاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَ إِناثاً وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٥٣١

اللغة:

مرد مرجع. و نكير أي لا تنكرون أعمالكم. و حفيظ وكيل.

الإعراب:

ضمير عليها يعود الى النار المدلول عليها بكلمة العذاب. و خاشعين حال من مفعول تراهم لأن الرؤيا هنا بصرية تتعدى الى مفعول واحد. و حفيظا حال من كاف أرسلناك.

المعنى:

وَ مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمٰا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ. من سلك طريق الضلال بسوء اختياره حقت عليه كلمة اللّه بأنه من الضالين .. و لا يلومن إلا نفسه .. و من خذله اللّه و أخزاه فلن يجد من ينصره و ينقذه من هذا الخذلان **وَ تَرَى الظّٰالِمِينَ لَمّٰا رَأَوُا الْعَذٰابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ**؟ اعتزوا بأنفسهم، و شمخوا بأنوفهم بغيا و استكبارا في الحياة الدنيا، و لما حشرهم اللّه أذلة خاسئين تضرعوا و طلبوا الخلاص من العذاب أو الرجوع الى الدنيا ثانية .. و هكذا الطغاة يتعاظمون حيث لا قوة رادعة، و ينهارون إذا ظهرت لهم دلائلها.

وَ تَرٰاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهٰا خٰاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ. أقبلوا على النار بأعمالهم في تخوف و انكسار، يسترقون النظر الى جهنم، و فرائصهم ترتعد

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٥٣٢

من شدة الخوف، و من قبل كانوا بها يستهزئون **وَ قٰالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخٰاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ أَلٰا إِنَّ الظّٰالِمِينَ فِي عَذٰابٍ مُقِيمٍ**. قال المؤمنون هذا حين رأوا المجرمين يساقون الى عاقبة أعمالهم، قالوه حمدا للّه الذي أنجاهم من هذا الخزي و العذاب المقيم. و تقدم مثله في الآية ١٥ من سورة الزمر.

وَ مٰا كٰانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيٰاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ. الشرط الأساسي في الولي و الناصر أن يكون له شيء من القوة ينتصر بها لنفسه أو لغيره، و ما لأحد في ذاك اليوم حول و لا قوة **وَ مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمٰا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ** الى الخلاص من النار ..

و نفسر الضلال هنا بالنار لأن السياق يومئ اليه تماما كما هو في قوله تعالى:

كَذٰلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتٰابٌ- ٣٤ غافر أي يعذب اللّه.

اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لٰا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ مٰا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَ مٰا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ. كلف سبحانه العباد بما يعود عليهم بالنفع و الخير، و منحهم القدرة على ما كلفهم به، و أمهلهم ليعملوا و يتوبوا، و حذرهم عاقبة الإهمال و التقصير، و لم يدع لأحد حجة يلجأ اليها في يوم لا يرد فيه الإنسان الى حياته الأولى، و لا يستطيع انكار ما كسبت يداه **فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمٰا أَرْسَلْنٰاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاٰغُ**. المعنى واضح، و تقدم في العديد من الآيات، منها الآية ٨٠ من سورة النساء و ١٠٧ من سورة الأنعام.

وَ إِنّٰا إِذٰا أَذَقْنَا الْإِنْسٰانَ مِنّٰا رَحْمَةً فَرِحَ بِهٰا وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسٰانَ كَفُورٌ. المراد بالرحمة النعمة كالصحة و المال، و بالسيئة البلاء كالفقر و المرض، و بالإنسان أكثر أفراده أو الكثير منهم لأن الإنسان غير مجرم بطبعه و إلا سقط عنه التكليف كما بيّنا في ج ٤ ص ٤٤٩. و المعنى ان الجاهل الخاسر يفرح و يبطر بما يناله من حطام الدنيا، و يكفر إذا فاته شيء منه حتى و لو كان ذلك بسوء رأيه و هوى نفسه. و تقدم مثله في الآية ١٠ من سورة هود ج ٤ ص ٢١٢ و غيرها.

لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الأَرْضِ يَخْلُقُ ما يَشاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَ إِناثاً وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ. يزوجهم أي يجمع و يقرن بين نوعي الذكور و الإناث .. و ليس من شك ان الإنسان لا إرادة

تفسير الكاشف، ج ۶، ص ۵۳۳

له و لا اختيار في ان يجعل أولاده ذكورا أو إناثا أو هما معا، و لكن اللّه هو الذي يهبه الذكور فقط أو الإناث فقط أو هما معا أو يجعله عقيما من غير نسل، و حتى الآن لم يهتد الطب الى علاج العقم في الرجل أو المرأة، و قد التجأ الأطباء إلى التلقيح الصناعي إذا كان الزوج عقيما، و ذلك بأن تلقح زوجته بنطفة رجل أجنبي غير عقيم من دون مقاربة. و عقدنا فصلا مستقلا لهذا الموضوع في كتاب «الإسلام مع الحياة»، و أفتينا بتحريم التلقيح، و إذا حملت المرأة فلا يلحق الحمل بالزوج إجماعا، و يلحق بالأم.

[سورة الشورى (٤٢): الآيات ٥١ الى ٥٣]

وَ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَ لا الْإِيمانُ وَ لكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِراطِ اللهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ أَلا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣)

الإعراب:

المصدر من أن يكلمه اسم كان، و لبشر متعلق بمحذوف خبرها أي ما كان تكليم اللّه واقعا لبشر. و إلا وحيا استثناء منقطع لأن الوحي غير التكليم. أو يرسل بالنصب عطفا على «وحيا» لأن المعنى الا أن يوحي. و لا يجوز عطف يرسل على أن يكلمه إذ يصير المعنى ان اللّه لا يكلم بشرا و لا يرسل إليه رسولا.

و صراط اللّه بدل من صراط مستقيم.

تفسير الكاشف، ج ۶، ص ۵۳۴

المعنى:

وَ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ. يطلق كلام اللّه سبحانه على العديد من المعاني، منها قضاؤه و قدره: وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ .. و الخلق و الإيجاد: وَ كَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ. و الحق: وَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيا ..

و الكون الذي أوجده بكلمة «كن». و الإلهام: أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً كما يأتي .. و من كلام اللّه الكلام المسموع: يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ.

و هذا الكلام هو الذي يسمعه النبي من وراء حجاب أو يرسل اللّه به الى النبي رسولا.

و قد ذكر سبحانه في الآية التي نحن بصددها- ثلاثة أوجه لتكليمه الرسل، و كيفية اتصاله بهم: الأول إلقاء المعنى في قلب النبي مباشرة و من غير واسطة، و هذا هو المراد بقوله: «إلا وحيا». الثاني أن يخلق اللّه الكلام كما يخلق غيره من الكائنات، فيسمعه النبي لا بواسطة رسول من اللّه بل من وراء حجاب أي ان النبي يسمع الكلام و لا يرى المتكلم، و هذا هو المقصود من قوله تعالى:

وَ كَلَّمَ اللهُ مُوسىٰ تَكْلِيماً- ١٦٤ النساء. الثالث أن يرسل سبحانه الى رسوله ملكا يبلغه رسالات ربه. قال الملاّ صدرا في الأسفار: «إياك أن تظن ان تلقّي النبي (ص) كلام اللّه بواسطة جبريل و سماعه منه كاستماعك من النبي، أو تقول ان النبي (ص) كان مقلدا لجبريل».

و ليس من شك انه لا يظن هذا الظن أو يقول هذا القول إلا جاهل .. لأن ما بلّغه جبريل لمحمد (ص) هو كلام اللّه بالذات، و وعاه الرسول الأعظم على حقيقته، و عليه تكون معرفة الرسول بكلامه تعالى هي عين كلام اللّه، و كلام اللّه هو عين معرفة الرسول.

وَ كَذٰلِكَ أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنٰا. المراد بالروح هنا القرآن لأنه حياة للأرواح و الأبدان أيضا، قال الإمام علي (ع): كتاب اللّه تبصرون به، و تنطقون به، و تسمعون به **مٰا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتٰابُ وَ لاَ الْإِيمٰانُ**. المراد بالكتاب القرآن، و بالايمان شريعة اللّه التي بينها سبحانه لنبيه الكريم بعد أن اختاره سبحانه

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٥٣٥

لرسالته، و قد اختلفوا في تفسير هذه الآية على أقوال أنهاها الرازي الى خمسة و أرجحها- فيما نرى- قول الشيخ إسماعيل حقي في تفسير روح البيان، و هذا نصه «المراد بالايمان تفاصيل ما جاء في القرآن التي لا تهتدي اليها العقول، لا الايمان بما يستقل به العقل و النظر، لأن دراية النبي (ص) لا ريب فيها، و قد أجمع أهل الوصول- الى معرفة اللّه و أنبيائه- على ان الرسل كانوا مؤمنين قبل الوحي معصومين من الكبائر و الصغائر الموجبة لنفرة الإنسان عنهم قبل البعثة و بعدها فضلا عن الكفر».

وَ لٰكِنْ جَعَلْنٰاهُ- أي القرآن- **نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِنٰا** و هم الذين طلبوا الهداية بتجرد و اخلاص و الحق لوجه الحق، أما من عاند و تمرد فيدعه اللّه و شأنه: إِنَّ اللهَ لاٰ يَهْدِي مَنْ هُوَ كٰاذِبٌ كَفّٰارٌ- ٣ الزمر. **وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرٰاطِ اللهِ**. النبي (ص) يدعو الى الإسلام دين اللّه و صراطه القويم، و من سلك هذا الصراط فقد سلك الطريق الواضح الى اللّه، و أمن جميع العواقب **الَّذِي لَهُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ أَلاٰ إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ**.

ان دعوة رسول اللّه هي السبيل الى مالك الكون و جامع الخلق في يوم لا ريب فيه، فمن استمع لدعوة رسوله و أجاب فهو غدا مع الصدّيقين و النبيين و حسن أولئك رفيقا، و من نكص عنها و نأى فهو في نار جهنم ضجيع حجر و قرين شيطان.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٥٣٦

سورة الزّخرف

٨٩ آية مكية. و قيل: إلا آية واحدة.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ١ الى ١٤]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

حم (١) وَ الْكِتٰابِ الْمُبِينِ (٢) إِنّٰا جَعَلْنٰاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتٰابِ لَدَيْنٰا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤)

أَ فَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ (٥) وَ كَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٧) فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَ مَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (٨) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩)

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) وَ الَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) وَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَ الْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَ تَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَ ما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَ إِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ (١٤)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٥٣٧

اللغة:

أ فنضرب عنكم أي أ نعرض عنكم و نترككم. صفحا إعراضا. مسرفين متجاوزين الحد. مثل الأولين بفتح الثاء وصفهم و حالهم. مهدا فراشا. بقدر بمقدار.

فأنشرنا فأحيينا. و الأزواج الأصناف. لتستووا لتستقروا مثل و استوت على الجودي.

سخّر ذلّل. مقرنين مطيقين. و منقلبون راجعون.

الإعراب:

و الكتاب الواو للقسم. و جعلناه هنا بمعنى أنزلناه كما في الآية ٢ من سورة يوسف و ١١٣ من سورة طه، و قرآنا حال، و عربيا صفة. و لعليّ حكيم خبر انه. و في أم الكتاب متعلق بعلي و اللام لا تمنع من ذلك على حد تعبير البيضاوي.

و لدينا بدل من أم الكتاب. و صفحا مفعول مطلق لنضرب لأنهما بمعنى واحد.

و أن كنتم «أن» مصدرية و المصدر المنسبك مفعول من أجله لنضرب أي أ فنضرب عنكم الذكر صفحا من أجل كونكم قوما مسرفين. و كم خبرية و محلها النصب بأرسلنا، و من نبي تمييز. و بطشا تمييز.

المعنى:

(حم) تقدم الكلام في مثله في أول سورة البقرة **وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ**. هذا قسم منه تعالى بالقرآن الذي فيه بيان الهدى و الضلال، و الحلال و الحرام **إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**. تقدم مثله في الآية ٢ من سورة يوسف ج ٤ ص ٤٨٦ و الآية ١١٣ من سورة طه ج ٥ ص ٢٤٧ و الآية ٣ من سورة حم السجدة و الآية ٧ من سورة الشورى. و تكلمنا كثيرا حولها، و ليس لدينا الآن من مزيد.

(وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ). ضمير انه للقرآن، و أم الكتاب أصله .. و ليس من شك ان علم اللّه سبحانه هو الأصل لجميع الكتب السماوية ..

و وصف سبحانه القرآن بالعلي لأنه يعلي و يرفع من شأن الذين يستمعون له و يعملون

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٥٣٨

به، و قد رأينا كيف أخرج العرب من جاهلية جهلاء إلى حضارة زاهرة، و كيف نشر سلطانهم و لغتهم في شرق الأرض و غربها حين أحلّوا حلال القرآن، و حرموا حرامه .. و أيضا وصفه تعالى بالحكيم لأنه ساوى بين الناس دون استثناء، و

دعا الى التسامح، و حث على العمل النافع، و التعاون لمصلحة الانسانية جمعاء.

أَ فَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ. بعد ان ذكر سبحانه القرآن، و انه الناصح الأمين قال للذين كذبوا به من مشركي العرب: ما ذا ترون؟

أ نترك تذكيركم بالقرآن لا لشيء إلا لأنكم أسرفتم على أنفسكم و ظلمتموها بالجهل و الضلال؟ بل أنتم أولى بالتذكير من غيركم **وَ كَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ**.

انهم كثيرون، و قص سبحانه على نبيه أخبار العديد منهم، و قال له: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ- ٧٨ غافر.

وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ. تماما كما استهزأ بك قومك يا محمد .. فلا يشقّنّ ذلك عليك .. و لا بدع في ذلك .. انه الصراع بين أهل الضلالة و العمى و بين دعاة الحق و العدل في كل زمان و مكان **فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً** أهلك سبحانه الطغاة الأشداء من الأمم الماضية انتصارا للأبرار الضعفاء **وَ مَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ** أي و قصصنا في القرآن حال المكذبين الأولين و إهلاكهم لعل قومك يتذكرون و يتعظون.

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ.

تقدم مثله في الآية ٦١ من سورة العنكبوت و الآية ٢٥ من سورة لقمان و الآية ٣٨ من سورة الزمر **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَ الَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ تُخْرَجُونَ**. تقدم في الآية ٩٩ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٣٤ و الآية ٣ من سورة الرعد ج ٤ ص ٣٧٤ و الآية ٥٣ من سورة طه ج ٥ ص ٢٢٣ **وَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها** أي الأصناف من الحيوان و النبات و الجماد.

وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَ الْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ. بعد أن ذكّرهم سبحانه بنعمة الماء و الأرض، و انهم يأكلون منها و يلبسون و يشربون- ذكّرهم بنعمة

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٥٣٩

المواصلات، و خص الفلك و الأنعام بالذكر من باب المثال لا من باب الحصر لأن غيرهما كالسيارة و الطائرة لم يكن معروفا في ذلك العهد **لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ** ضمير ظهوره يعود الى الاسم الموصول، و هو ما تركبون **ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ** الاستواء الاستقرار، و عليه أي على ما تركبون.

وَ تَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَ ما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَ إِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ أي راجعون، و مقرنين مطيقين. و في نهج البلاغة: «اللهم اني أعوذ بك من و عثاء السفر، و كآبة المنقلب و سوء المنظر في الأهل و المال، اللهم أنت الصاحب في السفر، و أنت الخليفة في الأهل، و لا يجمعهما- و هما الصحبة في السفر و البقاء عند الأهل- غيرك لأن المستخلف لا يكون مستصحبا، و المستصحب لا يكون مستخلفا».

و علّق الشيخ محمد عبده على ذلك بقوله: «أول هذا الكلام مروي عن رسول اللّه (ص)، و أتمه أمير المؤمنين بقوله: و لا يجمعهما الخ و ذات اللّه تستوي عندها الأمكنة كما تستوي الأزمنة، فالسفر و الحضر عندها سواء».

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ١٥ الى ٢٥]

وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (١٥) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَ أَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ (١٦) وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَ وَ مَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَ هُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ

(١٨) وَ جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَ يُسْئَلُونَ (١٩)
وَ قالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَ كَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (٢٤)
فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢٥)

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۵۴۰

اللغة:

المراد بالجزء هنا البنات لقوله تعالى بلا فاصل: أم اتخذ مما يخلق بنات.

و أصفاكم خصكم. و مثلا شبيها. و وجهه مسودا كناية عن الهم و الغم. و كظيم ممتلئ غيظا. و الحلية زينة الأنثى، و البنت هي التي تنشأ و تتربى فيها. و هو في الخصام غير مبين أي يجادل بغير علم. أشهدوا أحضروا. و يخرصون يكذبون.

و على أمة أي ملة و طريقة.

الإعراب:

بنات مفعول اتخذ، و في الكلام تقديم و تأخير أي أم اتخذ بنات مما يخلق.

و مسودا خبر ظل. و جملة و هو كظيم حال. أو من ينشأ الهمزة للإنكار و التوبيخ و من مفعول لفعل محذوف، و المراد بها الأنثى، أي أو قد جعل الأنثى للّه.

و ان هم «ان» نافية. و كذلك خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر مثل ذلك.

المعنى:

وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۵۴۱

وَ أَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ. المراد بالجزء هنا الولد لأنه بضعة من والده، أما قوله تعالى:

مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ فيتضمن الدليل على فساد زعمهم بأن للّه ولدا لأن المخلوق لا يكون جزءا من الخالق كما لا يكون البيت جزءا من بانيه، و لم يكتف المشركون بهذا الافتراء حتى خصوا اللّه بما يكرهون من الأولاد، و أنفسهم بما يحبون ..

و تقدم مثله في الآية ١٠٠ من سورة الانعام ج ٣ ص ٢٣٧ و الآية ٤٠ من سورة الاسراء ج ٥ ص ٤٦ و الآية ١٥٢ من سورة الصافات.

وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ

فاعل ضرب ضمير مستتر يعود على أحدهم .. بعد أن وصف سبحانه بالكفر الواضح من أشرك و قال: اتخذ الرحمن ولدا- ذمّ من يحزن و يكتئب إذا ولدت له أنثى، و في الوقت نفسه يفتري على اللّه و يقول: اتخذ مما يخلق بنات. و تقدم مثله في الآية ٥٧ من سورة النحل ج ٤ ص ٥٢٣.

أَ وَ مَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَ هُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ. أ تنسب للّه أيها المشرك الجاهل الإناث التي تتحلى بالزينة، و إذا حاجّك و خاصمك في ذلك مخاصم عجزت عن الحجة و الدليل؟ و قال المفسرون: ضمير هو يعود الى الأنثى بالنظر إلى أن لفظ «من» مذكر، و عليه يكون المعنى ان الأنثى ناقصة العقل تعجز عن إيراد الدليل على قولها عند المخاصمة و المنازعة، و مع ذلك يقول المشركون: انها بنت اللّه ..

و ظاهر السياق يرجح هذا التفسير.

وَ جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ؟ كيف تجرأ المشركون على القول: ان الملائكة بنات اللّه؟ فهل كانوا عند اللّه حين خلق الملائكة أو أخبرهم بذلك شاهد عيان؟. و صدق من قال: كذب الإنسان على مثله و على ربه و على ملائكته و رسله، و أيضا كذب على نفسه. و مثل هذه الآية قوله تعالى: أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَ هُمْ شاهِدُونَ- ١٥٠ الصافات سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَ يُسْئَلُونَ. ان اللّه لا يخفى عليه شيء فهو يعلم افتراءهم عليه و على ملائكته، و غدا يسألهم عنه و يحاسبهم عليه.

وَ قالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ. زعموا ان اللّه راض عن عبادة الأصنام و الملائكة، و إلا ردعهم عن ذلك بالقهر و القوة .. و جهلوا انه تعالى لو فعل ذلك لكان الإنسان أشبه بالجماد لا يستحق ثوابا و لا عقابا. و تقدم مثله في الآية

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٥٤٢

١٤٨ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٧٨ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ.

نسبوا شركهم و ضلالهم إلى اللّه تعالى علوا كبيرا .. و جهلوا انه جل و عز أمر و نهى تكليفا و إرشادا، و ترك التنفيذ لارادة المكلف لتظهر أفعاله التي يستحق عليها الثواب و العقاب.

أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ؟ كلا، لا دليل لهم من العقل و لا من النقل على ما يزعمون إلا هذا الدليل بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ. فتقليد الآباء هو ملجأهم الأول و الأخير.

و قد حكى اللّه سبحانه قولهم هذا في العديد من الآيات، منها الآية ١٧٠ من سورة البقرة و ١٠٥ من سورة المائدة و ٥٣ من سورة الأنبياء و ٢١ من سورة لقمان و غيرها. و عقدنا فصلا خاصا للكلام عن التقليد و أقسامه في ج ١ ص ٢٥٩.

وَ كَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ. هذا منطق الانتهازيين و النفعيين منذ وجدوا و الى آخر يوم. أنظر ج ٤ ص ٤٠٥ فقرة «تفكير الطغاة» و ج ٥ ص ٣٠ فقرة «المترفون» و ص ٤٥٣ فقرة «منطق أرباب المال: بنك و عقار» قالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ. و يومئ هذا إلى صحة التقليد إذا كان المقلّد على هدى من ربه، و على فساد التقليد إذا كان المقلد ضالا مضلا.

قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ. و الذي نفهمه من قولهم هذا انهم يكفرون بالحق أينما كان و يكون حتى و لو كان مع الآباء، و انهم لا يؤمنون بشيء إطلاقا إلا بمكاسبهم و منافعهم، أما التذرع بدين الآباء فهو لمجرد الخوف أن يظهروا للملإ على حقيقتهم، و قد رأينا الكثير من الأبناء يسخرون من الآباء و تقاليدهم، لا لشيء إلا لأنها تصطدم مع ميولهم و رغباتهم .. و لا جزاء لمن عاند الحق إلا القسوة و العنف فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ انها خزي و جحيم من غير شك.

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٢٦ الى ٣٥]

وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَ جَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَ آباءَهُمْ حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُبِينٌ (٢٩) وَ لَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ قالُوا هذا سِحْرٌ وَ إِنَّا بِهِ كافِرُونَ (٣٠)

وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَ لَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَ مَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ (٣٣) وَ لِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَ سُرُراً عَلَيْها يَتَّكِؤُنَ (٣٤) وَ زُخْرُفاً وَ إِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥)

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۵۴۳

اللغة:

براء بفتح الباء مصدر يستوي فيه التذكير و التأنيث و الافراد و التثنية و الجمع، تقول: انا براء مما تعملون، و أنتم براء مما أعمل أي أنا بريء و أنتم بريئون أو أنا ذو براء، و أنتم ذوو براء. و فطرني خلقني. و في عقبه في ذريته. و من القريتين على حذف مضاف أي احدى القريتين، و هما مكة و الطائف. و المراد برحمة ربك هنا النبوة. و سخريا هنا بمعنى التسخير، لا بمعنى الاستهزاء. و معارج جمع معرج و هو الدرج. و عليها يظهرون أي يصعدون. و سرر و أسرة جمع سرير. و الزخرف الزينة.

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۵۴۴

الإعراب:

هؤلاء إشارة إلى مشركي مكة. و لولا نزل «لولا» أداة طلب مثل هلا.

و لولا أن يكون «لولا» هذه تدل على امتناع الثاني لوجود الأول، و المصدر من أن يكون مبتدأ و الخبر محذوف أي لولا كراهية كون الناس الخ حاصل أو لولا رغبة الناس في الكفر حاصلة، و لبيوتهم سقفا أي على بيوتهم سقفا كما قيل. و ان كل «ان نافية» و لما بالتشديد بمعنى إلا.

المعنى:

وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ. كان قوم ابراهيم يعبدون الأصنام، و منهم أبوه كما يدل ظاهر الآية، فنهاهم عن عبادتها، و أعلن براءته منهم و من آلهتهم، و انه يعبد اللّه الذي خلقه على فطرة التوحيد، و انه سيهديه و يرشده إلى ما فيه خيره و صلاحه، و قوله:

«سيهدين» يومئ إلى يقينه و ثقته باللّه .. و هكذا كل من طلب الهدى و الحق بإخلاص يثق بأن اللّه معه و كافيه و هاديه لقوله تعالى: وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ .. إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ .. إِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ. و تقدم مثله في الآية ٧٤ من سورة الأنعام ج ٣ ص ١١٢ و الآية ٤٢ من سورة مريم و ٥٢ من سورة الأنبياء و ٧٠ من سورة الشعراء و ٨٥ من سورة الصافات.

وَ جَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ. ضمير جعلها يعود إلى كلمة التوحيد التي دل عليها قوله: **إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ** و

المراد بجعلها وصى بها لقوله تعالى في الآية ١٣١ من سورة البقرة: وَ وَصَّى بِهٰا إِبْرٰاهِيمُ بَنِيهِ وَ يَعْقُوبُ يٰا بَنِيَّ إِنَّ اللّٰهَ اصْطَفىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلاٰ تَمُوتُنَّ إِلاّٰ وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ .. (لعلهم يرجعون).

هذا تعليل لوصية ابراهيم، و المعنى انما وصى ابراهيم بنيه بكلمة التوحيد ليعملوا بها، و إذا أشرك واحد منهم أو حاول يذكّر بوصية أبيه، و يقال له: انك خالفت ما وصى به ابراهيم. و قد حدث ذلك بالفعل: قُلْ صَدَقَ اللّٰهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرٰاهِيمَ حَنِيفاً وَ مٰا كٰانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ- ٩٥ آل عمران .. مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرٰاهِيمَ هُوَ سَمّٰاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ- ٧٨ الحج.

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۵۴۵

لما ذا كرم اللّه وجه علي؟

في العام الماضي ١٣٨٩ هـ صمت رمضان المبارك في (دبيّ) بدعوة من أهلها، و قد وجه إليّ الشباب العديد من الأسئلة منها هذا السؤال: لما ذا يقول السنة عند ذكر بعض الصحابة: رضي اللّه عنه، و يقول الشيعة عند ذكر أحد الأئمة: عليه السلام؟

فأجبت بأن كلا من السنة و الشيعة يستقون من القرآن الكريم، و قد جاء فيه:

رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ- ١١٩ المائدة و أيضا جاء فيه:

وَ سَلاٰمٌ عَلىٰ عِبٰادِهِ الَّذِينَ اصْطَفىٰ- ٥٩ النمل فأخذ الشيعة بهذه الآية، و أخذ السنة بتلك .. و حين بلغت بالتفسير الى قوله تعالى: **لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** قرأت في تفسير روح البيان للشيخ إسماعيل حقي من علماء السنة- ما نصه بالحرف:

«قال بعضهم في سبب تكريم وجه علي بن أبي طالب بأن يقال: كرّم اللّه وجهه: انه نقل عن والدته فاطمة بنت أسد أنها كانت إذا أرادت أن تسجد للصنم، و علي في بطنها يمنعها من ذلك».

بَلْ مَتَّعْتُ هٰؤُلاٰءِ وَ آبٰاءَهُمْ حَتّٰى جٰاءَهُمُ الْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُبِينٌ. هؤلاء اشارة الى مشركي قريش، و هم من ذرية ابراهيم (ع)، و المراد بالحق هنا القرآن، و بالرسول محمد (ص) و قد وصفه سبحانه بالمبين لأن رسالته ظاهرة الدلائل، و معجزته أفحمت كل منكر، و المعنى ان عتاة قريش أشركوا باللّه، و أعرضوا عن وصية أبيهم ابراهيم (ع) بالتوحيد، فأمهلهم سبحانه و أنعم عليهم من فضله، و لكن تملّكهم الغرور، و طغوا و بغوا الى ان جاءهم رسول من أنفسهم بكتاب اللّه يدعوهم الى التوحيد ملة أبيهم ابراهم.

وَ لَمّٰا جٰاءَهُمُ الْحَقُّ قٰالُوا هٰذٰا سِحْرٌ وَ إِنّٰا بِهِ كٰافِرُونَ. كفروا بالقرآن و قالوا: سحر مفترى، و كفروا بالرسول و قالوا: يٰا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ لَوْ مٰا تَأْتِينٰا بِالْمَلاٰئِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰادِقِينَ- ٧ الحجر. (و قالوا- أيضا- لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم). محمد فقير ..

و مع هذا يقول: ان اللّه نزّل عليّ قرآنا .. و هذا أعجب العجب! لأن اللّه لا يختار لرسالته إلا العظيم الكبير، و هو في مفهومهم من ملك الجاه و المال مثل

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۵۴۶

الوليد بن المغيرة بمكة، و عروة بن مسعود الثقفي بالطائف، و على أحد هذين يجب أن ينزل القرآن لو كان هناك قرآن. و هكذا نفوا الرسالة عن محمد (ص) لا لشيء إلا لأنه لا يملك مالا و لا عقارا .. و جهلوا ان المال يملكه البر و الفاجر، و المؤمن و الكافر، أما الرسالة فهي وقف على الأكفاء و صفوة الأصفياء. و لا فرق عند اللّه سبحانه بين من نفى النبوة عن

محمد لفقره، و بين من يكرّم و يقدّر الأغنياء لمالهم و ثرائهم، و يزدري المؤمن الفقير لفقره و بؤسه، لا فرق عند اللّه بين هذين إطلاقا، و ان نطق أحدهما بالشهادتين. غاية الأمر ان من قال:

لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه يعامل في الدنيا معاملة المسلم، أما في الآخرة فهو مع الجاحدين و المشركين.

أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ؟. الهمزة للإنكار، و المراد برحمة اللّه هنا النبوة، و المعنى هل أمر النبوة بيد الطغاة المترفين ليختاروا لها من يشاءون و يحرموا منها من يريدون؟ و هل النبي مختار في قرية، أو نائب في برلمان؟. ان النبوة منصب إلهي، و النبي يبلغ عن اللّه سبحانه، فهو لسانه و بيانه، فهل يريد المترفون أن يختاروا للّه من يبلغ عنه و يتكلم باسمه من لا يأتمنه و يرتضيه؟ و هل يجيز المترفون لأحد أن ينوب عنهم، و يتكلم باسمهم دون أن يأذنوا له في ذلك؟ فكيف أجازوا على اللّه ما لا يجيزونه على أنفسهم؟

(نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ. اللّه يرزق من يشاء ما في ذلك ريب، و لكنه شاء أيضا أن لا يرزق إلا بسبب: هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَناكِبِها وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ- ١٥ الملك. و هذه الأسباب أو السعي في الأرض على أنواع، منها الصناعة و الزراعة و التجارة و الاستخدام الذي عبّر عنه سبحانه ب «سخريا» كالذي يستخدم في الدولة أو في المصنع أو عند تاجر أو طبيب و غيرهما من أرباب العمل، و في مفهوم الناس ان رب العمل أرفع من العامل، أما عند اللّه تعالى فالأكرم و الأرفع هو الأتقى: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ- ١٣ الحجرات .. وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ- ١٣٣ آل عمران. و في نهج البلاغة: «جاع رسول اللّه في الدنيا مع خاصته- أي خصوصيته عند ربه- و زويت عنه زخارفها مع عظيم زلفته،

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٥٤٧

فلينظر ناظر بعقله أكرم اللّه محمدا بذلك أم أهانه، فإن قال: أهانه فقد كذب و العظيم، و ان قال: أكرمه فليعلم ان اللّه قد أهان غيره حيث بسط له الدنيا و زواها عن أقرب الناس منه».

و تسأل: و ما ذا تفعل بقوله تعالى: «نحن قسمنا .. و رفعنا» فإنه صريح في ان اللّه هو الذي يفقر و يغني و يجعل هذا عاملا، و ذاك ربا للعمل؟

الجواب: ان قوله هذا حكاية للواقع الذي عليه الناس، و أسنده اليه تعالى لأن التفاوت يرجع الى أسبابه الكونية مباشرة، و إليه تعالى بالواسطة لأنه خالق الكون و موجده، و يدل على إرادة هذا المعنى قوله سبحانه في آخر الآية: **وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ** حيث أسند جمع المال الى الناس لا إليه .. و بهذا يمكن التوفيق بين الآيات الآمرة بالسعي من أجل الرزق، و الآيات التي أسندت الرزق الى اللّه عز و جل .. و أشرنا عند تفسير الآية ٢٧ من سورة الشورى إلى أنه تعالى قد يشمل بعض عباده بالتوفيق و العناية، فيرزقهم من القليل كثيرا.

(و لولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة و معارج عليها يظهرون و لبيوتهم أبوابا و سررا عليها يتكئون و زخرفا.

أي معارج من فضة و أبوابا من فضة و سررا من فضة. و الآية رد على من قال:

ان الفقير لا يصلح للنبوة لأن الفقر منقصة في الخلق، و يتلخص الرد بأن الدنيا لا تعدل عند اللّه جناح بعوضة، و الآخرة خير عند ربك و أبقى، و لكن الناس يؤثرون الدنيا على الآخرة، و يميلون معها انّى اتجهت، و لولا ذلك لأعطى سبحانه

الكافر بيوتا من فضة بسقفها و أبوابها و مصاعدها و أثاثها، و زادهم على ذلك من زخرف الدنيا و زينتها احتقارا لها .. و قال بعض العارفين: مال الناس مع الدنيا، و ما فعل اللّه ذلك، فكيف لو فعل؟ و تدل هذه الآية على ان اللّه يلطف بعباده، و يفعل ما يقربهم من الطاعة، و يبتعد بهم عن المعصية- و على الأقل- لا يفعل ما يغريهم بالمعصية.

وَ إِنْ كُلُّ ذٰلِكَ لَمَّا مَتٰاعُ الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا) أي إن نعيم الدنيا مهما كان نوعه فهو الى زوال لا يستحق العناية و الاهتمام، و قد جاء التعبير عنه في بعض الآيات باللهو و اللعب و الغرور **وَ الْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ** و هم الذين أخلصوا للّه في أقوالهم و أفعالهم.

تفسير الكاشف، ج‌٦، ص ٥٤٨

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٣٦ الى ٤٥]

وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطٰاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَ إِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧) حَتّٰى إِذٰا جٰاءَنٰا قٰالَ يٰا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذٰابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَ مَنْ كٰانَ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ (٤٠)

فَإِمّٰا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنّٰا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنٰاهُمْ فَإِنّٰا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (٤٢) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ (٤٤) وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنٰا أَ جَعَلْنٰا مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥)

اللغة:

و من يعس عن ذكر الرحمن أي من يعرض مثل: وَ مَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذٰاباً صَعَداً- ١٧ الجن. و نقيض ننح و نهيئ. و المراد بذكر الرحمن القرآن و بذكر لك و لقومك الشرف.

الإعراب:

يا ليت بمنزلة الكلمة الواحدة و معناها أتمنى. فبئس القرين المخصوص بالذم محذوف و هو أنت. و المصدر من أنكم في العذاب مشتركون فاعل ينفعكم أي لا

تفسير الكاشف، ج‌٦، ص ٥٤٩

ينفعكم الاشتراك في العذاب أو كونكم مشتركين فيه. فاما نذهبن «إما» كلمتان ان الشرطية و ما الزائدة، و هي هنا بمنزلة لام القسم، و لذا اتصلت نون التوكيد بالمضارع. و اسأل من أرسلنا على حذف مضاف أي اتباع من أرسلنا.

المعنى:

وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطٰاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ. اللّه سبحانه عادل و حكيم لا يسلط الشياطين على عباده ليغريهم بالضلال و المعصية ثم يعاقبهم عليها، كيف و هو القائل: إِنَّ عِبٰادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطٰانٌ إِلاّٰ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغٰاوِينَ- ٤٢ الحجر و القائل: وَ مٰا رَبُّكَ بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِيدِ- ٤٦ فصلت؟ و عليه يكون معنى الآية من ينصرف عن دين اللّه و شريعته الى الشهوات و الملذات يتخلى سبحانه عنه، و يكله إلى نفسه الأمّارة، و إلى شياطين الانس و الجن تفتك به، و تقوده إلى المهالك، و لا يردعه اللّه عن المعصية بالجبر و القهر. و تقدم مثله في الآية ٢٥ من سورة فصلت.

وَ إِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ. الضمير في انهم يعود إلى الشياطين لأن المراد بالشيطان الجنس، و ضمير يصدونهم

يعود إلى أتباع الشياطين، و السبيل هو طريق الهدى و الحق **وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ**. الشياطين يقودون أتباعهم إلى الضلال، و الأتباع يعتقدون انهم على الهدى في الانقياد إلى الشياطين .. و أشقى الناس من سار على طريق الهلاك، و هو يعتقد انه على طريق السلام و الصراط القويم: قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً- ١٠٥ الكهف».

حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ.

في جاءنا و قال ضمير مستتر يعود إلى الذي اتبع الشياطين و المضللين، و في الكلام حذف أي ان التابع يقول غدا للمتبوع: ليتني كنت بعيدا عنك بعد المشرق عن المغرب، فبئس الصاحب كنت لي و الرفيق، و مثله: إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَ رَأَوُا الْعَذابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبابُ- ١٦٦ البقرة. **وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ**. الخطاب في ينفعكم للتابعين، و المعنى قد يهون عذاب الدنيا بعض الشيء على صاحبه إذا رأى غيره يعاني مما

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٥٥٠

يعانيه، أما عذاب الآخرة فهو هو في شدته، سواء أ كان خاصا بالتابعين أم عاما لهم و للمتبوعين، فاشتراك هؤلاء مع أولئك في العذاب لا يخفف منه شيئا، و لا يجدي التابعين نفعا.

أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَ مَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ. لقد ختمت الشهوات على أعينهم و قلوبهم و آذانهم، فكيف يرون الحق و يسمعون كلمته؟

و تقدم مثله في الآية ٤٢ من سورة يونس و ٨٠ من سورة النمل و ٥٢ من سورة الروم **فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْناهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ**. الخطاب لرسول اللّه (ص)، و ضمير منهم و عليهم للمشركين، و المعنى ان اللّه سبحانه لا يدع المشركين على ما هم عليه، فإن انتقل الرسول إلى رحمة ربه قبل أن يسلموا أو يستسلموا انتقم اللّه منهم، و ان بقي الرسول حيا أظهره اللّه عليهم و أخضعهم لأمره مرغمين، وفاء لوعد اللّه تعالى. و هذا ما حدث بالفعل.

فلقد دخل الرسول الأعظم مكة فاتحا و استسلم له عتاتها بعد أن أخرجوه منها خائفا يترقب. و تقدم مثله في الآية ٤٦ من سورة يونس و الآية ٤٠ من سورة الرعد و الآية ٧٧ من سورة غافر.

فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ. اعتصم يا محمد بالقرآن لأنه الحق، و اللّه معك لأنك على صراطه القويم، و هو كافيك المستهزئين و المعاندين **وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ** أي ان القرآن شرف لك و للعرب لأنه رفع من شأنهم و نشر سلطانهم و لغتهم في شرق الأرض و غربها كما ذكرنا عند تفسير الآية ٤ من هذه السورة. و تقدم مثله في الآية ١٠ من سورة الأنبياء **وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ**. أيها العرب عن العمل بالقرآن .. و لا شيء أهون اليوم عليهم منه، و من هنا أصبحوا أكلة سائغة لكل آكل و طامع.

وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَ جَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ.

اسأل يا محمد أهل الأديان و اتباع من سبقك من الرسل: هل سمعوا بنبي من الأنبياء أجاز الشرك، و أباح عبادة الأصنام؟ و إذا كان جميع الرسول دعوا الى التوحيد و نبذ الشرك كما دعا محمد فعلام أيها المشركون تعلنون الحرب عليه و على دعوته؟

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۵۵۱

[سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۴۶ الى ۵۶]

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِ فَقالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ (۴۶) فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ (۴۷) وَ ما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها وَ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۴۸) وَ قالُوا يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ (۴۹) فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ (۵۰)

وَ نادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قالَ يا قَوْمِ أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَ فَلا تُبْصِرُونَ (۵۱) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَ لا يَكادُ يُبِينُ (۵۲) فَلَوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (۵۳) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (۵۴) فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ (۵۵)

فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَ مَثَلاً لِلْآخِرِينَ (۵۶)

اللغة:

بآياتنا بمعجزاتنا التي أظهرناها على يد موسى. و ملئه أشراف قومه. و مهين حقير. و يبين يفصح. و أسورة جمع سوار مثل أحمرة جمع خمار. و مقترنين ملازمين. و آسفونا أغضبونا. و سلفا أي سابقين الى النار. و مثلا عبرة و موعظة.

تفسير الكاشف، ج۶، ص ۵۵۲

الإعراب:

أم أنا بل أنا. فلولا فهلا. و مقترنين حال من الملائكة. و أجمعين تأكيد لضمير أغرقناهم. و للآخرين متعلق ب «مثلا».

المعنى:

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِ فَقالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ. هذه هي المرة السادسة عشرة التي تكررت فيها قصة موسى (ع) ما عدا الآيات التي جاء فيها ذكره. و تكلمنا مفصلا حينا و مجملا حينا آخر عن هذه القصة، و عند تفسير الآية ۹ من سورة طه في المجلد الخامس ذكرنا السبب الموجب لتكرارها، و قال بعض المفسرين: ان اللّه عز و جل أعاد هنا قصة موسى لأن عتاة قريش طعنوا بنبوة محمد (ص) لفقره، فبيّن سبحانه انه قد أرسل موسى الفقير إلى فرعون الغني، و الآيات السابقة تؤيد هذا القول. و مهما يكن فإن معنى الآية التي نحن بصددها واضح، و يتلخص بأن اللّه بعث موسى إلى فرعون و قومه بالمعجزات الدالة على نبوته، كالعصا و اليد البيضاء، فسخروا منه و من دعوته و معجزاته.

وَ ما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها. المراد بالآية هنا العذاب، كما قال سبحانه: فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ وَ الْجَرادَ وَ الْقُمَّلَ وَ الضَّفادِعَ وَ الدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ- ۱۳۳ الأعراف. و معين أكبر هنا أوضح، و أختها أي شريكتها في العذاب **وَ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** عن الضلال إلى الهدى، و عن الفساد في الأرض إلى إصلاحها، و لكن ما أغنت الآيات و النذر عن قوم لا يبصرون إلا منافعهم و مكاسبهم.

وَ قالُوا يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ. في هذه الآية حكى سبحانه ان قوم فرعون خاطبوا موسى بالساحر، و في الآية ۱۳۴ من سورة الأعراف حكى انهم خاطبوه باسمه: وَ لَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قالُوا يا

مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ. و غير بعيد انهم خاطبوه مرة بالاسم،

تفسير الكاشف، ج ۶، ص ۵۵۳

و مرة بكلمة الساحر .. و هذا مألوف في الحوار عند الناس **فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ**. أخذهم اللّه بالسنين، فاستغاثوا بموسى و عاهدوا اللّه أن يتوبوا اليه ان كشف عنهم العذاب، و لكنهم نكثوا و استمروا على الكفر و الضلال بعد أن كشف عنهم الرجز و شملهم برحمته و عنايته.

وَ نادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قالَ يا قَوْمِ أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَ فَلا تُبْصِرُونَ. من تحتي كناية عن تصرفه في الأنهار كما يشاء ..

و قد استدل فرعون على عظمته و علو شأنه بالمال و العقار .. و لا عجب، فهذا هو المنطق السائد عند الأكثرية الغالبية في كل قطر و عصر .. و أصحاب المال في هذا العصر هم الحاكمون بأمرهم في كثير من البلدان **أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَ لا يَكادُ يُبِينُ**. مهين حقير لفقره، و يبين يفصح و يوضح عما يريد.

و قد كان في لسان موسى لثغة فأزالها اللّه سبحانه بدليل قول موسى لربه: وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي و قوله تعالى لموسى: قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى- ٣٦ طه. و فرعون عيّر موسى بما كان، لا بما هو كائن بالفعل.

فَلَوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ أي ملازمين لموسى تماما كما تلازم الرجل العظيم حاشيته. و قال المفسرون: جرت عادة قوم فرعون إذا اختاروا رئيسا لهم ان يسوّروه بسوار من ذهب، و يطوقوه بطوق من ذهب علامة على رياسته، و من أجل هذا قال فرعون: كيف يكون موسى نبيا، و لا سوار في يده، و لا طوق في عنقه، و الذي جرأه على ذلك هو جهل قومه و ضلالهم و ضعف عقولهم كما قال سبحانه: **فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ**. في العام الماضي طلبت عاملا ليصلح خط الكهرباء في مكتبتي، و لما رأى الكتب مبعثرة في كل جزء من الغرفة ذهل و قال: ان زوجتي تكرهني، فأرجوك أن تكتب لها كتاب محبة. فقلت له: أنا جاهل بهذا الفن.

فقال: و لما ذا تقتني هذه الكتب؟

فَلَمَّا آسَفُونا أي أغضبونا بتكذيب الرسول، و نكث العهد و إصرارهم على الكفر و الضلال **انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ** القائد منهم و المقود **فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً** أي متقدمين على غيرهم الى النار **وَ مَثَلاً لِلْآخِرِينَ** عبرة و عظة لمن

تفسير الكاشف، ج ۶، ص ۵۵۴

يأتي بعدهم، و مثله: وَ قَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْناهُمْ وَ جَعَلْناهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً- ٣٧ الفرقان.

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٥٧ الى ٦٦]

وَ لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَ قالُوا أَ آلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَ جَعَلْناهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرائِيلَ (٥٩) وَ لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَ إِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِها وَ اتَّبِعُونِ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١)

وَ لا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٢) وَ لَمَّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٦٥) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ

(٦٦)

اللغة:

يصدون أي يصيحون و يضجون. و خصمون شديدون في الخصومة. و جعلناه مثلا أي آية. و الامتراء الشك.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٥٥٥

الإعراب:

مثلا مفعول ثان لضرب لأن الفعل هنا بمعنى جعل، و هو يعود الى ابن مريم.

و ما ضربوه كلام مستأنف، و «ما» نافية. و جدلا مفعول لأجله. و ان هو «ان» نافية. فلا تمترن النون للتوكيد. و اتبعون أي و اتبعوني و مثله و أطيعون.

و المصدر من أن تأتيهم بدل من الساعة لأن المعنى هل ينظرون إلا إتيان الساعة.

و بغتة صفة لمفعول مطلق محذوف أي اتيانا بغتة أو في مكان الحال أي مباغتة.

المعنى:

وَ لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ وَ قالُوا أَ آلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ؟ الخطاب في قومك لرسول اللّه (ص) و ضرب مبني للمجهول. و قال المفسرون: ان الذي ضرب ابن مريم مثلا هو عبد اللّه بن الزبعرى بكسر الزاي و فتح الباء و الراء، و تشير الآية إلى حادثة خاصة بين النبي (ص) و كفار قريش، و ملخصها انه لما نزل قوله تعالى: إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ- ٩٨ الأنبياء شق ذلك على قريش، فقال ابن الزبعرى قبل أن يسلم، قال للرسول: ان النصارى يعبدون المسيح، فإذا كان المسيح في النار فنحن نرضى أن تكون آلهتنا معه لأنه خير منها، أو هي ليست خيرا منه.

و لما سمع المشركون هذا النقض من ابن الزبعري رفعوا أصواتهم بالضجيج ليسكتوا الرسول عن الجواب و يوهموا الناس انه أعجز و أفحم، و في بعض الروايات ان رسول اللّه (ص) قال ابن الزبعرى: ما أجهلك بلغة قومك؟ أما فهمت ان «ما» لما لا يعقل؟.

ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً. ان نقض المشركين عليك يا محمد بالمسيح ما هو بقصد إحقاق الحق و إظهاره .. كلا، بل للتهرب منه بالكذب و التمويه، و إلا فإنهم على علم اليقين بأن المراد من «و ما تعبدون» أصنامهم بالذات **بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ** يبالغون في اللجاج و الخصومة بالباطل حرصا على أرباحهم و عدوانهم **إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَ جَعَلْناهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرائِيلَ**. ان عيسى

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٥٥٦

عبد من عباد اللّه أنعم اللّه عليه بالنبوة، و خلقه كآدم من غير أب ليكون آية تدل بني إسرائيل على قدرة اللّه و عظمته لعلهم يهتدون و يتقون .. و لكنهم ازدادوا عتوا و طغيانا، و قالوا عن السيد المسيح و أمه ما يهتز له العرش.

(و لو نشاء لجعلنا منكم- أي بدلا منكم- ملائكة في الأرض يخلفون) أي يخلفونكم. هذا تهديد و وعيد للمشركين، و معناه ان اللّه غني عنكم و عن عبادتكم أيها المشركون، و لو شاء أهلككم و جعل مكانكم ملائكة يخلفونكم في الأرض يقدسونه و يسبّحون بحمده و لا يعصون له أمرا. و مثله: وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ- ٣٨

محمد.

وَ إِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِها وَ اتَّبِعُونِ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ. ضمير انه يعود الى القرآن، و المعنى ان القرآن يعلم الناس بيوم القيامة و يخبرهم عن حقيقته، و يحذرهم من أهواله، و لا يجوز الشك فيه .. و «هذا» اشارة الى القرآن أيضا و انه صراط اللّه المستقيم، قال تعالى: إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ- ٩ الإسراء. و الأقوم هو الصراط المستقيم.

و تسأل: كيف يعود الضمير الى القرآن مع العلم بأنه لم يرد له في الآيات ذكر، و الذي ذكر فيها هو عيسى (ع) فينبغي أن يعود الضمير اليه، لا إلى القرآن؟

الجواب: ان موضوع الآيات هو الجدل في عيسى، و الحديث عنه كما وصفه القرآن، لا كما هو في ذاته بصرف النظر عما جاء في كتاب اللّه، و عليه يكون ذكر السيد المسيح ذكرا للقرآن، و يؤيده قوله تعالى في نفس الآية: هذا صراط مستقيم، فإن المراد به القرآن كما أسلفنا. و الغريب ان بعض المفسرين أعادوا الضمير إلى عيسى، و مع هذا فسّروا الصراط المستقيم في الآية بدعوة محمد (ص) و القرآن.

وَ لا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ عن الحق و العمل بالقرآن **إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**، ظاهر العداوة و البغضاء يغريكم بالمنكر و الفحشاء، و مثله: لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ- ٢٧ الأعراف. **وَ لَمَّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللهَ وَ أَطِيعُونِ**.

تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٥٥٧

المراد بالبينات هنا المعجزات الدالة على نبوة عيسى، كشفاء الأكمه و الأبرص، و المراد بالحكمة العلم بدين اللّه و شريعته، و المعنى ان عيسى الذي ثبتت نبوته بالدلائل الواضحة قال لبني إسرائيل: قد جئتكم من عند اللّه بأحكام الدين كلها عقيدة و شريعة، و بها تعرفون المحق من المبطل، فاتقوا اللّه ترشدوا.

و تسأل: لما ذا قال بعض الذين تختلفون فيه و لم يقل كل:

و أجاب جماعة من المفسرين بأن القصد من ذلك ان عيسى (ع) بوصفه نبيا يبين لهم أمور الدين فقط، أما شئون الدنيا فلا تدخل في مهمته. و قد روى علماء السنة في صحاحهم عن النبي (ص) انه قال: «أنتم أعلم بأمور دنياكم، و أنا أعلم بأمور دينكم».

إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ. هذا إشارة الى التوحيد و النهي عن الشرك، و المعنى ظاهر على حد تعبير الرازي **فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ**. المراد بالأحزاب اليهود و النصارى من جهة، و النصارى فيما بينهم من جهة ثانية. قال اليهود:

ان عيسى ابن زنا مخالفين في ذلك جميع النصارى و المسلمين، أما النصارى فقد اختلفوا بعد المسيح و تفرقوا شيعا، فمن قائل: ان عيسى عبد اللّه و رسوله، و قائل: هو ابن اللّه، و قائل: بل هو اللّه بالذات .. تعالى اللّه عما يصفون.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ؟ هذا تهديد و وعيد لمن ألّه عيسى. و تقدم مثله في سورة يوسف الآية ١٠٧.

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٦٧ الى ٨٠]

الْأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا

بِآيٰاتِنا وَ كٰانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَ أَزْوٰاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطٰافُ عَلَيْهِمْ بِصِحٰافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ أَكْوٰابٍ وَ فِيهٰا مٰا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَ أَنْتُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ (٧١)
وَ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهٰا بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهٰا فٰاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهٰا تَأْكُلُونَ (٧٣) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذٰابِ جَهَنَّمَ خٰالِدُونَ (٧٤) لٰا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَ مٰا ظَلَمْنٰاهُمْ وَ لٰكِنْ كٰانُوا هُمُ الظّٰالِمِينَ (٧٦)
وَ نٰادَوْا يٰا مٰالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنٰا رَبُّكَ قٰالَ إِنَّكُمْ مٰاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنٰاكُمْ بِالْحَقِّ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كٰارِهُونَ (٧٨) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنّٰا لٰا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْوٰاهُمْ بَلىٰ وَ رُسُلُنٰا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٥٥٨

اللغة:

مسلمين منقادين للّه. تحبرون تسرون. و صحاف جمع صحفة كجفان جمع جفنة، و هي إناء يؤكل فيه الطعام. و أكواب جمع كوب، و هو كوز أو ما أشبه، و لا أذن له كما قيل. لا يفتر عنهم لا يخفف عنهم. و مبلسون آيسون من النجاة. و مالك خازن النار. و أبرموا أحكموا.

الإعراب:

الأخلاء مبتدأ و بعضهم مبتدأ ثان و عدو خبره، و الجملة خبر الأول، و يومئذ متعلق بعدو. و جملة يا عباد الخ مفعول لقول محذوف، و الأصل يا عبادي و حذفت الياء تخفيفا. و الذين آمنوا بدل من يا عبادي. و فيها ما تشتهيه مبتدأ و خبر. و تلك الجنة مبتدأ و خبر. و هم الظالمين «هم» ضمير فصل لا محل له من الإعراب. أم أبرموا اضراب و مثلها ام يحسبون.

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٥٥٩

المعنى:

الْأَخِلّٰاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ. المراد بالعداء هنا انقطاع الصلة سواء أ كان معه تباغض و تلاعن أم لم يكن، و المعنى ان صلة الحب و الصداقة التي كانت في الدنيا قائمة بين الناس تنقطع يوم القيامة و تزول إلا إذا كان مصدرها الاخوة في اللّه و التعاون على طاعته، فإنها عندئذ تستمر إلى ما لا نهاية بل تنمو و تزداد كلما طال المدى لأن ما كان للّه ينمو .. هذا، إلى ان أهل الجنة أسرة واحدة على اختلاف قومياتهم و بلادهم في الدنيا، قال تعالى: وَ نَزَعْنٰا مٰا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوٰاناً عَلىٰ سُرُرٍ مُتَقٰابِلِينَ- ٤٧ الحجر.
يٰا عِبٰادِ لٰا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَ لٰا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ. هذا أمان اللّه من الحزن و الخوف غدا لمن آمن باللّه و اتقاه **الَّذِينَ آمَنُوا بِآيٰاتِنٰا وَ كٰانُوا مُسْلِمِينَ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَ أَزْوٰاجُكُمْ تُحْبَرُونَ**. هذا بيان و تفسير لعباد اللّه و انهم الذين آمنوا به و انقادوا لطاعته، و ان جزاءهم عنده تعالى أن يدخلهم الجنة مع أزواجهم الصالحات، و معنى تحبرون تسرون أي ان ثوابهم لا يقف عند الأمن و عدم الخوف بل يتعداه إلى النعيم و الحبور، و أيضا **يُطٰافُ عَلَيْهِمْ بِصِحٰافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ أَكْوٰابٍ**. الصحاف للطعام، و الأكواب للشراب **وَ فِيهٰا مٰا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ** من الملذات الروحية و المادية **وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ** من المناظر الجميلة **وَ أَنْتُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ** الى ما لا نهاية **وَ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهٰا بِمٰا كُنْتُمْ**

تَعْمَلُونَ الجنة حق لكم أيها المؤمنون العاملون تماما كالارث من مورثكم لأنكم في الحياة الدنيا عملتم من أجلها **لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْها تَأْكُلُونَ**. طعام و شراب و فاكهة أيضا. و الذي تشتهيه الأنفس لا يبلغه الحصر، لأن شهوة النفس لا ضابط لها، و كذلك لذة العين.

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ.

بعد أن ذكر سبحانه الهادين المهديين ذكر الضالين المضلين، و انهم في عذاب دائم لا أمل لهم في انقطاعه، و لا في تخفيفه بعض الشيء **وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ**. لأنه سبحانه حذرهم و أنذرهم، فأبوا إلا كفورا.

وَ نادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ. استغاثوا بمالك خازن النيران، و طلبوا منه أن يمن اللّه عليهم بالموت ليستريحوا من العذاب. فأجابهم

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٥٦٠

مالك: لا نجاه مما أنتم فيه. هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون.

و تسأل: لقد وصفهم سبحانه في الآية السابقة بأنهم مبلسون أي آيسون حتى من تخفيف العذاب لحظة واحدة فضلا عن انقطاعه، فكيف أخبر عنهم هنا انهم يطلبون الموت ليستريحوا من العذاب؟ ألا يدل هذا الطلب على الرجاء الذي يتنافى مع اليأس؟

الجواب: ان لأهل النار حالات يغلب عليهم اليأس في بعضها، و تلوح لهم بارقة من أمل في بعضها الآخر .. هذا، الى أنه من الجائز أن يكون نداؤهم مالكا لمجرد التعبير عن شدة ما بهم.

لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ. الذين يعرضون عن الحق على نوعين: الأول يعرض عنه لجهله به. و الثاني يعرض عنه لأنه يصادم أهواءهم و أغراضهم. و هذا النوع من الناس هم الأكثرية الغالبية .. و كل من يدخل النار غدا يدخلها لأنه أعرض عن الحق و لم يعمل به، و لكن القليل منهم استحق العذاب لأنه قصّر في طلب العلم بالحق، و الأكثر استحقوا العذاب لأنهم تركوا الحق لتصادمه مع أهوائهم، لا لجهلهم به **أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ**.

ضمير أبرموا يعود إلى المشركين، و المعنى ما دبر المشركون كيدا للنبي إلا أبطل اللّه كيدهم، كما فعل بقريش حين اجتمعت على اغتيال الرسول (ص) و هو نائم في فراشه **أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْواهُمْ بَلى وَ رُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ**.

انهم يدبرون الكيد بالسر، و يعتقدون ان ذلك يخفى عليه تعالى، و لكنه يعلم السر و أخفى، و هو لا يهدي كيد الخائنين.

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٨١ الى ٨٩]

قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ (٨١) سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣) وَ هُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَ فِي الْأَرْضِ إِلهٌ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَ تَبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥)

وَ لا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَ قِيلِهِ يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩)

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٥٦١

اللغة:

يؤفكون يصرفون عن الحق. و قيله و قوله بمعنى واحد.

الإعراب:

هو مبتدأ و الذي خبر و في السماء متعلق بإله لأنه بمعنى معبود، و إله خبر لمبتدأ محذوف أي هو إله في السماء. و قيله على حذف مضاف عطفا على و عنده علم الساعة أي و عنده علم قيله أيضا.

المعنى:

قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ. ذكر صاحب مجمع البيان لهذه الآية خمسة معان، و أطال الكلام من غير موجب، لأن المعنى واضح، و هو قل يا محمد لمن يدعي بأن للّه ولدا: أنا معك شريطة أن تثبت ذلك بالدليل القاطع .. و لكن لا دليل على هذا الزعم، بل قام الدليل على عكسه و فساده، لذا أنا من الموحدين المؤمنين بأن اللّه لم يلد و لم يولد .. و اختصارا ان الرسول الأعظم (ص) علق اعترافه بعبادة اللّه الذي يلد، علقه على محال، و ليس من

تفسير الكاشف، ج٦، ص ٥٦٢

شك ان وجود المعلق على محال محال مثله .. و هذا أسلوب معروف بين العلماء في الجدل و النقاش، و هو أبلغ في افحام الخصم.

سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ من نسبة الولد و الشريك اليه تعالى **فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ**.

ذرهم تهديد و وعيد، و المراد بالخوض و اللعب هنا القول في اللّه بغير علم، و يومهم هو يوم القيامة **وَ هُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَ فِي الْأَرْضِ إِلهٌ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ**. اللّه وحده خالق الكون بأرضه و سمائه، و مدبره بعلمه و حكمته، و لا أحد سواه يستحق العبادة.

وَ تَبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ. قوله تعالى: **وَ ما بَيْنَهُما** يومئ الى ان في الفضاء كائنات لا نعلم حقيقتها، و الساعة يوم القيامة، و لا أحد يعلم متى تقوم الا اللّه **وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** للحساب و الجزاء **وَ لا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ**.

أنهم يعبدون الأصنام لأنها تشفع لهم عند اللّه بزعمهم. فقال سبحانه: كلا، لا يشفع عنده إلا من نطق بكلمة التوحيد، و آمن بها عن علم، و كان المشفوع له أهلا للشفاعة و العفو عنه.

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ. هم يعترفون باللّه و انه هو الذي خلقهم و مع ذلك ينصرفون عن عبادته الى عبادة الأصنام. و تقدم مثله في الآية ٩ من هذه السورة **وَ قِيلِهِ يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**. ضمير قيله يعود الى الرسول (ص)، و هو على حذف مضاف عطفا على علم الساعة أي و عنده علم قول الرسول، و المعنى ان الرسول قال لربه: ان الذين بعثتني اليهم لم يستجيبوا لي. فقال له سبحانه:

لا تحتفل بإعراضهم فإن العاقبة لك عليهم. و المراد بالسلام هنا هو المراد بالسلام في قوله تعالى: وَ إِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً- ٦٣ الفرقان.

كتبت القسم الأخير من هذا المجلد في العشرة الأولى من شهر المحرم سنة ١٣٩٠ هـ بفندق كربلاء المقدسة في جوار

سيد الشهداء سبط الرسول الأعظم صلى اللّه عليه و آله و سلم.